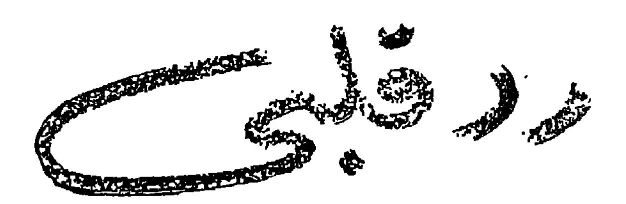

يوسف السباعى
رد قلبي
الجزء الثانى





الجزء الثاني

(٣٦)

مغامرة ..

وصل « على » إلى محطة سيدى جابر وصعد بحقيبته الصغيرة التى وضع فيها البيجامة ، وعدة الحلاقة ، وفرشة الأسنان و « الشبشب » فوق الكوبرى الموصل بن الرصيفين .. مندساً بين جمهرة الركاب ، وكان عليه أن يتجه فى أول الأمر إلى نادى الضباط بالسلسلة حيث يستقر فى إحدى حجراته ويزيل عنه غبار السفر ثم يحاول الاتصال ب « أنجى » تليفونياً .

و لم يكن هناك مفر من السؤال عن السلسلة وعن مكان النادى ، وأحس بمشقة فى السؤال ، والخجل من أن يبدو للناس جاهلا بمكانه وهو يرتدى الحلة العسكرية .. ولكنه لم يكد يجتاز باب المحطة حتى سمع صوتاً يهتف به فى دهشة وترحاب :

ـــ على عبد الوحد .. ماذا أحضرك هنا ؟

وتلفت ليجد « عبد العال » أحد زملاء الدفعة الذى التحق بإحدى وحدات المدفعية بالإسكندرية وقد هبط من إحدى العربات « البيك » مقبلا عليه فى شوق شديد وشدّ « على » على يده محيياً وأجابه :

ـــ حضرت لإنجاز بعض الأعمال .

ـــ الميرى ؟

ـــ لا .. عمل خصوصى .

وكيف الحال ؟! لقد أوحشتنا جداً .. إنها مفاجأة لطيفة .. لقد كنت أنتظر اليوزباشى محمود خليل قائد ثانى البطارية ولكنه لم يأت .. إلى أين أنت ذاهب ؟

ـــ إلى النادى .. أتعرف أين هو ؟

ـــ أعرف أين هو ؟ .. إن بطاريتنا بجواره أيها الجاهل .. هيا بنا احملك إلى هناك .

واتخذ « على » مكانه بجواره وانطلق السائق فى طريقه إلى النادى ، وتساءل عبد العال :

ـــ ماذا ستفعل فى النادى ؟

ـــ أغتسل وآكل لقمة ، وأضرب تليفوناً ، وأستريح برهة ثم أخرج .

ـــ ولِمَ النادى ؟! كل هذه الأشياء يمكن أن تفعلها عندى فى ميس البطارية .. سآخذك معى .. لا داعى للنادى مطلقاً .

وأحس « على » بنوع من الفرج ، فقد كان يشعر من النزول فى النادى برهبته لكل جديد ، ولكنه خشى أن يثقل على صاحبه ، فقال :

ـــ لا أريد أن أضايقك .

ـــ تضايقنى ؟! أهذا كلام يقال بين الدفعة ؟! أأضايقك أنا إذا نزلت عندك فى ميس السوارى ؟

وضحك « على » وأجاب :

ـــ بالطبع لا .

ـــ إذاًفلماذا تضايقنى أنت .. سأطعمك طعاماً لم تذق مثله فى حياتك .. إن طباخ الميس قد أعد لنا أكلة سمك هائلة .. وسأجعلك تغتسل وتتكلم فى تليفون البطارية كما تشاء .. ثم أحملك بعد ذلك بالعربة إلى حيث تريد .. ما رأيك ؟

ـــ لا أظننى أريد أكثر من هذا .

ووصلت العربة إلى البطارية واجتازت البوابة القائمة فى سور السلك الشائك المحيط بمجموعة الخيام والمدفع ، ووقفت أمام كوخ من الخشب والصاج قد دهن خارجه بالجير ، ودعا عبد العال علياً للدخول .

وكان الكوخ منقسما إلى قسمين : قسم رصت به بعض الكراسى الأسيوطى

والقش وطقطوقة صغيرة . والقسم الآخر قد توسطته منضدة نظمت عليها أداوت الطعام ، وبدا به باب صغير يفضي إلى المطبخ ودورة المياه الملحقة بالكوخ ، وكان المكان مع رخص أثاثه نظيفاً مرتباً ، وكانت ريح البحر تنفذ من نوافذه رطبة منعشة ، وجلس الصاحبان على الكراسى الأسيوطى ، وصاح عبد العال منادياً :

ـ بللافستا .

وأجاب من المطبخ صوت يجيب صائحاً كأنه جرسون فى مقهى بلدى :

ـ أفندم .

وتساءل « على » فى دهشة :

ـ ماذا ناديت ؟

ـ بللافستا .

ـ ومن يكون ؟

ـ طباخ الميس .. اسمه محمود بللافستا .. لأنه يزعم أنه كان قبل دخوله العسكرية طباخاً فى البللافستا .. مع أنى واثق أن أقصى ما عمل فيه هو « غرزة فى عشش الترجمان » .

وأقبل الطباخ .. أسمر الوجه ، لطيف الملامح ، باسم الثغر ، خفيف الدم . وصاح عبد العال :

ـ عندنا ضيف يا محمود .. حضرة الضابط « على افندى » من السوارى .. وهو يزعم أن أكل السوارى أفضل من أكل المدفعية .. وأريد أن أثبت له العكس .

وانحنى العسكرى على أذن عبد العال يهمس بها :

ـ من الخير أن يظل على زعمه .. لأنه ليس عندنا طعام ألبتة .

ـ كيف ؟

ـ لقد تناول زكى أفندى طعامك بعد أن انتظر حضورك مدة ، وظنك لن

تأتى .

ــ ولماذا لم يتناول طعامه هو ؟

ــ تناوله .

ــ وتناول طعامى أيضاً ؟

ــ أجل .

ــ إذاً أعد لنا طعام حضرة اليوزباشى . إنه لن يأتى .

ــ لقد تناوله أيضاً . لقد تناول كل ما عندنا .

ــ يا ساتر يا رب . إذاً اقل لنا بيضاً وافتح علبة سردين على قطعة جبن . أعد لنا « تحبيشة » على مزاجك .

واستدار بللافستا بحركة مسرحية وانطلق إلى المطبخ .

وقال عبد العال :

ــ أظنك تستطيع أن تغتسل وتتحدث فى التليفون حتى يعد لنا الطعام .. هيا بنا .

ونهض الاثنان وأشار عبد العال من النافذة قائلا :

ــ هذا هو النادى .. وتلك هى رياسة اللواء .

واغتسل « على » ، وأشار عبد العال إلى منضدة خشبية صغيرة وضعت عليها آلة تليفون عتيقة ، قائلا :

ــ أية نمرة تريد ؟

ــ لست أعرف النمرة بالضبط ، . إنى أريد فندق سان استفانو .

ــ سان استفانو مرة واحدة ؟ من تريد أن تكلم ؟

وبدا التردد على وجه « على » .. أيمكن أن يقول له من يريد أن يكلم ؟! بل أمعقول أن يتكلم أمامه ؟! وبعد تردد قصير أجاب :

ــ سأبلغ رسالة لأحد نزلائه .

وضحك عبد العال ، وقال :

ـــ أيها الخبيث .. لا بد أن يكون فى المسألة حريم ، سأعود إليك بعد أن أعطى الأوامر للباشجاويش .

وغادر عبد العال الميس وجلس « على » برهة متردداً أمام آلة التليفون ، وبدا له الأمر معقداً شاقاً .

وأخيراً رفع السماعة ، وبعد برهة أجابه صوت عسكرى التليفون :

ـــ افندم .

ـــ أعطنى لو كاندة سان استفانو .

ـــ من حضرتك ؟

ـــ الملازم ثانى على عبد الواحد .

ـــ دقيقة واحدة ، ضع السماعة حتى أطلب حضرتك .

وبعد لحظة دق الجرس ورفع « على » السماعة وسمع صوت العسكرى يقول :

ـــ مع حضرتك اللوكاندة يا فندم ،

وتساءل على :

ـــ آلو .. سان استفانو ؟

ـــ نعم .. من تريد ؟

وأحس «على» برهبة شديدة ، وهمّ بأن يضع السماعة ، ولكنه ألقى ر، كأنه يغامر بإلقاء قنبلة ثم يقف لتنفجر فيه:

ـــ من فضلك أعطنى جناح الأمير إسماعيل .

ـــ انتظر على السماعة .

ومضت لحظة كان « على» يكاد يسمع خلالها دقات قلبه وهمّ بضع مرات أن يضع السماعة ويعدو هارباً من الميس .. كان يخشى أن يجيب عليه الأمير .. ولم يدرك أنه ـــ حتى مع هذا الفرض ـــ يمكنه أن يضع السماعة مكانها دون أن ينطق بكلمة فينتهى الأمر بمنتهى البساطة .. بل كان يتخيل أن الأمير لا يكاد يرفع

السماعة حتى يراه ، ويمسك بخناقه .

وطالت فترة الانتظار .. وأحس بأن يده تصلبت على السماعة .. وأن السماعة قد جمدت على أذنه .. وأخيراً سمع صوتاً يأتى إليه نائياً بعيداً من خلال التحويلتين .. وكان صوتاً نسائياً .. غير مميز .

وأحس « على » ببعض الطمأنينة ، وزال عنه الكثير من الرهبة وهو يسمع فى الصوت النعومة النسائية .. ولكن طمأنينته لم تكن كاملة .. فقد كان لا يستطيع أن يميز صاحبة الصوت .

وضغط « على » السماعة على أذنه محاولا تمييزه وهو يقول :

— آلو مين يا فندم ؟

وزادت دقات قلبه .. حتى بدا كأنه يوشك أن ينطلق من بين الضلوع .. كان القلب أكثر تمييزاً وأشد إدراكا .. ومع ذلك لم يشأ المغامرة بالإفصاح .. ووجد من الخير أن يتخذ خطوة احتياطية أخرى .. فتساءل :

— من أنت ؟

وأتاه الصوت وقد بدت به رنة ضيق وغضب :

— أنت الذى طلبت النمرة .. فقل من أنت ومن تريد ؟

وخشى « على » أن يدفعها الغضب إلى أن تضع السماعة وتقطع الخط فأجاب متسائلا :

— أنجى ؟

ومضت فترة صمت لم يسمع خلالها رداً ، وخشى أن يكون قد أخطأ صاحبة الحديث .. ولكنه ما لبث أن سمع الرد يأتى حاراً ناعماً رقيقاً متهدجاً مليئاً بالشوق واللهفة والفرحة :

— على ؟

وأحس « على » من قولها بنشوة عجيبة ، وعاد يردد بلا وعى :

— أنجى ؟.

وعاد الصوت يجيبه كالمأخوذ المشدوه :

ــ على ؟

ــ كيف حالك يا أنجى ؟! لقد أوحشتنى جداً .

ــ وأنت كذلك .. إنى أكاد أجن شوقاً إلى رؤيتك .. متى حضرت ؟! .. ومن أين تتكلم ؟ .

ــ أتيت الآن .. وأتكلم من ميس البطارية المجاور لنادى الضباط فى السلسلة .

ــ وماذا ستفعل ؟

ــ سأتناول الغداء مع صديق لى .

ــ ومتى سأراك ؟

ــ متى شئت .

ــ اسمع يا على .. إننا مدعوون إلى الشاى فى اسبورتنج ولن نطيل المكث هناك إذ لا بد أن يعود إبى إلى القاهرة فى قطار السادسة والنصف .. وسأوصله إلى المحطة وأعود إلى الفندق حوالى السابعة .

وأحس « على » بشىء من الضيق .. إنه يود لو استطاع أن يطير إليها .. فكيف يستطيع الصبر حتى السابعة ؟

وأردفت « أنجى » تقول :

ــ ما رأيك ؟! .. أأستطيع أن أراك وقتذاك ؟

ــ أين ؟

ــ فى الفندق .

ــ فى أى مكان ؟

ــ سأنتظرك بجوار ملعب الاسكيتنج .

ــ أين يكون ؟

ــ أتعرف الفناء المجاور للبحر ؟

وضحك « على » وأجاب :

— إنى لا أعرف أين يكون الفندق .

— إنك لن تجد مشقة فى الوصول إليه .. وستجد ملعب الأسكيتنج على يمين الساحة مواجهاً لباب السينما ويمكننا أن ندخل السينما ونجلس فيها كما نشاء .. إن العرض مستمر والدخول مباح فى كل وقت ، وهى تكاد تكون خالية .. سأنتظرك فى السابعة .. إياك أن تتأخر ؟

— سآتى قبل ذلك .

— سأتركك الآن لأنى أبصر علاء مقبلا .. إلى اللقاء .

— إلى اللقاء .

ووضع السماعة وهو يود ألا يضعها أبداً .. ولكن كان له فى اللقاء المرتقب عزاء عن الصوت الذاهب .

وقبيل السابعة كان « على » يهبط من ترام الرمل فى محطة « سان استفانو » ويتجه إلى الفندق فى حلته الجبردين وجسده الفارع ، وصدره البارز ، وخصره الذى شده الحزام الجلدى .. ولم يجد المشقة التى كان يتخيلها فى الوصول إلى الساحة بعد أن اخترق حديقة الفندق .. وعبر الممر الموصل إلى البهو الفاخر الكبير الذى صفت فيه المناضد وسرت فى أرجائه أنغام الموسيقى تعزفها الأوركسترا التى تعلو منصة فى أحد أركانه .

وحاول « على » جهده أن يطرد الرهبة التى أحسها من فخامة البناء وأناقة الأثاث وأرستقراطية روّاده .. وأن يستشعر بعض الثقة بقدره .. ولكنه بدا لنفسه إنساناً غريباً متضائلا .. وكأنه وهو سائر ليس هو .

وكانت الساحة المشرفة على البحر والتى يفصلها عن الكورنيش سور حديدى أجرد من الزرع ، قد غصت بالسائرين يتمشون بغير هدف .. لا يرجون أكثر من مشاهدتهم للناس أو مشاهدة الناس لهم ، فهم ما بين عارض ومتفرج ، أو كلاهما فى آن واحد .. ولمح « على » كثيراً من وجوه الساسة

وكبار القوم التى لم يرها من قبل إلا على صفحات الصحف .. وأحس من رؤيتها بازدياد رهبته للمكان .. إذ لم يكن يتخيل فى يوم أن يضمه وهؤلاء المشاهير مكان واحد .. وأن يراهم رأى العين يسيرون بجواره .. بلا مواكب ولا مظاهرات ، وأن يستطيع أن يتحدث إليهم ، أو على الأقل يسمع صوتهم .

واتجه إلى ملعب الانزلاق ، وكان يضج بالصراخ ويعج بالحركة . وقد اندفع الصبيان والبنات على قباقيبهن ذوات العجل صائحين مهللين وكأن بهم مساً من جنون ، ونظر حول المكان باحثاً عن « أنجى » فلم يبد لها أثر ، ونظر إلى الساعة فوجدها لم تصل إلى السابعة ، فاتخذ لنفسه ركناً يستطيع أن يرقب منه المكان جيداً ، ووجه شعاع بصره إلى المدخل الذى أقبل منه حتى يبصرها بمجرد أن تدخل .

وظل بصره معلقاً بالمدخل لا يكاد ينقله برهة ليفحص ملعب الانزلاق أو روّاد الساحة حتى يعيده إلى المدخل ثانية . ولم تستطع الوجوه الجميلة على كثرتها وقربها منه أن تثير اهتمامه ، فقد كان يبدو فى وقفته كأنه أحد القناصة يرقب ببندقيته هدفاً معيناً ، فهو لا يستطيع تحويل مراقبته إلى سواه خشية أن يفلت منه .

وقبل أن يظهر الهدف سمع صوتاً ناعماً يهتف .

— هس .. ما لك سرحان هكذا .. إلى أين تنظر ؟

والتفت إلى مصدر الصوت فإذا ب « أنجى » تقف بجانبه ، وقد ارتدت ثوبا سماوياً ، مفتوح الياقة ، قصير الأكمام ، وفى قدميها حذاء أبيض دقيق ، ذو كعب عال ، وقد جدلت ضفائرها وعقصتها فى شكل هالة حول رأسها .

وبدت « أنجى » بكعبها العالى ، وثوبها الطويل وشعرها المقوص ، وصدرها الواضح البروز ، وردفها البادى الامتلاء أسفل خصرها الضيق .. بدت فى هيئتها تلك أكثر أنوثة ونضجاً من مجرد صبية مدرسة ، وإن كان وجهها ما زال كما هو ببراءته وطهارته ونبل تقاطيعه وسمو ملامحه .

وشدّ كل منهما على يد الآخر فى شوق ولهفة .. وقد افتر ثغراهما عن ابتسامة

حملت فى إشراقها أصدق آيات السعادة وأبلغ دلائل الفرحة والهناء .

وأجاب « على » بقوله :

ــ كنت أرقب مطلعك ، لأنى ظننتك ستأتين من هذا المدخل .

ــ أجعلتك تنتظر كثيراً ؟

ــ عشر دقائق فقط ، لقد كنت هنا من السابعة إلا ثلثاً .

ــ لو عرفت هذا لعجلت بالحضور .

وألقت نظرة على مدخل السينما المواجه لهم وأردفت قائلة :

ــ إن السينما لم تبدأ بعد .. ما زالت الساعة السابعة إلا عشراً ، ولا أظنها تبدأ قبل السابعة والربع أو السابعة والنصف حتى تكون الظلمة قد خيمت تماماً .

وتلفتت « أنجى » حولها وهزت رأسها مجيبة على تحية فتاة قد مرّت بها ، وبدت عليها مظاهر القلق ، وأحس « على » أن ذهنها قد شرد ، وبدا له أن استمرار وقفتها تلك قد تسبب لها بعض الحرج وأنه لا بد أن يفعل شيئاً .

وتساءل على :

ــ أتحبين أن نجلس فى مكان ما ؟

وعادت « أنجى » تتلفت حولها فى قلق ، ثم قالت وقد صوّبت نظرها إلى ناحية معينة فى الساحة :

ــ لم أكن أتوقع وجودا أبناء البرنس كمال هنا . إنى ألمح « سهيلة » هناك ، ولو رأتنى لتحتم علىّ أن أذهب للبقاء معها .

ــ أندخل السينما ؟

ــ إن السينما ما زالت مضيئة .

ــ ادخلى أنت ثم ألحق بك بعد فترة عندما يطفأ النور ويبدأ الفيلم .

ــ أخشى أن تأتى « سهيلة » إلى السينما .

ومضت برهة بدا عليها الاستغراق فى التفكير .. ثم رفعت رأسها فجأة ، وكأنما مرّ بذهنها خاطر وجدت فيه الخلاص من المأزق ، وهتفت :

ـــ اسمع يا على .. لدىّ اقتراح فيه بعض المغامرة .. ولكن ليس أمامنا غيره .

ـــ ما هو ؟

ـــ إن العربة المرسيدس الصغيرة موجودة فى الحديقة ولدىّ مفتاحها فقد تركه لى السائق قبل أن يذهب . ما رأيك فى أن نأخذها ونتنزه بها فى طريق أبى قير ؟

وفوجىء « على » بفكرتها وأحس بخطورة العرض ومتعته فى وقت واحد .

أية فرصة عجيبة تلك التى يمنحها له القدر ! يخرج وإياها فى عربه وحيدين ليتنزها فى طريق خال ؟! ولكن ألا يحتمل أن يراهما أحد ؟ ألا يحتمل .. ؟

ولكن ما هذا السخف ! أتغامر هى بعرض هذه الفكرة ثم يحاول هو مناقشتها والخوف منها .. ليخرج معها .. وليحدث ما يحدث .

ولكنه لا يعرف قيادة السيارة ، وقد تكون هى معتمدة عليه فى قيادتها .. و لم يجد بداً من سؤالها :

ـــ أتجيدين قيادتها ؟

وضحكت قائلة :

ـــ لا تخش شيئاً .. سأمشى بها على الرصيف .

ـــ لم أكن أعرف أنك تعلمت القيادة .

ـــ لقد تعلمت فى العام الماضى .. وسبق لى أن « سقتها » كثيراً . لا تخف .. إذا متنا فسنموت سوياً .. سأسبقك لإخراجها وأرجو أن تنتظرنى قرب الباب الخارجى .. على ناصية الشارع المؤدى إلى البحر ..

وخرجت « أنجى » وتبعها « على » بعد برهة قصيرة . ووقف ينتظر على ناصية الفندق ، و لم يطل به الانتظار حتى لمحها مقبلة فى عربة سوداء ووقفت بجواره حتى ركب ثم انطلقت العربة .

ومضت فترة قبل أن ينطق أحدهما بكلمة .. كان كلاهما يحس برهبة المغامرة ، وكانت « أنجى » تحدق أمامها من خلال الزجاج وقد أمسكت عجلة القيادة وبدا عليها شرود شديد .. إنها لا تعرف كيف أقدمت على هذا العمل .

(٣٧)

لطمة موجة

استمرت العربة سائرة فى طريق النخيل .. وكانت الظلمة قد بدأت تخيم ، والشفق الأحمر يتوارى مخلفاً بقايا داكنة ، أشبه بالرماد .

وخيمت فترة صمت على العاشقين ، وكانت العربة قد جاوزت المنعطف المؤدى إلى محطة سيدى بشر واستمرت فى طريقها إلى أبى قير حتى بلغت تقاطع الطريق الآتى من المنتزه ، ونظرت « أنجى » إلى ساعتها قائلة :

ــ لقد وصلنا سريعاً .. ما زالت الساعة السابعة وخمس دقائق .. أتحب أن نعود من طريق المنتزه .

وأزعجت فكرة العودة « علياً » إذ لم يكن قد مضى على انطلاقهما بالعربة أكثر من عشر دقائق ضاع نصفها فى الرهبة الأولى والخوف من أعين الناس .

وأجاب على نظراتها المتسائلة وقد تمهلت بالعربة كأنما تهم بالدوران :

ــ ألا نتوقف قليلا ؟

ــ هنا ؟

ــ ولِمَ لا ؟

ــ إن الظلمة قد أوشكت على السقوط ، والانتظار فى مثل هذا المكان الخالى غير مأمون العواقب .

ــ من أى ناحية ؟

ــ إنى أخاف ليل المزارع ، والطريق مظلم ، والمكان مهجور .

ــ اتخافين على نفسك وأنا معك ؟

ــ إنى أخاف على نفسى ، وعليك أكثر من نفسى .

— إذاً لنقف برهة حتى يدلهم الليل .. إننا لم نتحدث بعد ، ووحشتى إليك أشد من أن تطفئها هذه الهنيهات الخاطفة .

ووقفت العربة ، وبدت على « أنجى » مظاهر القلق والتفكير ولكنها ما لبثت أن التفتت إليه قائلة :

— اسمع يا على .. إن لدىّ فكرة أفضل كثيراً من هذه الوقفة على قارعة الطريق .

— ما هى ؟

— أن نذهب إلى كابيننا فى المعمورة .

— وأين هى هذه المعمورة ؟

— فى الطريق إلى أبى قير .. إنها لا تبعد عن هنا أكثر من خمس دقائق ، والكابينة تقع على ربوة عالية مطلة على البحر .. ما رأيك ؟

— أهذه مسألة تحتاج إلى رأى ومشاورة ؟! كان يجب أن تتجهى إليها مباشرة .. لماذا لم تفكرى فيها من أول الأمر ؟

— خشيت التأخير ووجود الحارس ، لكنى تذكرت الآن أنه يبيت ليلة الجمعة فى بيته وأن لدىّ مفتاحاً آخر للكابينة مع مفتاح العربة ، وأظننا لو مكثنا هناك نصف ساعة مضافاً إليها ربع ساعة مسافة الطريق لا ستطعنا العودة قبل الثامنة .. هيا بنا .

وأدارت العربة وانطلقت فى طريقها إلى المعمورة ، ولم يطل بهما السير فى الطريق الرئيسى بين المزارع حتى دلفا يساراً فى طريق فرعى قامت عليه بضعة بيوت حمر منحدرة السقف ومالبثا حتى انحرفا مرة أخرى إلى اليسار فى درب رملى يصعد بين الربا العالية التى تحجب البحر عن الطريق والتى قامت فوق إحداها كابينة مستطيلة مبنية بالحجارة البيضاء ذات سقف خشبى مائل .

ووقفت العربة بجوار الكابينة وهبط منها الصاحبان ، ووقفا برهة يرقبان البحر وقد انبسط أسفل الربوة على امتداد البصر بزرقته الداكنة فى ضوء الأصيل الباهت

الخليط من ذيول النهار وطلائع الليل ، وأمواجه المتلاحقة على الشاطىء ، المنبسطة بعد طول اصطخاب ، الهادئة بعد طول هياج ، المنحسرة عن بقايا الزبد وحشائش البحر .

واتجهت « أنجى » إلى شرفة الكابينة قائلة :

ـــ هيا نخرج مقعدين من الداخل لنجلس فى الشرفة .

وملأ « على » صدره بنسيم البحر وأحس بنشوة عجيبة تتدفق فى جوانحه وهتف « بأنجى » ضاحكاً :

ـــ نجلس !! أيجلس أحد فى هذا المراح الطلق .. قولى نعدو .. ننطلق .. نطير .. نسبح .

وتوقفت « أنجى » ونظرت إليه وهزت رأسها باسمة وأجابت :

ـــ ننطلق .. ونطير ؟ .. بسيطة .. انتظر لحظة .. حتى أبحث لك عن أجنحة فى الداخل .

ودفعت باب الكابينة ودلفت إلى الداخل .. وانبعث صوتها يصيح ضاحكاً :

ـــ لا يوجد هنا أجنحة .. توجد مايوهات فقط .

وصاح « على » من الخارج مجيباً .

ـــ إذاً نسبح .

وأطلت « أنجى » برأسها من الباب وتساءلت باسمة :

ـــ أتتكلم جاداً ؟! أتريد حقاً أن نسبح ؟

ـــ إى والله .. ولِمَ لا ؟!

وأحس بنشوة شديدة وهو يتخيل نفسه وإياها فى هذا الليل الساجى .. والفراغ الهائل .. ينطلقان فوق الرمال وينغمران بين الأمواج .. ولكنه ما لبث أن أردف قائلا فى شىء من الخذلان :

ـــ ولكن ليس لدّى مايوه !

ـــ لا يهم .. يمكنك أن تستعمل أحد مايوهات علاء .

وصمتت برهة وبدا عليها التردد وهى تردف قائلة :

ــ ولكن أخشى أن نتأخر ؟

ــ لن نتأخر إذا أسرعت بارتداء ما يوهك و لم تضيعى الوقت .

ــ سأخرج إليك حالا .

وأغلقت الباب ، وأخذت فى إبدال ثيابها .

ما هذا الجنون الذى توشك أن تفعله !! بل أى شيطان دفعها إلى المغامرة بالحضور إلى هنا فى هذا الوقت ؟! .. وماذا يمكن أن يقول أبوها أو أخوها .. أو أى إنسان عاقل .. لو اكتشف ما فعلت وما توشك أن تفعل !.. بل ماذا يقول « على » نفسه وهو يراها تخرج إليه مجرّدة من ثيابها لتعدو معه فى الليل على الرمال وتسبح معه بين الأمواج ؟! .. لا .. لا .. يجب أن تكون أعقل من ذلك .. يجب ألا تندفع بمثل هذا الاستسلام مع رغباتها الحمقاء .. يجب أن تتمسك بأهداب الحياء والروية .. فتلك هى طبيعتها الأصيلة .. وخلقها الطبيعى القويم .. كفى ما فعلته من الحمق بالحضور بالعربة إلى هنا .. ولا ضرورة للاندفاع فى الحمق حتى النهاية .. أجل .. أجل .. يجب أن تتوقف عن هذا الجنون .

مع ذلك فقد استمرت فى إبدال ثيابها .. ووقفت ترقب نفسها فى المرآة وقد شدّ المايوه الصوفى الأزرق جسدها الذى لوّحته الشمس .. وأظهر استدارة ساقيها واعتدال قدّها واتساق أعضائها .. وتوقف تأنيبها لنفسها .. أمام ذلك الإحساس بالرضا عن جمالها والثقة بنفسها .. وطغت رغبتها فى الاستحواذ على إعجاب « على » على كل رغبة أخرى .

وانطلق ذهنها يبرر كل ما سمّته لنفسها جنوناً وحمقاً .. أى عيب فى أن يراها بالمايوه ويسبح معها !! ألم تسبح من قبل مع أخيها وأصدقائه السخفاء التافهين !؟ .. أليس هو أقرب إليها منهم جميعاً ؟!

وأى عبث هناك فى أن تختلس من الزمن برهة ممتعة .. تروى نفسها من طول الحرمان وتتزود منها لفرقة محتملة .

لا .. لا .. يجب ألا تفسد متعتها المخطوفة المختلسة .. بهذه الوساوس والمخاوف واللوم والتأنيب .

ليس فى فعلها إثم ولا جرم .. لقد عزم كلاهما على أن يكون للآخر .. وصمما على تخطى كل عقبة وإزالة كل سد .. فليس هناك ما يمنع إذاً من أن يهنآ بلقاء جميل .. ويمتعا بلحظات مرحة سعيدة .

وكان « على » يجلس فى الخارج على حافة الشرفة .. وقد أخذ ينقل البصر بين النجمة الوحيدة وقوس القمر اللذين سبقا بقية النجوم إلى أديم السماء الرمادى الذى لم تنسلخ عنه حواشى النهار ، و لم تطبق عليه جحافل الليل فتبرز بقية نجومه المتناثرة كحبات الرمل .

وطاف بذهن « على » نفس ما طاف بذهن « أنجى » .. من إحساس بالحمق والجنون .. واللوم على ما فعل وما يوشك أن يفعل .. والخجل من أن يراها مجرّدة إلا من المايوه وهو الذى كان لا يجسر على أن يوجه بصره إلى ذراعها أو ساقها .

وانتهت موجه التأنيب لتعقبها موجة تبرير .

أى حرج عليه فى أن ينعم بلقائها بعد هذه الغيبة الطويلة ؟! وأى حرج فى أن ينطلقا فى هذا المراح الهائل بين الماء والسماء ؟! أى حرج فى أن يراها بالمايوه وهو يشعر أنها قد أضحت ملكه وحده لا شريك له فيها ؟

وفتح باب الكابينة وبدا هيكلها فى الضوء الباهت ممشوقاً رائعاً وارتسمت على ثغرها ابتسامتها المشرقة يعلوها كثير من حياء .. وما لبثت أن اندفعت تعدو منحدرة على الربوة تجاه البحر وهى تصيح :

ـــ سأنتظرك على الشاطئ .. لا تتأخر .

ووثب هو إلى الداخل وهو يجيبها :

ـــ سألحق بك حالا .

وبعد دقائق كان ينطلق فى إثرها وقد ارتدى « مايوه » من الصوف وجده ملقى على أحد المقاعد .. و لم يكد يصل إليها حتى اندفع الاثنان فى جنون إلى

البحر وقد أمسك كل منهما بيد الآخر وهما يقهقهان فى نشوة .

وانغمرا فى الماء .. وصاحت « أنجى » فرحة :

ـــ إن الماء لذيذ دافىء .. لقد كنت أخشى أن يكون بارداً .. هذه المرة الأولى أن أسبح ليلا .

ـــ احذرى الموجة .

وقفزت « أنجى » إلى أعلى قائلة :

ـــ سأركبها قبل أن تركبنى .

ـــ هيا بنا نسبح قليلا إلى الداخل .

ـــ لست أريد أن يبتل شعرى .

ـــ إذاً سأسبح أنا .

ـــ لا .. لا .. لا تبتعد عنى .. دعنى أمسكْ بذراعك .. إنى أخاف لون المياه الداكن ، ويخّيل إلّى أن به حيوانات مخيفة ستعضنى .

ومدت يدها فتعلقت بذراعه ، وسرى بينهما ما يشبه التيار الكهربىّ أصاب كل منهما برجفة ، وأقبلت عليهما موجة لطمتهما بشدة ، فصرخت « أنجى » وهى تزداد تعلقاً به ، وأحس « على » بجسدها يلتصق بجسده فى المياه الصاخبة والزبد المتطاير ، ومس وجهها صدره ، ومس أنفه شعرها ، وانحسرت الموجة فعاد جسداهما إلى التباعد وإن استمرت أصابعهما متشابكة متعانقة .

وسألت « أنجى » ضاحكة :

ـــ أيرضيك هذا الجنون ؟

ـــ جداً .. نحن مجانين ، والبحر مجنون ، وكل ما حولنا جنون فى جنون .

وأقبلت موجة أخرى أعلى من الأولى وأشد عنفاً .. وقبل أن يتنبها إليها لطمتهما لطمة ألقت بهما على الشاطئ .

وانحسرت الموجة وخلفتهما على الرمال وقد علاهما الزبد وعلقت بهما الحشائش .

ورقد « على » بجوار « أنجى » ، وقد انبطح على وجهه يعبث بسبابته فى الرمال ، واستلقت هى على ظهرها محدقة فى النجوم المتناثرة ، وقد فكت جدائلها وتهدلت على الرمال ، وبدت قطرات الماء تلمع على وجهها الدقيق التقاطيع ، وأخذ صدرها يعلو ويهبط فى هدوء رتيب .

وقالت « أنجى » فيما يشبه الهمس :

ـــ عجيبة هذه الدنيا .. وعجيب ذلك التناقض فى الصور التى نراها بها فى كل ساعة ، بل فى كل لحظة ، وأعجب من هذا وذاك ، ذلك العجز الذى يصيبنا فيجعلنا لا نرى ما بها من جمال إلا بعين أخرى تشارك عيوننا ، وإحساس آخر يعاون إحساسنا .. هذه السماء الجميلة ، وهذا البحر الرائع ، بل كل مظاهر الطبيعة الأخرى .. لم يعد لى إحساس بما فيها من جمال إلا عن طريقك .. ليست لها قيمة إلا وهى مقرونة بك .. أو بذكراك .

وانتقلت أصابع « على » من العبث فى الرمال إلى العبث بجدائلها .

وأخذ يلف طرفها على سبابته ، ثم يتخلل شعيراتها بأصبعه وقرّب منها أنفه يشمها فى شوق وحنين وهمس مجيباً :

ـــ أنا أيضاً لم أعد أبصر الدنيا إلا من خلالك .. من خلال صورتك فى ذهنى ، وهمساتك فى أذنى ، ومن رسائلك أمام عينى . لو قلت لك ما فعلته بى رسالتك لما صدقتنى ، لقد حببت إلىّ ما كنت أراه ثقيلا بغيضاً ، وجعلتنى أجلس على حوض « السقية » وكأنى على غدير فى الفردوس ، وأسمع فى صهيل الخيل أعذب الموسيقى وأجمل الأنغام .

ـــ كان يجب علىّ أن أكتب إليك قبل هذا . كان يجب على كلينا ألا نقبع ننتظر منح الأقدار وكرم الصدف ، ما دمنا قد عزمنا على ألا نفترق فيجب علينا أن نقاوم كل وسائل الفرقة .

ـــ لن يفرقنا بعد الآن شىء .

وسرى أنفه من جدائلها إلى سوالفها ومست شفتاه — على غير قصد — أذنها ، فأصابتها من المسة رجفة سرت أوصالها ، ومدت يدها تتحسس رأسه ، وأخذت أصابعها تعبث فى شعره ثم مالت برأسها ناحيته ، فمست شفتاها كتفه ثم تسللتا إلى عنقه وظلتا تتحركان ببطء إلى أعلى حتى وصلتا إلى ذقنه ، ومسَّ أنفها شفتيه .

ومضت فترة وشفتاه على أنفها ، يحركهما على طاقتيه الضيقتين وعلى أرنبته الرفيعة فى أناة ورفق ، هذا الأنف الذى طالما رمقه فى وجد واشتياق وتمنى لو استطاع أن يمسه بطرف أنامله قد بات طوع شفتيه .

وأحس بالأنف ينساب إلى أعلى وبشفتيه تنزلقان إلى أسفل ثم تستقران على موضع أكثر انطباقاً وأفضل ملاءمة وأشد حرارة .

وساد سكون وران صمت ، والشفاه مطبقة ، والأنفاس متوقفة ، كأن الكون كله قد كتم أنفاسه ، ووقف يرقب وينتظر خشية أن تبدو منه حركة تزعج الشفاه الملتصقة .

ورويداً رويداً زاد ضغط الشفاه المتماسة وانفرجت حتى تماست الأسنان ، وامتد ذراعا « أنجى » ليطوّقا الصدر العريض ويضما الرأس المبتل المنحنى على رأسها .

وافترقت الشفاه بعد لقاء حار طويل ، وبدت الأنفاس متلاحقة والصدو صاعدة هابطة كأن أصحابها فى سباق .

وفتحت « أنجى » عينيها ورمقها « على » هامساً :

— أنجى ؟

— على ؟

— أتحبيننى ؟

— ....

— قولى يا أنجى .. أتحبيننى ؟

— سل عينيّ ، ألا تجد منهما جواباً ؟ ألا ترى فهما شيئاً ؟

— بل أرى كل شيء .. ولكن وددت لو سمعت من شفتيك .

— أحبك .. أحبك بكل نفس يتردد فى جوانحى .. وكل عرق ينبض فى قلبى .. أحبك بأكثر مما تعنيه كلمة أحبك .. أحبك .. أحبك .. ولو استطعت لما نطقت فى حياتى بكلمة سواها .. أحبك .. أحب ....

وقطعت الكلمة شفتاه المنطبقتان على شفتيها ، الهامستين فى إطباقهما للكلمة الذائبة : « أحبك ..أحبك » .

وافترقت الشفاه ثانية تستجديان من أصحابها فترة راحة ، ونظرت « أنجى » إلى القمر المطل والنجوم الرانية وهتفت :

— لقد تأخرنا يا على .. لا بد أن نعود الآن .

— ما زال الوقت مبكراً .

— بل سرقنا الوقت .. هيا بنا . إنى أحس برجفة برد .

ونهضت « أنجى » وانطلقت تعدو تصعد الربوة ، و « على » فى أعقابها ، واختفت داخل الكابينة ، وقبل أن تغلق الباب وراءها مدت يدها إليه بمنشفة قائلة :

— جفف جسدك حتى لا تبرد .. لقد بدأت رطوبة الليل .

وتناول « على » المنشفة وأخذ يجفف بها صدره وأطرافه ، ولم يطل غياب « أنجى » فى الداخل حتى بدت على الباب وقد ربطت شعرها بإيشارب حريرى دون أن تضع على وجهها أى نوع من الأصباغ وقد أمسكت بالساعة فى يدها وهتفت بعلى :

— تصوّر لقد بلغت الساعة الثامنة والنصف . هيا بنا بسرعة لقد تأخرت .

ودلف « على » إلى الداخل قائلا :

— حالا .. دقيقة واحدة .

وبعد بضع دقائق كانت العربة تتلمس طريقها بأضواء المصابيح فى الظلمة

الشاملة ، وسرعان ما وصلت إلى الطريق الرئيسى واندفعت تنهب الأرض فى طريقها إلى الفندق .

وخيم الصمت خلال العودة على العاشقين ... وانطلق ذهناهما فى دوّامة الأفكار المحتشدة التى كان ولا بد أن تعقب فترة الاندفاع الجنونى التى مرت بهما بلا تفكير .

لم يكن « على » يتصوّر وهو فى طريقه إلى الإسكندرية أنه يمكن فى هذه الفترة القصيرة أن يقطع معها كل هذه المرحلة الشاسعة ، لم يطف بذهنه قط أنه سيحتضنها وسيقبلها وهما بثياب البحر .. لم يكن يرجو هذا ولا يأمل فيه ولا حتى يحلم به ، بل لم يكن يجرؤ على التفكير فيه ، ولو جرؤ لنهى نفسه عنه وطرد شبحه عن ذهنه ، كما نطرد عن أذهاننا أى تفكير فى منكر أو خطيئة .

ومع ذلك فقد حدث على أبسط صورة وأيسر وجه ، حدث بلا جهد ولا مقدمات ، وكأنه شىء طبيعى كان يجب أن يحدث ، وهو لا يشعر من حدوثه بحرج ولا ندم ، بل يحس بمزيد من لهفة ومزيد من حنين وشوق .

ولم تكن هى أقل منه إحساساً ، بالنشوة والحنين ، بل كانت تشعر بفرط تقاربهما وتوثق عرى الروابط التى تصل أحدهما بالآخر .

ولم يفكر كلاهما فى قرب الفرقة ، ولم يضق بها ، فقد أضحى الإحساس بالتقارب أقوى من الإحساس بالفرقة ، بل لم يعد أحد منهما يشعر أنه يمكن أن تكون بعد ما حدث فرقة .

وافترقا قرب الفندق بعد الاتفاق على لقاء الغد ، وعاد « على » إلى صاحبه بميس البطارية ، وعادت هى إلى الفندق ، وبنفسيهما نشوة الثمالى وطرب السكارى .

ووصل « على » إلى ثكنات البطارية وعبر البوابة مجيباً على تحية جندى القره قول ، واتجه إلى كشك « الميس » فوجده خالياً إلا من أحد الجنود السفرجية ، وسأل عن « عبد العال » فعلم أنه ينتظره فى النادى .

وأصلح « على » من هندامه ، واتجه إلى النادى ، و لم يكن يبعد عن البطارية إلا بضع خطوات ، وعبر الحديقة الصغيرة أمام واجهه النادى المشرفة على البحر ، وأحس بالرهبة وهو يجتاز الباب المفضى إلى البهو الرحب الذى علقت فى صدره صورة كبيرة تمثل « الملك » فى طابور التتويج وقد امتطى حصانة وسار وراءه رجال الياوران ورئيس هيئة أركان حرب بجيادهم . وكانت رهبة « على » وارتباكه ناتجة عن ازدحام البهو بخليط من كبار الضباط ومختلف الرتب الأخرى الذين لا يعرف معظمهم ، وهمّ بالانسحاب لولا أن رآه « عبد العال » وكان يجلس بجوار الراديو فنادى :

— على

واتجه « على » إليه وقد أحس بنوع من الطمأنينة وهو يرى بجواره بعض معارفه من ضباط الدفعة والضباط الآخرين الذين حضرهم فى المدرسة .

وتلقاه الزملاء فى ترحاب وشوق وأفسحوا له مكاناً بجوارهم .

وجرى الحديث مختلطاً متنافراً ، أسئلة من هنا وأجوبة من هناك ، وأسئلة بلا أجوبة ، وأجوبة بلا أسئلة ، وثرثرة وإشاعات ، ومناقشات على غير موضوع ، أو على موضوع ليس عليه خلاف ، وبالتالى ليس هناك وجه للمناقشة فيه ، وأحاديث عن القشلاقات والمدافع ، وعن النوبتجية .

و لم يستطع « على » أن يركز ذهنه فى هذا الخلط المشوش ، وجذبه أقرب صوت محبب إلى مسامعه وهو صوت « عبد الوهاب » يترنم فى الراديو بقصيدة « أعجبت بى » و لم تكد تنتهى القصيدة ، حتى جذبه « عبد العال » من يده قائلا :

— قم نتعش .

وعلى مائدة العشاء جرى الحديث فى السياسة . وأخذ « على » يتناول طعامه وهو منصت برغمه إلى المناقشات الدائرة .. مشترك من آن الآخر بكلمة أو كلمتين حتى لا يتهمه « عبد العال » كما اتهمه وهم جالسون أمام الراديو ..

بالعشق والسرحان .

قال عبد العال :

— إن الوزارة تلفظ آخر أنفاسها .

وأجاب اليوزباشي محفوظ أركان حرب اللواء :

— هذه نتيجة محتومة لسياسة الاستثناءات ومنظمات القمصان الزرق التي انتشرت فى أنحاء البلاد .

ورد « كمال » أحد ضباط المشاة :

— على أية حال لا بد للوفد من هذه الاستثناءات لكى يسترضى أنصاره .. ولا بد له من تلك المنظمات الشعبية حتى يؤمن نفسه ضد عصف الطغيان به وبالبلد وهو خارج الحكم .

وأجاب عبد العال :

— هذه سياسة خاطئة .. إن كل موظف يرضيه من أنصاره يغضب به آلافاً من غير أنصاره .. ليس أغضب للموظفين من هذه الاستثناءات الصارخة .. ومنظمات القمصان الزرق ليست منظمات شعبية .. إن الشعب شديد السخط عليها .

— على أية حال هذه الاستثناءات طبيعية لكل الوزارات الحزبية .. وإن كانت تبدو فى الوفد على نطاق واسع فلأن نفوذه أقوى وأنصاره أكثر .. ولست أظن هذا هو السبب فى ذلك التداعى الذى تراه فى الوزارة .

— ما السبب إذاً ؟

— إن المعول الأول الذى تسبب فى صدع بنيانها هو خروج ماهر والنقراشى .

— ولكنهما خرجا بسبب هذه الاستثناءات ؟

— من يدرى ؟

— ماذا تعنى بقولك « من يدرى » ؟! وهو سبب جلى واضح ؟

— إن هناك أسباباً أخرى .. هناك مناورات خفية للإيقاع بالوفد تنسج

خيوطها فى القصر .. فالقصر يخشى قوة الوفد ويخشى تضخم القمصان الزرق .

— القصر ليس له شأن بالوفد ولا بغيره . إن « الملك » فوق الجميع .. وهو بعيد عن المناورات السياسية .

— لست أقصد « الملك » بل أقصد رئيس الدايوان .. إن « على ماهر » ليس بالرجل السهل .. إن كل المراسيم المرسلة من الوزارة إلى القصر معطلة وسترى أن الوزارة ستسقط صريعة فى القريب العاجل .. على يد رئيس الديوان ، وسيكون هو إن شاء الله وريثها الشرعى فى الحكم .

— وكيف يحكم ؟ وإلى من يستند ؟

— يستند إلى الفريق الآخر .. الفريق المعارض .. يؤلف منه (تيما) يساند بعضه البعض .. ويطعمه بالفريق المنشق من الوفد .. فريق النقراشى وماهر .. أعرفت لِمَ خرجا على الوفد ؟! إنها مؤامرة ماهرية .

— كلام فارغ .. أنت حسن الظن جداً بعلى ماهر .. إن خروج أحمد ماهر والنقراشى ليس له أية صلة بعلى ماهر .. إن الوفد يقتل نفسه بنفسه .. إن سوس الفساد ينخر فى عظامه ، وقد بدأ يفقد سيطرته الشعبية . ألا تسمع الهتافات فى مظاهرات الجامعة ، إنها كلها مضادة للوفد هاتفة بسقوطه ، لقد كان الوفد قوياً كحزب مجاهد مناضل ، أما الآن فقد فقد سلطانه على الجماهير ، بعد أن انتقل من الأرصفة إلى الأرائك وبعد أن ترك النضال لينعم بمغانمه ويتقاسم أسلابه .

وصمت عبد العال ، ثم انطلق من شفتيه السؤال الذى كان « على » يتوقعه بين آونة وأخرى وكان يجاهد فى تركيز ذهنه وتتبع الحديث حتى لا يؤخذ به على غرّة :

— ما رأيك أنت يا « على » ؟

— رأيى أن الوفد .. ككل حاكم يفقد سلطانه الشعبى بمجرد أن يعتلى الحكم .. إن بغض الناس للحاكم أمر طبيعى . وصدق قول الشاعر :

إن نصف النــاس أعــداء لمن   ولِىَ الحكـم ، وهـذا إن عــدل

هذا هو السبب الأول فى زلزلة الثقة بالوفد . فلو أن الوفد قد عدل فى حكمه ، لفقد حب نصف الناس ، وإن هو لم يعدل ، فقد أضاع الحب كله .. على أية حال لا بد له أن يرتمى مرة أخرى على الأرصفة ويدعو الناس معه إلى الجهاد .. حتى يستعيد ما فقد .

---

(٣٨)

قلبان فى قلب !

عاد « على » إلى القاهرة بعد لقاء آخر « لأنجى » فى الفندق ما بين القاعة والساحة وملعب الانزالاق والسينما ، وكشفت اللقاء « سهيلة » وبعض صديقات « أنجى » ، وأصابها القلق فى أول الأمر ، ولكنها ما لبثت أن قذفت الأمر كله وراء كتفيها عازمة على ألا تعبأ بأحد أو تخشى أحداً .

وتحقق قول سليمان الذى ودّع به « علياً » فى المحطة عند ذهابه إلى الإسكندرية ، ووجد « على » نفسه قد نقل إلى الآلاى الأول سيارات خفيفة ، كما نقل إلى الآلاى الأول دبابات خفيفة ، وهما الآلايان الميكانيكيان الجديدان اللذان أنشئا فى السوارى واللذان كانا بداية تكوين جيش جديد غير هذا الجيش الهيكلى الذى كان لا يستعمل إلا فى الموالد والجنازات .

وضاق « على » بالنقل فى أول الأمر فقد أحب الخيالة ، أحبها نحيلها واسطبلاتها وجنودها وعلائقها وسبلتها ، أحبها بكل عظمتها الظاهرة للناس فى الطوابير ، وبكل قذارتها الخافية عن أعينهم فى الاسطبلات .. أحب عملها الكثير المرهق ، وواجباتها التى لا تنتهى .. أحب صوت الحديد فى أكياس التبن وهو يهز — أو على تعبير السوارى — « يهرش » .. وأحب الجلد الغريق فى الدبن والصابون .. وأحب السروج اللامعة .. والركابات البرّاقة .. أحب طرقات المهاميز ، وانطلاق الخيول من الاسطبلات تعيث فى القشلاق فساداً .

ولكنه مع ذلك لم يملك إلا الانضواء تحت آلايه الجديد واستبدال « الأفر أول » البنى بينطلون الركوب والحذاء الطويل والنزول أسفل العربات بالصعود على ظهور الخيل ، والبنزين والزيت والشحم بالتبن والنخالة .

وأحس فى عمله الجديد روحاً جديدة .. روحاً ناهضة وثابة .. وتحقق ما قاله له سليمان من أن البعثة العسكرية البريطانية تعمل جادة فى التدريب والتسليح.. فقد عقدت الفرق المختلفة للتدريب على استعمال المدافع الخفيفة ، وعلى قيادة السيارات والصيانة ، وتسلم آلاى الدبابات أول فوج من الدبابات الخفيفة التى كانت على ضآلة حجمها تشيع بين جدران السوارى إحساساً بالفخر والقوة فى كل غدوة لها وروحة .

وتحققت نبوءة « عبد العال » السياسية وتزلزل عرش الوفد ، وأقيل من الحكم إقالة أحاط بها نوبة رضاء شعبى لم يعهدها الوفد من قبل فى حياته السياسية ، ولكن الدور لم يكن قد حل على « على ماهر » لوراثة الحكم .. فاستمر فى رياسة الديوان يمسك فى الخفاء بخيوط رفيعة قلقة .. وتولى الحكم « محمد محمود » رئيس الأحرار مستنداً إلى برلمان تعاونت فيه الأحزاب المعارضة للوفد .

وسمحت الفرصة لعلى بالسفر فى هذا الصيف مرة أخرى ، فقد طلب « الملك » مشاهدة مدفع خفيف وصل أخيراً إلى السوارى وكلف « على » بحمله إلى الإسكندرية ليعرض على « الملك » فى قصر رأس التين .

وكانت المهمة ثقيلة رهيبة .. فقد كانت المرة الأولى أن يدخل قصراً ملكياً .. وهو يرهب كل جديد .. فما بالك إذا كان هذا الجديد قصراً ملكياً !

ومع ذلك فقد هانت مشقتها لأنها أتاحت له فرصة السفر إلى الإسكندرية .. ولقاء « أنجى » .. ووصل إلى الإسكندرية قبيل العصر واتجه إلى القصر رأساً ومعه الجندى الذى يحمل المدفع .

وقاده الحرس إلى حجرة الياور النوبتجى فحياه فى ترحيب رقيق وسأله أن ينتظر حتى يرفع الأمر للمسامع الملكية .

وبعد برهة قصيرة طلب منه ان يتبعه بالمدفع .. وسار « على » وراء الياور يخوض فى ممرات طويلة وأبهاء رحبة متسعة ..ة و لم يحاول أن يعى الطريق .. ولم يستطع ذهنه أن يلتقط تفاصيل ما حوله .. فقد أصيب من فخامة نقوشها وأبهة

أثاثها .. بما يشبه الذهول .

وأخيراً وصل إلى حجرة متوسطة الحجم عارية الجدران قد خلت إلا من بضعة مقاعد وأريكة ومكتب وبعض أسلحة وآلات ميكانيكية .. ووسط الحجرة وجد شخصاً عارياً إلا من البنطلون وقد بدا جسده ضخماً أبيض غزير شعر الصدر مائلا إلى السمنة .

وذهل « على » فقد كان الواقف أمامه هو « الملك » نفسه .

و لم يكن « على » يتصوّر قط أن يراه وجهاً لوجه .. فقد كان كل ما يتوقعه أن يسلم المدفع لأحد الأمناء أو التشريفاتية أو أى إنسان آخر ، ويتولى هو توصيله إلى « الملك ».ولو أنه قد تخيل لقاء « الملك » لما خطرت له مثل هذه الصورة العجيبة ، فقد كان لا يمكنه أن يتخيل « الملك » إلا مشدوداً بالكسوة المزركشة ، متمنطقاً بالسيف ، محاطاً بهالة من الفخامة والأبهة .. وحشد من رجال الياوران والأمراء والكبراء والوزراء كما تعوّد أن يرى موكبه فى صور الاحتفالات والاستقبالات .

أما أن يقف هكذا أمامه عارياً فى هذه الحجرة البسيطة المجرّدة فذلك ما لم يخطر له ببال .. وما لا يستطيع تصديقه رغم رؤيته رأى العين .

ورحب به « الملك » بصوت جهورى ، وأقبل على المدفع يفحصه فحص عارف خبير ، ثم طلب منه أن يتركه ويتفضل ، وأمر الياور النوبتجى أن يعد له غداء إذ لم يكن قد تناول الغداء ، وأن يعد له مكاناً للمبيت معه إذا أراد المبيت .

وغلب رضاه بتلطف « الملك » وترحيبه به وحسن لقائه له .. دهشته الأولى التى أثارها وقوف « الملك » عارياً بصدره المكتنز وشعره الكثيف ، وبعثه الرضا عليه أن يرد عمله هذا إلى البساطة والديمقراطية بدلا من الشذوذ .. وكانت حصيلة مشاعره نحو « الملك » فى هذا اللقاء .. هو الإعجاب والتقدير .

وعاد « على » إلى القاهرة بعد أن اختطف لقاءين مع « أنجى » أحدهما فى سينما الفندق ليلا ، والآخر فى الكابينة نهاراً .. رشف فيهما من كؤوس الحب ما أطفأ

به ظمأه ، وأشبع نهمه .

وقص « على » على سليمان مارآه من « الملك » فأدهشه ما سمع ، ولم يقر فى نفسه ذلك العرى الذى ظهر به ، ولكن عين الرضا — الكليلة عن كل عيب — أرجعته — كما أرجعه على إلى البساطة والديمقراطية وإن كانت أقوال الرواة بعد ذلك قد أخذت تكرر من حوادثه ما أكد حمقه وشذوذه .

وكانت أولى الروايات هى مارواه أحد زملائهم ؛ وكان أبوه يشغل منصباً كبيرا فى وزارة المالية عن حادثة سمعها من وزير المالية وقتذاك وهو أحمد ماهر .

روى الزميل أنه حدث فى إحدى اجتماعات اللجنة المالية التى يترأسها الوزير أن دق التليفون ، ورد الوزير وتحدث برهة وقد بدت عليه أقصى مظاهر الاهتمام ، ولم يكد ينتهى من المحادثة حتى نهض من مقعدة قائلا لأعضاء اللجنة :

— عن إذنكم يا جماعة .. سأضطر إلى مغادرتكم لأن « الملك » قد استدعانى لمقابلته حالا .. لا بد أن المسألة خطيرة .. أرجوكم .. استمروا فى الاجتماع حتى أعود إليكم .

واندفعت اللجنة تتساءل عن الأمر الخطير الذى استدعى « الملك » من أجله وزير المالية ، وأخذت التكهنات تتناقل ، وجزم الكل بأن الوزارة استقالت ، وأنه سيكلف بتشكيلها من السعديين وحدهم .

وأخذ الأعضاء يتساءلون عن مصير البرلمان ، وهل سيعطى الدستوريون ثقتهم للرئيس السعدى أم أن للسعديين أغلبية تكفل لوزارتهم الاستقرار ، أم أن هناك بعض عناصر أخرى مرجحة ستنضم للسعديين .

واستمرت التكهنات حتى أقبل وزير المالية وقد علت ثغره ابتسامة مرحة .

وتساءل الأعضاء :

— خيراً .

— لا شيء .. مسألة بسيطة .

وسأل أحد الأعضاء :

— استقالت الوزارة ؟

— استقالت .. لمه ؟

— ظننا من هذا الطلب المفاجىء أنك قد استدعيت لتشكيل وزارة جديدة !

وقهقه وزير المالية وأجاب :

— لا .. لا .. المسألة أبسط من هذا كثيراً .

— ماذا حدث إذاً ؟

— لقد ذهبت إلى القصر ، وفى لحظة وصولى مثلت أمام « الملك » . فوجدته واقفاً فى إحدى قاعات القصر لا يرتدى سوى البنطلون وقد بدا هائجاً ثائراً .. و لم يكد يرانى حتى اندفع ينزع الأبسطة المفروشة فى الأرض ويمزقها شر ممزق صائحاً : « أهذه السجاجيد الممزقة البالية يصح أن تكون بالقصر الملكى ؟! لقد أحضرتك حتى ترى بعينيك وحتى لا تعود بعد ذلك إلى تخفيض اعتمادات القصر . انظر بنفسك . ألست وزيراً للمالية ؟ » .. و لم أملك سوى الأسف والاعتذار والانسحاب .

وأكد لعلى وسليمان هذا الاندفاع والحمق الرواية الأخرى التى كانت تتناقلها الألسن عن « الملك » عندما ربط محطة سكة حديد القبة فى إحدى العربات ثم ساق العربة ونزعها من مكانها .

ومع ذلك فلم تزعزع هذه الروايات من مكانة « الملك » فى نفسيهما .. كانا يريان فيها — إذا صدقت — نوعاً من اندفاع الشباب وقوته .

وانقضى الصيف . وعادت « أنجى » من الإسكندرية . وأقبل الشتاء و لم يعدما اللقاء بين حين وآخر بفضل إصرارهما عليه ومغامرتهما به .

انهمك على وسليمان مع آلاياتهما خلال الشتاء فى الاستعداد للتدريب المشترك ، وانتهى تدريب الجماعة والبلوك والأورطة فى الأراضى الواقعة حول طريق السويس .. وأجريت عدة مشروعات تكتيكية على تختة الرمل بوساطة البكباشى الإنجليزى مستشار البعثة ، وكان الرجل بادى الإخلاص والاجتهاد .

وفى فبراير بدأ التدريب المشترك فى وادى النطرون ، وتحركت الدبابات والسيارات إلى المعسكر الذى أعد لها قرب استراحة شل ، وانتهت المناورة وعاد « على » بعرياته مرة أخرى إلى كوبرى القبة ، وما لبث قليلا حتى تحرك بيلوكه فى رحلة استكشافية فى الصحراء الغربية ، مصطحباً إحدى بلوكات الجيش البريطانى ليختبر مدى قدرة العربات الخفيفة والمدرعة على السير فى صحارى مصر .

وحل صيف ١٩٣٨ وتخرج حسين من مدرسة البولـيس وعين فى الإسكندرية . واستطاع « على » الحصول على أول إجازة له وكانت « أنجى » قد رحلت إلى الإسكندرية فرحل « على » ليقضى إجازته هناك ، ونزل مع أخيه فى حجرة فى أحد البنسيونات .

واستمتع على و « أنجى » فى ذلك الصيف بأسعد أيام حياتهما ، إذ لم يكن يمضى يوم دون أن يلتقيا فيه ، إما صباحاً فى جوف البحر على متن الأمواج وعلى الصخور ، وإما ليلا فى « سان استفانو » حيث استطاع أخوه بقدرته كضابط بوليس أن يحضر له بطاقة دائمة للدخول ، وبطاقة أخرى لركوب ترام الرمل .

وانقضى الصيف حاملا أطيب ذكريات الحياة .. وأجمل أيامها .. وأقبل شتاء جديد .

وزادت رغبة اللقاء بين « أنجى » و « على » بعد أن عوّدهما الصيف على اللقاء اليومى ، وجعلت كليهما يحس بضياع اليوم الذى لا يلتقيان فيه من عمرهما سدى .. وبدأ التحايل على اللقاء والمغامرة به يشغل كل تفكيرهما ويحتل كل وقتهما ، واتخذا من دور السينما والكازينوهات الخلوية فى المعادى والهرم ومصر الجديدة أمكنة للقائهما المختلس .

وأحس « سليمان » بفرط انشغال « على » أن يبدو منه ما يشعر الرؤساء بالتقصير ، وأن تسوء سمعته التى أجهد نفسه خلال العامين الماضيين فى بنائها .

وفى ليلة من ليالى الشتاء جلسا فى بهو الميس أمام المدفأة عقب انتهاء « على » من

حديث تليفونى طويل وكان يبدو عليه الشرود وهو يحملق فى المدفأة ، فسأله سليمان قائلا :

— ماذا بك يا « على » ؟

وعاد « على » من شروده قائلا :

— لا شيء .

— مع من كنت تتكلم ؟

— مع أنجى » .

— يجب أن تخفف علاقتك بها .. إنها تشغل كل وقتك . ولست أدرى ما نهاية كل ذلك .. ليس هناك علاقة يمكن إخفاؤها إلى الأبد .. فماذا تتوقع أن تكون النتيجة ؟ هل تنوى أن تتزوجها ؟! وإذا نويت ، فهل تظن أن ذلك فى الإمكان ؟

وخيمت سحابة همّ على وجه « على » وأغرق فى الصمت ، وعاد « سليمان » يسأل :

— لماذا لا تجيب ؟

— وبماذا أجيب ؟ أنت نفسك تعرف أن هذه أسئلة لا يمكن الإجابة عليها .. هذه أشياء ننغمر فيها بلا تفكير فى نتيجة ولا نملك أن ننتزع أنفسنا منها مهما كانت النتيجة التى يمكن أن نصل إليها .

— لا يا « على » هذه أشياء تحتاج فى مقاومتها إلى إرادة قوية .

— مقاومة ماذا ؟! مقاومة حبى لها .. وحبها لى ؟! لماذا أقاوم حقى فى الحياة ؟! أليس لى الحق فى أن أحب وأحب .

— هذه شيء قد طال يا « على » .. منذ أن كنا فى المدرسة وأنت تغرق فيه .. أنا أعرف الكثيرين قد أحبوا وسلوا ، وأحبوا وسلوا .. ولكنى لم أر مثلك أبداً فى التعلق بهذا الحب الذى لا يمكن أن أرى له نهاية سليمة .. هل تعتقد أن الأمير سيقبل زواجك منها ؟! أم لا تزال تنوى أن تتزوجها رغم أنفه ؟ تخطفها مثلا !!

أم تراك تنوى أن تظل هكذا طيلة حياتك عاشقاً لها .

ـــ أنا نفسى لا أعرف يا « سليمان » .. ولقد مللت من فرط التفكير فى هذا .. وانتهى بى الأمر إلى أن أسلم لنفسى بالعجز عن الوصول إلى نتيجة وإلى الاستسلام لحبها دون التفكير فى عواقبه أو نتائجه ...

ـــ إذاً على الأقل لا تدعه يفسد عليك عملك ويسىء سمعتك .

ـــ ولكننى لم أقصر فى أية ناحية من نواحى العمل .

ـــ إنك تكثر من الاستئذان من طابور بعد الظهر .. وتكثر من تبديل النوبتجية .

ـــ لم يحدث ذلك إلا مرة أو مرتين .

ـــ وماذا تريد أن يحدث أكثر من ذلك .. أنا على أية حال لم أسمع من أحد شكوى منك .. ولكننى أخشى فقط أن يشتم منك التقصير ، أو الإهمال .

ـــ إنى أحاول جهدى ألا أدع شيئاً من الخارج يفسد علىّ عملى .. أياً كان .

ومضت فترة صمت تشاغل فيها سليمان بإدارة الراديو وانبعث منه أغنية الجندول وقد أخذ عبد الوهاب يردد : « أنا من ضيّع فى الأوهام عمره » !

وضحك سليمان قائلا :

ـــ أسمعت الفال ؟! ماذا يقول لك ؟

وأجاب « على » ضاحكا فى شىء من المرارة :

ـــ ليست الأوهام تستمر حتى آخر الحياة . ليتنى حقاً أضيع فيها عمرى . أهناك أعذب وأجمل من أوهامنا يا « سليمان » ؟

وقذف « على » بكتلة خشب فى جوف المدفأة واستغرق فى التفكير برهة ، ثم رفع رأسه فجأة كمن نوى أمراً كان يتردد فى الإقدام عليه وقال متسائلا :

ـــ سليمان .. أمعك نقود ؟

وبدت الدهشة على « سليمان » وأجاب مردداً :

ـــ نقود !!

— أجل .

— فى حدود كم ؟

— خمسة جنيهات .

وزادت دهشة « سليمان » وهتف متعجباً :

— خمسة جنيهات !! ولماذا تريدها ؟!

— أريد قرضاً سأردّه لك أول الشهر .

— ولكن لماذا تريده ؟

وأطرق « على » وقال فى ضيق :

— أريده وكفى .

— معى الآن ثلاثة جنيهات ، وأظننى أستطيع الحصول لك على الجنيهين الباقيين فى الغد من أى جهة ، ولكن لماذا تريدها ؟

و لم يجب « على » وبدا مستغرقاً فى صمته . وعاد « سليمان » يسأله فى لهجة رفيق :

— لماذا لا تفصح يا « على » ؟! منذ متى تخفى علىّ أسرارك ؟ إنى أنصحك لأنى أخشى عليك .. ولأنى أحبك كأخى .. ولكن ثق أنى لن أتأخر فى معاونتك حتى فيما أختلف معك فيه .. صارحنى بالأمر كله .

ورفع « على » رأسه المطرق وقال :

— أريد أن أبتاع هدية « لأنجى » فى عيد ميلادها بعد غد .

— هدية لعيد ميلادها بخمسة جنيهات !! أمجنون أنت ؟! أتقترض من أجل هدية لها ؟ لماذا كل ذلك ؟

— لأنى يجب أن أرد هديتها .

— أى هدية تلك ؟

— لقد أهدتنى ساعة ذهبية .. ابتاعتها لى من مصروفها عندما رأت جلدة ساعتى قد بليت ، وقد سألتنى ألا أبتاع جلدة سواها حتى تحضر لى أخرى ، ثم

فوجئت بها تقدم إلىّ ساعة بجلدتها .. وخشيت أن أرفضها فأجرح شعورها . ولم أملك إلا أن أقبلها وأنا أحس بخليط من الحيرة والحرج والفرح ، وعزمت على أن أردّها لها فى أقرب فرصة .. ولكنى كنت حائراً .. كيف أردّها لها .. وهى تبدو لى فى غير حاجة إلى شىء .. وكنت أخشى أن أردّها بلا مناسبة فأكون فى ردّها متصنعاً متكلفاً وكأنى أردّ هديتها .. حتى علمت أن عيد ميلادها بعد غد ، فوجدتها خير فرصة لرد الهدية .. ما رأيك أنت ؟

وأجاب سليمان وهو يهز رأسه فى دهشة :

— معك حق .. إن هذا هو خير ما تفعل .. ولكن ماذا تنوى أن تشترى لها ؟

— لقد وجدت سلسلة ذهبية دقيقة قد علق بها قلب ومفتاح ولا يتجاوز ثمنها خمسة الجنيهات وهى تبدو لى مناسبة جداً .

— وأين الساعة التى أهدتها إليك ؟! لماذا لم ترنى إياها أيها الماكر ؟!

— لقد أخفيتها فى الدولاب فى صندوق أحتفظ فيه بأول هدية أعطتها لى .

— أأعطتك هدية أخرى قبل هذه ؟!

— أعطتنى وردة منذ بضع سنوات .. ولم أرد أن أخبرك عن الساعة فقد كنت أشعر من قبولها بحرج شديد ، فإنى لم أكن أقرّ أن يقبل الرجل هدية من أمرأة .

وضحك سليمان وقال :

— على أية حال ما دمت قد نويت أن تردها فلا حرج عليك منها .

وفى اليوم التالى كان « على » يهبط من قطار المعادى ويتجه إلى الكازينو المشرف على النيل ، وكان الوقت قبيل الغرب ، والشمس قد مالت نحو الأفق وبدأت برودة الليل تطارد فلول الدفء الذى خلفته الشمس الغاربة ، وكان المكان يبدو خالياً إلا من مربية معها طفلان تتحايل على حملهما على الانصراف معها خشية البرد .. وعاشقان قد اختليا وراء أحد أسوار الفيكس العالية .

وبعد برهة أقبلت « أنجى » تستحث الخطى من الطريق القادم من بيت النبيلة

« خديجة » إحدى أقرباء أبيها العجائز والتى كانت تتعلل بزيارتها عندما تريد لقاء « على » فى المعادى ، وكانت لا تكاد تجلس عندها برهة حتى تستأذن للخروج بحجة الرغبة فى التريض تاركة العربة أمام الباب سائرة على قدميها إلى الكازينو .

وأقبل العاشقان يحيّى أحدهما الآخر فى شوق ولهفة ، وكانت لهفتهما لا تنقطع حتى ولو لم يمر بين اللقاء واللقاء سوى بضع دقائق ، كانا دائمى اللهفة والشوق والحنين .

وتساءلت « أنجى » وقد هبت عليها نسمة باردة من ناحية النيل :

ـــ أليس هنا برد ؟

ـــ ظننت أننا تكون هنا بمنأى عن الأعين ؟

ـــ إن المكان خال تماماً ، ولست أرى أى أعين سوى أعيننا .

ـــ هيا بنا إذاً إلى الداخل ما دمت تفضلين ذلك .

وغادر « على » مكانه متجهاً إلى البهو الزجاجى .. وانتقى منضدة فى ركن ناء يشرف على النيل ، وجلس أحدهما مواجهاً للآخر وقد واجه « على » الباب وواجهت « أنجى » صفحة النيل .

وقالت « أنجى » ضاحكة وهى تنظر من فوق كتفيه إلى ترقرق حمرة الشفق فى صفحة الماء الساكنة :

ـــ أمامى منظر بديع .

ونظر « على » فى عينيها وأجاب :

ـــ وأمامى منظر أبدع .

ـــ إنى أبصر الشفق فى النيل .

ـــ وأنا أبصر الجنة فى عينيك .

وصمت برهة وهو يرنو ببصره فى عينيها ثم أردف قائلا :

ـــ يبدو لى أحياناً أنى أستطيع أن أمكث الشهور والأعوام مكتفياً من كل وسائل الحياة بالنظر فى عينيك .

ـــ أتغنيك عيناى عن غيرها من الأعين ؟
ـــ إنها تغنينى عن الطعام والشراب والنوم وعن كل حاجات الحياة .
ـــ أنا أيضاً أحس بالغنى عن كل شيء عندما أكون معك .
ـــ وعندما لا تكونين معى ؟
ـــ أحس بالغنى عن كل شيء إلا عن العودة إليك .

ومدّ « على » يده فأمسك بيدها المستندة إلى المتضدة وتحسس أصابعها فى رفق ثم جذبها إلى فمه .. ومس بشفتيه كفها من الداخل ، وسرت أصابعها تتحسس أنفه وعينيه وشعره .

وأقبل الساقى فرفعت كفها عن وجهه وسألها على :

ـــ ماذا تطلبين ؟
ـــ نشرب سوياً فنجانين من الشاى .

وطلب « على » من الساقى أن يحضر شاياً .. ولم يكد ينصرف الساقى حتى قال على :

ـــ لقد تحدثنا كثيراً عن عينيك .. أرجو أن تغمضيهما حتى نستطيع التحدث فى شيء آخر .
ـــ سأغمضهما عند حضور الشاى حتى تستطيع تناوله .
ـــ بل أغمضيهما الآن .
ـــ لِمَ ؟
ـــ قلت لك أغمضيهما .

وأغمضت « أنجى » عينيها ، ومدّ يده فى جيبه فأخرج السلسلة ثم شبكها حول عنقها قائلا :

ـــ افتحى عينيك .

وفتحت « أنجى » عينيها وخفضت رأسها ناظرة إلى السلسلة وتساءلت فى دهشة :

ــ ماهذه ؟

ــ كل سنة وانت طيبة يا « أنجى » .

وبدت على « أنجى » أقصى آيات السعادة وهتفت به :

ــ أكنت تذكره ؟

ــ إنى أذكر كل شىء عنك .

ــ ولكن لماذا كلفت نفسك ؟! كان يكفينى جداً أن تذكره بمجرد تهنئة .

ــ لو استطعت أن أهب لك العالم كله لما ترددت .. ولكننى لم أملك سوى قلبى أهديه لك .

ــ وهذا المفتاح ؟

ــ حتى لا يفتحه سواك .

ــ سأفتحه لأضع قلبى فيه .. سيكون قلبين فى قلب .. وأقذف بالمفتاح فى النيل حتى لا ينفصل القلبان .

---

(٣٩)

قطيعة

انتهى العاشقان من تناول الشاى وتبادل المناجـاة . ثم نهضت « أنجى » للانصراف يتبعها « على » ولم يكادا يعبران الباب حتى مرقت من أمامهما عربة جعلت « أنجى » تثبت فى مكانها مأخوذة فزعة ثم همست لعلى :

ـــ لقد رأيت « علاء » فى هذه العربة .. ولست أدرى أقد رآنا أم لا ؟! يجب أن نسرع بالافتراق .. سأحدثك فى أول فرصة .

واندفعت فى عجلة متجهة إلى البيت ، وسار « على » تجاه المحطة وهو يحس بقلق خفى ولا سيما بعد أن رأى العربة التى مرقت أمامهما والتى كانت تقل علاء تغير اتجاهها وتدخل فى الطريق الذى سارت فيه « أنجى ».

وعاد إلى الميس وما زال القلق يملأ نفسه ، وحاول أن يطمئن عليها تلك الليلة فى التليفون ولكنه لم يفلح فى الاتصال بها .

ومرت بضعة أيام دون أن تحدثه ، وزاد به الشك واشتد القلق والضيق . وفى كل مرة يدق لها التليفون يجيبه صوت غير صوتها ، وتجاسر مرة وسأل عنها فقيل له إنها غير موجودة .

وفى أحد أيام النوبتجية وقد انتهى من طابور الهتاف وتشميع السرجخانات عاد إلى الميس يجر ساقيه المثقلتين بالجهد ، ويجر نفسه المرهقة بالضيق والتبرم . وكانت ليلة جمعة والميس قد خلا إلا منه . وجلس على أحد المقاعد الكبيرة ماداً ساقيه فى استرخاء ، مطلقاً لذهنه العنان .

ترى ما سبب قطيعتها خلال تلك المدة ؟! أوشى بها « علاء » إلى أبيها فثارت ثائرته وضّيق عليها الخناق ؟ ولكن أما كانت تستطيع أن تحدثه لحظة فى التليفون ؟

أقد ضاق الخناق حتى عن بضع كلمات تطمئنه بها ؟ أم ترى قد أصابتها علة أو وعكة ؟! إنه المقصر فى حقها إذاً .. لماذا لا يتحدث مرة أخرى ؟

ولكنه سبق أن تحدث ، وهو يخشى أن يسبب لها حرجاً من فرط ما يدق التليفون ولا يجيب .

ليجرّب مرة أخيرة فقد تكون الفرصة مواتية .

ونهض إلى كشك التليفون الخشبى الملاصق لجدار حجرة المائدة فى الساحة الخلفية للميس ، وجلس على المقعد وأغلق باب الكشك ، وبيد مرتجفة أدار القرص .

ودق الجرس بضع دقات ، وتوالت مع دقات الجرس دقات قلبه ، ثم كف الدق ، ومضت لحظة كف خلالها عن التنفس ، ثم أتاه الرد خافتا من سماعة التليفون :

ــ آلو .. مين يا فندم ؟.

وأحس بقلبه ينبض فى صخب وضجيج ، هاتفاً مصفقاً ، وأجاب متسائلا فى نبرات مرتجفة :

ــ أنجى ؟

ــ أية نمرة تريد ؟

و لم يكن لديه فى صوتها ذرة شك فأجاب :

ــ أنا على يا أنجى .

ومع ذلك فقد رد عليه الصوت بطريقة آلية مقتضبة :

ــ النمرة خطأ .

وأغلقت السكة . وأحس بالدماء تتصاعد إلى وجهه ، ومضت فترة والسماعة معلقة فى يده وعيناه تحدقان فى فراغ الكشك الضيق المظلم فى حيرة ويأس ، ثم هبطت يده ببطء ووضعت السماعة مكانها ، وغادر الكشك بخطى بطيئة متثاقلة عائداً إلى بهو الميس ، وارتمى على المقعد الكبير وبه ما يشبه الانهيار .

ومضت أيام أخر والقطيعة مستمرة ، والذهن مشتت ، والأفكار والهواجس بلاطم بعضها البعض .. هذه الهاجسة تصرع تلك ، وتلك تصرع هذه ، والاتهامات تتوالى ، والتبريرات والاعتذارات تلاحقها ، مفندة مفسرة ، وخلال كل تلك الأفكار المتصارعة والهواجس المتلاطمة ، تنتابه نوبات حنين وشوق ، تملؤه رغبة فى البكاء ، لولا بقية من تماسك وتجلد .

وكان أكثر ما يدفع به الاتهامات عن ذهنه هو الاعتذار بمرضها .. فقد كان المرض هو العامل الوحيد الذى يمكن أن يمنعها من الاتصال ، رغم أن ردّها على التليفون فى تلك المرة يضعف تلك الحجة ، ولكنه كان يبررها بأن التليفون ربما كان قريباً منها فى ذلك الوقت ، ولم يكن المرض قد ألح عليها فاستطاعت الرد .. ولكن منعها من الاسترسال فى الحديث معه وجود أناس حولها .

وهكذا كان يحاول أن يدفع عنها الاتهام لينقله إلى نفسه متهماً إياه بالتقصير فى السؤال عنها .

ولكن كيف يسأل .. والاقتراب من القصر يكاد يكون محرّماً ، والكتابة إليها مستحيلة ، والحديث فى التليفون غير ذى جدوى !

ولم يكن تفكيره يعدو هذا النطاق ، حتى أقبل عليه سليمان فى حجرته وهو يرتدى ملابسه استعداداً لطابور بعد الظهر وقذف إليه بإحدى المجلات الأسبوعية المصورة وقال له فى هدوء :

— فى أخبار المجتمع ما قد يهمك قراءته .

ورفع « على » حاجبيه متسائلا فى دهشة ، وهو يشد القايش الجلدى حول وسطه :

— يهمنى أنا ؟

ولم يكن شرود « على » وحزنه الذى منى بهما خلال بضعة الأسابيع الماضية ليخفيا على سليمان .. ولم يكن يصعب عليه أيضاً أن يدرك علتهما .. ولكنه لم يجد هناك فائدة فى التدخل فى الأمر أو محاولة تقديم أى أنواع النصح ، فقد كان

أدرى الناس بعدم جدواه .. وكان واثقاً أن المشكلة برمتها لا يحلها غير الزمن ، وأنها لا بد أن تأخذ دورها كاملا فى حياة « على » .

ومع ذلك فقد خيل إليه أن ماقرأه بالمجلة يمكن أن يلقى بعض الأضواء على ذهن « على » ويريه الأمر كما يجب أن يرى لا كما يجب أن يراه .

وانتهى « على » من ارتداء ملابسه وأمسك بالمجلة .. ولم يكد يقلب الصفحة التى قصد سليمان أن يريه إياها حتى بدت عليه دهشة شديدة .

كان أول ما استرعى انتباهه صورة لأنجى فى ميدان سباق الجزيرة .. وقد بدا بجوارها شاب أنيق وسيم ، وفتاة جميلة شديدة الشبه به .

وأخذ « على » يتأمل الصورة فى صمت ووجوم ، ثم أخذ يقرأ ما كتب أسفلها .. ومرّ بعينيه مروراً سريعاً على بضعة أسطر تتحدث عن السباق وعمن خسر وعمن ربح ، وعما لفت نظر المحرر من مختلف الوجوه حتى وصل إلى الفقرة التى تعنيه من كل ما كتب :

« وبدا فى أحد الألواج وجه يتألق .. هو وجه النبيلة « أنجى » كريمة الأمير إسماعيل .. وكانت ترتدى تاييراً رمادياً مرفوع الياقة بأربعة أزرار كبيرة زرقاء ... و « التايير » على بساطته آية فى الأناقة .. وكان يجلس بجوارها النبيل إبراهيم كمال ابن الأمير كمال الذى يشاهد دائماً فى صحبتها » .

بذل « على » أقصى جهده لكى يكبت عاصفة المشاعر التى أثارتها الصورة ووقع الخبر فى نفسه ، ودون أن ينبس ببنت شفة أو تبدو على وجهه اختلاجة واحدة .. مد يده معيداً المجلة إلى سليمان وهو ينظر إلى الساعة قائلا :

ـــ هيا بنا .. لقد اقترب موعد الطابور .

وتحرك الصديقان فى صمت ظاهر .. وصخب خبىء .. وكان سليمان يود لو فعل « على » أى شىء غير هذا الهدوء المميت .. والصمت القاتل ، الذى كان لا شك يمزق أحشاءه .. ويحرق قلبه .

كان سليمان قد أعد عدته لكل وسائل الإقناع .. حتى يرفع «على» من هوّة

أحزانه وينشله من وهدة يأسه ، ولكنه كان ينتظر أن يبدو على « على » الحزن أو الغضب ، وأن يعلق على الصورة والمقال بما يظهر مشاعره . أما أن يأخذ الأمر بمثل هذا الهدوء والسكينة وكأنه لا يعنيه ، فذلك ما بعث الحيرة والقلق فى نفس سليمان .

وعبرا طريق الميس ، وبدت الدبابات الخمس مصطفة فى طريق القره قول ، وقد اصطف أمامها الجنود بالأوفر أولات الحمراء، وقبل أن يفترق الاثنان ليذهب كل منهما إلى طابوره .. تساءل سليمان :

ــ متى ستنتهى من طابور المدفع ؟

ــ فى الموعد العادى .. الرابعة والنصف .

ــ وإلى أين ستذهب بعد ذلك ؟

ــ لم أفكر بعد .

ــ إذاً انتظرنى حتى أعود .. سأقوم بطابور قيادة السيارة حول منطقة ألماظة ولن أتأخر عن الخامسة .

وهز « على » رأسه موافقاً ، ولكن سليمان عاد يؤكد :

ــ إياك أن تخرج قبل أن أعود .. إنى أريدك فى أمر هام .

وقفز سليمان إلى الدبابة الأولى ، واستمر « على » فى طريقه إلى أرض الطابور حيث تمم على فرقة المدفع ، وقاد الجنود إلى أحد عنابر النوم التى كان يجرى فيها طابور المدفع .

وكان الآلايان الميكانيكيان قد احتلا المنطقة الفراغ المنخفضة بين ثكنات الخيالة والطريق العام والتى شيدت فيها الأبنية السويسى ذات الجدران المبنّية من عروق الخشب والطوب الأحمر والسقف المنحدر المغطى بالمشمع ، وكانت المنطقة قد قسمت إلى قسمين : أحدهما ــ وهو الأقرب للقره قول ــ احتلته الدبابات الخفيفة ، والآخر ــ الأقرب إلى الحديقة ــ احتلته السيارات الخفيفة ، وقد صفت أبنية المكاتب ناحية الطريق ووضعت العنابر فى خطوط متوازية ناحية

الخيالة ، وبين المكاتب والعنابر وضعت الجراجات عمودية عليها تتوسطهـا مساحات متسعة لا صطفاف الطوابير . أما إدارة السوارى فقد انتقلت إلى فيلا مستقلة تشرف على الطريق العام كانت تستعمل فيما مضى منـزلا لقائـد السوارى ، واستعمل بناء الإدارة القديم ليكون مقراً لرياسة آلاى للخيالة .

وقف « على » فى أحد عنابر النوم بآلاى السيارات وأخذ يسير جيئة وذهاباً طارقاً أرضية العنبر المكوّنة من البلاط المعصرانى الأبيض الكبير بحديد كعب حذائه مراقباً الجماعات المصطفة فى طول العنبر وقد وقف أمام كل جماعة أحد التعليمجية على مشمع فرش على الأرض ووضع عليه مدفع « برن » .

وتعالت أصوات التعلمجية تشرح الدرس الذى كان مقرراً شرحه فى طابور اليوم ، وأخذ « على » يرقب بعينيه وينصت بأذنيه .. دون أن يرى أو يعى شيئاً .

كان يتحرك بين الجماعات حركة آلية .. لا يكاد يميز بين المدفع وحذاء العسكرى . كان غريقاً فى هواجسه ووساوسه .. كان صدره يغلى وذهنـه يفور .. كان سيل الاتهامات يتدفق بلا تبرير يحد من اندفاعه أو اعتذار يوقف من تدفقه .

كان يشعر بهيكل أمانيه يوشك أن ينقض وينهار .. كانت الرجة التى انتابته رجه عنيفة .. مفاجئة .

أيمكن أن يكون هذا هو سبب القطيعة والفرقة ؟ .. لا مرض إذاً ولا وعكة .. بل ملل وهجر ونسيان .

وصدّها فى التليفون وإنكارها له .. كان صدّاً مقصوداً وإنكاراً مع سبق الإصرار .

أيمكن أن يحدث مثل هذا التبدل السريع ؟! ولم ؟! ولأى سبب ؟

وهذه الصورة الملائكية السامية التى طالما وضعها على هام سحب أوهامه وحلّق بها فى سماوات أحلامه .. كيف تهبط صاحبتها لتحيل صفحات مجلة كتافهات

الأرستقراطيات اللاتى تحتل صورهن فى السباق ، وفى الحفلات صفحات المجتمع والطبقه الراقية .

أيمكن أن تضحى « أنجى » .. المخلوقة السامية التى يتخيلها ملكه وحده .. ملكا مشاعاً على صفحات المجلات يتحدثون عن جمالها وأناقتها ويصفون لون ملابسها وطريقة تصفيف شعرها !!

وأكثر من ذلك يتحدثون عن ذلك الذى يصاحبها .. ويلازمها فى كل الحفلات بمنتهى السهولة واليسر .. كأنما ذلك أمر طبيعى محتوم .

لا .. لا .. إن « أنجى » لا يمكن أن تكون كهذه .. لا بد أن فى الأمر شيئاً .. لا بد أن هناك عذراً .. من العسير عليه أن يسلم بكل هذه الظواهر .. إن ثقته فيها .. وإيمانه بها .. الثقة المطلقة والإيمان بلا جدل ولا تفكير .. ما زالا كما هما .. يقاومان كل سيول الاتهامات .. ويسندان هيكل الأمانى ويقيانه من الانقضاض والانهيار .

أجل .. إنها ....

« المدفع ضرب طلقتين ووقف » .

وأعادته من عمرة أفكاره .. صيحة التعلمجى .. وضجة ارتمائه على الأرض أمام المدفع وحركاته السريعة التى يشرح بها كيفية إصلاحه إذا ضرب طلقتين ووقف .

واستمر ذهنه حائراً بين صيحات التعلمجية .. وأفكاره الصاخبة الثائرة .. حتى انتهى الطابور .. وعاد أدراجه إلى الميس .

ولم يكد يستقر فى حجرته حتى دفع الباب ودخل سليمان وقد علا شعره ووجهه وثيابه طبقة من الغبار أبدته كفأر غارق فى صفيحة دقيق .

ورسم « على » على شفتيه ابتسامة باهتة وقال محاولا الترحيب بسليمان :

— أهلا .. لقد عدت سريعاً .

وكان سليمان يعرف ما تحجبه تلك الابتسامة من مرارة وانهيار ويأس

وحزن .. ولم يرد أن يضيع الوقت فى مقدمات لا طائل تحتها ، فجر مقعداً بجوار « على » وجلس على طرفه متكئاً بمرفقيه على ركبتيه ورفع بصره إلى وجه « على » البادى الهدوء قائلا له :

ـــ اسمع يا « على » .. دعنا نتكلم بصراحة ولتكف عن ترك الاكتراث وعن الهدوء الذى تدعيه ، فأنا أعلم ما بنفسك جيداً .. لقد أريتك الصحيفة وأنا أعرف أنها ستؤلمك وتفجعك . وأنا لم أبلغ من الحمق حداً يجعلنى أقدم على إيلامك عامداً بلا سبب .. ولست عدواً لك حتى أتسلى بفجيعتك .. ولكنى أردت أن أريك حقيقة ما تحاول تجاهله .. أردت أن أبصرك بحقيقة واقعة تأبى إلا إنكارها . هذا الحب الذى تغرق فيه لا فائدة منه ولا طائل تحته .. إنك مخدوع واهم .. وأنت تحب مخلوقة من صنع أوهامك أنت .. تحاول أن تضعها فى صاحبتك هذه ، وشتان بين الاثنتين .. المخلوقة التى صنعتها أنت من نسج خيالك .. المرهفة السامية المثالية الشاعرة الذائبة .. ليس بينها وبين صاحبتك الحقيقية صله ولا شبه .. إن صاحبتك هى تلك التى رأيتها مرسومة على صفحات المجلة .. الأرستقراطية المتأنقة السطحية المشاعر التافهة التفكير .. التى لا يشغل ذهنها غير ارتداء ثوب وتصفيفة شعر وحصان رابح ، وصديق تافه تتأنق به ، تلك هى حقيقتها .. لا تحاول الجدال فيها .. فهل تتشابه فى شىء مع معبودة أوهامك ؟! ولو كنت تتسلى بها كما تتسلى بك لهان الأمر .. أما أن تندفع فى حبها بمثل هذا الجنون .. وتحاول أن تعلق عليها مصيرك .. ومستقبلك .. فهذا هو الحمق بعينه .. لقد مضى عليك شهر .. وأنت أشبه بمخبول شارد الذهن .. وأنا أحاول أن أتستر عليك وأخفى أخطاءك ، ولكن إلى متى ؟!

ـــ ما هذا الذى تتستر علىّ فيه ؟! وأى أخطاء تقصد ؟

ـــ ليس هذا هو موضوعنا .. أنا أحاول أن أمتنّ عليك بما فعلت .. فذلك هو واجبى نحوك .. وذلك هو ما سأستمر فى فعله من أجلك ، لأنى أحبك .. وأشعر بأنك مخلوق تستحق الحب والتقدير .. وأكره أن تحطم حياتك

ومستقبلك ، من أجل وهم خاطئ فى مخلوقة تافهة لا تستحق حبك .

وتجهم وجه « على » ووضحت على ملامحه دلائل الألم والمرارة التى كان يحاول كبتها ، ورفع يده وضغط على جبينه كأنما يحاول منعه من الانفجار والتحطيم .

ومضت فترة صمت حاول أن يتمالك فيها نفسه ، ثم أطلق زفرة حارة وأجاب فى هدوء :

— إنى واثق من صدق مشاعرك وطيب نواياك ، وقد يكون فى قولك الكثير من الصحة .. ومع ذلك فليس من اليسير علىّ قبوله .. ليس من السهل على إنسان أن يدمر بسهولة ما قضى السنين فى نسجه من شغاف قلبه وخيوط أحاسيسه . إنه شيء راسب فى أعماق من العسير علىّ انتزاعه . شيء ملتصق بالروح وليست مجرد أوهام كما تظنها .. إن فى انتزاعه من القلب إدماء للقلب .. وفى فصله من الروح قتلا للروح :

ويلاه إن نظرت ، وإن هى أعرضت   وَقْـعُ السهـام ونزعهنّ أليم

إن من السهل عليك أن تسدى النصح .. وهو بلا شك نصح سديد سليم .. ولكن ما أشبهه بدرس سباحة يعطى من معلم على الشاطئ لغريق بين الأمواج .

— ولكن الغريق يقاوم فى سبيل حياته .

— وأنا أيضاً أحاول المقاومة .

ونهض « على » لارتداء سترته وسأله سليمان :

— إلى أين؟

— سأذهب إلى البيت لزيارة أبى وأمى .. فقد مضى علىّ أسبوع لم أرهما .

— ألا تنتظر حتى نخرج سوياً ؟

— أريد أن ألحق قطار السادسة .

وغادر « على » الميس .. وبعد فترة كان القطار ينهب به الأرض فى طريقه إلى البلدة .

أحقاً كان يريد الذهاب إلى والديه ؟! .. أهذا هو الدافع الأصيل .. أم هناك دافع آخر خفى لا شعورى ؟!

أتراه ما زال يأمل فى لقائها ؟!

وهتف به هاتف فى باطنه .. ليته يستطيع !

لقاء واحد .. يجلو كل ما غمض ، ويفسر له كل ما أعياه تفسيره .

أليس من حقه عليها .. أن يسألها تبريراً لهذه القطيعة ، وذلك التبدل والتغير ، ورداً على كل تلك التهم ؟!

ولكن كيف اللقاء ؟!

وهبط من القطار متجهاً إلى البيت متبعاً الطريق الأطول المار بالأسوار العالية .. وانتهى طوافه بالجدران دون أن يسمع منها سوى صفير الريح فى أطراف الشجر .. وهّم بعبور الطريق عندما أبصر بأضواء عربة تبدد ظلمته ، وتوقف فى مكانه بجوار إحدى أشجار الكافور الضخمة وأحس بدقات قلبه تتوالى .. كأنها دقات جرس تعلن اقتراب خطر .

ومرت به العربة متهادية واستطاع أن يبصر فيها وجه « أنجى » وكذلك استطاع أن يميز بجوارها ذلك الوجه أبصر صورته بجوارها فى المجلة وبجواره وجه أخته « سهيلة » .

واختفت العربة فى الظلمة .. مخلفة فى نفسه مزيداً من حنين ومزيداً من مرارة ، وتابع طريقه إلى البيت مثقل النفس بالأحزان .. مكروب الصدر بالهموم .. واجتاز الردهة المعشوشبة أمام البيت .. وطرق الباب .. وسمع صوت والدته من الداخل تنادى بصوتها الهادئ الرقيق .

ـــ تعالى شوفى مين يا بهية .

وسمع وقع أقدام خفيفة آتية ، ثم فتح الباب وأطل وجه « بهية » السمح يتساءل :

ـــ مين ؟

ـــ أنا على .

واجتاز « على » الباب فى عاصفة من الترحيب والابتهاج ، وارتكز على ركبته بجوار أمه الجالسة على حشية فى ركن القاعة وأمامها « كنكة قهوة » على « منقد » صغير ، وضمته بين ذراعيها وقبلته فى شوق .

وبحث « على » حوله فلم يجد أثراً لأبيه فتساءل :

ـــ أين أبى ؟

ـــ ذهب إلى الشيخ رجب .. لقد ضاق بالقعدة .. إنه لا يطيقها أبداً .. ولولا عجزه الفعلى لما استطاع أحد أن يجبره عليها .. لقد أصبح مشوار المحطة يرهقه ، هو الذى كان لا يكف عن السير والعمل طيلة النهار .

ـــ على أية حال ، ليست هناك ضرورة لأن يرهق نفسه فى أى شىء .. يجب أن يستريح .

ـــ الراحة متعبة يا على لأمثال أبيك .. لقد أخذ على العمل .. أخذ على أن يكسب رزقه بعرق جبينه .

ـــ لقد كسب من عرق جبينه ما فيه الكفاية ، وقد أضحى واجبنا أن نرد بعض عرق جبينه . إنى مازلت أذكر ما قاله لى فى طفولتى . عن ماء وجهه .. الذى أراقه فى سبيلى وفى سبيل حسين .

ـــ لقد أرسل حسين خطاباً اليوم . أين هو يا بهية ؟!

وأقبلت « بهية » تحمل صندوقاً صغيراً أخرجت منه رسالة أعطتها لعلى .

وقالت الأم :

ـــ اقرأها .

وأخذ « على » فى قراءتها ، ولكن الأم صاحت به :

ـــ اقرأها بصوت عال .

وضحك « على » قائلا :

ـــ ألم تقرأها لك « بهية » ؟

وأجابت « بهية » ضاحكة :

— قرأتها عشر مرات .

وقالت الأم فى إلحاح :

— أريد أن أسمعها عشرين مرة .. لشد ما أوحشنى حسين ؟! ترى من الذى يطعمه ، ومن الذى يغطيه ؟! لقد كان دائماً يعرّى نفسه ليلا .

وضحك « على » قائلا :

— إنه لم يعد طفلا .. لقد أضحى ضابطاً محترماً .

— إنى لا أراكما إلا طفلين ، ولن تتم فرحتى بكما إلا إذا أتممت زواجكما .

وبدا الشرود على وجه « على » وأجاب محاولا الابتسام :

— ما زال الوقت مبكراً يا أماه .. وعلامَ العجلة ؟!

— أريد أن أتمتع بأولادكما قبل أن أموت .

— متعك الله بطول العمر .. ستعيشين حتى أولاد أولادنا .

— يكفينى أن أرى أولادكما .. لقد أضحت « بهية » عروساً .. ولن أستريح حتى أحقق أمنيتى بزواجها لأحدكما .

واندفعت الدماء حارة إلى وجه بهية .. وأطرقت مستحية .

ورفع « على » عينيه إلى « بهية » وقد بدت أمامه لأول مرة فتاة مكتملة ، ناعمة القسمات ، حلوة الملامح .. وطاف بذهنه حبها المنطوى بين جوانحها .. وأبصرها تتحسس بيدها الصندوق الصغير الذى أخرجت منه رسالة أخيه .. وتذكر رسائل أخيه إليه ، المليئة بالمغامرات والعربدة ، وتذكر ما حدثه به عن علاقته الأخيرة بإحدى وصيفات القصر .. وكيف تعرّف بها فى المونسنيير .. ودعته إلى الرقص ، ثم دعته إلى العشاء بعد ذلك فى نادى اليخت الملكى .

وأحس بعطف شديد على « بهية » .. وعلى آمالها المعلقة فى الهواء .. وبالهوة السحيقة التى تفصلها عن أمنيتها المنشودة .

وقالت أمه تستدعيه من شروده :

— ما رأيك يا على ؟

وأجاب « على » وهو ينظر إلى « بهية » فى عطف شديد :

— إن بهية أختى يا أماه .

و لم يعجب هذا القول أمه ، وتمتمت فى لهجة غير راضية لها خبيئتها و معناها :

— لعلها ليست قدر المقام !!

---

(٤٠)

وأكثر .. !

ولى الشتاء وما زالت القطيعة مخيمة سحبها على نفس « على » ، وثلوج اليأس ، والضيق والخذلان ، متراكمة فى فؤاده ، وأقبل صيف ١٩٣٩ حاملا معه نذر الحرب مؤذناً بقرب اندلاع شرورها ، و لم تفلح محاولات تشمبرلين بمظلته فى سبيل السلام المحتضر إلا فى منحه بضعة أنفاس صناعية أجلت منيته إلى حين .

وبدت فى السوارى حركة نشاط غير عادية فى التدريب ، واستكمال التسليح وإعداد العربات ، وأضحت ريح الاستعداد للحرب تشتم فى كل نواحى النشاط فى الآلايين الميكانيكيين .

وبدأت حركات الاستكشاف والاستطلاع فى الصحراء الغربية حيث كانت تعتبر المنطقة المعرّضة للهجوم من جانب إحدى دولتى المحور المرابطة فى ليبيا على حدود مصر الغربية .

ويبدو أن الحلفاء كانوا قد وضعوا خططهم الأولى للدفاع عن مصر على أساس احتمال هجوم قوات المحور فى اتجاهين : الاتجاه الأول عبر الطريق الساحلى .. طريق مطروح /الإسكندرية ، والثانى جنوب الشرق عبر الصحراء من ناحية سيوة إلى الواحات البحرية إلى القاهرة .. أو إلى الفيوم ثم القاهرة .

ويبدو أيضاً أنهم قد قرروا الاستعانة بالقوات الميكانيكية المصرية استعانة عملية إيجابية فى العمل ضد هذا الهجوم الأخير .. وهو الأكثر مشقة والأبعد احتمالا بالنسبة لقوات المحور .. على أن تركز قوات الحلفاء وقد كانت فى ذلك الحين قلة ضئيلة من آلايات السوارى (الهوزارس) التى تحولت إلى قوات

ميكانيكية للعمل ضد أى هجوم على الطريق الشمالى .

وذهب « على » للقيام بتلك الرحلات الاستكشافية فى صحبة مستشار البعثة وقائد الآلاى .. وقاموا باستطلاع الطريق الموصل بين الواحات البحرية والقاهرة ، ومدى قدرته على تحمل العربات ، ثم قاموا باستكشاف مداخل الواحات ومخارجها ، وأرسل « على » وحده لاستكشاف الطريق الموصل إلى سيوة والطريق المتفرع منه شمالا إلى المغرة والمستمر شمالا حتى يقاطع الطريق الساحلى قرب العلمين .

وشغلت تلك الرحلات الاستكشافية « علياً » إلى حين ، وأسدلت بعض الستر على أحزانه وأشجانه ، حتى انتهت الرحلات وعاد إلى القاهرة .

وفى أول رحيل إلى داره لم يملك إلا أن يطوف بكعبته ويحج حج اليائس المهموم إلى ديار ليلى .. ويشتم ريحها .. ويتنسم عبيرها .

وأخذت نذر الحرب تتوالى وريحها تقترب .. وبدأ الاستعداد لرحيل آلاى السيارات إلى الواحات البحرية ليتخذ مواقعه خارج الواحة على الجرف المشرف على الطريق القادم من سيوه إلى البحرية عبر النقب رقم ١٣ .

وفى ذلك الحين سافرت « أنجى » إلى الإسكندرية وصدرت الأوامر للآلاى بالتحرك بعد أسبوع ، وأحس « على » بحنين مفرط إليها ، وودّ لو يراها مرة واحدة قبل أن يرحل .

وسافر إلى الإسكندرية فى إجازة بضعة أيام متعللا برغبته فى زيارة أخيه .

وكانت الإسكندرية تذكره بأمتع أيامه وأجمل ذكرياته . كانت تذكره بأول لقاء فى المعمورة .. وكان يحس من ريح البحر نشوة .. ومن صوت الموج متعة .

ورحب به حسين أشد الترحيب .. وأنبأه بأنه سيضع له برنامجا من المتع سيظل يذكره طوال مدة غيبته فى الواحات البحرية .

وظل « حسين » يسرد له البرنامج .. ويعدّد له الوجوه الجميلة التى سيصحبانها فى السهرات ، والشخصيات التى سيلقيانها من نجوم المجتمع .

الأيام وأوشكت الإجازة أن تنفذ بلا طائل ، ولم تجد محاولات أخيه فى تسليته والترفيه عنه نفعاً ، فقد كان يصحبه واجماً شارد الذهن .

كان يجلس وإياه فى المونسنيير والأكلسيسور وغيرهما ، تقرع أذنيه الموسيقى الصاخبة .. وتتوالى على ناظريه الأكتاف العارية والصدور المكشوفة والأجساد المترنحة ثم تتبخر كلها كالدخان تاركة فى ذهنه صورة واحدة تلح عليه ولا تفارق رأسه .

وفى اليوم الأخير لإجازته جلس يتناول الغداء مع أخيه فى أحد المحلات العامة ، وقال « على » فى يأس وهو يضع الفوطة جانباً :

ـــ سأرحل فى قطار العصر .. إنه يقوم فى الثالثة .

ـــ ولماذا هذه العجلة ؟! أمامك قطار المساء ، يقوم فى السادسة ويصل فى التاسعة .

ـــ لا داعى للتأخير .

ـــ كل تأخيرة وفيها خيرة .. كما يقول المثل .

ـــ إذا كانت الخيرة لم تأت فى أربعة أيام ، فلن تأتى فى أربع ساعات ، وليس هناك أى موجب للتأخير .

ـــ انتظر حتى تشاهد السباق .

ـــ السباق ؟

ـــ أجل .. إنه سيبدأ بعد نصف ساعة ، وهناك احتمال كبير فى رؤيتها .

وطافت بذهن « على » صورتها التى رآها فى المجلة ممسكة بمنظارها وقد جلس بجوارها إبراهيم ، وغامت على وجهه سحابة ضيق .

وراح « حسين » يؤكد قوله :

ـــ إنى واثق أننا سنراها .

وأجاب « على » كمن يحدث نفسه :

ـــ وما الفائـدة ؟

ــــ فائدة ماذا ؟

ــــ فائدة أن نراها معلقة فى مقصورتها كأنها الفاكهة المحرّمة أو محاطة بحشد من الرفاق الأرستقراطيين .

ــــ وماذا فى ذلك ؟! تقدم إليها وحدثها .

ــــ لا .. لا .

ــــ يا أخى لا تعقِّدها .. لنرها أولا ثم يحلها ربنا .

وفرغا من الطعام ، واتجها إلى نادى السباق ، وأبرز « حسين » فى البوابة بطاقة دخول لاثنين ، ودخلا وهو يقول لأخيه ضاحكاً :

ــــ إنى أحيا هنا مجاناً .. أكاد لا أدفع إلا ثمن السكن ، ولو أردت أن أبيت فى كل بيت ليلة لا ستطعت ، ولكن لا بد أن يكون لى مقر .

وكان الشوط الأول قد بدأ ، وتبع « على » أخاه إلى حيث اندس بين جموع المشاهدين ، وسرعان ما انهمك حسين فى مراقبة السباق ، وأخذ « على » يسترق البصر يمنة ويسرة ، ويتلفت خلفه محاولا فحص المقصورات عله يجدها فى إحداها .

وانتهى الشوط ، والتفت حسين إلى « على » قائلا فى حماسة وقد أمسك بيده برنامج السباق :

ــــ سألعب هذا الدور .. إنى أقسم أن الجواد الأول « هب الريح » لا بد أن يكسب .. سألعب واحداً وثلاثة ، ما رأيك ؟! أتشاركنى فى تذكرة ؟

ــــ لا داعى للعب يا حسين .

ــــ سألعب بريال واحد وسأشركك فيه . انتظرنى حتى أعود .

واختفى حسين وسط الجماهير المتجهة إلى نوافذ التذاكر ووقف « على » يرقب الزراقات الصاخبة التى احتشدت بها ساحة السباق ومدرجاته .

ولم يكن البحث يسيراً وسط تلك الوجوه المتكأكئة ، ومع ذلك فقد أخذ « على » يرقب فى تؤدة وصبر ، حتى تبين فجأة أحد دلائل وجودها ، وأمسك

بخيط قد يقود إليها ، وهو وجه أخيها علاء .

كان « علاء » يسير متجهاً إلى الساحة « البادوك » التى يعرضون فيها الخيول التى توشك أن تجرى ، وظل « على » يرقبه حتى وصل أمام الساحة بين الجماهير المحتشدة ، وأذن الشوط الثانى بالبدء وخرجت الخيول متجهة إلى ميدان السباق ، الواحد بعد الآخر ، واستمرت عيناه ترقبان الدليل وتمسكان بالخيط .. وتحرك « علاء » عائداً إلى المدرج ، ثم تمهل لحظة محيياً عجوزاً ذا طربوش أحمر طويل يبدو له أهمية فى ساحة السباق ، ثم صعد سلم المدرج وهبط ثانية ثم دخل فى ممر واختفى .

وهكذا فقد « على » الدليل .. وأحس بضيق شديد .. وود لو استطاع أن يتجه إلى « علاء » ليسأله أين « أنجى » ، ولكنه لم يملك سوى أن يستمر مراقباً الممر الذى اختفى فيه علّه يظهر ثانية .

وقبل أن يظهر « علاء » أقبل حسين مندفعاً كالصاروخ وجذبه من ذراعه قائلا :

— أسرع . لقد وجدتها .

وتساءل « على » فى ذهول :

— مَنْ ؟

— أنجى .. أسرع .. إنها تنتظرك .

واندفع « على » وراءه بلا وعى ولا إدراك .. حتى وجد نفسه يقف فجأة أمام « أنجى » وقد انتحت ركناً هادئاً بجوار أحد أحواض الجارونيا وأخذت تتشاغل بفحص برنامج السباق وقد بدا على سيماها القلق والاضطراب .

ورفعت وجهها عن البرنامج والتقت عيناها بعينيه ، وجرت بينهما نظرة حارة ذائبة ملؤها الحنين والشوق ، وأحس كلاهما برغبة جنونية فى الاندفاع فى أحضان الآخر ، وتبدد من ذهن « على » كل ما كان يحتشد فيه من اتهامات واستفسارات وشكوك وريب . لقد أذا بت نظراتها اللهفى كل ما تكتل فى نفسه

من جلاميد اليأس والضيق .. وذرت ابتسامتها الرقيقة الحنون كل ما رسب فى قلبه من شوائب الكدر والحزن . وفى غمضة عين لم يعد يبصر أمامه سوى « أنجى » ربة أحلامه .. ومنتهى أمانيه .. وعادت إلى نفسه ثقته بها ، وإيمانه بحبها .. كأقوى ما تكون الثقة ، وأشد ما يكون الإيمان .

حدث كل هذا من نظرة سرت بين العيون ، والشفاه لم تنبس بكلمة بعد ، ومدت « أنجى » يدها مصافحة وهى تقول فى شىء من الاضطراب :

ــ كيف حالك يا على ؟! لم أكن أعلم أنك هنا ؟

ــ لقد أتيت منذ بضعة أيام .

ودق الجرس معلناً بدء الشوط الثانى ، وهتف حسين وهو يتركهما عائداً إلى ساحة السباق :

ــ عن إذنكما .. سأنتظرك أمام المدرج يا على !

وزادت مظاهر الاضطراب على وجه « أنجى » .. وتلفتت حولها فى قلق وخشية . وأحس « على » من قلقها قلقاً أشد ، ومن خشيتها خشية أكبر ، ومضت لحظة اضطراب تعذر على كليهما الحديث فيها وأخيراً قال على :

ــ أود أن أحدثك كثيراً يا أنجى .

ــ لا أظن الفرصة سانحة الآن .

ــ متى تسنح الفرصة إذاً ؟! لا بد أن أحدثك وأسمع منك .. لقد أوشك اليأس أن يدك صرح أمانىّ ، ويدمر حصن آمالى .. ولولا ثقة راسخة بك ، وإيمان عميق بحبك .. لا نطفأت من نفسى كل بارقة ، وضاع كل أمل .

ــ دع الثقة راسخة كما هى ، ودع الإيمان عميقاً كما هو .

ــ إلى متى ؟ إنى أوشك أن أجن .. ما سبب كل هذه القطيعة والتباعد ؟!

وبدا من بعيد شبح « علاء » وقد أقبل مع « سهيلة » ، وزادت مظاهر الاضطراب بأنجى وهتفت فى عجل :

ــ لن نستطيع أن نكمل حديثنا الآن .

ــ ولكن لا بد أن أسمع منك شيئاً .. لقد مضى علىّ أربعة أيام وأنا أبحث عنك .

ــ إذا نلتقى غداً فى سيدى بشر .. لو أتيت إلى هناك فسأحاول أن ألقاك فى ميامى .

ــ إنى لا أستطيع أن أمكث إلى غد .. لا بد أن أرحل هذا المساء .

ــ ولِمَ ؟

ــ لأننا سنسافر فى الغد إلى الواحات البحرية .. سيتحرك الآلاى بأكمله إلى هناك .

وبدت علامات الضيق والحزن على وجه « أنجى » .

وأردف « على » يقول يائساً :

ــ إن هذه آخر فرصة أراك فيها .

ــ لا تقل هذا .. سترانى عندما تعود .

ــ وكيف أراك ، وأنت قد أبيت علىّ حتى الرد فى التليفون ؟

وهزّت « أنجى » رأسها فى قنوط وقالت فى مرارة :

ــ كنت مكرهة .. لم يكن هناك من سبيل إلا أن أفعل ما فعلت .

ــ ولماذا لم تحاولى أن تقولى لى حتى ألتمس لك عذراً ، وحتى أنزع من نفسى تلك الوساوس القاتلة ؟ لماذا لم تكتبى إلىّ ! وقد سبق أن كتبت من قبل ؟

ــ لقد حاولت الكتابة .. ولكنى طويت ما كتبت .. لم يكن هناك فائدة من الكتابة .. بل ربما كان هناك ضرر .

وتلفتت « أنجى » حولها ثم همست به فى اضطراب وحزن :

ــ سأتركك الآن .

ــ أهكذا سريعاً ؟

ــ لا بد أن أعود إلى المقصورة .

وأحس « على » بالحزن يفعم نفسه وهمس بها :

ـــ ألا تقولين شيئاً ؟

وبدا على « أنجى » أنها تقاوم نوبة بكاء وضغطت بأسنانها على شفتها السفلى وقالت فى يأس :

ـــ وماذا بوسعى أن أقول ؟

ـــ أما زال حبك كما هو ؟

وهمست « أنجى » فى صوت لا يكاد يسمع :

ـــ وأكثر .

ثم اندفعت من مكانها تجاه المدرج ، ووقف « على » يرقبها فى ذهول .. وهى تتباعد مسرعة حتى اختفى شبحها ثم سار بخطى متثاقلة متجهاً إلى أخيه .

ووقف « على » بين الجموع المحتشدة الضاحكة الصاخبة ، وأخذ يحملق فى ممر السباق الأخضر الطويل الذى أقبلت الخيل تعدو به من بعيد .. وقد تصاعدت حوله الصيحات وتعالى الهتاف والتصفيق والتشجيع والاستحثاث ، وبين هذا كله لا يطرق ذهنه سوى لفظ واحد يسرى فى همس ، يتضاءل أمامه أشد الصياح .. لفظ واحد قد تملك مشاعره وأخذ بلبه .. ونفذ إلى مسامعه كالنغم العذب واللحن الجميل قائلا : « وأكثر » .

وأكثر .. وأكثر .. وأكثر .. ولاشىء غير ذلك .. حتى انتهى السباق ، وغادر « على » الإسكندرية ، عائداً إلى القاهرة ، وبنفسه شعور عميق بالراحة والسكينة .

لقد استطاعت نظرتها الرقيقة ، وكلمتها الحنون ، أن تمحو فى لحظة كل ما رسب فى أعماقه من وساوس وريب خلال الشهور الماضية ، وانسدل ستار كثيف على الصورة المزعجة التى طالما جسدتها أوهام الفرقة والقطيعة ، ولم يعد فى ذهنه سوى صورة واحدة هى « أنجى » الأولى ، حبيبة الروح السامية الرقيقة المرهفة .

لقد رفض ذهنه التفكير فى سابق وساوسه .. وضرب صفحاً عما كان يطلبه

من تبريرات وتفسيرات واعتذارات ، واكتفى من كل ذلك بالنظرة والكلمة .

***

وفى الصباح بدأت عربات الآلاى فى التحرك بعد أن انتهى التفتيش عليها ، وسارت تخترق طرق القاهرة وقد شدت بالمدافع وحملت فى عرباتها الذخائر . وأحس الجنود والضباط لأول مرة أنهم يتحركون لعمل جدى ، وأنهم سيقومون بنصيبهم فى الدفاع عن مصر .

وألقى « على » نظرة على بناء حبيب إلى نفسه ، كان يحس بقلبه يدق له كلما مر به . وتخيل « أنجى » بين جدرانه تجلس بين زميلاتها على أحد المكاتب أو تتريض فى الفناء أو تستريح تحت النخلة .

وغمره إحساس بحزن هادئ غير ثقيل ، حزن غير ذلك الحزن المفعم بالوساوس ، الملىء بالريب ، المثقل بالقلق .. كان حزناً لذيذاً .. إن صح أن للحزن لذة .. كان حزناً مليئاً بالطمأنينة والثقة والإيمان ، حزناً مشبعاً .. يحمد الله أن أتاح له فرصة لقاءٍ فى اللحظة الأخيرة ، غسل بها شوائب الكدر والشجن ، وهيأ له زاداً — على قلة محصوله — قميناً بأن يقيم أوده فى فرقته ، ومنحه ذكرى — على ضآلتها — جديرة بأن تؤنس وحشته وتجمل غربته .

واجتازت العربات طرق القاهرة وانتهت إلى بداية طريق الإسكندرية قرب الهرم . ثم دلفت فى طريق الفيوم وسارت برهة انحرفت بعدها إلى المدق المؤدى إلى الواحات البحرية .

وكان الطريق طويلا يبلغ الثلثمائة والسبعين كيلو مترا ، لم تمتد إليه يد بالدك أو الإصلاح ، وليس به من معالم الطرق سوى آثار العربات السائرة فى الرمال ، وعلامات إرشاد حديدية دقت فى الأرض يثبت عليها طول الطريق كل خمسة كيلو مترات .

وتعاون ملل الطريق والهجير والتراب .. على تقديم رحلة ، لا يتمنى الراحل فيها إلا أن ينتهى منها، وهو يجد نفسه منطلقاً فى فراغ لا حد له ولا نهاية ولا هيئة

مميزة تكسر من حد ذلك الأفق الفارغ المنبسط ، بل رمال ، ورمال ، تتشابه فى كل بقعة ، وفى كل منطقة ، حتى المرتفعات التى تبدو على الخريطة وكأنها جبال واضحة مميزة يمر عليها الراحل دون أن يحس بها .

هيئة واحدة هى التى يستطيع الإنسان أن يميزها.. وهى بحر الرمال، الذى بدا فعلا كأنه بحر من الرمال تعاقبت فيه سلسلة من كثبان الرمال المسماة بالغرود كأنها أمواج متلاطمة ، وينقطع فيه أثر الطريق بين الرمال المتهايلة .

وبدأ المرور فى بحر الرمال ، وتحمل العابرون من مشقة العبور ما هان إلى جواره كل ما لا قوه من مشقة الطريق ، وغرزت العربات فى الرمال الخفيفة وكأنها تسير فى الماء .

وأضحى على « علىّ » أن يقاوم الحر والرمال المتهايلة تحت العربات الثقيلة حتى عبر بلوكه الغرود اللعينة .

وأخيراً أشرفت العربات على منخفض الواحة ، وبدت قراها كأنها بقع خضر .. تتناثر حولها جبال هرمية كأنها الأقماع المقلوبة .

واستمرت العربات سائرة فى طريقها على حافة الهضبة دون أن تهبط من النقب إلى الواحة حتى وصلت إلى المواقع التى اختيرت لكى تحتلها القوات المدافعة .

---

(٤١)

رحيل وعودة

احتل الآلاى مواقعه على المرتفعات المشرفة على الواحة من الناحية الشمالية الغربية .. المقاطعة للطريق القادم من سيوة إلى النقب رقم ١٣ .

وكان الرأى قد استقر على احتلالها بعد عمليات الاستكشاف الأولى التى قام بها قائد الآلاى ومستشار البعثة وفى صحبتهم « على » إذ كانت أصلح المواقع للدفاع عن الواحة .. وكان اتساع المنطقة وصلابة أرضها يمنحان القوات الميكانيكية حرية المناورة والقيام بأى هجوم على القوات المعادية المحتمل تقدمها من ناحية سيوة .. كما كانت المواقع لاتبعد كثيراً عن قواعد تموينها التى أنشأها سلاح خدمة الجيش داخل الواحة عند الباويطى .. وكانت خطوط المواصلات بينهما سهلة ولا سيما بعد أن نسف المهندسون جزءاً من الجرف المشرف على النقب ١٣ ، والذى كان يعوق المرور عليه ويزيد فى انحنائه .. كما قاموا بدكه ورصفه حتى تستطيع عربات المياه ولوريات التعيين والبترول أن تعبره دون أن تغوص عجلاتها فى رماله المتهايلة .

ووزعت القوات بحيث وضعت الأورطة الثانية التى تضم بلوك « على » فى المقدمة .. ووضعت الأورطة الثانية فى الاحتياط مع رياسة الآلاى .

واحتل « على » ببلوكه يمين الطريق .. واحتل البوكان الآخران يساره ، ووضعت رياسة الأورطة فى موقع متوسط فى الخلف .

ولم تكن طبيعة العمليات التى يتأهب لها الآلاى لتسمح بالقيام بمعسكر ثابت فقد كان مفروضاً فيها الخفة والسرعة . وكان على الجنود والضباط أن يناموا فى العراء بجوار عرباتهم المحملة بالذخائر ، والأسلحة وتعيينات الطوارئ . ولم تسمح

حملة الآلاى الخفيفة بأن تحمل فى ذلك الطريق الطويل إلا بعدد محدود جداً من الخيام .. وزع على رياسة الآلاى والكتيبتين واستعمل معظمه للمطابخ والميسات .

وكان نصيب البوكات الثلاثة الأمامية خيمة من طراز مستشفى وتزلك مربع صغير لا تزيد مساحته على متر فى متر ، وكان على الضباط الثلاثة أن يتقاسموها سوياً .

وقنع « على » بالتزلك رغم انعدام فائدته .. رغبة منه فى الخلوة والاستقلال بنفسه ، واقتسم الضابطان الآخران الخيمة بعد أن نصباها فى مكان متوسط بين بلوكيهما .

واستقر « على » أخيراً فى مكمنه .. وأحس لأول مرة بنوع من السكينة النسبية بعد بضعة أيام من العمل الشاق والجهد المتواصل فى الرحيل واحتلال المواقع وتنظيم القوات ، وتلقى الأوامر من الرؤساء وإعطاء التعليمات للصف ضباط والجنود .

ورقد على فراشه السفرى الذى وضع نصفه فى التزلك وبرز نصفه الآخر فى العراء .. ولم تكن للتزلك فى الواقع أية فائدة عملية .. إذ كان لا يزيد على أربعة جدران من القماش بلا سقف .. ولا يكاد يتسع إلا لواقف أو جالس .. ومع ذلك فقد أحس به « على » نوعاً من الحجاب والستر يلمه فى هذا الفراغ اللانهائى .. وتشعر بوحدة محببه إلى نفسه .

رقد « على » على الفراش المشمع ذى السيقان الخشبية الخفيفة المتقاطعة ، وقد ضم نصفه الأعلى الجدران الثلاثة الضيقة وبدت بينها رقعة السماء داكنة تتلألأ بها حبات النجوم .. كأنها حبات « الترتر » فى ثوب أسود .. وكانت بالجو نوبة ركود وزمتة مما تبدأ بها ليالى الصيف .. وأحس « على » بعض الانقباض والحَر بين الجدران الضيقة فأبدل وضعه فى الفراش ووضع رأسه فى الهواء الطلق وساقيه بين التزلك فبدت له رقعة السماء أكثر رحابة وأفسح صدراً .. ووصل إلى أذنيه

لغط الجنود فى مواقعهم وقد جعله سكون الليل وفراغ المكان واضحاً مسموعاً .

وانطلق ذهنه يستدعى ربة الأحلام ، ولم يكن استدعاؤها — على بعد الشقة — بالأمر العسير .

وسرعان ما أقبلت عليه .. تؤنس وحشته .. وتشاركه رقدته العجيبة فى الفلاة الموحشة .. والرمال القفرة .

وأغمض عينيه .. والطيف الجميل منه غير بعيد ، يشاركه أحلام الغفوة .. كما شاركه أحلام اليقظة .

ومرت الأيام بعد ذلك والقوات الأمامية تقوم بواجبها فى المراقبة .. والقوات الاحتياطية تقوم بالتدريب اليومى العادى .

وكانت ساعات النهار تمر بطيئة متثاقلة ، والحرارة خانقة ، والملل شديداً والسكون شاملا .. لا يقطعه إلا صوت دبابة تطن فى الهواء الساخن ، أو صوت عربة يحاول سائقها أن يدير المحرك المستعصى .

وذات مساء وقد تجمع الضباط للسمر فى رياسة الآلاى والتف البعض حول جهاز للإذاعة يعمل بالبطارية ، بلغ مسامعهم نبأ إعلان الحرب .

ولم يكن وقع النبأ مفاجئاً إذ كانت حالة التوتر الدولى قد بلغت حداً جعل نشوب الحرب متوقعاً بين لحظة وأخرى ، وكان مفهوماً أن نقل الآلاى من ثكناته بكوبرى القبة وتشريده فى تلك الفلوات المقفرة لم يكن من باب العبث أو التسلية .. وإنما هو استعداد لنشوب الحرب ، ولصد أية هجمات متوقعة على ذلك الطريق من جانب الإيطاليين .

ومع كل ذلك — ومع توقع النبأ بين آونة وأخرى — أحس « على » بأسى عميق يفعم قلبه على فشل الإنسان فى أن يصون إنسانيته ، وعلى تردى البشر فى هاوية حرب لا يستطيع « على » أن يفهم لها سبباً سوى تطاحن المطامع وتضارب الأهواء .

وتلقى الضباط النبأ بشىء من الوجوم ما لبث أن تغلبت عليه طبيعتهم المرحة

الضاحكة ، وأنبأهم قائد الآلاى أن المسألة دخلت فى دور الجد ، وأن الحرب قد وقعت . وأن دورهم فيها ليس بالهيِّن ، فهجوم الإيطاليين محتمل بين آونة وأخرى ولا بد لكل منهم أن يفتح عينيه جيداً .

ولكن الأيام مضت بعد ذلك دون أن تعلن إيطاليا الحرب ، وبدأت الأعصاب المتوترة تهدأ وتسترخى .. فقد كان الجميع يحسون أن موقفهم بات معلقاً بموقف إيطاليا ، وأن حالة السلام فى ناحيتهم مضمونة ما دامت إيطاليا تتخذ موقف الحياد ، إذ لم يكن هناك ما يهدد حدود مصر الغربية سوى القوات الإيطالية المرابطة فى ليبيا .

ورغم تباعد شبح الحرب مؤقتاً .. وإحساسهم بنوع من الطمأنينة .. فقد بدأ الملل يأخذ بخناقهم والسأمة تضيق على أنفاسهم .. ووقوع البلاء — كما يقول المثل — ولا انتظاره ، وليس أسوأ من الحرب إلا المرابطة فى المواقع انتظاراً لحدوثها .

وزاد من مشقة العيش .. ضعف وسائل التموين وامتداد فترة احتلال المواقع الأمامية ، وتفرق الجنود والعربات فى الفلاة دون أن تتوافر لديهم وسائل الراحة أو الترفيه .

كانت المياه تنقل من الواحات فى عربات بكميات محدودة ، وكان الاستحمام متعذراً .. فإن وجدت مياهه لم يوجد مكانه ، وإن وجد مكانه عصفت به الأعاصير الرملية فوضعت على الأجساد من الرمال والأتربة أكثر مما أزالته عنها المياه .. ومرت فترة تعذر فيها الحصول على السجائر .. وأصيب الجنود بما يشبه الجنون ، وأدهش « على » ذلك التأثير العجيب للسجائر .. كان كل شىء محتملا ، حتى الجوع والعطش .. ولكن الحرمان من السجائر كان يحدث بين الجنود شبه تمرّد ، وأضحت السيجارة تهرّب بينهم بما يزيد على الريال .

وانتشر البعوض والذباب ، كل يتولى الأذى والمضايقة فى نوبته : البعوض

ليلا ، والذباب نهاراً .. هذه الأفواج تسلم تلك كأنها نوبات الدوريات .. وازدادت إصابات الملاريا رغم الكميات الهائلة التى ابتلعتها القوات من أقراص الكنين .

وبدأت التدابير تتخذ لتهيئة وسائل الراحة للقوات بعد أن طال بها التشريد والتفرق بين التباب ، وطالت فترة البقاء فى المواقع الأمامية دون أن تبدو من إيطاليا أيه بادرة للاشتراك فى الحرب .

وزيدت الخيام .. وأنشئت معسكرات ثابتة للأورطة وسحبت البلوكات من مواقعها الأمامية ، وأنشئت اللترينات والحمامات وغيرها من المرافق وأجريت الاستعدادات لإقامة أطول دواماً وأكثر راحة ، واستدعيت من القاهرة بقية الأسلحة المعاونة ، وأنشئت ورشة لإصلاح العربات والأسلحة ، وزاد عدد القوات فى باطن الواحة ، وبقى آلاى السيارات معسكراً وحده خارجها بعد أن ارتدّت قواته من الخطوط الأمامية إلى المعسكر القريب من جرف الواحة .

وكان « على ماهر » قد تسلم مقاليد الحكم بعد أن ضج منه « محمد محمود » وأعياه الاستمرار فيه وأعجزته كثرة العراقيل والعقبات ، وأحدث « على ماهر » عندما تولى الوزارة رجة فى دوائرها بعد أن أخرج عدداً كبيراً من وكلاء الوزارات وكبار الموظفين من كل لون ونوع ، وكان بين هؤلاء رئيس هيئة أركانحرب الجيش فوضع مكان الرجل الطيب محمود شكرى .. عزيز المصرى .. الذى بدا نقيضاً لسلفه فى كل شىء .

وبمر الأيام واستمرار تخلف إيطاليا عن الحرب زاد الهدوء فى جبهة البحرية واشتد الملل ، وأخذ « على » يحس بالوقت يمر به ثقيلا بطيئاً .. حتى ليكاد يمشى القهقرى ، وأخذ الحنين فى نفسه يشتد والشوق يزداد .. ولم تعد تجدى معه الذكرى المجترة التى كان يحيا عليها فى لياليه الموحشة وأيامه الطويلة التى لا يملأ فراغها سوى الانتظار والتفكير .

وامتلأت نوتة الميدان بالرسائل الطويلة يسطرها للغائب النائى بلا أمل فى

إرسالها له ولا رجاء فى إبلاغها إياه .. وكأنها نفثة مصدور يطلقها كلما ملأت الكروب صدره وأفعمت جوانحه ، واختلطت فى النوتة مشروعات التكتيك بأحاديث الهوى .. وحرس الجنب بالمناجاة الحارة .

وأقبل الشتاء وزادت الحياة مشقة وعسراً ، وكان البريد لا يصل إلا متقطعاً والرسائل عزيزة نادرة ، ولم يكن « على » قد تلقى خلال بضعة الأشهر التى أقامها سوى رسالتين من أخيه تحملان تحياته وأشواقه وبعض مغامراته ، ورسالة من « بهية » استطاعت أن تكتبها بأسلوبها البدائى وخطها الركيك تحملها أشواق أمه وأبيه ، وبعض الأنباء التافهة .

وفى الرسائل الثلاثة لم تخط كلمة واحدة ، عما كان يهفو إليه قلبه وتتوق إليه روحه .. لقد كتبوا إليه عن كل تافهة لا يعنيه أمرها .. أما عن « أنجى » فلا حرفاً واحداً .

وأخيراً وصلت إليه رسالة من حسين ، وكان الوقت ضحا ، وقد انتهى من التفتيش على صيانة عرباته ومدافعه ، وأقبل على خيمته ليخلع الأوفرأول الأحمر ويرتدى الشورت والقميص .. وفى طريقه إلى الخيمة مرّ بخيمة المطبخ وقد وقفت أمامها عربة التعيين تفرغ حمولتها من الخضر واللحوم ، ولم يكد البلوكامين يلمحه حتى أقبل عليه محيياً ، وبين يديه مجموعة رسائل وقال :

— لحضرتك رسالة فى بريد اليوم .

وبحث عن الرسالة ثم مدّ بها يده فتناولها « على » شاكراً ، ومضى إلى خيمته

كانت الرسالة من حسين ، فقد ميز خطه بسهولة على مظروفها ، ورغم يقينه عندما أنبأه البلوكامين بها ، وأنها لا بد وأن تكون من أخيه .. فقد أحس بشىء من الخذلان عندما تبين أنها فعلا منه .. إذ لم يستطع يأسه المطبق أن يطفىء ذبالة أمل كانت ما تفتأ تتوهج كلما أبصر بريداً مقبلا .

كان يعلق نفسه بخيط رفيع من الأمل .. قد تخفيه أحياناً ظلمات اليأس والملل والضيق .. ولكنها مع ذلك لا تمحو وجوده .. فمنه كان يستمد الصبر والجلد

والقدرة على مباشرة مظاهر الحياة كغيره من الأحياء .

ألم يسبق أن كتبت له من قبل ؟! ألم تطلب منه أن يستمر على الثقة فيها والإيمان بحبها ؟!

ألم تجبه عندما سألها : « أما زال حبك كما هو ؟ » بقولها : « وأكثر » ؟

ما الذى يمنعها إذاً من الكتابة إليه ؟

ومع ذلك فهى لا تكتب .

وجلس على المقعد السفرى القماش فى داخل الخيمة .. وفض الرسالة محاولا تبديد ما أصابه من خذلان وضيق .. ولم يصعب عليه ذلك . فقد كان مجرد وصول رسالة أمراً يبعث على الطرب ، وهى رسالة من أخيه الحبيب لا بد أن يكون قد حملها الكثير من فكاهته ومرحه ومغامراته .

ثم .. من يدرى .. ربما يكون قد استحى وضمنها بعض أنبائها .

ألم يلمح له هو فى رسالته الأخيرة برغبته فى أن يذكر له شيئاً عنها ؟

وبدأ فى قراءة الرسالة .. وافتر ثغره عن ابتسامة واسعة وهو يمر ببصره بين السطور المرحة الماجنة .. ثم أحس بالبصر يتجاوز السطور سريعاً ليثبت على كلمة كانت تستطيع دائماً أن تجتذب بصره بين مئات الكلمات .. وهفا قلبه وتوالت دقاته ، وتوقف برهة عن القراءة حتى يتمالك أنفاسه ، وحتى يتأكد أن الكلمة هى « أنجى » حقاً .. وأنه لم يكن واهماً ولا متخيلا .. ثم استرسل فى القراءة :

« وقد رأيت صاحبتك « أنجى » مرتين .. وتمنيت فى كل مرة لو كان فى يدى خاتم سليمان لكى آمر مارده أن يمد يده لإحضارك من خيمتك على حافة الواحة البحرية .. حتى تمتع بصرك بها .. لقد كانت حقاً رائعة .. ويبدو لى أنها تغيرت كثيراً عما كنا نبصرها فى حديقة أبيها ونحن طلبة .. لقد رأيتها فى المرة الأولى ترقص فى الموكسليسور مع قريبها النبيل إبراهيم كمال .. كانت ثابتة الخطى .. مرفوعة الهامة .. وقد لمحتنى وهى توشك على الانصراف ، وأشارت لى بهزة من رأسها ، وقد توقفت قليلا وبدا على ملامحها كأنما تود أن تحدثنى عن شىء ،

ولكنها ما لبثت حتى انصرفت مع رفاقها .

« ورأيتها فى المرة الثانية فى إحدى الحفلات الخاصة .. فى قصر الأميرة نعمات .. وقد دعتنى إليها « درية » وكانت حفلة هائلة .. وقد حضرها « مولانا » وكان تبدو عليه أقصى أمارات الغبطة .. والطرب .. وكانت قهقهته تتجاوب فى أنحائها .

« لقد سنحت لى فرصة الحديث مع « أنجى » للحظة خاطفة ، وسألتنى عنك .. فقلت لها إنك ما زلت فى الواحات البحرية ، وأنك تسأل عن أنبائها ، ولم أتبين من حديثها ذلك المرح الذى قد يبدو فى ظاهر حركاتها ، وخيل إلىّ أنها مهمومة .. أو على الأقل .. هذا ما توهمت .

وكان فى صحبتها نفس « الشلة » التى رأيتها معها من قبل .. ماذا أعرف أيضاً عن أنجى ؟ .. لست أذكر الآن أكثر من هذا .. لا .. لا .. بقي شيء واحد .. لقد قالت لى إنها تود أن تحدثنى فى أمر هام .. ولكن (درية) أقبلت وانتزعتنى لكى أرقص معها .. وعندما عدت إليها كانت منهمكة وسط (شلتها) ثم اختفت عن ناظرى بعد ذلك .. دون أن تسرّ إلى بحديثها الهام .. وماذا أيضاً ؟ .. أظن هذا كل شيء .

(أما عن ..)

— ولم يتمم « على » الرسالة .. وتركها تسقط من يمناه فوق المنضدة .. ورفع يسراه يضغط بها على جبينه كأنه يعتصره .. ثم غطى وجهه بكفه مغمضاً عينيه وقد أحس كأن أكداسا من الحزن ترسب فى جوفه .. وتشل حركته وتنهك قواه .

وبعد ..!!

ماذا بعد كل هذا ؟!

أهذا هو حبها الأكثر ؟ .. أتلك هى ربة أحلامه .. وإلهة أوهامه ؟! أم تراه — كما قال سليمان — قد رسم لها فى ذهنه صورة ليس لها من حقيقتها صلة

ولا شبه ؟!

أحقا .. ترقص مع ذلك المخلوق .. الذى يأبى إلا أن يبدو معها فى كل مكان ؟

لا .. لا .. لايمكن أن تفعل « أنجى » هذا .. إنه ما زال يذكر آخر لقاء لهما .. يذكر نظرتها الحارة وحديثها العذب .. يذكرها كما أحبها دائماً طاهرة نقية مرهفة نبيلة سامية .. لا صلة بينها وبين تلك الصورة الشوهاء التى يحاولون أن يبدوها بها .

ولكن من الذى يحاول أن يبديها بها ؟ أخوه ؟ وما فائدته من هذا ؟ أى شىء يدعوه لأن يفترى عليها كذباً ؟!.. ثم إن « حسين » يسرد حديثه عنها ببساطة من لا يجد فيه عيباً .. إنه يذكره بلا نفور ولا إحساس بالحرج .. إن كل ما فعل هو أن لبى طلبه وروى له أخبارها .. وإذا كانت تلك هى أخبارها ، وذلك هو كل ما استطاع معرفته عنها .. فما ذنبه ؟

وأخذت الأفكار تضطرم فى رأسه .. والظنون تنهش صدره .. وكان البعد وطول الفرقة قد أوهت مقاومته .. فأحس أنه يتهاوى أمام ضربات الوساوس .. ولطمات الشكوك .. وامتلأت نفسه بيأس شديد .. وهو ملقى فى وحدته النائية بلا أمل فى شىء .. مستسلماً لهجمات الظنون .. بلا سلاح يقاوم به .. لا لقاء ولا كلمة ولا نظرة .

وعندما حان وقت الغداء لم يغادر خيمته واعتذر عنه بوعكة طارئه .. وفى العصر بدا فى المحاضرة التى ألقاها قائد الآلاى على تختة الرمل ، واجماً شارد الذهن .. وعندما اجتمع الضباط للسمر فى المساء افتقدوه بينهم ، وتلفت القائد حوله متسائلا :

ـــ أين على ؟

وتطوّع أحد زملائه بالإجابة قائلا :

ـــ أظنه بالخيمة .

— ماذا به ؟

— لقد كان متعباً من الظهر .

ووجه القائد سؤاله إلى اليوزباشى الطبيب

— ألم تره يا دكتور إبراهيم ؟

— لقد رأيته بعد الغداء .. لم يكن به شيء .. الحرارة طبيعية . والنبض عادى .. أظن أنه مجرد إنهاك .. أو قد يكون هناك ما يضايقه نفسياً .

— لقد بدا عليه الشرود والوجوم خلال المحاضرة .. كان يبدو وكأنه فى عالم آخر .. ولا أظنه فهم كلمة واحدة مما قلت .. ألا يعرف أحد ماذا به ؟

وأجاب أحد الضباط :

— لقد وصلته اليوم رسالة .. ربما كان بها ما يحزنه .. أنا أعرف أن أباه كان مريضاً بالضغط .

وبدت علامات التفكير على وجه القائد .. وبعد فترة صمت ، وجه الحديث إلى اليوزباشى أركان حرب الآلاى متسائلا :

— اسمع يا عبد العزيز .

— أفندم سعادة البيه ؟

— متى ستنزل الدفعة القادمة من إجازات الضباط ؟

— ستنزل يوم السبت .. فالمفروض أن تحضر الدفعة الأولى يوم الجمعة .

— دفعة أنور وكمال ؟

— أجل .. لقد قاما يوم السبت ، وسنحسب الأجازة خمسة أيام عدا يومى سفر فيكون موعد قدومهما يوم الجمعة .

— ومن سينزل فى الدفعة التالية ؟

— أظن حسين وزكى .

ورد حسين مصدقاً على قوله :

ـــ أجل .. إن الدور علينا .

وصمت القائد مرة أخرى ثم تساءل :

ـــ ومتى سيحل الدور على « على » ؟

ـــ أظن ما زال الوقت مبكراً عليه .. لن يحل دوره قبل بضعة أسابيع .

ـــ إذاً دعه ينزل فى هذه الدفعة .

ـــ بدل مَن ؟

وبدا الوجوم على حسين وزكى ، ولكن القائد ما لبث أن أزال وجومهما بقوله :

ـــ لينزل معهما .

وبدا التردد على وجه الأركانحرب وأجاب قائلا :

ـــ ولكن دوره لم يحل .. أعنى أن بعض الضباط قد ...

ـــ لن يعترض الضباط على شىء .. إنى أعرف أن حالته المعنوية سيئة .. منذ مدة وأنا ألاحظ ذلك .. وليس هناك فائدة من استمراره على حالته تلك .. لن تحصل منه على نصف مجهوده .. دعه ينزل هذا الأسبوع ليطمئن على أبيه .. وسيعود إليك كالحصان .. إنه ضابط كفء وممتاز ، ويجب أن نعاونه على استرداد قدرته على العمل ، وعلى رفع روحه المعنوية .

وقال « حسين » وقد تأثر بقول القائد :

ـــ إنى على استعداد للتنازل له عن دورى .

ـــ لا ضرورة لذلك . يمكنكم أن تسافروا أنتم الثلاثة . يستطيع الآلاى أن يسير بدونكم أسبوعاً .. ولست أظن أن إيطاليا تنوى الهجوم هذا الأسبوع .

وكان « على » قد استلقى على فراشه السفرى .. وأخذ يحدق فى ذبالة « الفانوس الهاريكين » المعلق فى عمود الخيمة وشرد ذهنه بعيداً .. بعيداً .

لو أتيحت له الفرصة أن يراها .. ويتحدث إليها .. لزال هذا اليأس الجاثم

على صدره .. إنه ما زال واثقاً بها مؤمناً بحبها .. إنه لن يخذلها قط .

فقط لو استطاع أن يراها لتمنحه من نظراتها قوة على الصبر والتجلد .. هذه المرة .. عندما يعود إلى القاهرة لن تمنعه قوة من رؤيتها والحديث إليها .. إن لها حقاً عليه .. حق الصلة الروحية .. والارتباطَ الأبدى .. لن يتركها هذه المرة إلا وقد ارتبط برباط أوثق .. أجل يجب أن يوضح لها همومه ووساوسه ، ويطلب منها أن تكف عن هذه المظاهر التى تبدو بها ويتفق معها على خطوة إيجابية فى سبيل ارتباطهما .. إلى متى سيظل على موقفه السلبى المتردد !! ألم يصبح كفئاً لها ؟! إنه وشيك الحصول على الترقية خلال بضعة الأيام القادمة .. وسيصبح « ملازم أول » وهو يستطيع أن يتقدم لخطبتها .

يتقدم لمن ؟ .. لأبيها ؟. لأفندينا ؟ . وأفزعه الخاطر ، وأحس بعجز عن الإقدام عليه حتى فى مجرد التفكير .

ولكن ماذا يخشى ؟! مادا يفزعه من أفندينا ؟ مادامت هى تحبه . وما دامت قد صممت على أن تربط حياتها به .. وطلبت مه الثقة فيها والإيمان بحبها ؟

كيف يستطيع أفندينا أن يقف فى وجه الطبيعة ؟! كيف يمكن أن يقاوم وثاق الأرواح ورباط القلوب ؟!

لا .. لا .. إنه يجب أن يخضع .. وعندما يذهب إلى القاهرة هذه المرة لا بد أن يحسم الأمر .

ولكن متى سيذهب إلى القاهرة ؟! يخيل إليه .. أنه لن يعود إلى القاهرة قط .. وأنه سيفنى بقية عمره بين هذه التباب المقفرة الرملية ، وسط الخيام والعربات ، والبعوض والذباب .

ما زال أمامه وقت طويل حتى يحل عليه الدور .. فإن أقدميته لن تمكنه من النزول إلا فى آخر دفعة ، وسيكون اليأس والوساوس قد قضت عليه قضاء تاماً .. قبل أن يحل موعد نزوله .

وأحس بوقع أقدام تقتُرب من الخيمة ، ثم أبصر شبحاً يقترب منها ويخطو إلى داخلها وسمع صوت « حسين » يهتف به :

ـــ ستنزل معنا يا « على » بعد غد ، أو على الأصح فى الغد . فقد عزمنا على أن نتحرك من هنا فى منتصف الليل .. فالقمر سيكون مشرقاً ، والطريق واضحاً ، وسنستفيد ببضع ساعات الليل حتى نصل إلى القاهرة ظهر السبت ونستفيد باليوم كله بدل أن نضيعه فى السفر .

(٤٢)

مجرد هذيان

انساب موكب العربات الثلاث على ضوء القمر فى منتصف الليل .. وكانت معالم الطريق تبدو باهتة فى الضوء الشاحب ، وأشباح التلال الهرمية فى باطن الواحة تلقى ظلالها مترامية بجوارها ، والسكون قد ساد إلا من صوت محركات العربات .

وخلف الموكب الواحة وراءه ، وانحدر فى التلال المؤدية إلى بحر الرمل ، وأحس « على » بجسده المنهك قد أخذ فى الاسترخاء على حركة اهتزاز العربة ، وبدأ النوم يتسرّب إليه طاوياً فى برديه حشد الأفكار الذى يدور برأسه كالدوامة .

واستغرق « على » فى غفوات متقطعة لا يكاد يستسلم إليها حتى توقظه رجة أحد المطبات .. ثم استقام الطريق بعد ذلك فمنحه غفوة طويلة .. لم يحس هو مداها إلا بعد أن وقفت العربات وفتح عينيه فإذا بخيوط الضوء تتسلل من الأفق الشرقى طاوية ضوء القمر كاسفة وجهه .

ووقف العربات برهة للراحة وهبط الضباط الثلاثة يحركون سيقانهم ، ونظر « زكى » إلى ساعته وبدت على وجهه سيماء الفرح وهو يقول .

ـــ قطعنا مرحلة طيبة فى وقت قصير ؟!

وأجابه زميله «حسين » :

ـــ لقد عاوننا على ذلك أننا أجتزنا بحر الرمل دون أن تتوقف إحدى العربات .

ـــ لقد كنت تمشى بسرعة مخيفة .. ولم أملك أنا إلا أن أتبعك .

ـــ ولولا هذا لما اجتزناه بهذه السهولة .

ـــ على أية حال يجب أن نخفف السرعة .

ـــ ما زال أمامنا ما يربو على مائتى كيلو .. والطريق فى المرحلة القادمة أكثر تمهيداً .

ـــ إننا نستطيع أن نقطع المسافة الباقية بسهولة فى خمس ساعات .

ـــ سنضرب بذلك رقماً قياسياً .. سنكون فى القاهرة الساعة العاشرة .

ـــ كأننا استيقظنا فى بيوتنا .. لن يضيع علينا يوم السفر .. سنكسبه كاملاً .

ـــ لشد ما أنا مشتاق إلى القاهرة وشوارعها وحوانيتها ونسائها .. لقد كرهت عيناى اللون الكاكى .. إنى أتوق إلى رؤية اللون الأحمر .. فى الثياب أو الخدود أو الشفاه .. لقد أقسمت ألا أضيع دقيقة واحدة فى النوم ، سأمضى الأسبوع كله مستيقظاً وسأؤجل النوم حتى نعود إلى الواحة البحرية .

ـــ أنا أيضاً سأفعل مثلك .. إن لدىّ من الأعمال التى أريد إنجازها ما يشغل شهراً بأكمله ولست أدرى كيف سأقسم وقتى فى هذا الأسبوع .

ولم يكن « على » قد نبس ببنت شفة ، بل كان يقف صامتاً شارداً وقد وضع يديه فى جيبى بنطلونه وأطرق إلى الأرض وأخذ يحفر بكعبه حفرة فى الرمال كأنه حصان قلق .

ونظر إليه « حسين » وحاول إخراجه عن صمته متسائلا :

ـــ وأنت يا على .. ماذا تنوى أن تفعل ؟! وكيف ستقضى أجازتك ؟

ولم يعرف « على » كيف يجيب .

ماذا ينوى أن يفعل ؟ .. أيستطيع هو أن يدرى ؟! وإذا درى ما ينوى أن يفعل .. أيستطيع فعله ؟!

أيستطيع أن يقضى فيه إجازته ؟

إنه ينوى لقاءها ، وعتابها ، ومناجاتها ، والاتفاق معها على ربط علاقتهما بميثاق إيجابى معترف به . ثم التقدم إلى أبيها .

ولكن .. هل سيتاح له لقاؤها ؟! وإذا منحه الحظ السخى فرصة اللقاء ..

فكيف ستلقاه !؟ بصورتها فى ذهنه .. أم بصورتها البادية أمام الناس ؟ وإذا عاتبها فكيف ستتلقى عتابه ؟! أله عليها حق العتاب ؟

وإذا قبلت عتابه .. وأوضحت له موقفها بما يقنعه .. أستقبل ما يعرضه من ارتباط إيجابى ؟! أستوافقه على ذلك ، وتمنحه من إيمانها به مزيداً من الثقة والإيمان والقوة التى تمكنه من التقدم إلى أبيها .. أم ستفزع من مجرد عرضه عليها ؟

وإذا وافقت ، ومنحته الثقة والإيمان والقوة .. أسيجد فى نفسه من الجرأة ما يجعله يتقدم إلى أفندينا .. بجاهه .. وعظمته ، وعجرفته وكبريائه ؟

وإذا وجد الجرأة وتقدم .. فكيف سليقاه أفندينا ؟

أفٍّ له .. ولهذا العالم البغيض الممقوت .. أبعد كل ما فعل ووصل إليه فى الحياة .. ما زال يجد نفسه صغيراً متضائلا .. إزاء ذلك العملاق الأرستقراطى المتعالى ؟!

ورمق صاحبيه فى شرود .

هذا هو ما ينوى أن يفعل ، أيستطيع أن يقوله لهما ؟!

وببساطة أجاب على سؤالهما الذى ما زال معلقاً :

ـــ سأرى أبى وأمى .

وضحك « حسين » قائلا :

ـــ أباك وأمك ؟!

وشاركه « زكى » فى ضحكته وعقب عليه بقوله مازحاً :

ـــ لعن الله أباك وأمك .. أستقضى فى رؤيتهما كل الأجازة ؟

ولم يملك « على » إلا مشاركتهما فى الضحك قائلا :

ـــ وزيارات الأقارب والنزهات ، والسينما ، إلى آخره .

ـــ تعنى ستضيعها سدى .. خسارة فيك الأجازة .. هيا بنا ..

ـــ هيا .. ليأخذ كل منا دوره فى قيادة السيارة حتى نريح السائقين .. إذ أخشى أن يناموا فى الطريق .

ومرة أخرى انطلقت العربات تطوى الحصى والرمال والأرض الواسعة الفارغة .. ورويداً رويداً .. أخذ الضوء ينتشر وتصاعد قرص الشمس من وراء الأفق بضوئه الأحمر اللين شاقاًطريقه إلى كبد السماء .. وزادت سرعة العربات وتغافل الضباط الثلاثة عن عداد السرعة كأنهم لا يرونه .

واستمر السير طويلا مملاً حتى لاح فى أقصى الأفق الخاوى المنبسط الذى تنطبق سماؤه على أرضه .. شبح باهت ضئيل يلفه الضباب حتى لا يكاد يبين .

وأخذت تعرجات الأرض وثنياتها التى تصعد فيها العربات وتنحدر .. تبدى الشبح مرة وتخفيه أخرى .. حتى لكأنه السراب لا يكاد يلمع حتى يختفى .. وأخذت الأعين تحدق فى الشبح متلهفة مشتاقة ، والقلوب تدق فرحة مصفقة .

وأخيراً بدت معالمه جلية واضحة ، واستقام فى الأفق شكله الهرمى الواضح المحدود ، وتوالت بعد ذلك المعالم .. وبدا السهل الأخضر منبسطاً تعلوه طبقة من الضباب وتتناثر فيه أشباح دور وأشجار مختلطة متشابكة تكاد تضيع معالمها فى الخضرة المنبسطة والضباب المنتشر .

وأصاب الركب نشوة ، واندفعت العربات فى جنون كأنها تود أن تلقى بنفسها فى أحضان العمار والحياة بعد أن ملت طول السير فى القفر اليباب .

وكانت عربة « على » فى مؤخرة الركب تلاحق العربتين الطائرتين وقد ضغط « على » بقدمه دواسة البنزين وتشبث بعجلة القيادة وتخلل بصره زجاج العربة محملقاً فى الطريق الرملى المطوى تحت العربة وكأنه يعدو فى سباق .

وفجأة أحس برعدة تسرى فى بدنه وبغيام خلط المرئيات أمام عينيه وضربات متلاحقة تثقل رأسه وغثيان ودوخة جعلت الأرض تترجح أمام ناظره .

وحاول جهده أن يقاوم ، ورفع يسراه يضغط جبينه ويمسح عينيه .. وكانت نوبة خفيفة مشابهة قد أصابته عشية أمس جعلته ينتفض ويرتجف ، ولكنها لم تلبث أن زالت ، وانتظر أن تزول النوبة كما زالت سابقتها ، ولكنه أحس بها تتضاعف وتتزايد ، وشعر بجسده ينتفض كأن ريحاًباردة تعصف به ، وازداد

تثاقل الضربات على رأسه ، وبدت له المقاومة مستحيلة وهو لا يكاد يتماسك على مقعده ولا تكاد يداه تطبقان على عجلة القيادة .

ورفع قدمه عن دوّاسة البنزين ، ووضعها فى إعياء على الفرملة .. وأخذ يضغط فى جهد ومشقة .. وتمهلت العربة رويداً رويداً .. حتى توقفت تماماً .

ودهش السائق من توقف العربة .. وظن أن بها فى أول الأمر خللا، ولكنه وجد « علياً » قد مال إلى الأمام واتكأ بساعده على عجلة القيادة وألقى برأسه فى إعياء شديد على ساعده ، ثم استغرق فى شبه غيبوبة .

وتساءل الجندى السائق فى جزع :

ـــ حضرة الضابط .. حضرة الضابط .. ماذا بك ؟

وأجاب « على » فى صوت خافت ملؤه الإعياء :

ـــ لا شيء .. إنى متعب قليلا .. ولا أظننى أستطيع مواصلة السواقة .. تعال مكانى لتسوق .

ولكنه لم يتحرك من مكانه .. لقد كان يحس بانهيار تام يجعله لا يستطيع حراكا .

وصاح السائق بالجندى الجالس فى الخلف :

ـــ أعطنى بعض الماء من زمزيتك يا مهدى .. حضرة الضابط مغمى عليه .

وقفز الجندى من بين شوالات البرتقال وصفائح العجوة التى كانت العربة محملة بها ، والتى كان « على » يحملها هدايا لأهله ولأهل بعض زملائه وهبط إلى الأرض وأخذ يفك الزمزمية القماش المعلقة فى العربة .

وقبل أن يبدأ السائق علاجه بزمزمية المياه استطاع « على » أن يتحامل على نفسه ويسحب جسده من عجلة القيادة إلى المقعد المجاور .

وفى خلال ذلك كانت العربتان المتسابقتان قد اكتشفتا توقف عربة « على » وتمهلتا برهة .. وما لبثتا أن أدارتا وجهيهما وانطلقتا عائدتين لتقديم المساعدة .

وأحس « حسين » و « زكى » بالضيق والحنق ، وهما يعودان القهقرى بعد

أن باتت القاهرة ملء ناظريهما ، لا يفصلهما عن الحياة والخضرة .. والوجه الحسن .. إلا بضعة كيلو مترات .

وتوقفت العربتان بجوار عربة « على » وهبط الضابطان يتساءلان فى حنق عن سبب العطل .. وقبل أن يتلقيا الإجابة لمحا « علياً » وقد تراخى جسده على المقعد فى إعياء تام وقد بدا وجهه منهكاً شاحباً .

وأقبلا عليه فى جزع ، وسأله زكى :

— ماذا أصابك يا على ؟

وأجابه « على » فى صوت خافت مجهود :

— إنى متعب بعض الشىء ، لقد أصابتنى دوخة ورعدة ، ولكننا نستطيع أن نواصل السير .

ووضع كفه على جبينه فراعه لهيب يتصاعد منه ، وأحس بأن جسده يرتجف ، وأسنانه تصطك .

وكانت الشمس قد تعالت فى كبد السماء ، وملأت الجو دفئاً . يكاد يكون حاراً ، ومع ذلك فقد همس « على » فى صوته المرتعد :

— إنى بردان ، أشعر ببرد شديد ، أريد شيئاً أتدثر به .

وصاح حسين بالسائق :

— هات معطفى من العربة .

وأحضر السائق المعطف ، فوضعه حسين على كتفيه ولفه به .

وقال زكى :

— لا شك أنها ملاريا .. منذ متى شعرت بالتعب ؟

— أصابتنى نوبة خفيفة عشية أمس .

— كان يجب أن تستريح .. لو أخبرتنى لما تركتك تغامر بالسفر .. وأنت مريض .

— لم يخطر ببالى أنها ملاريا .. كانت نوبة خفيفة جداً .

وتدخل «حسين » قائلا :

ــ على أية حال لقد سافرنا وانتهى الأمر .. المهم هو ماذا يمكن أن نفعله الآن ؟

وأجاب « على » فى صوته المجهد الخافت :

ــ نواصل السير .

ــ وأنت محموم ؟ وأنت بهذه الحالة ؟

ــ ليس بى شىء .. إنى تعب فقط ، وأستطيع أن أجلس هكذا فى مقعدى حتى أصل إلى البيت .

ــ إن أمامنا ما يقرب من عشرة كيلو مترات على أول طريق الهرم ، ومن أول طريق الهرم إلى بيتكم ما لا يقل عن ثلاثين كيلو متراً .

ــ إنها مسافة قصيرة .

ــ ألا تنتظر حتى تستريح قليلا ؟

ــ لا .. لا .. هيا بنا .

ــ إذاً دعنى أجلس بجوارك .. سأسوق لك .. تقدم أنت يا زكى بعربتك وسر على مهل ، لا تزد عن ثلاثين كيلو ، ولتتبعنا العربة الثالثة .

وعاود الركب مسيره وئيداً متمهلا ، و« على » مستلق على مقعدة خائر القوى ، محموم الرأس ، مقرور الجسد .. تصطلك أسنانه وترتعد أطرافه ، لا يكاد يرفع أجفانه أو يقيم عنقه أو يصلب ظهره .

وعلى هذه الحال وصل « على » إلى بيته وهبط صاحباه يأخذان بساعديه ليعاوناه على السير للدخول إلى البيت ، وكان أكثر ما يشغل رأسه المحموم ،هو جزعه على أمه عند الدخول عليها بعد طول غيبة فى حالته تلك من الإعياء والمرض .. وهو الذى كان يصوّر لنفسه فرحتها بعودته المفاجئة .

وسحب ساعديه من ساعدى صاحبيه قائلا وهو يحاول جهده التماسك والتجلد :

ـــ إنى أستطيع السير .. إنى أحسن حالا .

وقبل أن يصل إلى الباب كانت « بهية » قد فتحته على صوت ضجيج العربات .. ولم تكد تعلو وجهها سيماء الفرحة بوصول « على » حتى غلبها جزعها من إعيائه البادى وخطواته المتثاقلة ، ولم يمنعها حياؤها من صاحبيه من الاندفاع إليه ، وسؤاله فى لهفة وجزع :

ـــ ماذا بك يا على ؟

وارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة وهو يجيب :

ـــ لا شيء .. متعب قليلا .. أين أمى ؟

ـــ إنها فى الداخل .

وأحست « بهية » حرارة جسده وهى تصافحه فقالت فى أسى وخوف :

ـــ إنك محموم !

وقال زكى مطمئناً :

ـــ إنها حمى بسيطة .. لقد أخذناها كلنا .. إنها ضريبة الواحات لا بد لنا من تأديتها .

واجتاز « على » الباب تتقدمه « بهية » وتلفت إلى صاحبيه قائلا :

ـــ إنى عاجز عن شكركما . وددت أن أدعوكما للغداء . ولكنى أعرف قيمة وقتكما .. إنى آسف على هذا التأخير الذى تسببت لكما فيه .

وشدّ زكى على يده قائلا :

ـــ ليس هناك أى تأخير . كان لا بد لنا من الاطمئنان على وصولك .

وقال حسين :

ـــ سأبلغ المستشفى العسكرى حتى يرسلوا لك طبيباً .

وانصرف الصاحبان . وتقدم « على » بخطواته المتثاقلة وهو يكاد يتهاوى .

وانبعث من المطبخ صوت الأم مختلطاً بصوت « موقد الجاز » مستفسرا :

ـــ مَنْ يا بهية ؟

وصاحت « بهية » مجيبة :

ـــ إنه عليّ .

وأضاعت ضجة « الوابور » صوت « بهية » فلم تميز الأم قولها . وخطت بضع خطوات إلى الباب الفاصل بين المطبخ والقاعة لتستطلع بعينيها ما عجزت أذناها عن تبينه ، فإذا بها تفاجأ بعلى .

ووقفت لحظة مبهوتة ثم اندفعت إليه صائحة :

ـــ على !!

وسبقت دموعها إلى خديها ، ومدت ذراعيها تحتضنه وقد خيمت على عينيها سحب الدموع فلم تبصر منه إلا صورة مهزوزة مطموسة .

ومضت فترة وهى تضمه إليها ، ودموعها تختلط بوجهه وهو يربت ظهرها فى رفق ، وذهب عنها انفعال المفاجأة الذى جعلها لا تكاد تشعر إلا بولدها الغائب بين ذراعيها . وبدأت تحس بأنفاسه الملتهبة .. ورأسه المحموم .. وجسده المرتجف المقرور ، وسرت الرجفة من جسده إلى جسدها وهتفت مرتاعة :

ـــ ما بك يا على ؟ ما بك يا حبيبى ؟ إن رأسك ملتهب !

وأحس الأب القابع فى حجرته بالضجة وبلغ مسامعه اسم « على » يتردد فاندفع بذراعه المشلولة ، وجسده الهزيل الخائر يستطلع جلية الأمر صائحاً :

ـــ على .. ماله على ؟

وأجاب « على » وقد رسم على وجهه ابتسامة حاول جهده أن يرفع بها مظاهر الإعياء والمرض الذى يكاد يلقى به أرضاً :

ـــ لا شىء يا أبى .. لقد استطعت الحصول على أجازة ورغبت أن أفاجئكم بالحضور .

وهتفت الأم وهى تمسك به مشفقة وتقوده إلى حجرته :

ـــ إن جسدك يرتجف .. تعال إلى الفراش .

واقترب منه أبوه وضمه إليه قائلا :

ـــ ماذا بك يا « على » ماذا حدث ؟

ـــ لا شيء أبداً .. المسألة لا تستدعى كل هذا الخوف .. إنها حمى بسيطة مرّت علينا جميعاً . الحمد لله أن أصابتنى وأنا معكم .

واستلقى « على » فى فراشه يرزح تحت سطوة الحمى وأحس أنه كان مغالطاً عندما وصفها بالبساطة .. فقد أمسكت بخناقه وألحت عليه حتى تركته خائراً مكدوداً .. لا تكاد نوبتها تحل حتى تلقيه جسداً بلا وعى ولا حراك .

ومرّت الليالى طويلة مضنية والأم ساهرة لا يغمض لها جفن ، والأب يرقب فى جزع وإشفاق ، و« بهية » دائبة لا تكف عن الحركة .

ووصل « حسين » بعد أن كتبت إليه « بهية » تنبئه بوصول أخيه ومرضه .. واتخذ دوره فى السهر والخدمة والترفيه عن أخيه فى الساعات التى يفيق فيها من سطوة الداء .

وبلغت العلة بعلى أشدها .. وألقته فى فراشه يتململ ويتأوه ويهذى .

وجلست الأم فى سكون الليل وبهمته هامية المقلة تنصت إلى هذيان ابنها الحبيب مختلطاً بنقيق ضفدع أو نعيق بوم .

وكان الهذيان فى أول الأمر خليطاً غير مفهوم أشبه بتأوهات شاك أو نفثات مصدور ، ولكنها ما لبثت حتى ميزت فيه اسم « أنجى » .

وتكرر الهتاف بالاسم كأنه يناديها أو يناجيها .. وتحدث عن أشياء لم تستبن معناها .. عن صورة فى ذهنه ، وصورة فى مجلة ، وعن ثقته وإيماله ، وعن ريح الرجاء .. وعن « قلبان فى قلب » .. وعن ميثاق إيجابى .. واستمر الهذيان عن أشياء كثيرة قصر ذهنها عن إدراكها .. كل ما عرفته أنها أشياء تتعلق « بأنجى » .. فقد كان اسمها لا يفتأ يتردد بين آونة وأخرى .

شيء واحد هو الذى استطاعت أن تفهمه فى نهاية الهذيان ، وهو التقدم للخطوبة « أجل سأتقدم إليه .. إنه أمير ، ولكنى أيضاً ضابط فى الفرسان .. لقد جاهدت لكى أكون أهلا لك .. وأنت نفسك لا تعترفين بالفوارق

الطبقية .. فلماذا يحول بيننا ؟! سأتقدم إليه وإن لم يقبل فسنفر سوياً .. أليس كذلك ؟! ألم تقولى أنت نفسك إنه لن يفرق بينا ولا الموت .. أجل ، ولا الموت .. إنى لن أموت .. لن أذعن للموت .. أريد الحياة من أجلك .. سأحيا .. سأحيا » .

ولم تستطع الأم أن تحتمل فاندفعت فى نوبة حارة من البكاء وهى تهتف بابنها :

ـــ ستحيا يا بنى .. سيحيا من أجلها ، ومن أجل شبابك ، ومن أجلنا جميعاً .. سيحقق الله آمالك.. فالله كريم رحيم .

ورفعت يديها إلى السماء تدعو : «يارب » !

وأقبل « حسين » و« بهية » على صوت نحيبها ودعائها يستفسران فى جزع عن جلية الأمر .. وقصت الأم حديث الهذيان أو ما فهمته من رغبته فى خطبتها .

وبدت الدهشة على وجهيهما وهتفت « بهية » :

ـــ يخطبها ؟ يخطب ابنة أفندينا !! غير معقول !

وبدا التفكير والحزن على وجه « حسين » وتمتم قائلا :

ـــ إنه يهذى .. مجرد هذيان .

وانطلقت تنهيدة طويلة حارة من صدر قابع فى ركن مظلم ، وقد بدا صاحبه مغمض العينين كأنه فى إغفاءة .. لا يسمع ولا يعى ، ومع ذلك فقد سمع ووعى كل ما قيل .

واستقرت فى رأس الأب الكلمة الأخيرة التى ختم بها الحديث وأخذت تلف فى ذهنه وتدور .

« مجرد هذيان » .

أجل .. إنه فعلا لا يعدو أن يكون فى مظهره .. مجرد هذيان محموم .

ولكن .. فى واقعه .. فى حقيقتة .. فى باطن هذا المحموم الذى يهذى .. أهو حقاً مجرد هذيان . ! أم تراه الحق النابع من روحه المتدفق من قلبه ووجدانه ؟

أيضحى التطلع إلى الهدف الذى كرّس الإنسان له نفسه ، والأمنية التى ركز فيها جهده .. مجرد هذيان ؟!

أبعد كل ما أراق من ماء وجهه ، وبعد كل ما تعب وشقى ليوفر له المركز اللائق والمستقبل المرموق !

أبعد كل ما جاهد هو نفسه .. حتى أضحى ذلك المخلوق المثالى الكامل ، يجد مطالبته بما هو حق له ، مجرد هذيان ؟

لماذا ؟ . إنه ضابط محترم .. قويم الخلق ، جميل الخلق ، لا عيب فيه ولا هنة .. وهو يحب الفتاة .. والفتاة — فيما يعتقد — تحبه .

فأى هذيان فى أن يرجوها لنفسه ؟!

وماذا يرجو الأمير لابنته خيراً من هذا !

لا .. لا .. إن ما يرجو ابنه الحبيب ليس من الهذيان فى شيء كفء له .. وأهل لتحقيقه .

وأطلق الرجل تنهيدة أخرى وراح فى إغفاءة .

(٤٣)

مجنون خطر

وأخيراً انقشعت حدة المرض ، وخفت وطأة الداء ، وزالت الحمى عن « على » مخلفة منه جسداً واهناً ونفساً مكدودة مرهقة .

وانتهت فترة النقاهة ، واسترد « على » الكثير مما أضاعه المرض من قواه ، وما فت فى عضده .. وعاد إلى قاعدة الآلاى فى الثكنات بعد انتهاء إجازته المرضية ، ليقدم نفسه إلى قائدها ، وليتلقى منه الأوامر بالرحيل .

وكانت جيوش ألمانيا وقتذاك تكتسح الحلفاء .. وإيطاليا قابعة تترقب وتنتظر دون أن تبدو منها أية نية لدخول الحرب ، مما ترك القوات المدافعة عن حدود مصر الغربية والمواجهة للقوات الإيطالية فى ليبيا فى حالة طمأنينة واسترخاء ، ومما جعل إنجلترا تخفف من قواتها إلى الحد الأقصى حتى تستطيع الانتفاع بها فى الجبهات الأخرى .

وخففت تبعاً لذلك القوات المصرية الموجودة فى الواحات البحرية وتطلب عودة بعض قوات الآلاى إلى القاهرة وزيادة عدد الضباط الموجودين فى القاعدة .. فلم يكد « على » يصل إلى الثكنات ليدبر أمر رحيله حتى أمرة قائد القاعدة بالبقاء .

ولقى أمر البقاء فى نفس « على » غبطة وترحيباً ، فقد وهبه فرصة أخرى لمحاولة لقاء « أنجى » .

ومرت الايام وهو يترقب الظروف ويتحين الفرص ، حتى أخذ اليأس يدب فى نفسه ، وعزم على أن يئد مشاعره ، ويعصب قلبه ، وصمم على أن يسأل قائد القاعدة أن يعيده إلى الواحة البحرية .. علَّ البعد يعينه على السلوان .

وكان الأب الصامت يرقب أثر الصراع العنيف فى نفس ولده . يرقب وجومه وشروده وصمته المطبق الحزين ، ويحس بكل ما يقلقه ويضنيه . ويقض مضجعه .. بعد أن سمع ذلك الهذيان ، الذى انطلق منه على غير إرادة ، وقد صرعته الحمى .

وخيل إلى الأب فى جلسته الصامتة ، أنه قد يستطيع أن يمد إلى ولده يد العون .

إنه مقتنع كل الاقتناع بعدالة أمانيه ،وأحقية مطالبه .. مقتنع بأنه أهل لتحقيق ذلك الرجاء المطوى فى صدره ، والذى لا يجسر على أن يفضى به لأحد .

فلماذا إذا .. لا يمد له يده ؟! لماذا لا يتقدم هو .. ليعرض مطالبه ويحقق أمانيه ، ويتحمل عنه عبء الصدمة ، ويتلقى عواقبها .. إن كانت لها عواقب ؟

لماذا لا يتقدم بنفسه ، ليخطب ابنة الأمير لولده ؟

ورنت الجملة فى حناياه .. رنيناً مخيفاً .. وترددت ، كما يتردد الصدى فى فراغ ساكن .

هو يتقدم إلى الأمير .. كى يخطب ابنته لا بنه ؟! .. أى مجنون أحمق مخرف .. هو ؟

وماذا يقول عنه الناس لو علموا بأمره ؟! بل ماذا يقول الأمير نفسه حينما يسمع منه هذيانه ؟!

لا شك أنه سيظنه قد جن !؟

أياً كان الابن ، ومهما بلغ .. هل يغير ذلك من حقيقة أبيه ؟! أيمكن أن يبدل دخوله المدرسة الحربية ، وتخرجه منها إلى سلاح الفرسان .. أن أباه هو الريس عبد الواحد رئيس بستانيّ الأمير .

وانهالت مطارق اليأس على ذهن الرجل ، وأفرغت المقارنة كل ما فى جعبتها من وسائل التثبيط والتيئيس .

ومع ذلك فقد أحس الرجل ببقية إيمان ، تصمد أمام كل عوامل اليأس ..

إيمان بالله وبنفسه وبابنه ، ويقين راسخ فى أعماقه .. بأنه بشر والأمير بشر ، وأن أكرم البشر عند الله أتقاهم ، وأنه خير له أن يتلقى الصدمة بنفسه ، من أن يتلقاها ابنه ، ومن أن يتركه هكذا غارقاً فى يأسه وقنوطه .

وفى فجر يوم جمعة ، وصوت المؤذن يطلق من المئذنه مؤذناً بالصلاة تسلل الرجل من الدار يتوكأ على عصاه وقد شدّت يده المشلولة إلى عنقه ، وجلس فى ركن الجامع يتمتم ويدعو ، وطالت صلاته حتى أرسلت الشمس سهامها الدامية تتسلل من نوافذ المسجد هابطة إلى أرضه .

وأحس الرجل بسكينة تملأ نفسه وإيمان يفعم جوانحه ، ونهض يتوكأ على عصاه .. قاصداً القصر .

وكان يعرف عادة الأمير فى تجواله الصباحى بين المشتل ، وبين أحواض الزهور .. وخيل إليه أن تلك هى خير فرصة يلقاه فيها على حدة ، ويسر إليه بما أضمر .

ودلف من الباب الخلفى فى خطواته البطيئة المتثاقلة ، واقترب من المشتل وقد شرد ذهنه ، وأخذ يستعيد لنفسه ما سيقوله للأمير .

وأحس من سيره وسط الأصص والزهور ، بحنين زائد . وكأنه ردّ إلى أهله وعشيرته بعد طول غيبة ، وأخذ يرمقها فى عطف ، ومدّ يده بغير إرادة ينزع عن إحداها بعض الحشائش العالقة بها .

ورفع رأسه فإذا بالأمير يقف قبالته وقد حدق فيه بنظرة ملؤها الدهشة .. وسأله قائلا :

ــ الريس عبد الواحد .. ماذا أتى بك إلى هنا ؟

وبهت الرجل ، وأرتج عليه ، فلم ينبس ببنت شفة .

ولا حظ الأمير يده المشدودة إلى عنقة .. فسأله متلطفاً :

ــ ما الذى أصاب يدك ؟

ــ أصابها شلل .

— منذ متى ؟!

— منذ مدة .. عقب أن غادرت حدائق أفندينا .

— لا بأس عليك .. لم أكن أعلم بما أصابك .. وكيف حالك الآن ؟

— الحمد لله .

ودفع الأمير يده إلى جيبه بحكم العادة وأخرج منها ورقة مالية دفعها إلى الرجل قائلا :

— خذ هذه .. وإذا احتجت إلى شيء .. أخبرنى .

وأخذ « عبد الواحد » الورقة وتمتم ببضع كلمات شكر .. وانتظر الأمير منه أن ينصرف ، إذ لم يخطر بباله أنه قد أتى لغير طلب إحسان ، ولكن الرجل استمر واقفاً ينظر إليه فى تردد ووجل وكأنما يود أن يقول شيئاً .

وقال الأمير فى شيء من الدهشة :

— أتريد شيئاً آخر ؟!

واستجمع الرجل أطراف شجاعته ، واستعاد إيمانه بالله .. الإيمان الذى بددته هيبة الأمير ، وانبعث منه صوت بدا له كأنه إنسان آخر يتحدث بلسانه :

— أجل .. إنى فى الواقع لم آت لأفندينا .. لأجل أن آخذ منه إحساناً .

وقاطعه الأمير فى حدة :

— لماذا أتيت إذاً ؟

— لقد أتيت طامعاً فى أكثر من إحسان .

— لعلك تريد العودة إلى العمل .. ولكن حالك هذه لا تسمح لك بمباشرة أى عمل .

— إنى لا أطلب عملا .

وعاد الأمير يقاطعه فى دهشة وحدة أشد :

— ماالذى أتى بك إذاً ؟! أفصح !

ـــ إن ابنى « على » قد أضحى ضابطاً فى الفرسان ، وقد ترقى إلى رتبة الملازم أول .

ـــ مبروك .. وماذا تريد أن أصنع له ؟

ـــ إنه يطمع فى رضا أفندينا وعطفه .

ـــ وماذا يمكنه أن يفعل برضاى وعطفى .. أفصح عما تريد ؟! وكفى إضاعة وقت !؟

وخيل إلى الرحل أن الجو قد أضحى مهيئاً .. وبمنتهى البساطة .. ألقى قنبلته قائلا :

ـــ إنه يريد أن يخطب ابنة أفندينا .

ولا جدال هنالك فى أن طلب الرجل كان آخر ما يمكن أن يخطر ببال أفندينا ، حتى لقد توهم أنه أخطا السمع ، وعاد يسأل الرجل مستفسراً :

ـــ يخطب مَنْ ؟

ـــ أنجى هانم .

ونظر إليه الأمير يفحصه فى ذهول ، واندفعت المشاعر الصاخبة تتصارع فى نفسه .. حنق .. غضب .. دهشة .. مفاجأة .. ثورة .. ولكنها ما لبثت كلها أن انحسرت عن نفسه .. وطواها اعتقاد جازم منه بلوثة الرجل .. وأخذ ينظر إليه فى حذر وإشفاق وقلق .

ووقف الرجل ينتظر .. مطرق الرأس ، كريشة تنتظر اقتراب العاصفة ، وطال صمت الأمير ، فرفع عبد الواحد رأسه فى بطء يرقب وجهه .. لعله يرى من معالمه ما لم يفصح عنه بشفتيه .

ولم يجد بوادر الثورة .. ولم يلمح مظاهر الغضب .. فأحس بأن المسألة أهون مما كان يتوقع .. وبدا له أن قبول الأمير ليس بمستبعد .

وأخيراً تحدث الأمير قائلا .. محاولا أن يكسو صوته مظاهر الهدوء والحلم :

ـــ اسمع يا ريس عبد الواحد .. عد إلى بيتك واسترح ولا تقلق نفسك بأمر

ابنك .. إنه يستطيع أن يتزوج من يشاء .

ــ إنه لا يريد غير الأميرة .. إنى أعرف أنه يحبها .. وأعتقد أنها أيضاً تحبه .

وإلى هذا الحد .. لم يستطع الأمير أن يكظم ثورته .. فاندفع يهدر كالبركان :

ــ اذهب من أمامى قبل أن أحطم رأسك أيها الغبى .. اذهب .. من الذى سمح لك بالدخول فى الحديقة .. أيها المخبول .. انصرف .

واندفع من فمه سيل من السباب ، والصياح المتشابك المتداخل الذى لا تميز تفاصيله .

وفوجئ عبد الواحد بالعاصفة العاتية تعصف به بعد ما خدعته بمظاهر الهدوء الأولى .. وبدت له استحالة الصمود أمامها . فاندفع يتعثر فى خطاه مولياً الأدبار إلى الطريق .. والأمير يلاحقه بصيحاته المتفجرة التى بدأ يستبين منها قوله إلى إدريس ، الذى أقبل مهرولا من ناحية للقصر :

ــ مجنون .. اذهبوا به إلى مستشفى المجاذيب .. أو أبعدوه من هنا .. لا أريد مجانين فى أرضى .

ووصل عبد الواحد إلى بيته وتسلل إليه ، وكأنه ارتكب جريمة يخشى من أهل الدار فضح أمرها . وأوى إلى فراشه وهو يرتجف هلعاً ، وما زالت صيحات الأمير تطن فى أذنيه .

ومضت فترة والدار مخلدة إلى الصمت لا يكاد يحس أحد من أهلها بما وقع ، حتى سمعت طرقات على الباب ، وكان « علىّ » قد استيقظ من نومه فأسرع يفتح الباب فإذا بإدريس ــ تابع الأمير ــ ومعه بعض الحراس .

ودهش « على » وقال مرحباً :

ــ أهلا إدريس افندى .. صباح الخير !

ــ صباح الخير يا بنى .

ــ أى خدمة ؟

ونظر الرجل إلى الحرّاس وبدت عليه الحيرة والتردد ثم قال لهم :

ـــ انصرفوا أنتم .. انتظرونى عند باب القصر .

ثم وجه القول إلى « على » :

ـــ أظن أننا نستطيع أن ننهى الموضوع سوياً فى هدوء دون حاجة إلى فضيحة وضجة .

وبهت « على » وتساءل :

ـــ أى موضوع ؟ ماذا حدث ؟

ـــ أين أبوك ؟

ـــ أبى ؟ .. أظنه راقدا فى الداخل .. ماذا حدث ؟

وكان بعض الجيران قد اقتربوا يستطلعون الأمر ، فأردف الرجل قائلا :

ـــ دعنا نتحدث فى الداخل .

وأفسح « على » الطريق قائلا :

ـــ تفضل . لقد أذهلتنى المفاجأة عن دعوتك للدخول .

واستقر الاثنان على مقعدين فى مدخل الدار ، وقال « على » متسائلا :

ـــ ماذا حدث ؟

ـــ إن الأمير ثائر على ابيك .

ـــ أبى أنا ؟ لماذا ؟! ماذا فعل ؟

ـــ لقد زاره اليوم .

ـــ ولكنه لم يغادر الدار . إنه متعب وذراعه مشلولة ولا يكاد يغادر البيت إلا إلى المسجد .

ـــ الذى حدث أنه حضر إلى المشتل فى الصباح المبكر ولقيه الأمير هناك .

ـــ أهذا هو الذى أهاج الأمير ؟

ـــ بالطبع لا . لقد عطف عليه الأمير وأعطاه إحساناً ، ولكنه أنباه بأنه لم يحضر للإحسان .. وإنما جاء ليخطب ابنته لك .

وبهت « على » وهتف بالرجل مشدوهاً :

ـــ يخطب ابنته لى ؟ يخطب « أنجى » لى ؟

ـــ أجل ! أجل هذا هو ما قاله .. ولم يتشك أفندينا فى أنه قد أصابته لوثة . وأمر بوضعه فى مستشفى المجاذيب .

وأحس « علىّ » كأن حملا ثقيلا قد أطبق على أنفاسه . وخيل إليه أن الأرض قد تهاوت من أسفله .. ومضت برهة ، قبل أن يتمالك نفسه ، ويجيب فى يأس مميت :

ـــ أيريد أن يضع أبى فى مستشفى المجاذيب لأنه طلب يدا ابنته لى ؟!

ـــ معه حق .. لست أدرى كيف فعل الريس عبد الواحد هذا .. كيف جرؤ على قوله .. لا شك أن به شيئاً .. إن الشلل لا بد قد أثر على عقله .. ألا تعتقد هذا ؟

ولم يجب « علىّ » .. كان من وقع المفاجأة ومن فرط اليأس أشبه بالغريق .

وأردف الرجل يقول فى لهجة يشوبها العطف :

ـــ إنى أحب الريس « عبد الواحد » .. إنه رجل طيب ، لم يسىء فى حياته إلى أحد .. وإنى أكره أن أتسبب له فى أذى .. ولكن ما فعل كثير .. أنت لا تتصور هياج الأمير وغضبه .. إنه لا يريد أن يبقى فى أرضه دقيقة واحدة .. لقد أمرنى أن أحمله قسراً إلى مستشفى المجاذيب ولكن ....

ورفع « على » رأسه المطرق الحزين ، وقال وقد تمالك نفسه وتجلد :

ـــ لا داعى لكل هذا يا إدريس افندى .. دع الأمر ، سأدبره بما يرضى الأمير .. سأرحل بأبى عن الدار .. سنرحل جميعاً ، ولن تروا وجهنا بعد اليوم .

ـــ ولكن إلى أين ؟

ـــ سأستأجر بيتاً قريباً من الثكنات .. لقد كنت فى الواقع أطلب هذا من أبى منذ مدة طويلة .. ولكنه يأبى أن يترك هذا البيت الذى يعتبر نفسه قطعة منه ،

وكانت أمي تؤيده في رغبته .. ولكنى أعتقد أنى أستطيع إقناعهما بالرحيل .

ـــ أظن ذلك هو خير ما تفعل .. بدل الطرد والفضيحة .. إنى سأهدىء الأمير .. وأقنعه أن ما حدث لأبيك ليس إلا نوبة طارئة .. وأنك قد رحلت به إلى القاهرة لعلاجه .

ـــ أشكرك يا إدريس أفندى .. وأرجوك رجاء خاصاً أن تكتم الواقعة بقدر استطاعتك .

وانصرف إدريس افندى .. ودخل « علىّ » إلى القاعة فوجد أمه قد وقفت تنتظره فى لهفة وفزع ، وتسأله عما حدث ، وماذا يريد إدريس افندى .

وأجاب « علىّ » فى اقتضاب :

ـــ يريد منا أن نرحل عن البلدة .

وصاحت الأم مشدوهة :

ـــ نرحل ! من الذى يستطيع طردنا من أرضنا وبيتنا ؟

ـــ اخفضى صوتك .. إن الأمير يريدنا أن نرحل !

ـــ وماذا فعلنا ؟!

ـــ لقد ذهب أبى إليه ليخطب ابنته .. فاعتبره بفعلته تلك مجنوناً خطراً .. ولذلك يجب ألا يبقى فى أراضيه .

وهتف الأم فى صوت مرتجف :

ـــ أفعل أبوك هذا ؟! متى ؟

ـــ هذا الصباح .

ـــ ولكنه لم يغادر البيت !

ـــ لقد خرج فى الفجر ثم عاد قبل أن نستيقظ .

ـــ وماذا دعاه إلى ذلك ؟! أين هو ؟

ـــ لا تقولى له شيئاً .. دعى الأمر لى .. وأعدّى نفسك للرحيل .

ـــ إنى لن أترك دارى أبداً .

— يا أمي ؛ من أجلي أنا لا بد أن نرحل .. كان يجب أن نترك الدار منذ زمن .. نحن في مركز يهيىء لنا أن نسكن في دار أحسن من دارنا .. ولست أجد هناك ما يربطنا بها إلى الأبد .

— يربطنا بها تراب الأرض .. تربطنا بها الجدر التي بنيناها حجراً فوق حجر .. تربطنا بها السنون الطويلة .

وانسابت الدموع من عيني الأم .. وأقبلت « بهية » تربت على ظهرها وتهدئها قائلة :

— لا داعي للبكاء يا خالتي .. ما دمنا كلنا بخير .. فأي مكان يضمنا جميل .. ثم إنه لم تعد لنا خيرة في البقاء أو الرحيل .

وترك « علي » « بهية » تهدىء أمه ، ثم دلف في سكون إلى حجرة أبيه .

وكان الرجل قد تمدد في مقعده .. وبدا في استرخائه ورأسه المتدلي على صدره ، كالمستغرق في سبات عميق ، ولكن لم تكد قدما « علي » تطرقان أرض الحجرة حتى رفع رأسه في إعياء ، وفتح جفنيه المسبلين في تثاقل ، ونظر إلى « علي » نظرة اعتذار واستغفار ، وكأنه يقول له :

— سامحني يا بني .

ولم يشعر « علي » بأن هناك ما يستدعي اعتذار أبيه .. ولم يحسّ بأنه قد ارتكب أمراً إدّاً ، ولا فعلا نكراً .. ولا خانه الذكاء ، ولا أضله عتهٌ ولا خبل ، كما ظن الأمير وتابعه .

بل إنه لم ينحرف قيدَ أنملة عن طريقته التي كان يصرف بها أموره . وهو في أوج صحته ، وفي كل قواه .

لقد كانت حياته سلسلة تضحيات من أجل ولديه ، ولم يحاول قط أن يجعل تضحياته تتخذ مظهر التضحيات .. فقد كان يعتبرها من صميم واجبه في الحياة .. كان يعتبر نفسه الجذع الموصل لعصارة الحياة إلى ثمرتين .. وكأن حياة الثمرتين ، ونضجهما ، هو مظهر حياته هو .

لقد أراق ماء وجهه فيما مضى ، ليحفظ لهما ماء وجهيهما .

وعمله اليوم لا يزيد عن استمرار لوسيلته القديمة .. قطرات أخرى من ماء الوجه .. سكبها ليحفظ ماء وجه « علىّ » .. لقد جعل من نفسه درعاً يقى بها ولده .. صدمة الخيبة ، ولطمة الخذلان .

كان يعرف ما بنفس « على » ، ويعرف اللهب الذى يضطرم فى فؤاده ، فلم يجد بداً من أن يتقدم للفداء ، فإما أن يمنح ابنه ثمرة الرجاء ، أو يوفر له راحة اليأس .

ولم يعرف « على » كيف يعبر لأبيه عن شكره ، ولا كيف يوضح له مشاعره .

واقترب منه ، والرجل ينظر إليه نظر الآسف المعتذر ، وانحنى على يده المسندة على حافة المقعد ، ورفعها إلى شفتيه ، فقبلها بحنان واحترام ، كأنما يقبل يد قديس أو نبى ، وبدا كأنما يعوّضه بها عما لاقاه فى سبيله من مذلة ومهانة .

وسحب الأب يده برفق وربت على ظهره ، ثم ضمه إليه ، وقد ذهبت من عينيه نظرة الأسف .

وتحدث « على » قائلا:

ــ آسف يا أبى لما سببته لك .. إنى لم أرد أن أشركك فى أزمتى ، ولكنك أبيت إلا أن تزج بنفسك فيها .. إنى ما أحسست أنى أكره نفسى ، أو أكره حبى .. إلا هذه الساعة التى دفعتك فيها إلى المذلة .. كان يجب علىّ أن أكون أكثر حكمة .. فأوفر عليك البقية الباقية مس ماء وجهك .. ولقد حاولت أن أكبت مشاعرى .. ولكن ماذا أفعل ، إذا كنت قد أبيت إلا أن تنفذ إلى جوانحى ، وتكشف عن خبايا صدرى .. وتعرف علتى .. وتسكب فى سبيل برئها البقية الباقية من قطرات ماء وجهك.

واختلجت شفتا الأب .. وحاول أن يجيبه .. ولكن لسانه لم يسعفه .. فقد أصابه الشلل ، وأفقدته الصدمة القدرة على النطق.

وانزلقت العبرات حارة من عينى « على » وهو يضم إليه أباه « المجنون الخطر » .

(٤٤)

أكثر من عطف

انتقل « على » بأسرته إلى كوبرى القبة فى بيت منعزل قريب من السكة الحديدية الذاهبة إلى المطرية وعزبة النخل ، وكان البيت لا يكاد يختلف كثيراً عن بيتهم ، فى تواضعه وقدمه ، والحديقة التى دقت بها طلمبة المياه ، وزرعت أحواضها جرجيراً ، وتناثرت فيها عيدان الذرة ، وتسلق اللوف على جدرها ، حتى امتد إلى السطح .

وكان البيت لأسرة رقيقة الحال ، بناه ربها من مدّخراته ، فلما أحيل إلى المعاش ، أصبحت فى حاجة إلى جنيهات الإيجار ، فأخلته قانعة من البيت المْلك بحجرتين على السطح .

ووجدت الأم فى الدار الجديدة شيئاً من العزاء عن الموطن القديم .. لا سيما فى « الفرن » المبنى فى الحديقة ، وفى برج الحمام ، وعشة الطيور ، والخلاء الفسيح الذى تشرف عليه الدار .

واستقر الأب فى صمته الأبدى ، على مقعد فى شرفة تطلّ على السكة الحديدية ، يسبح ببصره فى الفضاء ، الذى تكاثفت فيه أشجار الموالح ، المحيطة بقصر القبة ، وبين آونة وأخرى تهب عليه لفحة من دخان القطارات الرائحة الغادية .

ومرت بضعة أيام بعلىّ وهو كالمأخوذ المشدوه ، جمد الحزن إحساسه وبلد اليأس مشاعره ، وأصبح يتحرك ويعمل ويأكل ويشرب ويتحدث ، بلا وعى ولا حساسية ، ولا تفكير . وحضر « حسين » فى إجازة قصيرة لرؤية أبيه ، بعد أن كتبت إليه « بهية » عن إصابته ، وعن انتقالهم من الدار .

وفى حجرة « على » اختلى الأخوان ، وكان « حسين » البادئ بالحديث .. قال مستفسراً :

— ماذا حدث يا علىّ ؟

— حدث ما تراه .

— أريد بعض التفاصيل .

— ليست هناك تفاصيل كثيرة .. لقد فوجئت بإدريس أفندى يطرق الباب ذات صباح ، وينبئنى بأن الأمير ثائر وهو يريد إرسال أبى إلى مستشفى المجاذيب .

— هكذا .. مرة واحدة ؟!

— هذا ما قاله لى .

— ولأى سبب ؟

— لأن أبى طلب منه يد ابنته لى .

— وماذا دعاه إلى أن يفعل .. أقلت له أنت شيئاً ؟

— أبداً .

— ربما سمع من أمى ؟

— لم تذكر أمّنا شيئاً !! ومن أين تعرف أمى ؟

— من هذيانك الذى هذيت به .

— هذيت بماذا ؟

— بأنجى وبرغبتك فى التقدم لخطبتها وبإصرارك على أن تحيا من أجلها .

— أنا قلت هذا ؟

— وأكثر من هذا .. إنى لأعجب يا « على » من إصرارك على السير فى هذا الطريق اليائس المظلم .. إنى لم أر أكثر منك حكمة ولا أوفر عقلا ، إلا فى هذه الناحية ، فإن تصرفك فيها جنون مطبق .. كف عن هذا التشبث والعناد ، ولا تمعن فى تعذيب نفسك كفقراء الهنود .. ألم يصبك كل ما صادفت باليأس

منها ؟! ماذا يمكن أن تنتظر بعد أن اعتبر أبوها مجرد التفكير فى خطبتها .. محض جنون .. يستحق صاحبه الوضع فى مستشفى المجاذيب ! أما زلت تبصر بعد هذا ومضة أمل ؟

وشعر « على » بالألم يحزه ، وهو يرى نفسه موضع لوم وتأنيب .. واندفع الدم إلى وجهه .. فقد أحس أن أخاه على حق .. أخاه الطائش النزق .. يرى خطأه ، ويدهش من إصراره على الاندفاع فيه ، ويسأله .. أما زال يبصر بعدما حدث ومضة أمل ؟

تلك هى العلة ، وذلك هو الداء الذى حرمه راحة اليأس .. إن مصابه هو أنه ما زالت فى نفسه تلك الومضة من الأمل .. لقد كان إيمانه بها أقوى من كل ما حدث .

ورفع رأسه فى هدوء وقال فى ما يشبه الهمس :

ـــ أجل .. إن الأمل فى نفسى لم تنطفئ جذوته بعد .

ورفع حسين حاجبيه فى دهشة شديدة ، ونظر إليه نظره إلى مجنون ، وهتف :

ـــ أمل ؟! أمل فى ماذا ؟

ـــ فيها ، هى .

ـــ كيف ؟

ـــ إنها هى التى غرست الأمل فى نفسى ، وهى وحدها التى تستطيع اقتلاعه .. إنها هى التى دفعت الإيمان فى قلبى ، وهى وحدها القادرة على انتزاعه .

ـــ ألم تنتزعه من نفسك بعد كل ما حدث ؟

ـــ لا .. إنى مازلت أؤمن بها .. قد تصيبنى فى بعض الأحيان نوبات من اليأس ، تعصف بنفسى ، ولكن لا تكاد تهدأ العاصفة حتى أحسّ بها قد عادت تتسرّب إلى قلبى أقوى مما كانت .. كلما ذكرت قولها « إنه لن ينتزع أحدنا من

الآخر .. حتى الموت نفسه » . أحسست أن يأسى منها خيانة للعهد ، وأنى قد خذلتها ، واندحرت أمام هجمات من القدر لم تصل بعد إلى حدّ الموت .

وأطلق « حسين » تنهيدة يأس وقال فى غيظ :

ــ كان يجب أن يأمر الأمير بوضعك أنت فى مستشفى المجاذيب بدلا من أبى .. إنك تهذى بخرافات عن الحب والموت .. وإذا كنت تعتبر يأسك منها .. بعد كل هذا .. خذلاناً .. فمتى تيئس منها إذاً ؟

ومر بذهن « على » آخر لقاء لهما فى المعادى .. وأبصر بعين الوهم « أنجى » تجلس قبالته وقد أمسكت بالقلب الذى أهداه إليها يوم عيد ميلادها ، وخيل إليه أنه يسمع همسها « سأفتحه لأضع فيه قلبى .. وأقذف بالمفتاح إلى النيل حتى لا ينفصل القلبان ، ويبقيا دائماً .. قلبين فى قلب » .

ثم طاف برأسه شبحها يوم أبصرها آخر مرة فى السباق ، وهى تهتف به . « دع الثقة راسخة كما هى ، ودع الإيمان عميقاً كما هو » . فإذا ما سألها « أما زال حبك كما كان ؟ » همست قائلة : « وأكثر » .

ووجد نفسه يجيب أخاه فى حدة وضيق :

ــ كيف أيئس منها ، وقد غرست فى نفسى ذلك الإيمان العميق بها ؟! كيف أخذلها ، وقد أكدت لى هذا الحب فى آخر لقاء لنا فى السباق ؟!

وأحس « حسين » بعطف شديد على أخيه ، وكره من نفسه لومه له .. ومدّ يده فربت ظهره برفق وحنان ، وقال فى لهجة رقيقة حانية :

ــ وما آخر هذا الحب يا « على » ؟! ما نهايته ؟! إلامَ يمكن أن يؤدّى بكما .. أمام كل هذه السدود والحوائل والعقبات !! ماذا تستطيع أن تفعل أنت ؟

ــ أستطيع أن أفعل كل شىء .. لو لقيتها .. وعرفت رأيها ، وفهمت ظروفها ، ووضحت لى أعذارها .. ووثقت منها أنها باقية على العهد .

ووجد « حسين » نفسه يتساءل ببساطة :

ــ وإذا لم تكن ؟

وأطرق « علىّ » وأجاب فى صوت خافت ، كأنما يحدث نفسه :

ـــ إذا لم تكن ؟

ـــ أجل ! إذا لم تكن ؟

ـــ إذا لم تكن .. أطفأت ومضة الأمل .. وغرقت فى راحة اليأس .

وتنفس « حسين » تنفس المستريح ، وقال كأن المشكلة قد حلت :

ـــ إذاً ، القها يا أخى ، وأرح نفسك .

ـــ وكيف ألقاها ؟! لقد مضى عام ، وأنا أحاول لقاءها فلم أنجح إلا فى ذلك اللقاء الخاطف ، الذى كان فى السباق .

ـــ يا أخى لا تكن قليل الحيلة .. لو أدّى بك الأمر إلى أن ترابط على باب قصرها ، حتى تلقاها ، فافعل .. البس ثياب خفير .. تنكر فى زى فلاح .. افعل أىّ شىء ؟

ـــ تكلم كلاماً معقولا .. هذا مجون وعبث !!

ـــ دعك من هذا ! أتريد أن تفهمنى .. إننى أستطيع لقاء أىّ مخلوق ، أياً كان ، إذا أردت ذلك .

وقال « علىّ » متململا :

ـــ الذى حدث أنى حاولت أن ألقاها ، ولكن لم أستطع .

ـــ أتراهن أنى أستطيع أن أجعلك تلقاها اليوم ؟

ـــ لا داعى للرهان ، لأنها سافرت إلى الإسكندرية .

ـــ وكيف عرفت ؟

ـــ من إدريس افندى .. لقد لقيته أول أمس ، وأنبأنى بأسفه على كل ما حدث .. وقال لى إن الأمير قد سافر إلى قصر الإسكندرية ، وإنه لو بكر فى السفر بضعة أيام لما حدث ما حدث .

ـــ إذاً ، تعال معى إلى الإسكندرية .

ـــ لا أستطيع الحصول على إجازة بعد الإجازة المرضية الطويلة التى أخذتها .

— إذاً سافر معى يوم الخميس والجمعة القادمين .

— إنى نوبتجى يوم الجمعة .

— ما بالك تسدّها هكذا .. ابدل نوبتجيتك .

— سأحاول .

— لا تقل ستحاول .. بل قل سأفعل .. ستحضر معى إلى الإسكندرية ، وسأجعلك تلقاها .. ولو بالبوليس .. ماذا تظننى ؟ هفيّة مثلك ! . إن مركزى فى الإسكندرية أهم من الحكمدار والمحافظ .. قم وفرّج عن نفسك .. واضحك .. وفرفش .. سيحلها ربنا إن شاء الله .

وضحك « على » ضحكة خفيفة مغتصبة ، واستمر مطرقاً فى مكانه ، ولكن « حسين » جذبه من يده قائلا :

— قم بنا .

— إلى أين ؟

— ستسهر معى الليلة .

— أنا لا أحب السهر .

— بل سأجعلك تسهر رغم أنفك .. انهض .. وكفى جلوساً كالملاك الحزين .. إن أسوأ ما تفعله فى حالتك تلك هو الجلوس والتفكير ، قم بنا سأجعلك تسهر سهرة ، تظل تقسم بها طول حياتك .. سنذهب أولا إلى « كريمة » أتذكرها ؟!

— كريمة مَن ؟

— كريمة الولد .. البنت التى جلست معك يوم ذهبنا إلى صالة نعيمة ونحن طلبة .. ألا تذكر ؟!

— أجل ! أذكرها .. الفتاة النحيلة السمراء .

— إنها لم تصبح نحيلة ، ولا سمراء .. لقد امتلأت وتحسنت جداً .. وأصبحت صاحبة الصالة التى كانت تعمل بها . إنها الآن أشهر راقصات

مصر .. ألا تسمع عن كريمة ماهر ؟

ــ أظنني قرأت الاسم فى بعض المجلات .

ــ إنها هى نفسها .. وهى تسألنى عنك فى كل مرة تقابلنى .. لا شك أنها ستسر جداً عندما تراك .. إن الليلة ليلة افتتاح صالتها .. هيا بنا .. قم أبدل ملابسك .

ــ أرجوك يا حسين .. أنت تعرف رأيى فى هذه الأماكن ، وتعرف ضجرى منها .

ــ أنت لا تعرفها حتى تكوّن رأياً فيها ، ولا يمكن أن تضجر منها ، لأنك لم تجرّب السهر فيها ، والإنسان دائماً يكره ما يجهل .. فجرّب يا أخى مرة واحدة من باب العلم بالشىء .

ــ لقد جرّبت و لم يطربنى شىء فيها .

ــ متى ؟ ونحن طلبة ؟ .. هذه الهنيهات التى جلستها .. وكأنك تلميذ فى محاضرة أو متعبد أمام واعظ ؟ لقد كبرت الآن ، ولا بد أن تعرف كيف ترفه عن نفسك ، وتخلصها من ذلك الكبت الذى يجعلك تحصر كل اهتمامك فى شخص بذاته ، فإما هو ، أو لا شىء .

ــ تلك هى طبيعتى ، وأنا لا أستطيع تغييرها .. إن طبيعة خلقى لا تلائم تلك الأجواء التى تصطنع فيها المتعة .

ــ لا تكن فيلسوفاً .. وقم وارتد ملابسك .. ودع الباقى علىّ .. سأتكفل أنا بإمتاعك ، مهما كانت طبيعتك .

ــ أنا واثق أنى لن أستمتع بشىء .

ــ لا ضرورة لأن تستمتع .. تعال من أجلى .. اعتبر أنها مجرد صحبة لى .. ألم أوحشك يا أخى !؟ على أية حال .. إذا لم تذهب الليلة ، فلن أتدخل لك فى شىء .. ولن أعينك على اللقاء .. ما رأيك ؟

وضحك « على » وأجاب :

ـــ لست أدرى .. ماذا يهمك .. من أن أذهب .. أو لا أذهب ؟

ـــ يا أخى .. نريد أن نلهو ، وأن نستمتع سوياً .. قم .. قم .

وارتدى « على » ملابسه .. وقبيل التاسعة مساء كان الأخوان يجتازان باب صالة كريمة .. وقد دخل حسين كعادته مرحاً ، باسم الثغر ، ويلقى التحيات يمنة ويسرة ، ويتلقى الترحيب والتكريم من هنا وهناك .. بينما تبعه « على » مشدود القامة ، بارز الصدر ، مرفوع الرأس ، مقطب الوجه كأنما يسير فى طابور .

ولم يبد على الصالة تغير يذكر ؛ اللهم إلا تجديد المقاعد والستائر وطلاء الجدران ، وكان المكان مغرقاً بطبيعته فى ضجيجه وصخبه ، ولم يستطع « على » بمشيته العسكرية المستقيمة وذهنه المرتبك الوجل ، أن يميز الكثير مما حوله . كل ما يميزه أصوات تتعالى وأشباح تغدو وتروح ، تلوح بينها أكتاف عارية ووجوه منقوشة مصبوغة .

ووقف حسين برهة ودار ببصره فى الصالة كأنما يبحث عن شىء . ووقف بالتبعية « على » ولكنه لم يجسر أن يدور ببصره ، بل ظل محدقاً بعينيه فى رأس أخيه ، وهو يحس بالخجل من وقفته .. ويتخيل الأبصار كلها معلقة به ، فاحصة إياه .

وبدا كأن حسين قد وجد ضالته عندما وقع بصره على « كريمة » وقد أقبلت من الباب الصغير المؤدّى إلى غرف الراقصات ، ولم تكد « كريمة » يقع بصرها عليه حتى تهلل وجهها وصاحت مرحبة :

ـــ أهلا .. أهلا ..

ثم أقبلت إليه تشق طريقها بين الأجساد المحتشدة .. والحناجر الصاخبة ، وهى تتلقى التحيات ، وصيحات الإعجاب ، ولم يكن بصرها قد وقع على « علىّ » ، حتى مدت يدها مصافحة حسين ، فاستدار مقدماً إليها « على » .

وبدت كأنما أخذت من مرآه .. وتلاحقت أنفاسها .. وكسا وجهها شىء

من وجل العذارى لا يكاد يتناسب قط مع مظهرها المستهتر ، ولا مع الجو العربيد المحيط بها .

وأحست وهى تضع كفها فى كفه الكبيرة ، وهو يشدّ عليها ويهزها بأن تياراً دافئاً سرى فى جسدها .. تياراً لذيذاً لم يتدفق فى باطنها الراكد البارد منذ أمد طويل ..

وقفز فى ذهنها أول لقاء .. وما أثاره فى نفسها من إحساس باللهفة والشوق كأنه خلّ غائب أو أليف ضائع .. والليلة .. وبعد هذه الغيبة الطويلة .. وبعد أن يئست حتى من استرجاع طيفه فى أحلام الكرى .. وبعد أن طمست معالمه الأحداث التى تزخر بها حياتها .. يقف أمامها مرفوع الهامة ، مشدود القامة ، ليصيب جسدها بنفس الهزة الأولى . ويدفع فى رأسها نشوة لقاء الغائب الميئوس من لقائه .

وهتفت مرحبة ، وهى تحاول استعادة سيطرتها على نفسها :

ـــ أهلا .. أهلا .. ما هذه الغيبة الطويلة . عاش من رآك .

وأحس « على » بشىء من الارتباك وهو يجدها قد استبقت كفها فى كفه أكثر مما يستدعى السلام العادى .

واستمرت « كريمة » فى ترحيبها .. وهى ما زالت مطبقة على يده :

ـــ ثلاث سنوات طوال .. لا تفكر فى زيارتنا مرة واحدة .. إنى لم أرك أبداً فى حلة الضابط .

وجهد « على » أن يوقف الدماء المتصاعدة إلى وجهه ، وهو يحس كأن كل الأنظار قد وجهت إليه ، وأنهم يفحصونه ليروا كيف يبدو فى حلة الضابط .

وأحست « كريمة » بلمحة الاضطراب والخجل التى طاقت بوجهه ، والتى سببها اندفاعها الصبيانى نحوه ، فأسرعت تجذبه من يده متجهة إلى الباب الذى أقبلت منه ، وقد أمسكت حسين بيدها الأخرى قائلة :

ـــ تعاليا معى .. نشرب فنجاناً من القهوة .. قبل أن يبدأ العمل .

ونظرت إلى ساعتها .. وأردفت قائلة :

ـــ مازال على موعد البدء ربع ساعة .. أستطيع أن أتحدّث فيه معكما .. لشد ما أوحشتمانى .

ودلفا من الباب إلى دهليز ضيق رطب تكاثف فيه الدّخان .. وقامت على أحد جوانبه بضع حجرات ضيقة استطاع « علىّ » أن يلمح بها بعض الراقصات والممثلين ، وهم يضعون الأصباغ على وجوههم ، ويبدلون ملابسهم .

وأفضى بهم الدهليز إلى رحبة متسعة تدلت من سقفها ستائر مرسومة ، وتناثرت فى جنباتها أرائك ومقاعد وقطع أثاث ألقيت فى إهمال ، وأدرك « علىّ » أنه يسير فيما يسمونه بالكواليس ، وأحس بنوع من خيبة الأمل التى تصيب كل ناظر إلى الكواليس لأول مرة .. وقد بدا أمامه المسرح قديماً بالياً ، والمناظر باهتة مشققة ، أبعدما تكون عن الروعة التى تبدو بها عندما تنحسر عنها الستائر الحمر التى تحميها من أعين النظارة .

ودخل الثلاثة الحجرة الأخيرة فى نهاية الدهليز ، وبدت الحجرة ضيقة بالنسبة للمسرح الرحب المواجه لها ، ولم يزد ما بها من أثاث على أريكة من القطيفة الحمراء ، نحل وبرها عند متكآت الأيدى ومساند الرءوس ، ومقعدين « فوتيل » من نوع الأريكة ، وتسريحة عالية من الطراز القديم قد تناثرت عليها الأصباغ والعطور ، وفنجان قهوة أطفىء فى قاعه عقب سيجارة ، وكوب عكر ماؤه بغسيل الأصباغ ، وفى جانب الحجرة قام دولاب ضخم ، فتحت ضلفته نصف فتحة وبدا من خلالها خليط من ملابس الرقص والملابس العادية ، ووقفت أمامه عجوز موشومة الذقن وظاهر اليد ، قد اتشحت بالسواد وانهمكت فى ترتيب الملابس فى الدولاب ، ولم تكد العجوز تراهم حتى تركت ما فى يدها ، واتجهت صوب الباب مغادرة الحجرة فى صمت ، وقبل أن تختفى العجوز صاحت بها كريمة .

ـــ اطلبى لنا ثلاثة فناجين من القهوة أحدها سادة .

وأردف حسين :

ـــ اثنين سادة .

ورفعت العجوز رأسها فميزت حسين ، وانفجرت شفتاها عن ابتسامة واسعة ، وقالت :

ـــ مساء الخير يا سي حسين ؟

ـــ وانت من أهله يا حاجة .. ألم تعرفيني ؟

ـــ كيف لا أعرفك .. ! العتب على النظر !

وقبل أن تنصرف عادت تسأل :

ـــ اثنين سادة .. والثالث ؟

وأجاب على :

ـــ لاضرورة للثالث .

وسألت كريمة :

ـــ ولمه ؟!

وأجاب حسين نيابة عن علّى :

ـــ علّى لا يشرب القهوة ولا الشاى ولا السجاير .. إنه لا يملأ جوفه إلا بما يفيد .

وأردفت العجوز :

ـــ معه حق .. ربنا يهديه أكثر وأكثر .

وقبل أن تنصرف العجوز صاحت بها كريمة :

ـــ إذاً ، هاتى له زجاجة سباتس مثلجة .. أم حتى هذه ممنوعة ؟

وضحك « على » :

ـــ لا .. لا .. لا مانع أبداً .

وانصرفت العجوز وقالت كريمة تدعوهما إلى الجلوس :

ـــ تفضلا .. الحجرة ليست قدر المقام .. ولكنها تبعدنا عن ضجيج الصالة .

وحاولت أن تخفى ما أحست به من ارتباك واضطراب ، لمواجهتها « على » بالثرثرة :

ــ لماذا لا تزورنا يا على .. إن حسين عذره معه ، فهو فى الإسكندرية .. ومع ذلك لا يأتى القاهرة من غير أن يمر علينا .. أما أنت فما عذرك ؟!

وتمتم « علىّ » معتذراً كأنما هو قد قصّر فعلا فى أداء واجبه نحو زيارتها :

ــ لقد كنت فى الواحات البحرية .. لمدة طويلة .. ثم مرضت بعد ذلك بالملاريا .

وبدا على وجه « كريمة » الانزعاج .. انزعاج حقيقى ، ضاعفه قدرتها الطبيعية على المبالغة فى إبداء مشاعرها .

وصاح حسين ضاحكاً :

ــ لا تنزعجى هكذا . إنه أمامك كالحصان .

وجرى الحديث بعد ذلك يتجاذب الثلاثة أطرافه ، كلمة من هنا ، وكلمة من هناك ، وفى خلال ذلك كان « على » يسترق إلى « كريمة » النظرات ، يفحصها المرة بعد المرة .

هذه المرة كانت أكثر امتلاء ، ولم يكن امتلاء عن سمنة أو ترهل .. بل امتلاء متناسباً فى مواضع الردفين والصدر والذراعين والساقين ، أما الخصر فقد بقى على ضيقه والتفافه ، وبدا وجهها ، وفى ملامحه نفس العذوبة التى تفيض منها كمجموعة واحدة ، تفقد أجزاؤها عذوبتها ، إذا أخذت كل على حدة .

وأحضر الجرسون القهوة والغازوزة ، وصبت « كريمة » القهوة فى الفنجانين ، والغازوزة فى الكوب الكبير الملئ بالثلج .

وأخذ « على » يرقب برغمه « كريمة » .

إنه يذكر فى المرة السابقة رغبته فى تغطية جسدها العارى ، أما فى هذه المرة فقد أحس الرضا عما ظهر منه . رضاً كرهه من نفسه ، ومع ذلك لم يملك إلا أن يشعر به .. كما لم يملك إلا أن يختلس النظرة تلو الأخرى إلى إبطيها الناعمين

الأجردين ، وإلى مفرق صدرها الذى تكشف عنه كل لفتة أو انحناءة .

وكانت تنفذ منها إلى أنفه رائحة عطر لطيف ، كاد يدفعه ـــ لولا الحياء والتحفظ ـــ إلى أن يقترب منها ليشتمّ المزيد منه .

ومع كل ما جال بذهنه من أفكار ، أنكرها هو من نفسه ، فقد ظل محافظاً على مظهره الجاد وجلسته العسكرية ، وردوده المقتضبة الخجلة المتحفظة .

وبلغت آذانهم دقات المسرح التقليدية الثلاث المؤذنة بالبدء ، ونظر حسين إلى « كريمة » وهى ترشف الرشفة الأخيرة من فنجانها .. وقال متسائلا :

ـــ متى دورك ؟

ـــ بعد هذه .

ـــ إذاً ، نتركك لكى تتأهبى للعمل ؟

ونهض الثلاثة .. وقبل أن تغادر كريمة الغرفة أقبل أحد الخدم وهمس فى أذنها ببضع كلمات فأجابته :

ـــ قل له إنى مشغولة الليلة .. وقل هذا لكل من يسأل علىّ .

ثم أردفت موجهة القول إلى حسين وعلى :

ـــ سآتى إليكما بعد انتهاء دورى مباشرة .. لقد أمرتهم أن يحجزوا لكما اللوج رقم ١ .

وسار الأخوان فى الممر ، متجهين إلى الصالة ، ولكنهما لم يكادا يخطوان بضع خطوات ، حتى استرجعتهما كريمة قائلة :

ـــ حسين .. سنتعشى الليلة سوياً .. أنتما ضيفاى .. فاعملا حسابكما على هذا .

وأجاب حسين :

ـــ لا داعى للكلفة يا كريمة .

ـــ لا تكن بخيلا .. أنت تعلم أنه ليس بيننا كلفة .

وأتم الأخوان سيرهما .. وتمتم حسين ضاحكا :

ـــ ما هذا الكرم الحاتمى الذى هبط عليها .. يبدو أن الشوق قد برّح بها .. حلال عليك .

ـــ علىّ أنا ؟ ولماذا أنا بالذات .. ولست أنت مثلا ؟

ـــ لقد أتيت إليها عشرات المرات ، فلم تدعنى للعشاء ، بل لم تلحّ علىّ بهذا الشكل ، ثم إنها لم تكف عن السؤال عنك فى كل مرة آتى إليها .. وأنت تراها قد اعتذرت عن كل لقاء هذه الليلة من أجلك .. ماذا تريد أكثر من هذا ؟

ـــ أنا لا أريد هذا ، ولا أكثر من هذا .. ليس لى من حاجة إليها . فلتوفر على نفسها كل هذا .. إنى لن أتناول معها العشاء ، ولن أجلس معها .. بل سأعود الآن إلى البيت .

ونظر إليه حسين فى دهشة شديدة :

ـــ ماذا تقول ؟! أجننت ؟

ـــ لم أجنّ .. إن ما أفعله هو عين العقل .. فلا داعى للتورُّط فى علاقة معها .. لأنى لست على استعداد لهذه العلاقة .

ـــ أىّ استعداد هذا الذى تعنى ؟!

ـــ إذا كانت قد دعتنى إلى العشاء اليوم ، فلا بد من أن أردّه لها غداً . وأنا ليس لدىّ من مالى أو وقتى ، أو شعورى ، ما يمكننى من مجاراتها أو سدّ حاجاتها . إنها ليست كفئاً لى ولست كفئاً لها .

ـــ ما هذه السخافات التى تهذى بها .. كأنى بك قد دعيت إلى زواجها ! يا أخى هذه ليلة سنقضيها مسرورين .. فلماذا كل هذا التفكير والتدقيق ؟! هيا بنا .

ـــ لا بد أن أعود .. إنى أشعر بحاجة إلى النوم .

ـــ النوم ؟! الساعة الآن العاشرة .. وتتحدث عن النوم ؟! هيا .

ـــ قلت لك إنى لا بد لى من أن أعود .. أتمم أنت السهرة ، وسأعود أنا .

ـــ لن أتركك تعود أبداً .. ماذا تقول عنا المرأة ؟! اجلس على الأقل حتى

تشاهد دورها ثم تعتذر إليها .

وجلس الاثنان فى اللوج ، وبدأ حسين يتلقى التحيات ، واندمج فى المجال وجلس « على » ساهماً واجماً ، وانتهى الدور الأول ، وبدأ دور « كريمة » ، وظهر فى أول الأمر حشد من الراقصات يقدم لرقصتها .. ثم بدت هى ملفوفة فى وشاح أسود شفاف .. وجعلت تتمايل وتدور فى رشاقة وخفة وهى عارية القدمين .. ثم ما لبثت أن ألقت بالوشاح .. واندفعت ترقص شبه عارية .. رقصة أبدت سيطرتها على كل عضو .. وعلى كل عضلة فى جسدها .. كانت ترقص فى شبه جنون .. ونظرها محدق فى ناحية واحدة ، وعيناها معلقتان بعينين مخصوصتين كأنها لا ترى سواهما ولا ترقص إلا من أجلهما .

وتذكر « علىّ » هيكلها النحيل عندما شاهدها أول مرة ، ونظرتها إليه نظرة المعرض الصاد ، وتذكر ما أحسه نحوها من ميل مبعثه العطف الشديد . وعندما التقى بصره ببصرها .. وهى تدور على المسرح فى حماس جنونى ، تملكة نفس الميل أو أشد .. ولكن مبعثه كان أكثر من عطف .. كان شوقاً ورغبة .. ملأه منها خشية ، وعندما أسدل الستار ، نهض فى إصرار ، واتجه نحو الباب ، مصمماً على العودة إلى الدار .. والهروب من التجربة الأولى ، يدفعه إلى الهروب وجه أشقر ملائكى قام فجأة كأنه سد منيع يحول بينه وبين الجسد العارى الملتوى .

(٤٥)

يأس متبادل

سافر « على » مع أخيه إلى الإسكندرية ، بعد أن تمكن من مبادلة نوبتجية يوم الجمعة .. وهبط الاثنان من القطار فى محطة سيدى جابر ، وأحس « على » بنسمات الإسكندرية الرطبة تلفح وجهه وتحمل إليه أعذب ذكرياته.وجلس بجوار أخيه فى التاكسى ، وقد تتابعت على ذهنه صور اللقاء الأول فى سان استفانو .. ولطمة الموجة فى المعمورة ، وندت عنه زفرة حارة حملها حرارة جوفه ، وعب بدلها من الريح الرطبة ، ما روّح عن قلبه ، وأثلج صدره .

ونظر إليه حسين ، ثم قال ضاحكا :

ـــ ما بالك تتنهد كأم ثكلى .. لقد كنت أظن أنك ألقيت همومك فى القاهرة ، وأتيت إلى الإسكندرية بغير هموم .. ألم أعدك بما طلبت ؟!

وأجاب « على » بضحكة مقتضبة ، ثم عاودوده الشرود .

ولم يطل السير بالعربة ، حتى توقفت فى شارع كليوباتره الرئيسى العمودى على البحر ، وهبط حسين ووراءه « على » ودلفا فى عمارة لا تبعد كثيراً عن البحر ، وفى الطابق الثانى دقّ حسين جرس أحد الأبواب ، وبعد لحظة فتح الباب وأطلت منه امرأة فى منتصف العمر ، ممتلئة الجسد متوردة الخدين ، قالت بلهجة عربية ركيكة ، وقد بدا على وجهها سيماء البشر والابتهاج :

ـــ أهلا حسين .. حمد الله على السلامة .

وأجاب حسين تحيتها بقوله :

ـــ أهلا أم ريتا .. أوحشتنى كثيراً ، هذا أخى على ، وهذه أم ريتا التى لولاها .. لضعت فى الإسكندرية .. ولما كنت أساوى « بصلة » .

وربت على ظهرها البدين ، محدثاً بكفه طرقات عالية .. وأردف ضاحكاً :

ـ أم ريتا أعذب امرأة عرفتها حتى الآن .. صدق من قال .. الدهن فى العتاقى .

وأجابت أم ريتا ناهرة فى دلال :

ـ اختشى عيب .

ثم وجهت القول إلى على :

ـ أخوك هذا شقى جداً .. لا يكف عن المزاح أبداً .

وأفسحت المرأة الطريق لهما فدخلا قاعة بها منضدة عتيقة ، ودولاب فضية مرتفع على ظهره مرآة كبيرة تكدر صفاؤها ، وصفت على رفوفه البلورية بضعة تحف من الصينى وطقم من الأكواب الكريستال .

ونفذت إلى أنف « على » رائحة الرطوبة العفنة التى تشتم فى بيوت الإسكندرية .. ممزوجة برائحة « زفارة » اختصت بها بيوت الأروام والإغريق ، وقبل أن يدخل الأخوان إلى حجرة حسين تساءلت المرأة :

ـ أتريدان طعاماً ؟!

وكانت الساعة الثالثة والنصف و لم يكونا قد تناولا من الطعام سوى قطعة شطير هدأت جوعهما إلى حين .

وأجاب حسين متسائلا :

ـ أعندك شىء ؟

ـ عندى صينية مكرونة بالفرن ، وفاصوليا بيضاء . وإذا أردتما قليت لكما بيضاً ، وفتحت لكما علبة سردين .. أو شويت لكما رنجة .

ـ سلمت يدك يا أم ريتا .. لقد ظننت أنى لن أجد عندك غداء ، وكنت أفكر أين نأكل .. جهزى لنا الطعام حتى نأخذ دشاً بارداً .. أين ريتا .. إنى لا أجد لها أثراً ؟

ـ لقد ذهبت إلى السينما .

ودخل الأخوان حجرة النوم .. حجرة عادية ، لا تزيد عن أية حجرة نوم فى أى بنسيون ، فراش وتسريحة ودولاب وكومودينو بجوار الفراش ، ومشجب ومقعدان ، ومنضدة صغيرة ، وضع عليها أباجور ، ورصت عليها بضعة كتب ومجلات .

وخلع حسين ملابسه ، واتجه إلى الحمام .. عارياً عن الملابس ، وصاح به « علىّ » ناهراً :

ـــ ما هذا ؟! ضع عليك شيئاً يسترك !! إن المرأة قد تراك ؟

ـــ لا تحمل همها .. إنها مناً وعلينا .. لقد عوَّدتها على ذلك .

ووقف حسين تحت الدش رافعاً عقيرته بالغناء ، رغم صوته النشاز ، ولم يملك « على » إلا يدندن نفس الأغنية بنغمتها الصحيحة .. كما كانا يفعلان دائماً . حيث يشعر حسين أنه يغنى جيداً ، ما دام « علىّ » يغنى معه ، فإذا توقف « علىّ » اكتشف حسين نشاز نغمته .

وانتهى حسين من الحمام ، وتبعه على .. مستورا بالطبع ، وأحس من الحمام ، ومن تهريج حسين بشىء من الانتعاش أضاع الكثير من شروده ، وخفف من تفكيره القلق المهموم ، وجلس حسين يمشط رأسه ويغرقها بالبريل كريم ، وهو يثرثر قائلا :

ـــ أم ريتا هذه لقطة .. لست أدرى ماذا كنت أفعل فى الإسكندرية لولاها .. تصوّر .. هذه الحجرة بالأكل والشرب والغسيل والمكوى ، بأربعة جنيهات وليلة .

ـــ ليلة ؟

ـــ أجل .. ليلة أنامها معها فى الأسبوع محل زوجها المرحوم « بترو » الذى كان يعمل بحاراً .. إنها سمينة بعض الشىء ، ولكنها فى الفراش معقولة ، وابنتها « ريتا » لابأس بها أيضاً ، إنها تبدو صغيرة ولكنها ممتعة .

ونظر إليه « علىّ » وهز رأسه فى عجب ، وقال :

ـ أنت حيوان ؟

وأجاب حسين وهو يعصب رأسه بالفوطة :

ـ وأنت أغبى من أى حيوان .. ستضيع عمرك وراء سراب .

وأتى صوت « أم ريتا » منادياً إياهما للغداء :

ـ الغداء جاهز .. تفضلا .

وعقب الغداء سألت المرأة حسين :

ـ أأعد لأخيك حجرة ريتا ؟

ـ لا.. لا.. لا تتعبى نفسكِ فى شىء. سينام معى.. لقد تعودنا منذ الصغر أن ننام معاً فى فراش واحد .

واستلقى حسين فى الفراش ، واسترخى « على » على المقعد الفوتيل ، متشاغلا بتصفح إحدى المجلات منتظراً أن يبدأه أخوه بالحديث .. شارحاً ما ينوى عمله فى تنفيذ خطة اللقاء .

وأغمض حسين عينيه ، وبدا كأنما ينوى أن يروح فى سبات ، ولكن « على » ما لبث أن أيقظه بسؤاله :

ـ لم تقل لى ماذا تنوى أن تفعل .. ليست أمامنا فرصة سوى الليلة ، لأنى لا بد أن أسافر غداً إلى مصر .

ـ ولماذا لا تسافر بعد غد فى قطار الصباح ؟

ـ يجب أن أكون فى الثكنات قبل السابعة ، لأن الطابور يبدأ فى السابعة تماماً .

ـ لا ضرورة لهذا الطابور .

ـ لا يمكن .. وإلا اعتبرونى غائباً .

ـ قدّم عيادة .

ـ لم أتعوّد هذه الصبيانيات .

ـ على أية حال .. أعتقد أنى سأدبر لك الأمر الليلة ، حتى لا تحتاج إلى هذه

الصبيانيات .

ـــ كيف ؟

ـــ سأتصل بقدرية محمود ، وأطلب منها أن تعرف أين سيذهبون الليلة .

ـــ وأنَّى لها أن تعرف ؟

ـــ إن علاقتها معهم جميعاً طيبة ، لأن أسهمها عند الرجل الكبير مرتفعة هذه الأيام .. إنها قد أصبحت أكثر من وصيفة للملكة .

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ أعنى أن الملك يحبها .

ـــ الملك يحب وصيفة ؟! أهي قالت لك ذلك ؟

ـــ أجل .

ـــ لا بد أن تكون كاذبة ... وماعلاقتها بك أنت ؟

ـــ تزعم أنها تحبنى .

ـــ أهذا معقول ؟! الملك يحبها ، وهى تحبك أنت ؟!

ـــ ولِمَ لا ؟! ألا تعتقد أنت نفسك أن الحب لا يعرف القيم المادية .

ـــ أجل .. الحب الروحى لا يعرف القيم المادية .. ولكن الحب المادى .. يجب أن يعرف .

ـــ أنا على أية حال لا أعرف أن هناك فرقاً بين حب وحب .. كله حب .

ـــ وأنت ما موقفك منها ؟

ـــ أحبها .

ـــ متأكد ؟

ـــ أعتقد هذا .. إنها أحبّ من عرفت .

ـــ لأنها أقوى من عرفت نفوذاً ، وأكثرهن فائدة .

ـــ محتمل ، وإن كنت لم أفكر فى هذا بعد .. إنى أفكر فيها كامرأة .. إنى أريدها وهى تريدنى .. وأنا أمتعها وهى تمتعنى ، وعندما تقدمت إليها فى أول

مرة فى إحدى « التشلل » فى المونسنيير انتقتنى من بين الجميع ، وأنا لا فى العير ولا فى النفير ، وراقصتنى طول الليل ، ولم يكن ما بيننا رقص بقدر ما هو عناق وضم .. ومنذ تلك الليلة ، وقد أصبحت حبيبها المقرّب .

ــــ بعد الملك طبعاً ؟

ــــ الملك فوق الجميع .. ألا تعرف هذا ؟

ــــ أعرف أنك تزج بنفسك فيما لا قِبل لك به .

ــــ وأنت ؟ ألك قِبل بما زججت بنفسك فيه .. منذ عشرات السنين ؟!

ومضت فترة صمت خيم الوجوم خلالها على وجه « علىّ » وأحس حسين كأنما قد خدش أخاه فقال معتذراً :

ــــ دعنا من هذا .. المهم هو أن نستعين بصاحبتنا على قضاء حاجتك ، سأطلب منها أن تعرف أين ستذهب « أنجى » ورفقتها الليلة ، وتحجز لنا مكاناً بجوارهم .

ــــ أتظن أنها ستفعل ؟

ــــ طبعاً تفعل ، أنت لا تدرى قيمتى عندها .. دعنا الآن نغفو قليلا ، لأنى لم أنم ليلة أمس إلا لماماً ، ولا بد لنا أن نسهر .. إرقد بجوارى وخذ لك غفوة .

ــــ إنى أفضل أن أغفو ، وأنا فى مقعدى .

وفى المساء كان الأخوان يجتازان باب المونسنيير ، واتجه حسين يتبعه « على » إلى منضدة فى أحد الأركان .. وكانت الموسيقى قد بدأت العزف ، وزنجى أسود يتوسط الأوركسترا ، مرتدياً الأسموكن الأبيض ، وقد أخذ فى الغناء بصوت خافت به بحة ، والطرب قد بدا على بعض الجالسين ، وادعاء الطرب قد ارتسم على وجوه البعض الآخر ، وبضعة أزواج تتمايل متخاصرة ، متأرجحة فى حلبة الرقص التى توسطت المكان .

وجلس « علىّ » على مقعده وقد توترت أعصابه توتراً شديداً ، ولم يكد يستقر به المقام ، حتى أجال عينيه فى أرجاء المكان بنظرة سريعة فاحصة ، ثم

ارتد بعينيه إلى أخيه الذى كان يشير برأسه محيياً امراة فى دور الكهولة تهم بالخروج ..وقد أحاط بها بضعة شبان . وهمس حسين لأخيه :

ـــ هذه مدام اسكنرى .. إن هوايتها المحببة هى جمع الشبان .. إنها صديقة حميمة لقدرية ، وهى خدومة جدا .

ولم يع « على » من جملة أخيه الطويلة إلا اسم قدرية .. وكان يختطف نظرات سريعة إلى الباب ، وسأل أخاه فى قلق :

ـــ إنها لم تأت بعد ؟

ـــ لا تقلق . لا بد أنها آتية ، لقد أنبأتنى أنهم سيحضرون جميعاً إلى هنا .. أنجى ، وعلاء ، وسامح ، وسهيلة ، وإبراهيم ، وبقية الرفقة .. وطلبت منى أن تنتظرها .. وأعتقد أنها لا بد وأن ستأتى معهم .

وعاد « على » يرمق الباب .. ثم تجهم وجهه ، وتساءل متردداً :

ـــ ولكن .. أتظن أننى .. أعنى .. أن الفرصة .. ستكون سانحة للحديث معها ؟

ـــ ولِمَ لا ؟! لقد اتفقت مع قدرية عندما ترانا أن تدعونا إلى منضدتهم ، وتقدمنا إليهم ، وأظن أن عليك بعد هذا أن تتولى أمرك .. إن الحديث معها لن يكون مسألة شاقة .

ـــ أتظن ذلك ؟ هل يمكن أن أقول لها كل ما أود ، وسط هذه الرفقة التى تتحدث عنها ؟

ـــ طبعاً .. ماذا تظنهم فاعلين ؟ .. سيكون كل منهم مشغولا بنفسه ، أو بكاسه أو بغيره ، وتستطيع أن تنتحى بها أحد الأركان البعيدة المطلة على البحر .. لا تكن هكذا قليل الحيلة ، ولا تعقد أساريرك ، ابتسم واجلس على راحتك ، نحن لسنا فى طابور .. إننا ....

وقبل أن يتم حديثه لمح قدرية تجتاز الباب ، فأردف هامساً :

ـــ لقد أقبلوا .. ها هى قدرية .

والتفت « على » فرأى قدرية تقبل بخطواتها الرشيقة ، ولفتاتها الحلوة ،

وقوامها المعتدل .. ووجهها الذى يفيض أنوثة وأرستقراطية ، وتبعتها بقية الرفاق تتسرب من الباب واحداً بعد الآخر عدا « أنجى » ، وكان « على » قد ثبت بصره فى الباب كأنما يرقب فيه مصيره .. ولما انتهى دخول الجماعة دون أن يبدو لأنجى أثر ، بدا اليأس على ملامحه ، وهمس لأخيه :

— إنها لم تأت ؟

— غير معقول . لقد أكدت لى قدرية أنها قادمة .. اصبر قليلا .

ولم يطل صبر « على » فبعد بضع ثوان دخلت « أنجى » يتبعها علاء .

وأحس « على » بدقات قلبه تتتابع ، كأنها دقات ناقوس مجنون ، أو كان بصدره طيراً حبيساً يود الانطلاق ، وبدا له أن يقفز إليها ليضمها مرحبا ، ولكنه لم يملك إلا أن يرقبها فى صمت ، وهى تسير فى خطواتها الهادئة ، ومشيتها الرزينة متجهة إلى المنضدة المحجوزة التى أحاطت بها بقية الصحبة .

وخيل لعلى وهو يرقب وجهها أن بملامحها الدقيقة الجميلة سمات حزن ، ولم تكن تبدو بوجهها أصباغ صارخة ، كبقية من معها ، كانت تبدو نقية طاهرة ، كما تعوّد أن يراها فى حديقة القصر .. وكانت تعقص شعرها الذهبى ، فى موخرة رأسها .

وقال حسين وهو يرشف من كوب بيرة أمامه :

— دعك منهم الآن .. لا تلق إليهم بالاً .. كأنك لم ترهم .

وحوّل « على » بصره فى شىء من الخجل ، وتشاغل برشف ما تبقى من كوب الغازوزة الباقى أمامه ، وأردف حسين قائلا :

— لا تقلق .. فبعد برهة ستتظاهر قدرية بأنها فوجئت برؤيتى ، ثم تدعونى وإياك إلى مائدتهم .. أرجوك أن تكف عن حياتك هذا .. إنهم قوم لا يعرفون الحياء .. قل لها ما تريد دون أن تعبأ بأحد .. فلن أستطيع أن أتيح لك هذه الفرصة مرة أخرى .. فقد استطعت هذه المرة أن أقنع قدرية بأن المسألة لا تخصنى .. وأننى لا يهمنى أن أرى « أنجى » أو غيرها ، إنما أريد أن أتيح لك أنت لقاءها ..

ولست أظنني أستطيع إقناعها بهذا مرة أخرى .

ولم يكن « على » فى حالة تساعده على تقبل ما يقال له أو فهمه ، فقد بدأت الأفكار تحتشد فى ذهنه .. كيف سيلقاها ؟ وكيف ستلقاه ؟ أيلقاها بما يحسه من شوق نحوها ، أم يتصنع الصد والسلوان ؟ وماذا يقول لها ؟ لقد سبق أن ردّد حديثه معها مئات المرات ، ومع ذلك فهو الآن لا يكاد يعى كلمة واحدة مما سيقوله لها .

وكيف ستجيبه هى ؟! إنه يذكر آخر كلمة قالتها له فى الإسكندرية ، عندما لقيها فى ميدان السباق ، وسألها عما إذا كانت باقية على حبه ، فأجابته هامسة : « وأكثر » .

لقد كانت تلك الكلمة هى السند الذى وقى صرح حبه من انهيار . كانت القطرة التى بلّ بها صداه فى صحراء من الهجر والقطيعة . كانت البارقة التى بددت ظلمات يأسه ، وحفظت ثقته من التزعزع ، وإيمانه من الضياع .

والليلة .. بم تراها مجيبة .. لو أعاد عليها السؤال ؟! أتراها تمنحه قطرة أخرى تبلّ صداه ؟! ولكنه لا يقنع بقطرة تعاونه على الحياة .. بل هو يريد منها أن تمنحه الحياة نفسها .. يريد أن يحدثها كثيراً .. يريد أن يضع حداً لتلك الظلمات التى تحيط به .. يريد أن يعرف رأيها فى كل ما حدث ! أما زال إيمانها بحبهما قوياً كما هو ؟! أما زال قادراً على تخطى العقبات والسدود ؟! أما زال ساخراً بالتقاليد ، هازئاً بالفوارق ؟! أما زالت مصرّة على أن تكون له حتى الموت ، وحتى ما بعد الموت ؟!

بل .. أما زالت تذكر أقوالها هذه ؟

وإذا كانت تذكر .. وإذا كان إيمانها وحبها كما هو .. فكيف يمكنها تخطى تلك الهوّة الشاسعة ، من التقاليد الصارمة ، والفوارق الصلبة ؟! وأنّى لهما هذا التخطى ، وأبوها يتهم أباه بالجنون لمجرد محاولة هذا التخطى ؟! وكيف يستطيع هو أن يحاوله .. وهى تقف منه هذا الموقف السلبى وتمعن فى النأى والتباعد ؟

وكيف يمكنه أن ....

ولكنه لم يتم تساؤله لنفسه .. فقد انتشله من أفكاره نهوض أخيه من مقعده فجأة ، وقوله له :

ـــ انتظرنى لحظة .

وكان بصره قد التقى ببصر قدرية ، فهزّت رأسها بالتحية ، ثم أشارت إليه ، فنهض متجهاً إلى المنضدة التى أحاطت بها رفقتها ، وصافح قدرية ولثم يدها ، وأشار برأسه إلى بقية الجالسين ، وقد انهمكوا فى الشراب والضحك ، وقالت قدرية مرحبة :

ـــ أهلاً « حسين » .. كيف حالك ؟! اجلس .

ونظر « حسين » حيث يجلس أخوه ، ثم قال معتذراً :

ـــ إنى أجلس مع أخى .

ـــ ادعه يجلس معنا هو الآخر .. بدل أن تجلسا وحيدين هناك .. اذهب وناده .

وتحرك « حسين » متجهاً نحو أخيه .. وكانت « أنجى » و « سهيلة » تتبادلان الحديث ، ولم يبد عليها الكثير من الدهشة عندما رأت « حسين » وردت تحيته بإشارة من رأسها ، ولكن دهشتها الكبرى بدت عندما نظر حسين تجاه أخيه واعتذر عن الجلوس لوجوده .

ـــ لم يكن بصرها قد وقع على « على » حتى تلك اللحظة .. إذ لم يكن يبدو عليها كثير اهتمام بما حولها .. ولم تكن تتوقع قط أن تراه فى هذا الوقت ، ولا فى هذا المكان .. ولذلك كانت مفاجأتها أكبر ، واضطرابها أشد ، فقد أفقدها ذلك القدرة على السيطرة على مظهرها وتمالك أعصابها ،فتلاحقت أنفاسها لاهثة مكروبة كأنها تعدو فى سباق . وجعلت عضلات أنفها الدقيق ترتجف .. مع الأنفاس المتلاحقة . وأخذ الصدر يعلو ويهبط .

ولاحظت « قدرية » اضطرابها ، ونظرت « سهيلة » إليها فى دهشة قائلة :

ـــ ما بالك قد شردت هكذا ؟ ما بالك لا تردّين ؟ أبك شىء ؟

وأجابت « أنجى » فى صوت خافت :

ـــ أبداً .. مجرد ضيق يصيبنى من آن لآخر .

وأقبل حسين يتبعه « على » بسيمائه الجادة .. ومشيته العسكرية ، محاولا أن يكسو وجهه مظهر الهدوء ، وجوفه يغلى بالأحاسيس .

وشد « على » على يد قدرية التى قامت بواجب تقديم الأخوين إلى رفقائها مرددة الأسماء فى لهجة رقيقة باسمة .

وانحنت الرءوس فى رقة حتى جاء دور علاء ، وبدأت آثار الشراب ، تبدو فى حركاته ونبراته ، ولم تكد « قدرية » تنطق باسمه ، حتى هتف ضاحكا :

ـــ نحن معرفة قديمة .. كيف حالكما ؟ وكيف حال الريس عبد الواحد !؟

ورشف من كأسه رشفة ، ثم أردف موجها القول إلى الجالسين حوله :

ـــ كان أباهما خير جناينى شهدته حدائقنا .

وتصاعدت الدماء حارة إلى وجهين : وجه « على » ووجه « أنجى » ، وكان كل منهما يرمق صاحبه بنظرات قلقة ملؤها اللهفة والحب والحذر والخوف ، وأحست « أنجى » بعد أن ألقى أخوها بقوله الأحمق ، بما يمكن أن يتورّط فيه من سخافات قد تزيد الموقف حرجاً

ونظر سامح ـــ الذى كان دائم الملازمة لأنجى ـــ إلى « علىّ » نظرة فاحصة ، ثم تسأل علاْء بقوله

ـــ إذاً .. فهذا هو ؟!

ولم يدعه « علاء » يتم حديثه ، بل قاطعه قائلا بلهجته المستهترة الساخرة :

ـــ أجل .. إنه هو بعينه الذى تقدم يخطب أنجى ، تصوّر الجرأة والوقاحة !

ثم اندفع يقهقه .

وخيم الصمت على الجميع ، وبرق الشرر فى عينى حسين ، وأحسّ « علىّ » بموجة غضب تجتاحه ، وتدفعه إلى أن يقلب المنضدة على رءوسهم جميعاً ، ولكنه تماسك وتجلد دون أن يرد بكلمة واحدة، وسحب أخاه من يده.. وغادرا

المكان فى صمت .

واستمر علاء يشيعهما بقهقهته قائلا :

ـــ لقد كاد أبى يضعه فى مستشفى المجاذيب .. ولكنه اكتفى بطرده من العزبة .

ونظرت إليه « أنجى » فى حنق شديد ، وقالت والبكاء يكاد يخنقها :

ـــ مستشفى المجاذيب ، يجب أن يلملك أنت .. إنه خير منكم جميعاً .

ورفع سامح حاجبيه ، وتساءل فى دهشة ساخرة :

ـــ وما لك متأثرة هكذا ؟! لماذا كل هذا الاهتمام والعطف ؟!

ولم تجب « أنجى » وبدا عليها كأنما أغرقت فى لجة من الهموم والأحزان ، وما لبثت حتى وضعت يدها على جبهتها ، ثم نهضت متثاقلة ، وهى تقول :

ـــ إنى أشعر بصداع شديد .. سأعود إلى البيت .

وتساءلت « سهيلة » فى دهشة :

ـــ أهكذا سريعاً ؟ إننا لم نبدأ السهرة بعد ؟!

ـــ إنى أشعر أن رأسى يكاد ينفجر .

وقال سامح راجياً :

ـــ اجلسى قليلا ، وأؤكد لك أنه سيزول بعد برهة .

وأجابت « أنجى » فى إصرار :

ـــ لا أستطيع أن أمكث أكثر من هذا .. لا بد أن أعود الآن .

ورد سامح وهو ينهض :

ـــ إذاً .. أقوم معك ، لأوصلك بعربتى .

ـــ أشكرك .. سآخذ عربتنا ثم أعيدها إلى علاء بعد أن توصلنى .

ونهضت قدرية قائلة :

ـــ لا داعى لذلك .. إنى أستطيع أن أوصلك لأنى ذاهبة الآن .

وتصايح الجميع :

ــ إلى أين ؟!

ــ تذكرت شيئاً هاماً ، كنت أوشك أن أنساه .. هيا بنا يا أنجى .

وسارت « أنجى » إلى الخارج تتبعها قدرية ، وعندما تحركت بهما العربة كانت « أنجى » مغرقة فى الصمت ، وقد شردت ببصرها إلى الطريق الممتد التى تتابعت فيه الأنوار الخافتة ، وبدا البحر يجيش من ورائها فى هدير متلاحق .

وقالت قدرية فى صوت خافت :

ــ إنى آسفة لما أكون قد سببته من حرج ! ولكن لم يخطر لى ببال أن يتطور الموقف إلى مثل هذا . إنى لم أتوقع أن يتهور « علاء » بمثل ما قال .

ولم تجب « أنجى » ، ولكنها زفرت زفرة طويلة ، وعادت « قدرية » تقول :

ــ أتحبين أن نلتقى بهما ، لنعتذر لهما عما حدث ؟!

وساد الصمت فترة ، وبدت « أنجى » وكأنها لم تسمع ، فقالت « قدرية » :

ــ ما رأيك ؟

وهمست « أنجى » فى يأس :

ــ لا فائدة ..

ــ لا فائدة من ماذا؟

ولم تجب « أنجى » ورنت فى شرود بعينيها إلى الظلمات المتكاثفة ، المتراكمة وراء الأمواج .

وفى تلك اللحظة كان « حسين » قد تأبط ذراع أخيه وأخذا يسيران بخطوات متثاقلة ، تلفهما الظلمة ، وتلفح وجهيهما ريح البحر .

وقال « حسين » مفرّجاً عن كربه وضيقه :

ــ كان بودّى لو حطمت رأسه ، ولكن خشيت الفضيحة ، وكرهت أن أزيد موقفك تعقيداً ...

واستمر « على » فى صمته ، وكره « حسين » منه هذا الصمت . كان يعرف

ما يضطرب فى جوفه .. وود لو فرّج عنه بالحديث .. فعاد يستدرجه إليه :

ـــ على أية حال سأردّها إليه فى فرصة قريبة .. المهم الآن .. هو أن نحاول تدبير لقاء آخر .. سأطلب من « قدرية » أن تدبر لنا لقاء لا يكون به ذلك الحيوان الوقح .. وعسى أن تستطيع ذلك الليلة القادمة .

ورفع « على » رأسه المطرق ، وأجاب فى صوت خافت :

ـــ إنى سأسافر غداً .

ـــ لا تكن عنيداً .. أرسل فى طلب أجازة محلية .

ـــ لا أظن هناك ما يدعو للبقاء .

ـــ اترك الأمر لى .. سأحاول أن أفعل لك شيئاً خلال النهار .. ويمكنك أن تسافر فى المساء .

وهز « علىّ » رأسه فى يأس ، وأجاب :

ـــ لا فائدة .

ـــ لا فائدة من ماذا ؟

ـــ من كل شىء .

وانطلقت الإجابة اليائسة .. وكأنها ترد على السؤال الحائر الذى لم تجب عليه « أنجى » بغير نظرة صامتة تفيض بالأسى واليأس .

---

(٤٦)

مزيد من أمل

رقد « علىّ » فى فراشه مسهد الجفن ، عاصف الذهن .. تتلاطم أفكاره تلاطم موج استبدت به رياح هوج .. فلم يعد يستبين منها أمره .. ولا يميزه ، وظل فى خضم من الحيرة واليأس والضلالة .. وأحس رأسه يكاد ينفجر .. فتسلل من الفراش الذى شارك فيه أخاه وكان « حسين » قد تكوّر وانبعج ، واحتل ثلاثة أرباع الفراش تاركاً له حافته ، كما تعودّ أن يفعل فى صغره ، ومشى « على » نحو الباب المؤدى إلى الشرفة ، المطل أحد جوانبها على البحر ، واتكأ على حافتها ، محملقاً فى الفضاء الداكن بين الماء والسماء ، تبرق فيه النجوم والمصابيح خافتة باهتة ، ومضت برهة وهو فى وقفته تلك صامت إلا من أنفاس تتردد ، وفؤاد يصطخب ، ورأس يضج ، حتى أحس بالريح الباردة تنفذ إلى عظامه ، فعاد إلى الحجرة ، وأغلق الباب وراءه فى سكون .

ولم يعد إلى الفراش ، ولكنه اتجه إلى المنضدة التى فى ركن الحجرة وأضاء الأباجورة الصغيرة ، وجلس على مقعد بجوارها ، وأخرج بضع أوراق أعدها أخوه لكتابة الرسائل ، وأمسك بالقلم واتكأ بمرفقيه على حافة المنضدة ، مسنداً جبينه بكفه الأيسر ، ضاغطاً عليه بأصابعه ، كأنه يعتصره ، أو يسكت ضجته .

واستقر طرف القلم على الورق برهة وهو حائر لا يدرى كيف يتحرك ، وأخيراً انساب على الورق انسياباً أفرغ به كل ما احتشد فى الذهن الصاخب .

عزيزتى :

ألجأ إلى الكتابة إليك ، بعد أن استنفدت كل الوسائل للقائك .. ولست

أكتب لأبثك حباً ، أو أسطر شوقاً ، أو أؤكد عهداً وميثاقاً ، فتلك كلها حقائق واضحة ، مؤكدة ، من العبث ترديدها ، ولن يؤثر فيها أن أذكرها لك أو لا أذكرها ، فأنت أدرى الناس بها .. بمداها .. بعمقها .. وبدوامها ..ولكنى أكتب إليك لأستمد منك مزيداً من الأمل ، وأبدد به ذلك اليأس الذى يحيط بى ويطبق على أنفاسى .

وعندما أقول اليأس .. لا أعنى اليأس منك .. فإن إيمانى بك فوق كل يأس ، ولو كنت يئست منك لوفرت على نفسى مشقة إزعاجك بالكتابة إليك .. ولكنه يأس من الظروف الخرقاء المحيطة بنا ، والأوضاع الجامدة الصارمة ، المفروضة علينا ، والقيود الثقيلة المغلة لنا ، والسدود المنيعة القائمة بيننا .. النائية بأحدنا عن الآخر .

ذلك ـــ وليس أنت ـــ هو ما يملؤنى يأساً .. ولو كنت سبب اليأس لهان الأمر .. ولاستطعت أن أئدك فى قلبى كما تعوّدت أن أفعل فى صباى .. واحتفظت بك موءودة فيه ، أحبك حب الموءودة فى مرقدها ، الميئوس من بعثها .

ولكنى لم أيأس منك ، فمشاعرك كانت أحر من أن يخمدها كل نأى .. وأسطع من أن يطفئها كل بعد ، ويقينى من حبك ، كان أقوى من الظروف والأوضاع والقيود والسدود التى حاولت هدم صرحه ودك بنيانه .

وأنا أكتب إليك لأنى كما قلت ـــ أريد مزيداً من أمل ـــ فليس أقدر منك على منحى إياه .. وأنت ولا شك تذكرين « وأكثر » التى منحتها إياى فى آخر لقاء لنا فى ميدان السباق ، لقد كانت رغم قصر اللقاء واقتضاب الحديث خير عون لى على الحياة ، لقد بددت بها كل سحب اليأس الجاثمة علىّ .

والليلة .. رغم كل ما حدث من سوء .. مازلت أذكر نظرتك الحزينة اللهفى . وما زلت أحس منها ـــ وهى لا تزيد عن نظرة ـــ هداية وعزاء وأملا .

ولكنى مع ذلك أكتب إليك لأنى أريد المزيد من الأمل ، والفهم .. أريد أن

أفهم أشياء كثيرة لا أفهمها .. وليس أقدر ولا أشد إقناعاً فى إفهامى إياها .. منك .

أسئلة كثيرة جداً تصطخب فى ذهنى ، وتضج فى خاطرى .. ولكنى لا أريد أن أحدّدها لك ، فأنا لا أقف منك موقف المحاسب المستجوب ، ولكن موقف الراجى السائل .. الراجى عزاء .. السائل أملا .

حدثينى أنت عما شئت ، واشرحى لى ما شئت .. وانتقى ما يحلو لك مما يدور فى خاطرى ، وأجيبى على ما شئت منه ، ودعى ما تشائين .

أنا لا أعاتبك ولا أحاسبك ، فأنت أسمى فى نفسى من العتاب والحساب .

ولكن اكتبى إلىّ لتمنحينى أملا .. إذا رأيتنى أستحقه .. أما إذا رأيتنى أحق باليأس فلا تجيبى .

وسواء أجبت أم لم تجيبى ، فإن حبك باق .. لأنه أسبق إلى نفسى من كل ما فعلت وما تفعلين .

والفارق بين أن تحكمى علىّ باليأس أو أن تمنحينى أملا .

هو الفارق بين حب الموءودة .. وحب الحبيبة الباقية التى لاتقف فى سبيل حبها سدود ولا صعاب ، ولا فوارق ولا تقاليد .

هو الفارق بين أن أطوى عليك جوانحى .. وأن أطوى السدود ، والصعاب .. حتى يكون كل منا لصاحبه .

هو الفارق بين الوأد والحياة .. وأدك فى قلبى .. أو حياتى من أجلك .

المخلص

* * *

وانتهى « على » من الرسالة ، قرأها وأعاد قراءتها مرة ثانية وثالثة ، وهو يحس أنها لم تعبّر كثيراً عن ذلك السيل المتدفق فى ذهنه ، إنه يود أن يناجيها ويعاتبها ، ويعتذر إليها عما فعل أبوه بحسن نيته .. يريد أن يعرف مشاعرها ونواياها ، وخطتها المستقبلة ، ولكنه مع ذلك يشعر أنه لا يستطيع أن يكتب أكثر مما

كتب .. وهّم بضع مرات بأن يمزق الرسالة أو يعيد كتابتها ، ولكنه ما لبث أن طواها ، وأغلق عليها أحد الظروف الموضوعة على المنضدة ، ثم نهض عائداً إلى فراشه .

وفى الصباح فتح « حسين » عينيه ليجد « علي » قد ارتدى ملابسه ، فسأله فى دهشة :

ـــ إلى أين ؟

ـــ أريد أن ألحق قطار الصباح .

ـــ يا أخى اعقل .. لماذا كل هذه العجلة ؟! انتظر حتى المساء فقد يحلها ربنا ، وتستطيع أن تفعل شيئاً خلال النهار .

ـــ لا أظن .. لا داعى لإضاعة الوقت عبثاً .

ـــ وماذا لديك فى القاهرة .. ألم تبدل نوبتجيتك ؟

ـــ عندنا تفتيش قائد الآلاى على العربات فى الغد .. ومن الواجب أن أمرّ اليوم عليها .

ـــ يا أخى لعنة الله عليك ، وعلى العربات ، وعلى قائد الآلاى .. انتظر حتى تتغدى معى ثم سافر بعد الظهر . فقد تسنح لنا الفرصة صباحاً .. من يدرى ؟

ـــ أية فرصة هذه التى ستسنح ؟ إنى واثق أنها إذا سنحت ، فلن تسنح بطريقة أفضل مما سنحت بها أمس .. إن كل ما أريده منك .. هو أن توصل لها هذه الرسالة .. وأظنك تستطيع .

وأمسك « حسين » بالرسالة بين يديه ، وتساءل :

ـــ ماذا كتبت بها ؟

ـــ لا يهمك ما كتبت .. أتستطيع أيصالها .. أم لا تستطيع ؟

ـــ بالطبع أستطيع .

ثم صمت برهة ، وأردف فى استسلام :

ـــ اللهم إلا إذا كانت .. لا تريد هى أخذها .

وفوجئ « على » بقول أخيه ، ومد يده فاستعاد الرسالة قائلا فى وجوم :

ــ أتعتقد ذلك ؟

وبدا على « حسين » الندم على ما قال .. واختطف الرسالة قائلا :

ــ أنا لا أعتقد شيئاً .. إنه مجرد كلام ، ماذا يدعوها إلى رفضها .. لتقرأها على الأقل .. من باب العلم بالشىء ، وحب الاستطلاع .

ــ وكيف ستسلمها لها ؟

ــ سأعطيها إلى قدرية لتوصلها إليها .. إذا لم أستطع أنا أن أسلمها لها .

ــ أتعتقد أن « قدرية » مأمونة ؟

ــ مأمونة ؟! أتظن رسالتك ثمينة إلى حد أن تفكر « قدرية » فى سرقتها ؟

ــ لست أقصد ذلك .. بل أعنى أنها ربما تعطيها لأحد .

ــ اطمئن .. سأضمن لك تسليمها يداً بيد .. أتريد شيئاً أكثر من ذلك ؟

ــ إذا كانت تنوى أن تكتب رداً ؟!

ــ سأحضره لك .

ــ بمجرد أن تتسلمه ؟

ــ سآخذ أول قطار وأحضره لك بنفسى .. أظنك لا تريد بعد هذا شيئاً ؟

ــ لا .

ــ ولكن كل هذا بشرط .

ــ ما هو ؟

ــ أن تتغدى معى .. سأطعمك « فتة بالكوارع » .. لم تذق لها مثيلا فى حياتك .. اجلس الآن حتى أحضر لك « ريتا » .. إنك لم ترها بعد .. إن دمها خفيف جداً .

ثم وضع « حسين » سبابتيه فى فمه .. وأطلق صفارتين طويلتين ، وقال :

ــ ستحضر حالا .. صفارتان لها .. وصفارة واحدة لأمها .

ولم يكد ينتهى من قوله حتى اندفع الباب ودخلت « ريتا » ولم تكن تتجاوز

السابعة عشرة .. وقد تلوى شعرها الأسود القصير ، فى حلقات صغيرة فوق رأسها .. وبدت عيناها الخضراوان كعينى هرّ .. وافتر ثغرها عن ابتسامة عريضة ، ظهر من خلالها كوبرى سلك تأبى أمها إلا حشوه فى فمها ، لكى يعدل من بروز إحدى أسنانها .. وقد لفت حول جسدها رداءً حريرياً رخيص الثمن بدت قيمته فيما حوى من صدر رجراج ، وردفين مكتنزين ، يبديان من أنوثة الفتاة ما لم يبد وجهها .

وألقت الفتاة تحية الصباح ، ثم تساءلت :

ـــ أحضر لكما الشاى ؟

وأجاب حسين :

ـــ قبل الشاى تعالى أولا ، حتى آخذ حضن الصباح .

وبدا الخجل على وجه الفتاة ، وقالت زاجرة :

ـــ عيب يا حسين .

وأجاب حسين متصنعاً الدهشة :

ـــ عيب !! .. إنه أخى .. وأنت أختى .. تعالى ..

ونهض من فراشه وقفز محاولا اللحاق بها ، ولكنها اندفعت تعدو هاربة ضاحكة .

وهز « علىّ » رأسه فى عجب من انحلال أخيه ، وردعه قائلا :

ـــ يا أخى اختشى .. ماذا تقول أمها ؟

ـــ ماذا تقول ؟! أتظن أن كلتيهما لا تعرف ما أفعله بالأخرى .

وتناول الأخوان الفطور مع « ريتا وأمها » .. وأحس « علىّ » بنظرات « ريتا » ترمقه فى شبه إعجاب ، وأحب نظراتها وبراءتها ، وكره من أخيه عبثه بها ، وعندما لامه بعد الإفطار على هذا العبث ، أجابه « حسين » ضاحكاً :

ـــ ماذا تريدنى أن أفعل بها .. أحبها .. كما تفعل أنت بغباوتك ؟! أنا لا أحب .. ولكنى أشتهى فقط .. لا أفكر إلا فى الجسد الذى بين يدى ، فدعنى

أعبث كما أريد لأنى إذا لم أعبث بهن عبثن بى .

وفى الساعة الخامسة والنصف وقف حسين على رصيف محطة سيدى جابر مودعاً ، وضم إليه « علياً » ضمة تقبّلها بكثير من الخجل والحرج لارتدائه ثيابه الرسمية ، ولنفوره الطبيعى من مظاهر المشاعر ، ولكن حسين لم يأبه لخجله أو حرجه ، فقد كان يحبه ويعرف قدره ، ويحس بما يعتمل فى جوفه من أسى مكبوت ، ولم يفه « على » بشىء عن الرسالة قبل أن يرحل ، ولكن حسين وفر عليه الحديث عنها بقوله مؤكداً :

ـــ فى خلال هذا الأسبوع سأحضر لك الرد .. إن شاء الله .

ـــ ولكن كيف يمكنك الحضور ؟

ـــ إنى أعمل يوماً بعد يوم .. وسأنتهز فرصة خلوّى من العمل ، وأحضر ليلا وأسافر فى اليوم التالى .. سلامى إلى والدينا .

ـــ فقط ؟

وضحك حسين قائلا :

ـــ وإلى بهية .

ـــ أيها الضال .. إنها ملجؤك الأخير .

ـــ الملجأ للعجزة .. وأنا لست عاجزا .

ـــ أنت ضال !

ـــ أحب الضلالة .

ـــ حتى تعجز عنها .. فتحب الملجأ .

ـــ وقانى الله شرّة .

ـــ شر لابد منه .

ـــ للعجزة فقط .

وضحك « حسين » . وأطلق القطار صفارته مؤذناً بالرحيل فرفع يده بالتحية ملوحاً .

وفى المساء كان « حسين » يتحدث فى التليفون مع قدرية قائلا :

ـــ أريد أن أراك الليلة .

ـــ آسفة .. إن موعدنا فى الغد عند « مدام اسكنرى » .

ـــ ألا يمكن أن نجعله الليلة ؟

ـــ مستحيل .. إنى قد ارتبطت بموعد هام ، ولكن لماذا هذه العجلة ؟

ـــ كنت أريد أن أسلمك رسالة تعطينها لأنجى .

ـــ يا أخى أجلها إلى الغد .

ـــ اسمعى .. ألا يمكن أن تعرفى منها إلى أين ستذهب الليلة ؟

ـــ أعتقد أنها لن تغادر « سان استفانو » .

ـــ إذاً سأحاول أن أسلمها لها أنا .. وإذا فشلت فسأعطيها لك غداً .

وقبيل التاسعة دخل « حسين » « سان استفانو » وألقى نظرة فاحصة على القاعة الرحبة ، التى تناثرت بها المناضد ، ولم يطل به الوقوف حتى وجد « أنجى » تجلس مع أبيها ، وبجوارهما رجل وامرأة لا يعرفهما .

وأخذ بوجود أبيها .. وأحس بخيبة أمل شديدة .. فقد كان لمرأى الرجل وقع رهيب فى نفسه ، لم يستطع أن يتخلص منه منذ صغره عندما كان يسعى مع أبيه ليقبل يده ، ويتلقى منه المنح والعطايا .

وأخذ يدور من بعيد حولهم ، وقد أصابته الحيرة ، وداخله اليأس ، إذ كان من العبث أن يلجأ إلى أية محاولة ، للاتصال بها مع وجود أبيها ، ولم يجد بداً من أن يقبع فى أحد الأركان لمراقبتها .. علّ الفرصة تسنح بمخاطبتها وتسليمها الرسالة .

ولم يكد يستقر على المقعد ، حتى برق فى ذهنه خاطر جعله ينهض من مقعده ، ويتجه مسرعاً إلى إحدى كابينات التليفون ، ورفع السماعة فأجابته العاملة فرد عليها قائلا :

ـــ أنا الملازم أول « حسين عبد الواحد » أعطينى السكة من فضلك .

وأدار القرص طالباً أحد أرقام الفندق ، فردّت العاملة نفسها مرة أخرى

معتقدة أن المتحدث من الخارج ، دون أن يخطر لها ببال أن المتحدث هو نفسه الذى طلب تحويل السكة ، وأجاب « حسين » وكأنه يتحدث من خارج الفندق :

— من فضلك أريد أن أتحدث إلى « أنجى هانم » .

— انتظر على السماعة .

وقف « حسين » ينتظر ، وقد وضع يده فى جيبه ممسكا الرسالة ، وأحس بكثير من الاضطراب ، وبدا له أن الوقت يمر ثقيلا بطيئاً .

وخيل إليه أن « أنجى » ربما تكون قد رأته ، وأنها أدركت أنه هو الذى يطلبها ، وأنها سترفض الحضور ، وأخذت الوساوس تتوالى على ذهنه .. حتى سمع العاملة تقول له :.

— معاك يا أفندم .

وسمع صوت « أنجى » يليه مباشرة هاتفة :

— آلو ..

— مساء الخير يا أفندم .

— مساء الخير .. مَنْ ؟

— أنا حسين .

— حسين من ؟

— حسين أخو على .

— أخو على ..

ومضت برهة صمت لم يدر ما إذا كانت تحاول تذكره ، أم تحاول تمالك نفسها من الدهشة والارتباك ، وبعد لحظة أردفت قائلة فى تساؤل :

— أفندم .

— أتسمحين لى ببضع كلمات .. إنى آسف على إزعاجك . ولكنى مكلف بتسليمك رسالة .

ـــ ممن ؟

ـــ من على .

ـــ مستحيل !

ـــ وما وجه استحالته ؟

ـــ كيف يمكن أن أقابلك ، وآخذها منك ؟

ـــ ليس هناك أسهل من ذلك .. إنى أحدثك من اللوكاندة .. من إحدى كبائن التليفون .. لا يفصلنى عنك سوى جدار وأستطيع أن أسلمها لك ببساطة ، عندما تغادرين حجرة التليفون ، دون أن يلحظ أحد .

ـــ ولكن ..

ـــ ليس هناك لكن .. إذا كنت لا تريدين الرسالة خشية العواقب .. فسأتكفل أنا بتسليمها لك ، دون أى حرج عليك . وإذا كنت لا تريدينها ، لأنك لا ترغبينها فأنبئينى حتى أمزّقها أو أعيدها إليه .. فليس هناك بالطبع ما يمكن أن يكرهك على أخذها .

ومضت فترة صمت خيل إلى « حسين » أنه يسمع فى السماعة تردّد أنفاسها ، وبعد لحظة أتى إليه صوتها خافتاً مستسلماً :

ـــ سآخذها .

ـــ والرّد ؟

ـــ أى ردّ .

ـــ والرّد عليها ؟ إنه يريد رداً .. أأستطيع الحصول عليه غداً فى مثل هذا الوقت ؟

ـــ كيف ؟

ـــ بنفس الطريقة التى سأسلمك بها الرسالة .. سأطلبك غداً كما طلبتك الليلة ، ويكون الرد جاهزاً معك .

وبعد فترة تردّد أجابت قائلة :

ـــ سأحاول .

ـــ إلى اللقاء فى الغد .. سأسلمك الرسالة بمجرد أن تغادرى الكابينة . مساء الخير .

ـــ مساء الخير .

ووضع السماعة ثم غادر الحجرة الصغيرة ، فرأى « أنجى » تخرج من الحجرة المجاورة ، وقد توترت أعصابها ، وبدا عليها ارتباك شديد .. فتقدم وكأنه يسير فى طريقه ، دون أن ينظر إليها ، وقد أطبق على الرسالة بيده ، وكان الممر خالياً إلا من أحد صبية التليفون ، وعندما اقترب منها مس يدها تاركا الرسالة ببساطة بين أصابعها .. مستمراً على السير فى طريقه كأنه لم يفعل شيئاً .

ـــ وضغطت أصابع « أنجى » على الرسالة بعصبيه شديدة جعلتها تتكوّر مختفية فى كفها المطبقة .. وخيّل إليها أن الأنظار كلها مصوّبة إلى الرسالة المختفية ، وأنها تكاد تقرأ ما فيها وتفضح أمرها .. وتباطأت خطواتها ، وتعجلت حركة ذهنها .. ماذا تفعل بالرسالة الآن ؟ .. إن عليها أن تدسها فى الحقيبة حتى تخلو إلى نفسها ثم تقرأها .

ووصلت إلى المنضدة .. وجلست على مقعدها قائلة فى هدوء ، دون أن يسألها أحد :

ـــ إنها « سهيلة » تسأل عما إذا كنت سأذهب إليها غداً .

ومدت يدها ففتحت الحقيبة وأخرجت المنديل ، فمسحت به أنفها ثم أعادت المنديل إلى الحقيبة مع الرسالة .

ولم يطل بها الجلوس حتى أبدت رغبتها فى العودة .

وفى حجرتها .. جلست وحيدة فى سكون الليل إلا من هدير الموج ، يأتى خافتاً من وراء النافذة العريضة ، وفتحت الحقيبة ، وفضت الرسالة المجعدة المكوّرة ، وبدأت فى قراءتها .

وعندما انتهت من القراءة أطبقت عليها ثانية .. وأمعن ذهنها فى شرود بعيد ،

مقلباً صفحات الماضى جاثلا بين أربُعه .

تذكرت إلقاءه بجسده أمام الترولى ، لإنقاذ حياتها .. وخجله من النهوض حتى لا ترى رقعة بنطلونه .. تذكرت ترفعه وإباءه وتباعده عنها ، ثم لقاءهما أول مرة ، وهو عائد من كشف الكلية الحربية ، وكيف أبى على نفسه الرجاء . وتذكرت لقاءهما على شاطئ الترعة وفى الحديقة وفى السينما ، وتذكرت رقدته فى المستشفى وزيارتها له ، ثم تخرجه ورؤيتها إياه يوم التتويج ، ورسالتها إليه ، ثم لقاءهما فى الإسكندرية بين الأمواج والحدائق .. وتذكرت لقاءهما الأخير يوم ميلادها وهديته إليها .. القلب الذهبى ومفتاحه ، وتذكرت نفسها المليئة بالأمل ، المفعمة بالرجاء .

كان أملها فيه وقتئذاك أقوى من كل الفوارق ، وإيمانها بحبه أشد من كل العقبات .. كانت تراه خير الرجال .. وتعتبر أن حقها فى الارتباط به لا يمكن أن يسلبه منها أى مخلوق ، وأنها هى وحدها التى تستطيع تقرير مصيره معها .

لقد غرست فى نفسها هذا اليقين .. وكان كل لقاء لها معه يزيد ثقتها عمقاً ، وإيمانها شدة .. حتى كانت ليلة المعادى عندما افترقا ، وقد تعاهد كل منهما على أن يكون للآخر حتى الموت ، وحتى ما بعد الموت .

وفى لحظة الافتراق لمحها أخوها عندما مرّ بعربته .

وتذكرت ما أوجسته من خيفة ، وما أحست به من ضيق . ولكن خيفتها وضيقها .. كانا تفاؤلا بالقياس إلى ما حدث بعد ذلك .

لقد ثار أخوها ثورة حقد وحنق .. وأشعل الثورة فى نفس أبيها .. ولم تكن الثورة مبعثها لقاؤها مع رجل ، بقدر ما كانت على طبيعة الرجل نفسه ، وعلى الهوّة السحيقة التى بينهما ، وعلى جدية علاقتها به .. وشعورها نحوه .

لقد اعتبرها أبوها كارثة .. وعزم على أن يكون إزاءها حازماً وعنيداً .. فأمرها بصرامة أن تقطع كل صلاتها به وأن تكف عن لقائه . وكان عليها أن تطيع الأمر .. لا خوفاً على نفسها ، بل عليه هو .. فلقد أصر أخوها بكل ما فيه من

حقد ونزق وجنون ، على أن يقتله إن رآها معه أو عرف أنه ما زال على صلة بها ، وأصر أبوها بكل ما فيه من قسوة وصلف وجبروت وسلطان وعناد وإصرار ، على أن يضيع مستقبله إن لم ينته كل ما بينهما .

وكان عليها أن تختار بين علاقة يائسة ، وصلة ممتنعة لا فائدة منها ولا طائل تحتها .. وبين حياته ومستقبله .

فاختارت حياته ومستقبله ، وعزمت على أن تطوى حبه ، وأن تئده — كما فعل هو — فى قلبها .

. ومرت بها ليال سود وأيام مريرة ، وكم من ليلة خلت إلى القلب الصغير تغرقه بدموع تنساب فى صمت .. وأنفاس تلتهب كالشواظ .. وكم من مرّة همت بالكتابة إليه لتنفث ما فى فؤادها ، ولكنها عادت فمزقت ما كتبت .. كانت تجد فى الكتابة إليه إشعالا لنيران الأمل .. وهى التى كانت تستجدى الزمن مزيداً من اليأس ، وكانت تخشى أن تدفعه رسالتها إلى أى فعل إيجابى قد يودى به .

وبدأ أبوها يدفع فى طريقها بقريبها « سامح » .. محاولا أن يهيئ لها فيه ما يشغلها به .. معتقداً أنه خير من يمكن أن يكون لها زوجاً .

وقد عزمت فى نفسها على ألا تكون لأحد ، وأصبحت فى حياتها أشبه بدمية صامتة يضعونها أين شاءوا ويحركونها كيفما شاءوا .

ولقد شفى الزمن صدع قلبها .. وأغلقه على الموءود فيه .. وأهال البعد الكثير من أتربة النسيان .. أو هكذا خيّل إليها حتى أبصرته فى السباق فجأة .. فإذا بما سبق أن حدثها به عن الموءودة فى قلبه قد حدث لها ... وإذا بالموءود فى قلبها قد استيقظ ، ونفض عنه الأتربة ، وحطم الجدث .. وإذا بالقلب المغرق فى سكون الموت قد رقص وغنى وصفق وهفا .. وإذا بسيول الحب تتدفق .. كما تتدفق المياه المحتجزة وراء سد إلى أرض مجدبة قفراء .. وإذا بها لا تملك إلا أن تجيبه عندما سألها ، أما زالت تحبه بقولها : « وأكثر » وبودّها لو تجد هناك كلمة خيراً من

تلك للتعبير عما بنفسها .

ولكن .. الواقع المرير .. الذى انتزعها منه لقاؤها المفاجئ .. عاد ليقيم من نفسه سداً آخر يحجز وراءه ما تدفق منه من مشاعر .. وليقبض على الموءود الهارب ، وليغلق عليه الجدث مرة أخرى .

وعادت أتربة اليأس تنهال من معاول الواقع .. صمت القلب المصفق .. وعاد غناؤه نواحاً ، وترنيمه أنيناً .

كان لقاؤه خطيراً .. إذ كان يضعف من قدرتها على المقاومة .. وهى فى أشد الحاجة إلى المقاومة .. من أجل حياته ومستقبله .. فى حاجة إلى الكثير من النسيان واليأس .. وليحكم الإغلاق على الموءود فى القلب ، ويقطع عليه السبيل إلى البقاء والعيش .

وكانت تظن أنها قد مهّدت له الطريق إلى اليأس ، وأنها منحته من النأى والهجر ما أعانه هو الآخر على عملية الوأد .

كانت تعتقد ذلك حتى رأته بالأمس .. وقرأت فى رسالته الليلة :

« .. لا أعنى اليأس منك ، فإن إيمانى بك فوق كل يأس » « إن مشاعرك أحر من أن يخمدها نأى .. وأسطع من أن يطفئها بعد .. ويقينى من حبك أقوى من كل الظروف والأوضاع والقيود والسدود » .

بعد كل ما فعلت ، وما قطعت ، وما هجرت .. يقول هذا !

إنه يطلب منها مزيداً من أمل .. بعد كل ما جرفته عليه من يأس . إنه يقول :

« أكتبى إلّى لتمنحينى أملا .. إذا رأيتنى أستحقه » .

يستحقه !! .. إنه يستحق أن تمنحه حياتها .. ولكنها لا تريد أن تمنحه الأمل .. لأنها تخشى على حياته هو ، وليس على حياتها هى .

ولكن أليس من حقها أن توضح له كل شىء ؟ . أليس من حقها أن تبين وتشرح ؟ . أليس من حقها أن تقول لماذا لا تريد أن تمنحه أملا ؟

إنه يريد حبها .. لماذا لا تكتب إليه لتقول له : إن حبها له باق ــــ كحبه ــــ رغم كل شيء ؟

لماذا لا تكتب إليه لتقول إن حبهما قد تسامى إلى الحد الذى لا تبلغه سدود أو قيود ، فهو باق على النأى والهجر والبعد ، واصل مهما أبت الأوضاع والفوارق ، والواقع .

وأمسكت بالقلم وبدأت الكتابة .

وجرى قلمها على الورق فى عدو لا يتوقف .. فسرد كل ما أحاط بها من ظروف ، وما أكرهت عليه من أوضاع ، وشرحت مبررات نأيها ، وكل ما قاسته من أشجان وأحزان .

وختمت رسالتها بقولها :

« لقد وضحت لك كل ما بنفسى ، ولست أدرى أأجبت به عن كل ما يصطخب فى ذهنك من أسئلة ، أم ما زال هناك مالا أستطيع تخمينه ؟! لقد سبق أن حاولت أن أكتم عنك ما بى ، لكى أقضى على كل أمل لك فىّ ، ولكى يصيبك منى يأس مريح .. يخلصك تماماً من الحبيبة الموءودة فى قلبك ..

ولكن حبك ــــ كحبى ــــ كان أقوى من كل يأس ، والوأد فى قلبينا لم يكن وأداً بل كان تمكيناً وتثبيتاً . ولم يكن أمامى من سبيل سوى أن أكتب لأقول لك كل شىء .. لعلى أمنحك ــــ كما قلت ــــ مزيداً من أمل .

وقد أكون بذلك أنانية .. وقد تكون ثورة مشاعرى التى أشعلتها رسائلك أضاعت قدرتى على الصمت ، والتضحية التى أقدمت عليها من أجل مستقبلك وحياتك ، ولكن عزائى فى ذلك هو اقتناعى الآن بأننا نستطيع أن نسمو بمشاعرنا ومطالبنا عن الواقع الملموس ، وأن يظل ما بيننا متصلا ، رغم تلك الموانع والسدود ، لا تقلل منه قطيعة ولا بعد ، ولا يعتريه أى تغيير مادى يمكن أن يقوم بيننا .. وأن نستمد سعادتنا من إيمان كل منا بالآخر إيمانا لا يتزعزع ولا يهن ..

وأن يبقى كل منا للآخر حتى الموت .

إذا اقتنعنا بهذا ، هانت علينا العقبات .. وهان علينا كل ما يمكن أن يضعوه فى سبيل حبنا مما يملكونه كبشر .. و لم أعد أخشى عليك بعد ذلك ، من أن أمنحك مزيداً من الأمل بل كل الأمل .. وأقول لك :

أحبك .. أحبك .. أحبك بكل ما فيّ من أنفاس تتردد ..

المخلصة ..

(٤٧)

رماد ..

حمل قطار المساء« حسين » وفى جيبه رسالة « إنجى » إلى « على » ومدّ ساقيه فأسندهما على المقعد الخالى أمامه ، ملقياً ببصره فى ظلمات النافذة يرقب أشباح الأعمدة يتلو بعضها بعضاً .

ونقل بصره من النافذة إلى الساعة فى معصمه ، فألفاها قد شارفت الحادية عشرة ، وكان القطار قد غادر طنطا ، ولم يبق سوى ساعة حتى يصل القاهرة .

وشرد بذهنه ، وهو يتحسس الرسالة فى جيبه .

هذه الوريقات التافهة يعلّق عليها أخوه سعادته ومصيره ! أخوه العاقل الرزين .. يتضاءل عقله ، وتزوى رزانته أمام هبة مشاعر هوج تستبد به !

ماذا يمكن أن تحوى هذه الوريقات أكثر من ألفاظ ؟ ما قيمة الألفاظ فى تغيير الواقع الذى تفرضه الحياة علينا .. الواقع الأصم الأعمى الذى لا يسمع ولا يقرأ .. أهى مجرد تخدير يفقدنا إحساسنا به إلى حين ؟

ألم يكن خيراً له لو جابه الواقع الأصم بنفس صماء ؟

ولكنه لا يريد ذلك .. إنه يأبى إلا الهيمان فى أودية من الأوهام عريضة مديدة .. وفى هذه الوريقات مزيد من ضباب الأوهام ، يخفى عنه سدود الواقع .

إنه يعلق مصيره على هذه الوريقات .. وهى لا تزيد عن مجرد كلام فى كلام .. أقصى ما فيه .. « أحبك » .. يطبق عليها .. ويتعلق بها تعلق الغريق فى كسر من حطام سفين .. لا يكاد يمنحه إلا مزيداً من لطم الموج ، وعصف الريح .

وهو يقطع هذه المسافة فى آناء الليل ، ليحملها إليه .. ليحمل إليه الوهم .. ويشاركه فى حماقته .. وفى عدوه وراء الأوهام .

أما كان خيراً له لو أطبق عليها وألقى بها من النافذة ، ومنحه بذلك

راحة اليأس ، وأنقذ مصيره من أن تتحكم فيه مجرد تفاهات ؟

بل أما كان خيراً من هذا لو مزّق رسالته هو ، وأراح نفسه من العدو وراءها .. وأراحها من القراءة والرد ؟!

أجل . كل هذا كان خيراً مما فعل .

ولكنه مع ذلك لا يملك إلا أن يفعله .. ويستمر فى فعله .. لأنه يحب أخاه .. ويكره آلامه وأحزانه .

ثم .. من يدريه ؟! ألا يحتمل أن تكون الرساله نفسها تحمل راحة اليأس !

لا يظن .. فلو كانت تقصد هذا .. لوفرت على نفسها مشقة الكتابة .. وأبت الرد .

إنها لا تهديه إلا أملاً ، فهى رقيقة طيبة ... وهى تحبه .

وهذا شر ما فى الأمر .

وأغمض عينيه فلم يفتحهما إلا فى محطة مصر .

وهبط من القطار ، وعبر فناء المحطة إلى الميدان الفسيح الخالى ، الذى خفت ضجته وسكنت حركته .

ولفحته نسمة من نسمات الليل الرطبة ، فبددت من عينيه بقايا نعاس ما زالت عالقة بهما من نومة القطار .

وأحس بالنشاط يدب فى مفاصله .. وقبل أن يبلغ محطة الأوتوبيس .. برقت فى خاطره فكرة زادت من انتعاشه .

إن الساعة لم تزل الثانية عشرة ، وصالة « كريمة » فى أوج طربها ومجونها ، وأهل الدار فى أوج غطيطهم ، وطرقاته فى هذه الساعة لا شك ستفزعهم ، فماذا عليه لو ذهب لقضاء الليلة عند « كريمة » .. على أن يعود إلى الدار فى الصباح المبكر ، فيعطى الرسالة لعلى ، ويقضى بعض الوقت مع أبويه ثم يعود إلى الإسكندرية فى قطار الضحا ، إنه بذلك يصيب عصفورين بحجر .. ولن يشعر

فى قرارة نفسه بأنه أضاع السفر فى حماقة نقل رسالة من بلهاء إلى أبله .. بل قضاها فيما يستحق ، من شرب وطرب .

وعندما استقر به العزم على هذا ، غيّر إتجاه سيره نحو شارع عماد الدين واستحث الخطا متجهاً إلى صالة « كريمة » .

كان الطريق خالياً ، والضجة المعتادة أمام باب الصالة قد سكنت و« البلطجية » قد أووا إلى الداخل ، ولم يبق فى المدخل إلا جسد لإحدى جامعات الأعقاب قد تكور بجوار الحائط ملتفاً بخرقه البالية ، وقد أطبقت أصابعها على كوز من الصفيح حوى محصول اليوم .. وتناثر حولها خليط من قصاصات الإعلانات وقشر اللب .

دفع « حسين » الباب فلطمته هبة ساخنة فاسدة من خليط الأنفاس ، والدخان والعرق والكحول ، أحس من نفاذها إلى خياشيمه وحلولها محل هواء الطريق النقى ، بكثير من الاشمئزاز .. ولكنه ما لبث حتى تعوّدها .. وأخذ يشق طريقه إلى الداخل بين الأجساد المترنحة ، الغارقة فى ضجيج من الضحك والتصفيق والصراخ .

ولم يطل به البحث .. حتى عثر على « كريمة » .. وقد جلست على منضدة فى أحد الأركان .. بجوار رجل بطين أصلع .. لا ينفك يندفع فى الضحك بين لحظة وأخرى ، فيترنح جسده ، ويهتز كرشه ، فى ذبذبات سريعة كأنه « زنبرك » دائم الاهتزاز .

ولم تكد « كريمة » تلمح « حسين » حتى بدت عليها دهشة فرحة ، وتهللت أساريرها ثم لوحت له بيدها .

وأقبل عليها « حسين » مصافحاً .. فقامت بواجب التعريف بينه وبين جليسها :

— إسماعيل بك .. حسين بك .

ثم التفتت إلى حسين مرحبة :

— أهلا ..أهلا .. ما هذه الزيارة المفاجئة ؟ ولماذا لم تأت مبكراً ؟

— لقد حضرت الآن من الإسكندرية .

— الآن فقط ؟

— أجل .. وكان أول ما فعلت هو أن أتيت إليك .

— فيك الخير .

— لعلك تدركين معزّتك عندى ؟!

— وأنت .. ألا تعرف معزّتك عندى ؟!

وصفق إسماعيل بك منادياً الجرسون ، صائحاً بأعلى صوته :

— واحد شمبانيا .. لحسين بك .. لمعزّته عند « كيكى » .

ثم صاح منشداً وهو يترنح من فرط الشراب :

— أنا أحبك .. وأحب أبو اللى يحبك .

ثم التفت إلى المسرح ، واندفع مقهقهاًمهتزاً مترجرجاً .

ورفعت « كريمة » الكأس إلى شفتيه ، وقالت متسائلة :

— كيف حال أخيك على ؟!أما زال مصراً على الترفع عنا ؟! ألم نصبح قدر مقامه .. بعد ؟

— من قال إنه يترفع عنك ؟

— إذاً لماذا لا يزورنا ؟!

— لأنه لا يحب السهر .

وعلق إسماعيل بك مقهقهاً :

— افتحى له .. ماتيينه .

وأجاب حسين :

— أنت تعرفين أنه ليس له فى هذا المجال .. لقد حاولت مراراً أن أعوّده عليه فلم أفلح .

— أنا أستطيع أن أعوّده عليه .

ـــ مستحيل .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأنه عاشق .. عشق قيس لليلى .

وازدردت « كريمة » بقية الكأس ، وهى تطلق ضحكة قصيرة ساخرة وتقول متسائلة :

ـــ ومن تكون ليلى ؟

ـــ ككل ليلى مستعصية .. متعذرة .. بعيدة المنال .

وأقبل الساقى بزجاجة الشمبانيا .. وملأ الكئوس الثلاث .. ورفع إسماعيل بك كأسه صائحاً :

ـــ فى صحتك يا حسين بك .. فى صحتك يا كيكى .. فى صحة ليلى وقيس .. ومجانين العالم كلهم .

ورشفت » كريمة » رشفة ، ثم عادت تتساءل :

ـــ لم تقل لى من هى ليلى على ؟

ـــ دعينا منها .. لقد ضقت بها وبه .. إنى جائع .. أعندكم شىء يؤكل ؟!

ـــ إنتظر حتى نتعشى سوياً .

وقال إسماعيل بك متدخلا :

ـــ سأدعوكما للعشاء معى .

ولم يبد على « حسين » الترحيب بالدعوة ، ومال إلى « كريمة » هامساً :

ـــ سأبيت الليلة عندك .. متى سينصرف صاحبنا ؟

وأجابت كريمة :

ـــ لا تأبه له .. إنه لا يفعل أكثر من أن يوصلنى بعربته إلى باب البيت .. لا همّ له إلا فى الضحك والشراب .. إنه رجل طيب .

وكان الرجل طيباً لا مطلب له أكثر مما قالت كريمة .

وعندما حملها بعربته آخر الليل إلى دار « كريمة » فى شارع الساحة .. كانت

تبدو عليه — وقد اضطجع بجسده السمين البطين مخموراً على مقعد العربة — أقصى آيات السعادة والرضاء .

وكان البيت أحد بيوت شارع الساحة الفسيحة العتيقة السميكة الجدران الحديدية النوافذ .

وصعد حسين وكريمة متشابكى الأذرع ، قد تساند جسداهما المترنحان وتأرجحا يمنة ويسرة على الدرج الحجرى المتآكل بين الدرابزين الحديدى ، المترب ، والجدار المشقق المرطوب .

وعندما وصلا إلى باب الشقة طرق « حسين » الباب بسبابته . ولكن « كريمة » قالت ساخرة :

— اضرب بقبضة يدك .. فأمّ « زنوبة » لا توقظها إلا طلقات المدافع .

— أليس معك مفتاح ؟

— كان معى .. ولكنى لا يمكن أن أتذكر الآن أين وضعته .

واستمر « حسين » فى الطرق ، حتى انبعث من وراء الباب صوت خافت ، يتساءل :

— مَنْ ؟

وصاح « حسين » .. وقد استند بجسده المترنح على ضلفة الباب :

— افتحى يا أم زنوبة .

وعاد الصوت يتساءل فى لهجته النائمة :

— من ؟

— افتحى ..الله يخرب بيتك .. وبيت بنتك زنوبة .

ورفعت كريمة سبابتها وقالت مهدّدة :

— لا .. إلا ابنتها زنوبة .. أتعرف من تكون زنوبة هذه التى تريد أن تخرب بيتها ؟

وهزّ حسين رأسه بالنفى ، فأجابته « كريمة » وهى تشير بسبابتها إلى

صدرها :

ـ هذه هى زنوبة .. أنا زنوبة بنت أم زنوبة .

ـ وكريمة ؟

ـ إنه الاسم الفنى .

وفتحت « أم زنوبة » الباب فى حذر ، وبدت على ضوء القاعة هيكلا أشمط معصوب الرأس بمنديل أسود .

ودخلت « كريمة » يتبعها « حسين » قائلا :

ـ متي سيتوب عليك ربنا من هذا البيت ؟

ـ قريباً جداً .. فى أول الشهر .. سأنتقل إلى الشقة الجديدة فى الدقى ، رغم أنه يعز علىّ أن أترك هذه الشقة .. لكن ماذا أفعل وهى لم تعد تليق براقصة مصر الأولى !

ثم وجهت القول إلى « أم زنوبة » متسائلة :

ـ أنام الخدم جميعاً ؟

ـ أجل أتريدين شيئاً ؟

ـ لا .. اذهبى أنت إلى فراشك .

وغابت العجوز فى ممر جانبى .

وألقي « حسين » بجسده فى إعياء على أقرب مقعد فى القاعة ، ومدّد ساقيه ، وطرح رأسه إلى الخلف على حافة المقعد .

وقالت « كريمة » ضاحكة ، وهى تحاول أن توازن جسدها متكئة على حافة المنضدة :

ـ مالك تجلس هكذا ؟

ـ إنى أشعر كأن الشمبانيا قد نزلت إلى قدمى .

ـ لقد أفرطت فى الشراب .

ـ وأنت ؟

— ما زال فى جوفى فراغ لزجاجة أخرى .

— وأنا ما زال فيه فراغ لزجاجتين . أتراهنين ؟

— أراهن .

— هات الزجاجات .. ماذا عندك ؟

— عندى واحدة شمبانيا .

— فقط ؟

— وواحدة ويسكى .

— فقط ؟

— وواحدة زبيب .

— لا بأس .. هاتها كلها .. وهات الرهان .

— قم أولًا إلى الحجرة واخلع ملابسك ، ولا تجلس هكذا كالقتيل .

ومدّت يدها إليه فتشبث بها ونهض ، فتعلق بعنقها وضمها إليه قائلا فى لهجته المخمورة :

— أحبك يا كريمة .

وأجابته بنفس لهجته :

— وأنا أحبك .

— كثيراً ؟

— أجل .

— أنا أكثر .. أم « على » ؟

— على .

— معك حق .. وأنا أيضاً أحبه أكثر منك .. رغم أنه مغفل كبير .

واجتاز الاثنان باب الحجرة وهو متعلق بها .. ودفعها إلى الفراش متهالكاً فوقها ، فقالت وهى تحاول إزاحته :

— انتظر حتى أبدل ثيابى .

وهبت بالنهوض ، ولكنه دفعها برفق إلى الفراش قائلا :

ـــ تبدلين ثيابك بيديك ؟! حاشا لله .. وأين أذهب أنا ! استلقي على راحتك ، ودعي المهمة لى .. إنى أحب أن أرى الثياب تتساقط كأوراق الخريف .

ثم قرن القول بالفعل ، وبدأ ينزع عنها ثيابها قطعة قطعة ، حتى وصل إلى الصديرى ، فتعذر عليه فك أزراره .. فقالت وهى تنهض من الفراش :

ـــ عنك أنت .. دعنى أتمم بقية المهمة ، وأبدل أنت ثيابك .

ـــ أين الزجاجات ؟

ـــ سأحضرها لك .

وضمهما الفراش بعد أن ملآ من الزجاجات كل فراغ جوفيهما .

وبعد فترة استنفد فيها « حسين » كل ما تبقى فى جسده من جهد ، استلقى على الفراش فى استرخاء تام ، ومدت « كريمة » يدها فوق الكومودينو الصغير بجوار الفراش .. وأخذت تتحسس علبة سجائرها حول الأباجورة ، حتى أمسكت بها وفتحتها ، لتتناول سيجارة تجلب لعينيها النعاس ،وتطرد ذلك القلق والأرق الذى تسببه لها دائما أعصابها المرهقة ، ولكنها وجدت العلبة فارغة .

والتفتت إلى « حسين » متسائلة :

ـــ أين سجائرك ؟

وأجاب « حسين » وهو فى نصف إغفاءة :

ـــ فى جيب الجاكتة .

ونهضت « كريمة » فى تثاقل وترنح ، متجهة إلى المقعد الذى ألقيت عليه الجاكتة ، وتحسست الجيوب حتى وجدت العلبة فى إحداها فدفعت يدها فى فتحته وأخرجت العلبة ، ولكنها لم تخرجها وحدها . بل أخرجت مظروفاً كان ملاصقاً لها ، أطبقت عليه يدها مع العلبة .

وأمسكت « كريمة » بالمظروف الأزرق تقلبه بين أصابعها وقد إضطجعت فى الفراش تنفث من شفتيها دخان السيجارة ، فيتصاعد فى حلقات لا تكاد تجاوز دائرة ضوء الأباجورة ، حتى تختفى فى ظلمات الحجرة .. وقربت المظروف من أنفها تشمه ، ثم قالت ساخرة :

ــ خطاب غرام .. من أين لك هذا يا أستاذ ؟

ولم يجب « حسين » .. فقد أفقده الإعياء والشرب والنوم قدرته على الفهم والنطق .. وعادت « كريمة » تسأل فى صوت أعلى ، وهى نصف مخمورة ونصف واعية :

ــ ما هذه الرسالة ؟

وتمكن « حسين » من النطق ، فأجاب محاولًا إسكاتها :

ــ لست أدرى .. أطفئى النور ونامى .

ــ أأستطيع قراءتها ؟

ــ افعلى ما تشائين .. ولكن كفى عن الكلام .. ودعينى أنام .

وأسندت « كريمة » السيجارة على حافة الطقطوقة المجاورة للأباجورة ، وفضت الظرف ، وأخرجت الرسالة ، وبدأت فى قراءة الأسطر الأولى على ضوء الأباجورة .

ولم يكن الدافع لها على فض الرسالة فى أول الأمر .. سوى حب الاستطلاع ، ورغبة فى تسلية تستجلب بها الكرى إلى إجفانها المسهدة ، ولكنها لم تكد تقرأ بضعة الأسطر الأولى ، حتى استغرقت فى القراءة مأخوذة دهشى .

وعندما انتهت من القراءة ألقت بالرسالة على الكومودينو بجوار الأباجورة .. وشرد ذهنها محدقة فى فراغ السقف المظلم ، الذى لم تفلح دائرة ضوء الأباجورة فى الوصول إليه .

إذاً فهذه قصة المجنون بليلاه .. كما تسردها رسالتها التى منحته بها مزيداً من أمل ! ..

وأى أمل ! أمل وهمى سرابى .. تعلقه به فى فراغ عريض من الحرمان واليأس .. وتحرمه به من كل متعات الحياة .

لِمَه ؟! ألأنها تحبه ؟

هى أيضاً تحبه .. لقد أحبته من اللقاء الأول .. من النظرة الأولى . هى المادّية الواقعية التى لا تعترف إلا بكل ما هو محسّ ملموس .. وكان ممكن أن يحبها .. لولا أن الأخرى كانت أسبق منها إليه .. فشدته بخيطها الوهمى .. الذى تسميه أملًا .

كان ممكناًأن يحبها ، كما أحبته ، وأن يقبل منها كل ما هى على استعداد لمنحه إياه ، من حب ومتعة ووفاء وإخلاص ، ولكنه أعرض عنها .. إعراض المزدرى .. وأنكر إقبالها ، إنكار المترفع الأبى .

وأعجب ما فى القلب .. أنه لا يتشبث إلا بكل معرض منكر .. فهو يأبى إلا التشبث به على ندرة ما يراه .. وهى لم تتعوَّد من قلبها أن يجدّ فى أمره إلا أمره هو .. على فرط نأيه وإعراضه ويأسه منه .. حتى أصبحت تجد إحدى وسائل التعزى أن تحبه فى أخيه .. وتمنح أخاه ما لم تستطع أن تمنحه إياه .. وتأخذ من أخيه ما لم تستطع أن تأخذه منه .

وهى تعجب لفرط عناده وصلابته .

كل الناس يشتهونها .. ويتلهفون على ليلة معها .. إلا هو .. إنه يأبى حتى مجرد اشتهاء بلا ثمن .. ورغبة بلا مقابل ، حتى ليلة واحدة ، يمكن أن يمنحها أى رجل لأية امرأة قد أباها عليها .. ورفض دعوتها على العشاء ، وتركها تلك الليلة دون استئذان .. أو تحية وداع .. لقد فر منها .. فرار سليم من أجرب .. أو مدين من دائن .. كأنما كانت ستسلبه بعض حبه .. أو ستختلس بعض مشاعره .

وماذا أجداه حبه ؟! وماذا أجدته مشاعره ؟! سوى الضلالة والهيام فى بيداء من اليأس والحرمان .

وهو بعد هذا يمد يده .. ويمدّ قلبه .. ليستجدى أملا ،

وفى ألفاظ ضائعة .. وأوراق زائلة .. بلا حرارة جسد ، ولا لهيب شفاه ، ولا دفء صدر ، تمنحه ما تسميه مزيداً من أمل ، أو مزيداً من سراب .

وألقت بصرها على الرسالة بجوارها .. فإذا بحافتها قد لامست « عقب السيجارة » الموضوع على حافة المنفضة .. وإذا بالنيران تطوى الورقة .. وتسرى بين السطور بطيئة هادئة .. ولكنها آكلة مستشرية .

وهمت « كريمة » بأن تمد يدها لتنقذ ما تبقى من الرسالة ولكن يدها ظلت متثاقلة على الفراش .

وبعد لحظة .. أتت النيران على بقية الرسالة .. أو على بقية الأمل .. ولم يبق من هيكلها سوى رماد تذروه الرياح .

وتنفست « كريمة » الصعداء ، ومدت يدها فأطفأت الأباجورة .. وأغمضت عينيها شاعرة بالكثير من الهدوء .

(٤٨)

انطلاق

استيقظ « حسين » ليجد الرسالة الخطيرة التى يعلق عليها أخوه مصيره ، والتى تعجّل من أجلها الرحيل إلى القاهرة فى جوف الليل .. قد أضحت هشيما أسود بارداً ، لا أمل فيه ولا رجاء منه .

ولم يكن هناك معنى للوم « كريمة » وهو أحق باللوم ، وتملكته الحيرة .. كيف يواجه أخاه ؟ أينبئه صراحة بكل ما حدث ويسأله مهلة للحصول على ردّ آخر ؟ .. وقد لا تساعده الظروف على الحصول عليه مما يشعل فى نفسه نيران القلق والشك .. أم يكتم عنه المسألة حتى يحصل على الردّ فعلا .. ثم يقصها عليه نادرة مضحكة ؟

أم .. يقبل حكم القدر .. الذى أبى إلا أن يقطع هذا الخيط من الأمل .. وأن يفرض القطيعة ، ويضيع الرجاء ؟!

ألم يكن يود هو نفسه ، لو أنه لم يحمل إليها الرسالة ، أو أنه مزق الرد وألقى به من نافذة القطار !! ولكنه لم يجسر على ذلك ، رغم يقينه أن هذا هو خير ما يؤديه لأخيه ، وأن الاستقرار فى هوة اليأس خير من التأرجح فى فراغ الأمل . وأن لأحزان اليأس نهاية .. يعتاد الإنسان بعدها أحزانه ويكف عن الإحساس بها .. أما هموم الشك فلا نهاية لها فهى حيّة متجددة ، تتجدد فى كل هزّة شك ، بين الخيبة والرجاء .

إنه لم يقو على أن يمنح أخاه راحة اليأس .. ولكن القدر قد أبى إلا أن يمنحه إياها .. لقد أبى إلا أن يدفعه إلى « كريمة » .. ولو أراد لدفعه إلى البيت .. وأبى إلا أن تفتقد « كريمة » سيجارتها .. ولو أراد لأبقى لها فى علبتها واحدة .. وأبى

إلا أن تسحب أصابعها الرسالة من جيبه مع علبة سجائره .. ولو أراد لأخرج العلبة وحدها وأفلت الرسالة .

وأبى القدر كذلك .. إلا أن تقذف الرسالة بجوار « العقب » ولو أراد لنحاها بعيداً ، وأسقطها على الأرض .

كل ذلك قد أباه القدر .. وأصرّ على أن يحرق الرسالة ، ويقطع خيط الأمل ، وأن يضع حداً لكل متاعب « على » وأحزانه وهمومه .. فلماذا لا يرضخ هو لحكم القدر ، ويشد رحاله عائدا إلى الإسكندرية .. وكأن الرسالة لم تكن .. وكأنه لم يسافر إلى القاهرة ؟! أو كأنه قد سافر من أجل ليلة مع « كريمة » .. وهو على أية حال قد استمتع بالليلة وبكريمة ، ولقد كانت رغم حرقها الرسالة .. كريمة إلى أقصى حدود الكرم .

ثم .. ماذا يملك هو أن يفعل غير ذلك ؟!

وهكذا أقنع « حسين » نفسه بالعودة إلى الإسكندرية فى أول قطار ، ولم يكن أسهل عليه من إقناع نفسه بما يريد .. وإرضاء ضميره بما يشتهى .

ومرت بضعة أيام ، ثم وصلته رسالة قلقة من « على » يسأله فيها عما فعل ، فأجابه فى اقتضاب بأنه بذل أقصى جهده حتى سلم إليها الرسالة ، وأنها أنبأته بأنه ليس لديها رد عليها ، وأنه يرى أن من الخير له أن يكف عن محاولة الاتصال بها أو التفكير فيها .

ووصل الرد إلى « على » فى الثكنات .. حمله إليه جندى البريد ، وهو يوشك أن يغادر المكاتب بعد انتهاء العمل .. وميز بالظرف خط أخيه ، فاختطف الرسالة ، وعاد أدراجه إلى مكتب الأورطة ليخلو بنفسه لقراءتها .

ولم يكن يحس وهو يقرؤها بساقيه على الأرض .. ولا بشىء من الكائنات الموجودة حوله .. لا من جنود .. ولا من عربات .. ولا من جدران .. لا يحس شيئاً سوى أكداس من المرارة ترسب فى أعماقه .. وأثقال من الحزن واليأس تجثم عليه وتزهق أنفاسه .

أهذا هو نصيبه منها ، بعد كل ما منحها من حب وعبادة ؟

ألم تجد فى رسالته ، وفى مشاعره المتدفقة ما يستحق كلمة رد ؟!

وعزّت عليه نفسه التى أوردها موارد الهوان والمذلة ، وهى العزيزة الأبية .

عزت عليه نفسه أن يعرضها للسؤال .. فلا يكون نصيبها سوى إعراض المزدرى .

« اكتبى إلىّ .. فأنا لا أقف منك موقف المحاسب المستجوب .. ولكن موقف الراجى السائل .. الراجى عزاء .. السائل أملا » .

« اكتبى إلىّ لتمنحينى أملا .. إذا رأيتنى أستحقه .. أما إذا رأيتنى أحق باليأس فلا تجيبى » .

ولقد رأته أحق باليأس فلم تجب !!

لم تجب حتى بكلمة أسف أو اعتذار .. حتى لكأنها خشيت أن يمنحه أسفها نوعاً من الأمل .. لا يستحقه .

وطافت بذهنه صورة أبيه .. طريداً ذليلا .. متهماً بالجنون ، لمجرد تفكيره فى طلب يدها .

لقد صدّته كما صدّ أبوها أباه .. ومن يدرى ، ربما اتهمته ـــ عندما قرأت رسالته ـــ بأنه مجنون خطر .

لقد ضللته وغرّرت به .. لوّحت له بالأمل .. فلما مد يده ليأخذه لطمته بالصمت والإعراض .

لقد استجداها كلمة .. فأبتها عليه .

ويح نفسه !! لشد ما هانت عليها وعليه .

وأحس بخليط من المرارة واليأس والمذلة ، يغلى فى أعماقه ، ويتفجر فى ثورة عاصفة جامحة ، وتملكه لأول مرة شعور بالكره والبغضاء .. لكل شىء .. لنفسه ولها .. ولأبيها وأبيه .. وأخيها وأخيه .. والعالم كله .

وأطبقت أصابعه فى عصبية محنقة على الرسالة فمزقتها إرباً

واندفع من الحجرة .. يدق الأرض بقدميه متجهاً إلى الميس .

ولم يتناول الغداء ، بل ارتمى على أحد المقاعد فى جمود وصمت .. وعندما حل موعد « طابور » العصر .. ذهب إلى « الطابور » بذهنه الشارد ، ووجهه المتجهم .. ولم يكد ينتهى « الطابور » حتى عاد إلى جلسته الصامتة فى « الميس » كأنه صنم أو تمثال .

ولقيه « سليمان » فى جلسته تلك وهو يمر « بالميس » حيث كان يعمل مساعداً لأركان حرب السوارى .. ولم يخف على سليمان ما ينم عن مظهره من ضيق مكبوت ، وكان أعرف الناس به منذ أن كانا سوياً فى المدرسة .

وربت سليمان كتفه وقال متسائلا :

ــ ما بالك يا على ؟! أنوبتجى أنت اليوم ؟

وأجاب « على » فى اقتضاب .. وقد ألقى برأسه على حافة المقعد :

ــ لا .

ــ إذن ما لك تجلس هكذا ؟! لماذا لم تبدل ملابسك ؟

ــ سأبدلها بعد هنيهة .

ــ ولماذا تبدو مغرقاً فى الحزن ؟! أحدث شىء ؟

ــ لا

ــ كيف حال أبيك ؟

ــ كما هو .

ــ ووالدتك ؟

ــ بخير .

ــ والمسألة الأخرى .. هل جدّ بها جديد؟

ــ لا .

وقال سليمان فى حدة :

ــ إذن ما بالك .. كأنك شيعت ميتاً ؟!

— مجرد صداع .

— بل بك أكثر من صداع .

وجذب « سليمان » مقعداً ، وجلس بجواره ، وقال متلطفاً :

— قل لى ما الأمر ؟! ماذا حدث ؟! أما زلت تحزن نفسك بتلك السخافات القديمة .. ألم تيئس منها بعد ؟

وأطلق « على » زفرة حارة ، وقال فى ضحكة مريرة ساخرة :

— الحمد لله .. لقد منحنا الله نعمة اليأس .

— إذن ما بالك تجلس هكذا ؟

— وماذا تريدنى أن أفعل ؟ أرقص ؟!

وأجاب « سليمان » وهو يمسك بيده محاولا أن ينهض به :

— بل تنهض وتغير ملابسك ، وتخرج كبقية عباد الله . قم معى نذهب إلى السينما سوياً . إن فى سينما فؤاد رواية ...

وجذب « على » يده .. وقال مقاطعاً :

— أرجوك .. دعنى .. أنا مستريح هكذا .

ودخل أحد الجنود فحيا سليمان قائلا :

— سعادة البيه المدير موجود فوق فى الإدارة ، وهو يسأل عليك .

وتركه « سليمان » وغادر « الميس » .. واستمر هو مغرقاً فى صمته وجموده .

وزحفت من حوله الظلمة .. ومر به الضباط واحداً بعد واحد ، وقد أبدل كل منهم ملابسه .. وغادر « الميس » وملء نفسه المرح والأمل ، وهو فى موضعه يضج ذهنه بالأفكار ، وتصطخب نفسه بالانفعالات ، حتى أحس من فرط التفكير أن رأسه يوشك أن ينفجر ، وأن جدران « الميس » وسقفه باتت أشباحاً مخيفة ، توشك أن تنقض عليه .

ونهض من مكانه فجأة .. كأنما يريد الهرب من نفسه ومن أفكاره .

و لم يكد يجتاز الباب حتى بدا « سليمان » مقبلا عليه قائلا فى حزم وإصرار :

ــ هيا بنا .

ــ إلى أين ؟

ــ تبدّل ملابسك ، وتذهب معى إلى السينما .

ــ دعنى أرجوك .. إنى فى حاجة إلى الراحة .

ــ لن أتركك لهذا اليأس المميت ، والوحدة الموحشة القاتلة .. كفى انفراداً بنفسك .. لست ادرى ماذا يعجبك فيها ؟! هيا بنا .

وجذبه « سليمان » من يده إلى حجرته .. وبعد لحظات كان الاثنان فى طريقهما إلى سينما فؤاد .

ومرت ساعات السينما و « علىّ » يحملق شارداً دون أن تلتقط عيناه سوى بضعة مناظر متلاحقة لا معنى لها ، وحمد للسينما ظلمتها التى منحته ثلاث ساعات أخرى من الصمت والتفكير .

وانتهت السينما .. وأكرهه سليمان على أن يتناول معه بضع قطع من الشطائر .. ثم افترق الاثنان بعد أن ركب سليمان أو توبيس (٨) الذاهب إلى شبرا ليعود به إلى البيت ، على أن يأخذ « على » أو توبيس (١٠) الذاهب إلى مصر الجديدة .

وأحس « على » بالرغبة فى السير ، وفى الانطلاق والفرار .. الانطلاق من قبضة الأفكار القاتمة التى تمسك بخناقه ، والفرار من سجن اليأس الذى يكتم أنفاسه .

وتذكر قول أخيه فى إحدى ساعات يأسه قبيل تخرجه فى الكلية عندما كان يقبع حزيناً يائساً بين جدران الكلية :

«دع الأمور تجرى بأيسر من هذا .. لا تغلق نفسك فى هذا القالب الحديدى .. وتفرض عليها أحساسا معيناً تأبى الفكاك منه .. لا تشيد حياتك على أمنية .. بغيرها تصبح فى عداد العدم ، إنك تسجن نفسك يائساً حزيناً

مهموماً لأنك حصرت كل تفكيرك فى مخلوقة واحدة ، متعذرة المنال ، لا يمكن بحال أن تكون لك ، وبت تحس أن الحياة بغيرها قفر يباب .. حطم أسوار سجنك ، وانطلق خارجه تجد الحياة ما زالت بخير ، وتجد بها من النعم المتعددة ما يغنى كل منها عن الأخرى .. إذا استعصت هذه .. أغنت عنها تلك .. إن الحياة التى أظلمت من حولك .. ما زالت تضىء حول الناس .

أحقاً .. ما زالت الحياة تضىء ؟

وتطلع ببصره إلى الطريق .. فوجد أنواراً تتأجج ، ومصابيح تتألق ، وكان أول ما صادف عينيه .. لافتة كبيرة بالأنوار الكهربائية كتب عليها « صالة كريمة » .

واندفعت إلى ذهنه صورتان : صورة السمراء الراجية بوجهها الأسمر ، الخالى من الأصباغ .. وشعرها الأسود المعقوص على قمة رأسها .. وجسدها النحيل الرقيق ، وعينيها المتوسلتين الراجيتين .. وثيابها البسيطة التى جعلتها تبدو فى صالة الرقص ، كأنها ناسك بين فجار .. وعابد بين كفار .

وتبعتها صورة أخرى .. لنفس المخلوقة .. وقد بات الوجه أكثر فتنة .. والجسد أشد إغراء .. وإن كانت النظرة قد بقيت كما هى ..متوسلة راجية لهفى .

وتذكر شوقها وصده ، وحنينها وإعراضه ، ودعوتها وفراره .

وأحس ، وهو يقرأ اسمها يتلألأ فى اللافتة كأنها دعوة جديدة .. وكأنه يبصر فى الأنوار عينيها المتوسلتين الراجيتين .. وتملكه إحساس ببعض الراحة .. وبدا له أن صاحبته الداعية الراجية .. قد تحمل إليه الكثير من العزاء .. أو تبدّد عنه ظلمات اليأس المحيطة به .. وتوهن ضجيج الأفكار التى تعصف بذهنه .

وفى شىء من التردد .. وجد قدميه تسوقانه إلى الباب المتلألىء الصاخب .. وبعد لحظة كان يجلس فى ركن ناء من أركان الصالة يحملق فى صمت ووجوم .

ولم يستطع ذهنه الشارد أن يعى شيئاً مما أخذت تلقيه « المونولوجست » التى أخذت تتوثب ، وتهتز ، مطلقة من شفتيها سيلا من الألفاظ المنغمة السريعة

المتلاحقة ، وأحس بضجيج الصالة يزيد أفكاره عصفاً .. وجوّها الخانق يزيد سجنه إطباقاً وضيقاً .. ووجد نفسه ، على حدّ قول الشاعر : « كالمستجير من الرمضاء بالنار » .

وأخذ يرقب خليط الأجساد البشرية الضاجة الصاخبة ، الضاحكة الماجنة .. وبدا له كأن بهم عتهاً أو جُنّة ، وتلفت حوله كالأسير يتلمس سبل النجاة .

وفجأة وقعت عيناه على عينين سوداوين واسعتين ، ترقبانه فى ذهول ودهشة وتساؤل .. وقد بدت صاحبتهما كالمأخوذة المشدوهة .

واندفعت « كريمة » تجاهه .. لاهثة الأنفاس ، مكروبة الصدر ، كأنما لا تصدق عينيها ، أو كأنما تود أن تطبق بكليتها عليه قبل أن يفلت منها ثانية .

ووقفت أمامه تحاول أن تتمالك أنفاسها كأنها طفلة مذنبة أمام مربيتها القاسية ، وقد فقدت كل سيطرة على نفسها ، وأضاعت كل قدرتها ومهارتها كغانية محنكة مجربة ، تعرف كيف تعامل الرجال .. وتساءلت فى صوت هامس ، كعذارى المدارس .. وقد أخذ صدرها يعلو ويهبط :

ـــ « على » ؟! غير معقول ! إنى لا أصدق !

ونهض « على » قائلا وهو يمدّ إليها يده ، وقد أصابه الكثير من الارتباك :

ـــ أهلا « كريمة » .. مساء الخير .

ـــ مساء الخير .. اتفضل .. تعال هناك فى البنوار .

ودون أن تدع كفه تفلت من كفها جذبته نحو البنوار .. وأردفت متسائلة :

ـــ أين « حسين » ؟

ـــ حسين ؟! إنه لم يأت .

وتوقفت كريمة فاغرة فاها .. وتساءلت فى دهشة :

ـــ لم يأت ؟! أتعنى أنك أتيت وحدك ؟

واندفعت إلى ذهنها صورة الرسالة المحترقة .. وخيل إليها أن « حسين » قد

أنبأه بما فعلت ، وأنه أتى لمناقشتها الحساب وهمت أن تعتذر مستغفرة عندما أجابها قائلا :

ـــ أجل .. لقد أتيت وحدى .. أغريب هذا ؟

وأجابته فى صوت خافت :

ـــ أعتقد أنه غريب منك ، لأنك لم تتعوّد الحضور إلا برفقة « حسين » .

ـــ لقد أحسست الليلة بالضيق واليأس ، وتذكرتك وأنا أمر ببابك ، وخيل إلىّ قد تستطيعين إزالته .. فلجأت إليك .. فلعلى لا أضايقك ؟

ـــ أبداً .. أبداً .. إنى سعيدة جداً .. جداً .

وهكذا بدد بقوله مخاوفها .. و لم تجد مبرراً لفضح نفسها بالاعتذار ، وبدا لها أن القدر قد أتاح لها فرصة ، طالما تاقت إليها .

لقد شعر باليأس والضيق .. وهى أدرى الناس بسبب ضيقة ويأسه . بل لقد كانت تتمناه وتتوقعه .. وهى تترك ألسنة النيران تأتى على الرسالة ، وتقضى معها على خيط الأمل الذى كان يتعلق به .. وكانت تحس الراحة وهى تقطع ما بينه وبين الأخرى دون أن يخطر لها ببال أن القدر سيكون سخياً معها إلى هذا الحد .. فيلقى به إليها .. دون بقية خلق الله .. لتمسح ضيقه وتزيل يأسه .

وأحست « كريمة » بنشوة غامرة .. وهى تراه يذكرها ويشعر بها .. ويلجأ إليها لتزيل أحزانه .

لقد أحبته حباً يائساً .. وكان أقصى ما تطمح إليه هو أن يمنحها الفرصة لكى تهبه كل ما تملك .. من حب ، ومتعة ، ووفاء ، وإخلاص ، وكل شىء .. ولكنه كان دائما يعرض عنها وينكرها .

والليلة وقد أقبل عليها .. أو كما يقول : لجأ إليها ، مانحاً إياها الفرصة التى كانت تتوق إليها .. وتأمل فيها .. فعليها ألا تتركها تفلت من يدها .. إنها فرصتها الأولى والأخيرة .

وجلست « كريمة » بجواره فى البنوار .. وأحس هو بالكثير من الحيـاء

والحرج والضيق .. وخيل إليه أن الأنظار قد باتت تتطلع إليه أكثر مما تتطلع إلى المسرح .

ولم يصعب على « كريمة » أن تدرك مدى حرجه .. ولم تجد معنى لحلوسهما هكذا فى البنوار أمام الناس .. وهو لا يستمتع بمشاهدة ولا شراب ، بل يحيط نفسه بجو من الوجل والتكلف والتزمت ، الذى يزيد فى ضيقه .

وهمست « كريمة » وهى ترقبه فى شوق :

ــ أنا أعرف أنك تضيق بهذه الجلسة .. ولن أطيلها عليك .. سأتركك الآن لأنهى دورى ، ثم نرحل بعد ذلك للعشاء سويا فى البيت .. أظنك لن ترفض دعوتى هذه المرة ؟! ما رأيك ؟

ونظر « علىّ » إلى عينيها المتوسلتين وهز رأسه قائلا :

ــ متشكر .

ــ متشكر .. أجل ؟ أم متشكر لا ؟!

ــ متشكر .. أجل .

وغادرت « كريمة » البنوار لتؤدى دورها فى الرقص ، وجلس « علىّ » يرقبها بذهن شارد ، وكأنما روّعه ما فعله ، وما يوشك أن يقدم عليه ، ولا يكاد يلم به طيف « أخى » حتى يبعده فى عناد وإصرار وثورة وحنق .. إذا كانت قد أبت عليه مجرد كلمة عزاء ، تجمّل بها اليأس وتهون القطيعة .. فليكن يأسه قاطعاً ، وقطيعته بائنة لا رجعة فيها ، وليكن وأدها أبدياً ، لا بعث فيه ، ولا صحوة منه .

وبهذا التفكير .. قطع على نفسه كل سبيل للندم أو التراجع .. ولم تكد ترسل إليه « كريمة » حتى نهض إليها .. واتبع الجرسون فى طريقه إلى حجرتها رافعاً رأسه ، مبرزاً صدره فى مشيته العسكرية غير متلفت يمنة ولا يسرة ، كأنه فى طابور عرض .

وقبل أن تغادر « كريمة » الصالة من الباب الخلفى ، همست فى أذن

الجرسون :

ـــ إذا سأل عني أحد فقل إني متعبة ، وأريد أن أستريح .

وأوصلهما « التاكسى » إلى البيت ، وقد أغرق كل منهما فى أفكاره .. فلم يتبادلا فى الطريق سوى بضع كلمات عابرة .

ووصلا إلى البيت ، وصعدا الدرج ، وفتح باب الشقة ، وتبادلت « كريمة » بضع كلمات مع الخادمة .. اختفت الخادمة على أثرها .. وأخيراً ضمتهما الغرفة وحيدين لا ثالث لهما .

كانت المغامرة الأولى لعلى .. وكان يحس بمشاعر متضاربة متنافرة ، سرعان ما تركزت فى اضطراب لذيذ ونشوة خفية بعثت الحرارة فى جسده وجرفت أمامها كل مشاعر الندم والضيق ، والحزن واليأس ، والتردد والقلق .. إلى آخر هذا الخليط الذى كان يرزح تحته .

لقد تبدد كل ما بنفسه فى تلك اللحظة .. عدا إحساس جنسى فائر .. وهو يشعر بخلوته مع أنثى ، ويفكر فيما هو مقدم على فعله معها .. ولم يكن يعرف كيف يبدأ ولا ماذا يقول .. ووقف يتشاغل بالنظر إلى لوحة معلقة فى الحائط وهو مغرق فى اضطرابه اللذيذ وقلقه الممتع .. وبنفسه خشية من أن تدفعه قلة التجربة والاضطراب إلى أن يقصر فى أداء واجبه كرجل .

وأحس فى وقفته المضطربة بعطرها يقترب منه .. ثم بصدرها يلامس ظهره ، وبذراعيها العاريتين تحيطان بصدره وتضمانه برفق .. واستدار إليها فإذا بها تقف عارية إلا من قميص شفاف ، لا يكاد يخفى شيئاً من تفاصيلها ، وتصاعد الدم إلى وجهه ، وبلا وعى ولا إرادة ضمها إليه بعنف .. ودفعه الانفعال الشديد إلى أن ينتهى من واجبه فى لحظات خاطفة .

وهمست وهى ترقد بجواره وتضغط شفتيه بشفتيها بعنف :

ـــ كنت أريدك دائماً .. إنى لا أصدق أنى بت أملكك ، وأنك بين أحضانى .

واستسلم « على » للهفتها الجارفة وشوقها الشديد .. وقد تملكه شيء من

الضيق لعجلته وإحساسه بالتقصير فى إرضاء أنوثتها .. رغم مظاهر الرضاء المفرطة ، التى أحاطته بها وأبدتها له .

ونهض الاثنان لتناول العشاء وأفلحت بمرحها وخفتها ومهارتها فى ازالة جو التوتر والخشية ، والقلق الذى كان يرهف أعصابه .. وعندما انتهى العشاء ، وجلسا سوياً فى الشرفة ، كان يحس بالراحة وزوال الكلفة .. وعندما احتواهما الفراش مرة أخرى وضم جسدها اللدن جسده .. كان يملؤه شعور بالألفة والهدوء والطمأنينة كأنه يرقد فى فراشه .. وفى آخر الليلة كان يرقد قريراً راضياً ، وقد أفعم نفسه الشعوز بالثقة والسعادة ، والسيطرة .. بعد أن أشبع الجسد المسترخى بجواره إشباعاً كاملا .. وأرضاه إرضاء تاماً .

---

(٤٩)

وعيد ..

عادت « أنجى » إلى البيت .. بعد أن سلمت الرد إلى حسين ، وجلست على الفراش تعيد قراءة رسالة « على » وقد وضعتها بين صفحات كتاب كانت تقرأ فيه .. وحاولت أن تستعيد ردّها إلى ذهنها . وتتخيل كيف سيكون وقعه عليه .. وتسائل نفسها : أأصابت بهذا الردّ . أم أخطأت ؟ أكان خيراً لها أن تقطع خيط الأمل .. أم تمدّ فى حباله ؟ لماذا اندفعت فى الردّ .. متناسية كل ما يمكن أن يترتب على ردّها من عواقب ، متجاهلة تهديد أخيها وأبيها لحياته ومستقبله ؟ وهل سيقنع « على » بهذه البارقة من الأمل ، ويكتفى بما أسمته صلة روحية دائمة ، تسمو على كل السدود والعقبات ، أم سيدفعه الأمل إلى مغامرة جديدة قد تودى به وبها ؟! إن بنفسها شوقاً إليه ولهفة على رؤياه ، وبودها ألا يقنع بما عرضته من صلة روحية وهمية ، وهى تسائل نفسها : أيجد أخوها وأبوها فى تهديدها حقاً ؟! أيمكن لعلاء أن يهدد حياته حقاً .. أو أن يقدم أبوها على القضاء على مستقبله ؟!

ولِمَ لا ؟!

إن مدى خبرتها بأخلاقهما .. وما يضمرانه فى قلبيهما من حقد وصلابة وعناد ، يجعلها لا تستبعد منهما أى شر .

ولكن ما النهاية إذن ؟ ما آخرة كل هذا ؟ لماذا وهنت عزيمتها ونفد صبرها ، فلم تستمر فى قطيعتها لتضع النهاية بما فرضت على نفسها وعليه من يأس وقنوط ؟

لماذا مدّت فى حبال الأمل ، بعد أن أوشكت على التقطع ؟!

لماذا ؟! لماذا ؟!

واستمرت الأفكار تتدافع فى ذهنها مختلطة متشابكة ، حتى تسلل النعاس إلى

جفنيها ، فأغلقت الكتاب على الرسالة ووضعته على « الكومودينو » بجوار الفراش .. وأطفأت الأباجورة واستغرقت فى النوم .

واستيقظت فى الصباح فغادرت فراشها إلى الحمام ، وفى تلك الآونة كان « علاء » يبحث عن صحف الصباح ، ودخل حجرتها عله يجدها هناك ، ووقف يقلب البصر فى الحجرة باحثاً هنا وهناك .. وقبل أن يغادر الحجرة استرعى التفاته عنوان الكتاب الموضوع بجوار الفراش وكان قصة إنجليزية فأمسك به يقلب صفحاته ، وأخذت عيناه تمران بالصفحات المتتالية مروراً عابراً .. حتى توقف فجأة أمام الرسالة .

و لم تثر الورقة اهتمامه فى أول الأمر وهمّ بإغلاق الكتاب عليها .. لولا أن قفز بصره إلى نهايتها فقرأ إمضاء « على » .

وأحس من الإمضاء لسع الجمر .. وتصاعدت دماء الغضب إلى رأسه ، وجذب الرسالة من بين الصفحات .. وأغلق الكتاب وأعاده مكانه ، ثم غادر الحجرة .

وعادت « أنجى » إلى الحجرة .. وعندما انتهت من إبدال ثيابها وهمت بالنزول لتناول الإفطار ، سمعت صوت أبيها يناديها من حجرته .

وذهبت إليه .. وقد خلا ذهنها مما حدث .. أو مما يوشك أن يحدث ، وأدهشها تجهمه البادى ووقفة أخيها بجواره فى تحدّ وتحفز .. ولكنها لم تكد تلقى نظرة على ما فى يده حتى وضح الأمر كله .

و لم تنبس ببنت شفة ، ووقفت تنتظر هبوب العاصفة .

ومدّ أبوها يده بالرسالة ، وتساءل وهو يزأر :

ـــ ما هذه ؟

ونظرت « أنجى » إلى أخيها فى غيظ مكبوت ، وقالت وهى تغالب دمعها :

ـــ كيف يبيح لنفسه أن يدخل حجرتى ويعبث بكتبى ؟

وقاطعها أبوها فى عنف صائحاً :

ـــ يبيح أو لا يبيح .. ليس هذا موضوع مناقشة الآن .. المهم هو كيف أبحث أنت لنفسك استمرار هذه الصلة ، بعد أن حرّمتها عليك ؟!

وأطرقت « أنجى » ، وأردف يقول متوعداً :

ـــ ولكن الذنب ذنبى .. والغلطة غلطتى .. كان يجب أن أردعه ردعاً شديداً .. حتى لا يستمر فى غيه هذا .

ثم نهض من مكانه .. بحركة عصبية .. وأخذ يسير فى الحجرة جيئة وذهاباً ، وهو يقول كأنما يحدث نفسه :

ـــ هؤلاء الناس .. لاشك فى أنهم قد جنوا .. الأب يتقدم لخطبتك .. والابن يكتب إليك رسائل غرام .. كأنما نسى أنه ابن جناينى ، وكأن « الدبورة » التى قد وضعها على كتفيه قد محت ضعة أصله ، وأزالت غضاضته ، ولكنك أنت المسئولة عن ذلك .. أنت التى شجعته على هذا التطاول ، ولكن سأعرف كيف أوقفه عند حده .. سأعرف كيف « أخرب بيته » وأضيع مستقبله .

وصمت لحظة ثم صاح بها منتهراً :

ـــ اذهبى .. لا ترينى وجهك .

ولكن « أنجى » لم تذهب ، واستمرت فى وقفتها مطأطئة الرأس ، وقد عضت بأسنانها على شفتها السفلى حتى كادت تدميها .. وانحدر الدمع صامتاً على وجنتيها .. وقالت فى لهجة متوسلة :

ـــ إنها غلطتى أنا فعلا .. أنا التى شجعته ، وأعدك من الآن أنى سأقطع كل صلة بيننا ، وكل ما أرجو ألا تسىء إليه ، وألا تمس مستقبله .

وقال « علاء » ساخراً .

ـــ أيهمك مستقبله إلى هذا الحد ؟

وصاح الأب ثائراً :

ـــ ألم تعدى بهذا من قبل ؟

ـــ أقسم لك بكل الأيمان و ...

وقاطعها « علاء » قائلا :

ـــ لا تصدّقها .

ونظر إليها الأب وقال ساخطاً :

ـــ اذهبى الآن من أمامى . وسأعرف كيف أقطع ما بينكما .

وبعد بضعة أيام دق جرس التليفون فى مكتب قائد السوارى ، وجرت مكالمة قصيرة وضع القائد بعدها السماعة ، ثم دق جرساً على مكتبه ، وبعد لحظة دخل سليمان مساعد الأركانحرب ، ووقف أمامه محيياً وتساءل القائد :

ـــ أين الأركانحرب ؟

ـــ لقد ذهب إلى قسم القاهرة .

ـــ أجل .. تذكرت .

وصمت برهة ثم أردف متسائلا :

ـــ ماذا تعرف عن على عبد الواحد ؟

ودهش سليمان من السؤال المفاجئ ، وأجاب بلا تفكير :

ـــ إنه من أكفأ الضباط .

ـــ أنا أعلم أنه ضابط ممتاز فى عمله ، ولكن خصوصياته . ماذا تعرف عنها ؟

وداخل سليمان الخوف من هذا السؤال .. وتوجس منه شراً .. وتذكر حالة « علىّ » فى الأيام الأخيرة .. والتغير العجيب الطارئ على سلوكه ، وإفراطه فى السهر ، واندفاعه فى طريق لم يكن يخطر ببال أحد أن يندفع فيه .. والشائعات التى سمعها عن علاقته بالراقصة « كريمة » .

ومع ذلك فقد طوى سليمان ظنونه فى ذهنه ، وردّ على سؤال القائد بقوله مؤكداً :

ـــ إنه ممتاز فى كل شئ .. فى عمله وفى خلقه .. وحياته الخاصة لا تشوبها شائبة .

وهزّ القائد رأسه فى دهشة وحيرة وقال متسائلا :

ـــ ما السبب إذن ؟

ـــ السبب فى ماذا يا افندم ؟

ـــ فى نقله المفاجىء بهذه الطريقة العجيبة ؟ لقد حدثنى كاتم أسرار .. وقال لى إن المطلوب إبعاد الملازم أول « على عبد الواحد » عن القاهرة .. وأنه لذلك قد تقرر نقله إلى الحدود .. وعليه أن يقدم نفسه إلى رياسة الحدود حالا ، وقال إنه سيؤيد حديثه بجواب لحين ظهور النقل فى النشرة العسكرية .

وبدت الدهشة والوجوم على سليمان وتساءل متمتما :

ـــ ولكنه لم يفعل ما يوجب هذا ؟! .. وهو من أكفأ ضباط السوارى .

ـــ لقد قلت هذا .. فقيل لى إنها أوامر عليا .. لا وجه للمناقشة فيها .. ولا يسعنا غير تنفيذها .. فعليك أن تستدعيه لتلقى هذه الأوامر .

وقبل أن يغادر سليمان الحجرة .. دخل الصاغ « أحمد فهمى » أركان حرب السوارى .. وقبل أن يحدث القائد بما فعل فى قسم القاهرة .. أعاد إليه القائد الأوامر الخاصة بنقل « على » .. فبهت الصاغ ، وقال محتجاً :

ـــ ولكن هذا اعتداء على سلطة قائد السوارى ؟! لايمكن أن يرغمونا على نقل ضباطنا .. إذا كانوا يريدون ضباطاً للحدود فليكتبوا إلينا ، ونحن ننتقى لهم من نستطيع الاستغناء عنه .. إن هذا الضابط حاصل على فرقة مدفع ٢ رطل .. وعلى فرقة دبابات كروزر .. ولا يمكن الاستغناء عنه .

وقال القائد مهدّئاً :

ـــ صبرك يا فهمى ، ليست المسألة مجرد حاجة الحدود إلى ضابط .. إن المطلوب هو إبعاد هذا الضابط بالذات عن القاهرة .

ـــ ولماذا ؟! .. لينبئونا على الأقل عن السبب !! إذا كان قد أخطا فلنجازه .

وبدأ القائد يضيق وقال محتداً :

ـــ يجب تنفيذ الأمر يا فهمى .. هذه أوامر عليا .

وأطرق الصاغ .. وقد بدا على وجهه الضيق .. وساد الصمت برهة ..

وما لبث أن قطعه سليمان بقوله :

ـــ إذا كان المطلوب هو مجرد إبعاده عن القاهرة .. فإن ذلك متيسر دون حاجة إلى نقله من السلاح .. فقد سبق أن طلب منا إرسال ضابط ليتولى قيادة الدبابات التي سيرسلها الجيش الإنجليزى ، لتعزيز حامية سيوة .. ونستطيع أن نضرب عصفورين بحجر ، فنرسل « على » إلى هناك .. فننفذ أوامر نقله مع احتفاظ السلاح به .. ونكون قد حللنا مشكلة الضابط المطلوب إرساله .. وأعتقد أن « على » خير من يصلح لهذه المهمة .

وبدا الارتياح والهدوء على وجه الصائغ ، وأردف مؤيداً :

ـــ هذه فكرة طيبة جداً .. ونحن نستطيع أن نعيده بعد ذلك بمجرد أن تخفّ حدة المسألة .. فحرام أن يفقد السلاح مثل هذا الضابط .

وبدا التفكير على وجه القائد ، وأردف فهمى متسائلا :

ـــ ما رأى سعادتك ؟

ـــ فكرة وجيهة .. انتظر لحظة .. حتى أعرضها على كاتم الأسرار .. فلعلها ترضيه ويستغنى بها عن نقله من السلاح .

ورفع السماعة وأدار قرص التليفون ، وبعد مكالمة قصيرة وضع السماعة .. وقال وقد علت وجهه علامات الرضاء :

ـــ لقد وافق .. على أن يظلّ فى « سيوة » حتى تصدر أوامر أخرى .

وغادر « سليمان » مكتب القائد وهو فى دهشة من هذا النقل الإجبارى .. ولقد ظن فى بادئ الأمر أن سلوك « علىّ » فى الأيام الأخيرة هو السبب فى نقله .. ولكنه رجع ـــ بعد أن عرف أنه مفروض بأوامر عليا ـــ أن يكون بإيحاء من الأمير إسماعيل .. لأنه لا يمكن أن تكون هناك جهات عليا يهمها إبعاد « على » سواه .. ولأن مسألة سلوكه أيضاً لا يمكن أن تهم أى جهة من الجهات العليا .

ولقد رحب « سليمان » فى نفسه بالحلّ الذى استطاع الوصول إليه .. بل لقد وجد فيه خير منقذ « لعلى » من ذلك الطريق الشائك الذى يوشك أن يندفع

فيه .. والذى لم تكن تجدى لإنقاذه منه نصائح ولا عظات .. ولا سيما أنه وجد فيه عزاء عن الصدمة التى يبدو أنه تلقاها من الناحية الأخرى .. التى ركز فيها كل أمله .

وأبلغه الأمر .. ليس على أنه أمر بإبعاده عن القاهرة .. بل على أنه ثقة فى قدرته على قيادة هذه الدبابات .. وكان هذا هو ما يعتقده « سليمان » فعلا فى قرارة نفسه .

ودهش « على » من القرار فى مبدأ الأمر ، ولكنه ما لبث بعد أن قلبه على وجوهه أن أحس منه براحة كبرى .. وبدا له كأنه منحة من السماء وهبتها له ليغير بها ذلك الوضع الذى فرضته عليه الظروف ، ووجد نفسه ينزلق إليه دون أن يحس .

كان يعرف أن المغامرة التى اندفع إليها فى ساعة يأس وقنوط قد شدّته إلى « كريمة » بوثاق يشتد يوما بعد يوم ، ودفعته بالتدريج إلى وضع كان يعتقد أنه مبرأ عنه ، منزه عن الاندفاع فيه .

ولم يكن يضيق بما يفعل ، بقدر ما يضيق بالتفكير فيه ، وفى عواقبه ،وفيما يمكن أن يتمخض عنه أو يؤدى إليه ، وكان من العسير أن ينهيه بمحض إرادته .. فليس أصعب علينا من التخلص من مسببات المتع ، لمجرد الخوف من عواقبها المسطورة فى علم الغيب .. وكان يشده إلى « كريمة » حبها المفرط ، وخضوعها التام .. وقدرتها على إشباع غريزة الرجل فيه إشباعاً عجيباً نا تجاً عن مهارتها كامرأة مجربة ، واندفاعها وحساسيتها كامرأة عاشقة .. حتى أضحى لا يصد رغباتها فيه — إذا ما ثارت فى نفسه — مقاومة من إرادة ، ولا مانع من خشية أو تفكير .

ومن وراء كل هذا .. كان يلم به طيف « أنجى » من بعيد وهو يصده .. صدّ الغاضب المشوق .. اليأس المتمنى ، والطيف يهتف به فى عتاب همس حزين « إذا كانت قد صدّتك .. فما ذنب طيفها تصده .. طيفها الذى لم يفارقك فى أشد

أوقاتك يأساً . ما بالك تبعده ، وهو مؤنس وحشتك ، ومبدد ظلمتك ؟! ألم تقل لها فى رسالتك : « أجيبى أو لا تجيبى فإن حبك باق ؟! ألم تئدها فى قلبك ؟! لماذا تأبى الوأد عليها ، وتترك قلبك فراغاً صفصفاً ؟ » .

ولكنه لا يلبث أن ينتفض ثائراً .. وكأنه يأبى على نفسه مجرد التفكير فيها .

وهكذا رحّب « على » بالسفر كفرصة للفرار .. الفرار من كل شىء . من اليأس والزلل .. والوحشة الروحية .. والعصيان الجسدى .. والحيرة والمقاومة .. والضيق والقلق ، والخوف والرهبة .

لقد بدا له فى السفر منجاة من كل هذا .. وكأنه سيلقى بكل أحماله .. ويهرب نظيفاً مجرداً .

ووصل إلى سيوة .. وقد ألقى فعلا بكل أحماله وأثقاله .. عدا شيئين : صندوق صغير كان يضع به آثاراً عزيزة .. لم يجسر أن يفتحه ، و لم يقدر أن يتركه ، وطيف يلم به من بعيد معاتباً فى همس ..وهو يصدّه صدّ المشوق ، ويدفعه مدافعة المتمنى .

* * *

وبدأ « على » مهمته فى سيوه .. مهمة شاقة استغرقت منه كل جهده ووقته .. فقد كان عليه أن يتسلم بعض دبابات متوسطة من الجيش الإنجليزى .. ليتولى بواسطتها الدفاع عن سيوه .. بعد أن ثبت وجود دبابات إيطالية فى جغبوب ، تهدد قوات سيوه التى لا يحتلها سوى آلاى مصرى من الحدود ، لا يملك سوى عربات خفيفة ، لا يمكن أن تقاوم الدبابات الإيطالية .

و لم تكن الدبابات الخفيفة التى تكوّن منها آلاى الدبابات الخفيفة المصرى ، الذى أنشىء فى السوارى بالشىء الذى يمكن الاعتماد عليه فى قتال .. لقدمها وضآلتها .. ولذلك لم يجد الإنجليز بداً من وضع بضع دبابات متوسطة تصلح لمقاومة الدبابات الإيطالية ، تحت تصرف الجيش المصرى .. ليقوم بواجب الدفاع عن سيوه .. حيث كانت القوات البريطانية المرابطة على الحدود الغربية فى

ذلك الحين أوهى من أن تمدّ يدها إلى الحدود بدفاع .

وكان على « على » أن يتسلم الدبابات خالية من السائقين والمدفعجية ، وأن يدرّب عدداً من الجنود المنتخبين من الحدود على استعمال الدبابات والمدافع ، بوساطة بعض ضباط الصف الإنجليز الذين أحضروا الدبابات . وكان عليه أن يتم التدريب فى بضعة أيام .. إذ كان الموقف يزداد حرجاً . فقد كانت فرنسا موشكة على الانهيار .. وكان انهيارها يهدد حدود مصر الغربية بطريق غير مباشر ، إذ كانت قواتها القوية الموجودة فى شمال أفريقيا تهدد حدود طرابلس من جهة الغرب ، مما يضطر إيطاليا إلى توزيع قواتها المرابطة فى شمال إفريقيا بين الغرب والشرق .. ومما يخفف ضغط قواتها على حدود مصر الغربية .

وأتم « على » تدريب جنوده ، وأضحت دباباته قادرة على القتال ، وأحسّ الكثير من الراحة والاستقرار .

ولكن راحته لم تطل .. فقد انهارت فرنسا بعد بضعة أيام ، وقلب انهيارها الموقف رأساً على عقب .. فقد أخرج إيطاليا من موقفها المتردد كدولة غير محاربة تميل لألمانيا ، ودفعها إلى إعلان الحرب على الحلفاء فى ١٠ يونية ١٩٤٠ .. ووقف موسولينى على مدفعه يزأر بالجنود الإيطاليين :

« أيها الجنود المكبّلون .. انطلقوا » .

وطلب بيتان (رئيس الجمهورية الفرنسية) الهدنة فى ١٧ يونية .. ومع ذلك لم تكن الحالة على حدود مصر تبعث المدافعين على الجزع ، فقد كانت القيادة الإنجليزية فى الشرق الأوسط تعتمد على استمرار مقاومة المستعمرات الفرنسية ، وبذلك يمكن استمرار تهديد الإيطاليين فى غرب طرابلس وحجزهم بذلك عن تهديد مصر .. ولكن سرعان ما سلم الفرنسيون فى كل مستعمراتهم .. « ميتلهوز » فى سوريا و « نوجيس » فى شمال أفريقيا .. وبذلك أمن الإيطاليون ظهورهم فى طرابلس .. بعد أن زال كل تهديد لهم من الفرنسيين الموجودين فى

تونس .. وأضحى الطريق إلى مصر أمامهم سهلا معبداً .. لا تقف فى طريقه إلا قوات ضئيلة واهنة ، بعد أن استنفد انسحاب البريطانيين من « دنكرك » كل ما لدى إنجلترا من معدات وعتاد ، وبات وصول الإمدادات للشرق الأوسط متعذراً ، بعد أن أصبحت الملاحة فى البحر الأبيض غير مأمونة .. لوجود إيطاليا المعادية ، وتحوّل الطريق إلى رأس الرجاء الصالح .

وزاد من ضعف القوات المدافعة .. اضطرار الجنرال « ويفل » بعد ذلك إلى إرسال جزء من قواته لمساعدة اليونان فى قتالها مع إيطاليا .

وهكذا استقر « على » فى سيوة ببضع دبابات خلفها له الإنجليز ، ليصد هجوم الإيطاليين على الحدود المصرية بعد أن أمنت ظهورهم ، ووهى خط المدافعين أمامهم .

وفى اليوم التالى لإعلان إيطاليا الحرب .. استدعاه الضابطان الإنجليزيان اللذان كانا يشرفان على سلاح الحدود وهما « باذر » و « هاتون » .. وكانا يعملان ضابطين عاملين فى الحدود ، ثم تحولا بعد المعاهدة إلى مستشارين فى البعثة العسكرية .

ودهب « على » إلى مقرهما فى الاستراحة البيضاء المستقرة على الربوة العالية التى تشرف على الواحة .. وهناك أطلعاه على الخطة السرية المعدّة للدفاع عن سيوة ، وكانت تتلخص فى أن يخرج آلاى سيارات الحدود لمقابلة القوات المهاجمة عبر الحدود .. فإذا ما اضطرته إلى التقهقر ، تراجع خارج الواحة .. على أن يقوم « على » بدباباته بالدفاع عن الواحة نفسها .

وفهم « على » من الخطة .. أنه وحده المسئول عن الدفاع عن سيوة .. وأن كل ما على آلاى الحدود هو أن يقوم ببعض عمليات العرقلة .. ثم التقهقر بانتظام وترك الواحة له .

وأحس بعظم المسئولية الواقعة على عاتقه .. وملأه إحساس بالفخر يخالطه

بعض الوجل والتهيب .

وكان أهل الواحة قد هجروا دورهم .. وانطلقوا فى الحدائق الواسعة المحيطة بالواحة ، المليئة بالنخيل وأشجار الزيتون .. وبقى « على » مع دباباته ومدافعه وجنوده .. وشغله فرط العمل فى إعداد دباباته وأسلحته ، وتدريب جنوده ، عن كل شعور بالوحدة أو الملل .. وأضاع الإحساس بالمسئولية كل ما قاساه من يأس وهبوط فى أيامه الأخيرة فى القاهرة .

وبدأت الغارة الأولى بالطائرات الإيطالية .. ولم يكن بالواحة أى نوع من الدفاع الجوى ، سوى بضعة مدافع « برن » لم تحاول أن تفتح نيرانها .. وكانت الغارة استكشافية .. والمفروض بعد ذلك أن تتبعها غارات هجومية يمكن أن تودى بدباباته وبجنوده وبالبلدة كلها .

ولم يجد « على » بداً من أن يبتكر سلاحاً مضاداً للطائرات ، وكانت دباباته مزودة بالمدافع ٢ رطل المثبتة فى أبراجها .. فوزّع الدبابات على التباب ، بحيث أضحت وقفتها مائلة ، وبحيث أضحت فوهات مدافعها مصوّبة إلى أعلا ، وهيأ بذلك شبكة من النيران المضادة للطائرات .

وعندما أقبلت الطائرات الإيطالية فى الغارة الثانية .. فوجئت بوابل من النيران القوية ، سببت لها ذعراً شديداً ، وجعلتها توقن من وجود شبكة قوية متصلة من المدافع المضادة للطائرات ولم تحاول بعدها أن تشن على الواحة غارة واحدة .

وأحس « على » بالكثير من الغبطة والسعادة ، وهو يتلقى التهنئة من الضابطين الإنجليزيين ، ومن ضباط الحدود ، وزادت روحه المعنوية ارتفاعاً .. وزاد إيمانه بواجبه وعنايته بوحدته الجديدة التى أنشأها من الدبابات الإنجليزية ، والجنود السود .. وأخذ يعد نفسه لخوض معركة يصد بها هجوم الإيطاليين ، ويشتت شملهم .

وعندما كان يأوى إلى فراشه السفرى المنخفض فى حجرته المنعزلة فى بيوت الضباط .. كان يطوف بذهنه شبحان : شبح فى طوافه عنف وحرارة ورغبة ، وشبح يلم به من بعيد .. يهمس فى عتاب رقيق .. وكأنه يخشى أن يـراه أو يسمعه .. ولا يلبث الشبحان أن يطويهما سيل من الدبابات والمدافـع ، والجنود السود ، والطائرات الإيطالية .

(٥٠)

منفى .!

استمر « على » فى وحدته يتحفز للقتال ، ويتأهب للمعركة ، ولكن الأيام أخذت تمر .. والقتال لا يبدأ ..والمعركة لا تحل .. والإيطاليون مشغولون عنه بالقضاء على فلول فرنسا التى صرعها الألمان .. ثم فى اجتياح اليونان كجزء من خطة المحور العامة .. لبسط سيادتهم على البحر الأبيض المتوسط ، واحتلال البلقان ، وبحر إيجه ، توطئة لغزو الشرق الأوسط ، وقد منيت قواتهم بهزائم عدّة بعد اجتيازها ألبانيا ، واصطدامها بجيش اليونان .. واضطرت إلى الارتداد حتى فالونا على بحر الأدرياتيك .

فلما بدءوا يوجهون هجومهم بعد ذلك على حدود مصر الغربية ، بعد أن وثقوا من ضعف القوات البريطانية المدافعة ، كانت خطتهم الرئيسية تنصب على الطريق الساحلى وظلت سيوة بمنأى عن هجومهم .

ورويداً رويداً .. بدأت حدة « على » تخف واهتمامه بما حوله يتضاءل .. وبدأ فراغه يزداد وملله يشتد ، وزاد الطيفان إطباقاً عليه .. وأخذا بخناقه .. أحدهما يلهب جسده ، والآخر يرهف حسه ، ويؤجج روحه .

ومرت الشهور تلو الشهور .. والركود مخيم ، والكآبة سائدة .. والدبابات رابضة فى خمول .. والمدافع رافعة أفواهها فى تثاؤب بليد .. ولا شىء يقطع به « على » وقته أو يملأ فراغه ، أو يذهب سآمته .. سوى التفكير والصمت والانتظار .

وتوالى الضباط الآخرون على الواحة ، كل يقضى مدته محاولا جهده قتل الملل باللعب والشراب .. و « على » قابع فى وحشته البغيضة . وسآمته

القاتلة .. لا يكاد يربطه بالحياة غير بضع خطابات قصيرة متباعدة .. تصله من أخيه أو من « بهية » ، وفيما عدا ذلك بدا له كأنه قد قطع كل صلة له بالعمران .. و لم يكن بطبعه قلقاً شكاء ، بل كان الصبر وقوة التحمل من أميز صفاته .. ولكنه مع ذلك بدأ يضيق بوحدته .. وآلمه أن يلقى به رؤساؤه بمثل هذا الإهمال ، دون أن يفكر فيه أحد .. أو يحاول أحد إبداله .. وعندما حاول الحصول على إجازة قصيرة للعودة إلى القاهرة ، رفض قائد الحامية منحها له ، بحجة أنه ليس هناك من يحل محله فى قيادة الدبابات .. وأنه لا يمكنه النزول إلى القاهرة إلا إذا أرسل سلاحه بديلا له .. أو على الأقل ، يتحمل سلاحه مسئولية بقاء الدبابات فى الميدان بلا ضابط .

وبدا لـ « على » أنه قد أضحى طريداً منفياً ، وعزّت عليه نفسه ، وهو ملقى فى منفاه .. لا يذكره أحد .. وجلس على المقعد السفرى ، يرقب غروب الشمس فى الحديقة الضيقة المحيطة بالدار المنخفضة ، التى يحتل إحدى حجراتها ، وبدت أشباح النخيل وأشجار الزيتون ، داكنة فى الأفق الأحمر ، وفى غمرة يأسه أحس بحنين لا يقاوم إلى الطيف النائى ،الذى لم ينفك يطوف به من بعيد فى عتابه الهامس ، وكأنه يراوده على الدنو .. وأحس بنفسه تهفو إليه .. وكره أن يحرمها فى وحدتها ويأسها من عزاء طيف ، لم يبق لها من عزاء فى وحدتها سواه .

وأدنى منه الطيف حتى كاد يشم عبيره .. ويمسّ شعره الذهبى .. وهتف به الطيف معاتباً .. وقد عزّ عليه أن يأخذه بجريرة صاحبه .. وهو لم ينأ عنه لحظة واحدة .. وردّ عليه هو بأن القطيعة كانت أحدّ من أن تترك وصلا لطيف أو عوداً لذكرى .. وجرى العتاب بينهما رقيقاً ليناً ، كالغدير المترقرق من عيون الواحة .. وترك « على » العنان لنفسه تنهل حنيناً وذكرى .. دون أن توقفها خشية من كبرياء أو يصدّها خوف من ملام .

ومضت به فترة ، وهو مغرق فى حنينه ، وقد شغله الطيف الدانى عن كل ما

حوله .. حتى أفاق فجأة على صوت عربة تقترب .. و لم يسمح له الغبار المثار ، والظلمة الهابطة من تمييز هيكلها من بعد ، وإن كان قد رجح من الشخشخة والضجيج الذى صحب اقترابها أن تكون إحدى عربات « الحاج على » متعهد تموين الواحة .. وتأكد ظنه عندما وقفت بالباب وانقشع من حولها الغبار ، وتوقع أن يكون « الحاج » قد بعث إليه بإحدى الرسائل أو ببعض الأطعمة .. ولكن تمكنته الدهشة عندما فتح باب العربة المجاور للسائق وهبط منها شبح امرأة .

ومضت برهة ، و « على » يحملق فى ذهول ، ولا يكاد يصدق عينيه .. وهو يتبين فى الشبح الهابط من العربة سمات « كريمة » .

ونهض كالمأخوذ ، واندفعت « كريمة » إليه مادّة ذراعيها متأهبة للعناق ، ولكنه صدها بيده الممدودة للمصافحة .. وتلفت إلى السائق فى شىء من الخجل وهو يجذب حقائبها من داخل « البوكس » ، ويقف متسائلا : أين يضعها ؟

و لم يجب « علىّ » فقد عجز ذهنه عن الاقتناع بوجودها فى منفاه ، والتسليم بكل ما يتبع ذلك من نتائج وتفاصيل . و لم ينتظر السائق جوابه . بل واصل سيره عابراً ممر الحديقة إلى حجرته حيث وضع الحقائب ، وعاد إلى عربته ، وهو يقول .

ـــ الحاج يهديك السلام ، وسيمرّ عليك غداً بعد أن يقابل المأمور .

وعادت العربة حاملة معها ضجتها وغبارها .. ووجد « علىّ » نفسه يقف وحيداً مع « كريمة » فأمسكها من يدها وسار إلى الحجرة ، والدهشة ما زالت تعقد لسانه .

ووقفت أمامه كطفلة مذنبة ، وقد ربطت رأسها بإشارب أزرق عقدته أسفل ذقنها ، وبدا وجهها بلا طلاء ، وقد تطلعت إليه عيناها السوداوان فى رجاء وتوسل .

وهتف بها « على » هتاف المشدوه :

ـــ كيف حضرت ؟! وماذا أحضرك ؟!

ولم تجب « كريمة » وخيمت على عينيها سحابة دمع لم تلبث حتى همت فى صمت .. ومن خلال دموعها رمقته فى نظرة مستغفرة وقالت :

ـــ أنا أعرف أنك لا تحبنى .. ولكنى أعرف أنك قد أحببت ، وتعرف ما هو الحبّ .. وتعرف تماماً آلام المحبّ عندما يجد نفسه شيئاً مهملا منسياً . أنا لا أطلب منك أن تحبنى .. ولكنى أطلب منك أن تعتبرنى .. وأن تمنحنى بعض الاهتمام .. لقد سافرت دون أن تخبرنى أنك ستسافر .. وكنت معى فى الليلة السابقة .. وقضينا الليلة كأحسن ما يكون الصحاب .. ومع ذلك فقد تركتنى إلى الآن بلا كلمة .. ولا وداع .. ولم تحاول أن ترسل إلى ببضعة أسطر فى رسالة .. لِمَ كل هذا ؟! أنا لم أفعل إلا كل ما يرضيك فعله .. لأنى أحب فعله بلا تكلف ولا مشقة ، ولا توقع لمقابل .. لا أطلب منك شيئاً أبداً .. إلا بعض الاهتمام .. مجرد أن أشعر أنك تحسّ بى .. أهذا شيء كثير ؟

وأحس « علىّ » أن عتابها حق .. وأنه كان معها أنانياً إلى أبعد حدود الأنانية .. وأنه عندما يحاول أن يضع حداً لعلاقته بها وإنقاذ نفسه من تورطه معها .. قد قسا عليها .. ونسى أنه محب ، جرّب مرارة القطيعة .. وقسوة الهجر .. وبرّر تصرفه معها ، بأنها امرأة ذات تجارب .. وأن مثلها لا يمكن أن يخضع لحب أو يفجع بقطيعة .. وأن حياتها أزحم من أن يخلف إنسان بذاته فراغاً فيها .. وأن فى صحبتها ما يعين على كل وحشة ويملأ كل فراغ .

لم يخطر له ببال قط أن يكون قد سبب لها بقطيعته مثل هذه الوجيعة ، وأحس ، وهو يرمق نظراتها المتوسلة ، ودمعها المنساب ، بعطف شديد .. وتقدم منها فضمها إلى صدره فى رفق .. وقال فى لهجة رقيقة معتذرة :

ـــ لقد سافرت فجأة ، وكانت مشاغلى هنا كثيرة .. ولم أتوقع أنى سأسبب لك كل هذا الألم .. ولا خطر بذهنى أنى سأكلفك مشقة المجيء إلىّ .. إن ما

فعلته هو جنون مطبق .

ـــ إنك لم تخلف لى عقلا أتصرف به .

ـــ ولكن كيف استطعت المجيء ؟

ـــ عرفت من « حسين » أنك هنا .. واستطعت التوصل إلى « الحاج على » عن طريق صديق له من زبائنى .. وكان الرجل كريماً فحملنى إلى هنا .. كان لا بد لى من لقائك .. وإلا جننت .

ـــ ولكن بقاءك مستحيل .

ـــ لماذا ؟!

ـــ لأنك لا تحتملين البقاء .

ـــ إذا كنت احتملت مشقة السفر .. ألا أستطيع احتمال نعمة الاستقرار ؟! إنى أستطيع أن أحتمل كل شيء ما دمت معك .

ـــ ولكنى لا أستطيع إبقاءك .. ماذا أقول عنك ؟!

ـــ خادمة .

ـــ غير معقول .. من يصدق هذا ؟! إنك لست نكـرة . وكل إنسان سيعرفك .. ثم ماذا يدعونى إلى إحضار خادمة ولدىّ « مراسلة » .. أؤكد لك أن المسألة لا يمكن أن تمرّ بخير .. لا بد أن تعودى فى أول عربة ، وأنت نفسك ستطلبين ذلك بعد أن ....

وقاطعته « كريمة » قائلة ، وهى ترفع وجهها إليه ، وتحيط عنقه بذراعيها ، وتبتسم من خلال دموعها :

ـــ دعنا من كل هذا الآن .. إنك أوحشتنى جداً .. ألم أوحشك ؟

ولم يملك « على » سوى الابتسام ، فجذبت عنقه إليها ، ثم رفعت رأسها ، وهى تشب على أطراف أصابعها ، وألصقت شفتيها بشفتيه ، فسرت أنفاسها الحارة فى خياشيمه ، ولفحت وجهه .. وأحس بدمائه تفور فى عروقـه .. وضمها إليه ضمة عنيقة ، رفعتها من الأرض بين ذراعيه .. وألصقها بصدره ..

وتوقف ذهنه عن التفكير .. وتأجج كيانه بالرغبة الجنونية الحبيسة .. وبدا ، وهو يضغط أضلعها ، كأن سجين الرغبة ، يحطم قضبان سجنه .

ومرت الليلة .. والحجرة الساكنة مغلقة عليهما ، لا يكاد يشعر أحد بطارئ على ساكنها .. ولا يكاد يشعر ساكنها إلا بالجسد الشبهى اللين الفائر بين أحضانه .. ولا يكاد الجسد الممتلئ ، يحس بغير نشوة جارفة تغمره من قمة رأسه إلى أخمص قدميه .

واستيقظ « علىّ » فى الصباح ، وبدا له ، وهو يفتح عينيه ، أن كل ما مرّ به أضغاث أحلام .. لولا ذلك الجسد الراقد بجواره ، المغفى فى هدوء واستسلام .

وأبدل ملابسه ، وخرج للمرور على قواته ، و « كريمة » ما زالت راقدة .. وأخذ يجوب بعربته الصغيرة بين مواقع الدبابات ، وهو شارد الذهن مشتت الفكر ، أشبه بالصاحى من سكرة .. لم تبق له من نشوتها .. سوى رواسب الهم والضيق والمرارة .

ولم يعرف كيف يتصرف مع « كريمة » .. وهو الحيىّ الوجل ، القليل الخبرة بهذه الأمور .

أيكتم أمرها ويخفيها داخل حجرته .. حتى لا يفتضح أمرها وأمره ؟

ولكن .. أيعقل هذا ؟! أيمكن إخفاؤها فى مثل هذا البلد الضيق الحدود ، وهى تكاد تكون المرأة الوحيدة فى النطاق الذى يعيش فيه .

وهل يضمن ألا يذيع « الحاج على » أمرها .. إن لم يكن أذاعه حتى الآن ؟!

وهل له الحق .. فى أن يحيا بين الجنود والضباط مع امرأة عامة لا تربطه بها .. صلة ولا قرابة ؟

وانتهى اليوم والأفكار تثقل رأسه دون أن ينتهى إلى حل .. وأقبل الليل فبدد الجسد الدافئ همومه .

ومضت أيام أخر ، وهو مستسلم للأمر الواقع .. و « كريمة » سعيدة راضية ، كأنها عروس فى « شهر العسل » .

وبدا له أن الأمور يمكن أن تسير فى هدوء ، ما دام لا يضايق أحداً أو يسئ إلى أحد .. حتى بدأ يسمع من زملائه عبارات التهكم والسخرية .. وكأنما قد ساءهم وأوغر صدورهم أن يستمتع بها دونهم ، أو كأنما كان لزاماً عليه أن يجعلها بينهم متاعاً مشتركا .

ولم يكن « على » يشاركهم جلستهم للعب والشراب ، فى المنتدى الذى أنشأه بضعة الموظفين الذين يعملون فى الواحة ، ولم يكونوا هم يعلقون على هذا ، حتى شاع بينهم خبر « كريمة » . فقال له أحدهم :

ـــ لماذا لا تؤنسنا فى المنتدى ؟

وأجاب « على » فى اقتضاب :

ـــ لأنى أفضل النوم مبكراً

ـــ معك حق .. لو كان لدىّ مثل ما لديك لما فارقت البيت .

وقال آخر معترضاً :

ـــ يا أخى أحضرها تسهر معنا . أعطنا مما أعطاك الله .

وبدأ « على » يحس بجوّ من القلق يحيطه ، حتى فوجئ ذات يوم بقائد الحامية يطلبه فى المكتب .. وعرض عليه تقريراً خلواً من الإمضاء خلاصة ما فيه : « إن الملازم على عبد الواحد قد قلب الواحة إلى ماخورة .. وأنه يحضر الراقصات من القاهرة ، ليقضى الليالى بين أحضانهن .. وأن هذا استهتار بالشرف والفضيلة ، وعبث بالوظيفة ، وحض على الفجور » .. وفى نهاية التقرير كتب « صورة إلى قائد سلاح الفرسان » ، وعندما أتم « على » قراءة التقرير أعاده إلى مكتب القائد فى صمت :

وسأله القائد بقوله :

ـــ ما رأيك ؟

ـــ إن جوهره صحيح .. وإن كانت الحواشى والتعليقات غير صحيحة .. إن الراقصة « كريمة » تعيش فعلا فى حجرتى ، وإن كنت أعتقد أنى لا أنشر بها

الدعارة بين الموظفين .. هذه مسألة شخصية بحتة .

وأطرق القائد برهة أخذ ينقر خلالها بقلم فى يده على مكتبه ، ثم رفع رأسه إلى « علىّ » قائلا ، وهو يشير إلى مقعد خال :

ـــ اجلس يا « علىّ » .. دعك من هذا التقرير .. إنى لن ألقى إليه بالا .. وأستطيع أن أمزّقه أمامك إذاً أردت .. ولكنى أريد أن أسوق إليك نصيحة شخصية .. إنى أحدثك كأخ أكبر .. أفاهم أنت ؟

ـــ أجل .

ـــ لقد عرفت بوصول « كريمة » ساعة أن وصلت .. فالمفروض أنى أحاط علماً بكل ما يحدث فى المنطقة .. وقد أبلغنى « الحاج علىّ » نبأ وصولها قبل أن تعرفه أنت .. وأقول الحق أنى ذهلت .. فأنا أعتقد أنك مخلوق مستقيم .. منزّهَ عن الشبهات .. وأنا أعرف أنك لم تحاول اللعب أو الشراب مرة واحدة .. فما بالك بإحضار راقصة معروفة تعيش معك تحت سقف واحد فى مثل هـذه المنطقة ، وكرهت أن أفاتحك ، واعتبرت المسألة كما تقول أنت مسألـة شخصية .. وقد كان يمكن أن أصمت عنها .. لولا أن الألسنة لا تصمت .. ولولا أن مسألة «كريمة» قد أضحت شغل المنطقة الشاغل.. فلا حديث للأهالى أو الجنود أو الضباط أو الموظفين سوى «كريمة» .. حتى بت أنت وإياها ـــ كما يقولون ـــ مضغة فى الأفواه ، وتحتم عليك أن تنهى المسألة .

ـــ كيف ؟

ـــ أعدها إلى القاهرة فى أقرب فرصة .. وإذا أردت سأرجو لك « الحاج علىّ » أن يقوم بعربة مخصوصة لإعادتها ، وتعتبر المسألة بعد ذلك كأنها ما كانت .

ـــ أشكرك جداً .. وأؤكد لك أن الوضع قد فرض علىّ فرضاً ، وإنى لم أعرف كيف أواجهه بغير الاستسلام .. ولقد كنت أوشك أن ألجأ إليك لولا الحياء .

— كلنا قد مررنا بهذه الأشياء .. المهم هو أن نخلص منها .. دون أن يعلق بنا شيء .. وأرجو ألا يكون التقرير قد ترك أثراً فى السلاح .

وأجاب « علىّ » فى مرارة :

— ترك أو لم يترك .. ماذا يمكن أن يفعلوا بى شراً من هذا ؟

وعاد « علىّ » إلى « كريمة » مطرقاً متجهماً ، وأنبأها الخبر فى كلمات قصار ، وختم حديثه قائلا :

— ستقوم بك عربة فى الصباح المبكر .. فعليك أن تعدى حقائبك من الآن .

وأجابت « كريمة » ثائرة :

— لن يستطيع إعادتى أحد .. أنا لا يهمنى ما يقولون .

وأجابها « علىّ » فى هدوء :

— ولكنه يهمنى .. وأظن أن ما يهمنى يجب أن يهمك ؟

وأحست «كريمة » أن البكاء يوشك أن يخنقها ، فأطرقت تغالب دمعها .

واقترب منها « علىّ » ورفع وجهها إليه ، وأخذ يتحسسه برفق قائلا :

— إن حماقتنا هذه لا يمكن أن تستمر .

وهتفت « كريمة » وهى تحدق فى عينيه :

— إنى أحبك .

— حتى هذا لا يسوّغ لنا الاستمرار فى هذه الحماقة .

— قل إنك تحبنى .. قلها رغم أنك لا تعنيها .. فإنى أحس من سماعها عزاء كبيراً .

وصمت « علىّ » برهة .. فقالت « كريمة » فى لهجة ملؤها الأسى :

— حتى مجرد كلمة تبخل علىّ بها . قلها وأقسم لك أنى لن أحاسبك عليها .

وأحس « علىّ » من دموعها المنسابة برغبة فى البكاء .. ما لبث أن دفعها عن نفسه ، وهتف بها :

— إنى أحبك .

ولم يحسّ « على » أنه يكذب .. فلقد كان يشعر نحوها بنوع من . الحب .. خليط من الاشتهاء والشفقة .

ورحلت « كريمة » .. ومرة أخرى جلس « على » فى وحدته ، وهو يرقب الفراش الخالى .. والحجرة الساكنة .. ويستعيد لنفسه ذكرى المرأة العجيبة التى قطعت من أجله مئات الأميال .. لترجوه أن يقول لها : « أحبك » رغم يقينها أنه لا يحبها .

وأحس بأنه يكره نفسه .. لأنه لم يستطع أن يجبرها على حبها .. الحب الذى تستحقه وتتوق إليه .. الحب الذى تمنحه هى له .. ويمنحه هو .. للهاجرة المعرضة .. النائية بلا كلمة فرقة .. أو تحية وداع .

وبدا له أن يقارن بين الاثنتين ، وبين مشاعره لكليهما .. بين الواصلة والقاطعة .. بين من أبت عليه بارقة أمل وبين التى تصر على حبه بلا أمل .. ولا مجرد رغبة فى أمل .

وقارن بين مكان كل منهما فى قلبه .. فإذا بالقلب الأحمق .. يأبى المقارنة .. ويرفض أن يعترف إلا بمكان الموءودة .

وإذا بالطيف النائى يدنو هامساً عى عتاب : أقد هان عليه حتى يضعه مع الغير موضع المقارنة ؟

وتطايرت « كريمة » وتطايرت معها الليالى الصاخبة الملتهبة ، وأحس كأنه يهيم مع الطيف الحبيب ، هياماً ناعماً رقيقاً .. ويكاد يمس شعره الذهبى ويتلمس أنامله الرقيقة .

وغادر « على » حجرته ، وقد أحسّ بحنين شديد إلى الليل الساكن الفسيح بنجومه الرانية ، وأشجاره الهامسة .. وسار فى الحدائق المتكاثفة وسط النخيل ، وأشجار الزيتون ، وأحس بمشاعره ترهف ، وأحاسيسه ترق .. حتى كاد الطيف الحبيب يتجسد .. وخيل إليه أن الطريق بين الحدائق .. سينتهى به إلى السوبة ، وشريط الترولى ، والترعة ، والغاب المتكاثف على حافتها .. وأحس أنه

يوشك أن يسمع طرقات الحصان الرتيبة المنتظمة .

وانتهى به السير إلى العين .. وقد أحاط بها الحوض المستدير .. واجتمع على مقربة منها بعض الأهالى .

وجلس على حافتها .. ينصت إلى « ناى » انبعث فى سكون الليل هادئاً عميقاً .

وأحس من الصوت المنبعث .. والنسمة السارية .. والخرير الجارى .. كأن روحه قد غمرت فى ماء طهور .. أزال عنها كل أدرانها .

وفى طريقه إلى العودة .. أحس بأن جلاميد اليأس المتكدسة فى قلْبه قد ذابت ، وغيوم الشك والقلق والضيق المخيمة على روحه قد تبدّدت .. وملأ قلبه إيمان عميق بقوة قادرة ، رحيمة ، ورب غفور .

ورقد تلك الليلة .. وملء نفسه طمأنينة عجيبة .. وسكينة تامة .

---

(٥١)

فى الأعماق

وقف « سليمان » أمام الصاغ أركان الحرب يقرأ التقرير الذى أرسل فى « على » ، وعندما انتهى من قراءته وضعه على المكتب ، وبدا عليه وجوم شديد .

لم يكن يتوقع من « على » أن يصل به حد الاستهتار إلى أن يصطحب إلى « سيوة » امرأة عامة ، تشين سمعته ، وتلوّث اسمه ، وتجعله مضغة فى الأفواه .

وأيقظه من شروده قول الصاغ متسائلا فى دهشة :

ـــ ما رأيك ؟

ولم يعرف « سليمان » كيف يجيب .. إنه يحب « على » ويثق به .. ويكره أن يخذله .

وما لبث أن أجاب بعد فترة تفكير :

ـــ قد يكون التقرير كيدياً .

ـــ وقد يكون غير كيدى .

ـــ على أية حال أعتقد أن خير ما يمكن عمله هو أن يعود « على » إلى آلايه فى القصابة ، وسنقطع عليه مثل هذا العبث إن صح التقرير ، لأنه ليس فى خنادق القصابة وخيامها مجال لكريمة ولا لغيرها .

ـــ معك حق .. وأظن أن آلايه فى أشد الحاجة إليه من بضع الدبابات الراقدة فى سيوة ، والتى يمكن لأى ضابط آخر أن يشرف عليها لا سيما وأن نشاط الإيطاليين قد وقف هناك بتاتاً ، بعد أن تحوّل اهتمامهم إلى الجبهة الشمالية .

وهكذا نقل « على » من سيوة إلى القصابة .. شرقى مرسى مطروح . والتى احتلتها القوة الخفيفة المشكلة من وحدات السوارى الميكانيكية ، التى ألحقت بها

وحدات أخرى معاونة من بقية الأسلحة .

ورغم أن القصابة لم ترد « لعلى » غربته عن القاهرة .. ورغم أن الحياة كانت أشق كثيراً من الحياة فى سيوة .. إذ كانت حياة ميدان وخيام وخنادق ، لا يتوفر فيها شىء من راحة المسكن أو طيب المأكل ، أو طمأنينة المستقر .. ورغم الانزعاج الدائم من طائرات المحور وتوقع هجومه بين لحظة وأخرى .. ورغم كل هذا فقد أحس « على » بغبطة فى الرحيل عن سيوة .

لقد أطربه أن يضع حداً لهذه الوحدة الخانقة ، والملل القاتل ، وسره أن يعود مرة أخرى إلى بلوكه وجنوده وأسلحته .

وأحس بكثير من التسلية والعزاء بين رفاقه الضباط .. ومرت به الأيام والشهور .. ورقى لرتبة اليوزباشى .

وشغلته حياته الجديدة المليئة بالحركة والضجيج ، حياة دوى القنابل ، وأزيز الطائرات ، وقصف المدافع .. وملأت فراغه دوريات الاستكشاف التى كان يقوم بها بالتناوب ، مع بقية الضباط ، واحتلت ذهنه أنباء الحرب ، وأنباء الهجوم والدفاع والتقدم والانسحاب .. ولم يبق للطيف النائى سوى لحظات قصار قبل الرقاد ، يدنو منه خلالها ليهمس مناجياً ، أو يهتف معاتباً ، حتى يستغرق فى سباته .

واستطاع الحصول على بضع إجازات قصار كل عدة شهور .. زار فيها أهله .. وأمضى بعض الوقت مع كريمة .. وساقته قدماه ذات مرة فى حلكة الليل ، فطاف به كالشبح خارج أسوار القصر العالية ، وكأنه يرد للطيف العاتب زيارته .

واستمرت المعركة فى جبهة الصحراء الغربية فى تلك الفترة بين الحلفاء والمحور ، متخذة سمات الأرجوحة تدفعها لطمة إلى أقصى الشرق .. وتعيدها لطمة إلى أقصى الغرب .. وقوات الطرفين المقاتلة ، تعدو إحداها فى أعقاب الأخرى .. لا تكاد تصل إلى أقصى مطاردتها ، حتى تكون مواصلاتها قد

طالت .. وقواعدها قد بعدت ، وأنفاسها قد تقطعت ، وتكون القوات الهاربة قد عادت إلى قواعدها ، وقصرت مواصلاتها وقرّبت مؤنها فلا تكاد تكرّ على المهاجمة حتى تنكص على أعقابها ، وتعود المطاردة من جديد فى اتجاه عكسى ، حتى تصل المطاردة إلى القواعد الأخرى ، فتدور الدائرة .

ولم تكن للأرض المحتلة قيمة .. بل كانت بفراغها ورمالها وصعوبتها .. تحتسب على المحتلّ ولا تحتسب له .. وكان اكتسابها يزيد القوات المهاجمة بعداً عن قواعدها ، ويتعذّر تموينها بالمؤن والذخائر والبترول .. فيحدد عدوها بالقدر الذى يمكن مدّها بما تحتاج إليه فى سيرها وقتالها .

وهكذا بدت قوات الطرفين ، وكأن كلا منهما قد شد إلى قاعدته بخيط من المطاط ، كلما زاد بعده عن قاعدته زادت سرعة ارتداده إليها .

واستمرت الذبذبات تتأرجح بين سيدى برانى وبنى غازى . دفع الذبذبة الأولى بالقوات الإيطالية الماريشال « جرازيانى » فاستولى على السلوم ، وسيدى برانى .. وردّ الثانية بقوات الحلفاء الجنرال « ويفل » فوصل بها إلى بنى غازى .. وما لبث أن ارتدت مرة أخرى إلى الحدود تاركة جيشاً من جيوشها فى طبرق ، ثم كرّ الجنرال « أوكنلك » البريطانى فردّ الإيطاليين مرة أخرى إلى بنى غازى ، بعد أن فكّ الحصار حول طبرق .

ودفع الذبذبة الثالثة الماريشال « رومل » الألمانى .. وانطلق الحلفاء فى ذعر ، وقد تجاوزوا فى ارتدادهم قاعدتهم ، حتى وصلوا إلى العلمين ، بعد أن سلم جنود جنوب أفريقيا طبرق .

ووقف الذبذبة الأخيرة عند العلمين ، وانسحبت القوة الخفيفة ضمن سيل القوات المنسحبة ، عائدة إلى قواعدها فى القاهرة .. تاركة مواقعها فى جارة المركز التى احتلتها بعد القصابة .

وكانت الحالة السياسية فى مصر قد تحرّجت .. وبات الإنجليز يحسون أن الحكم فى مصر ، لم يعد بيده القوة التى تستطيع أن تملك زمام الموقف ، والقوة

التى تتمتع بثقة شعبية تستطيع أن تفرض بها سيطرتها على الشعب بحيث تؤمّن للحلفاء ظهورهم ، وبحيث يحصلون على أقصى ما يحتاجونه من مساعدات عن كرم وسخاء ، وبلا خوف من دسائس خفية ، أو معارضة رسمية ، أو قلاقل شعبية .

وكان « على ماهر » قد استقال بعد أن رفض دخول مصر الحرب .. ولم يكن هناك من شك فى أن ذلك كان أجدى على الحلفاء من الاشتراك فى الحرب .. فقد سلمت قواعدهم ومواصلاتهم بسلامة مصر من اعتداءات المحور الجوية ، وكانت قوات مصر المسلحة — أو ما تبقى منها بعد أن استردت إنجلترا معظم أسلحتها من المدافع والدبابات لتستعين بها فى معارك الصحراء — أجدى على الحلفاء من وقوفهم فى مواقعهم الدفاعية فى القتال ، وفى بقية المنشآت الحيوية .

وتولى الحكم بعد « على ماهر » « حسن صبرى » ولم يطل حكمه ، فقد وافته منيته فى افتتاح البرلمان عام ١٩٤١ . وخلفه « حسين سرى » الذى استمر يحكم حتى شتاء ١٩٤٢ . حينما أشرف المحور على العلمين ، وقامت المظاهرات المعروفة تنادى « إلى الأمام يا روميل » . ولم يجد الإنجليز بداً من أن يفرضوا فى الحكم القوة التى تستطيع أن تفرض على الشعب تأييدهم .

وكانت وزارتا « صبرى وسرى » هما آخر جهود القصر فى إبعاد الوفد عن الحكم ، ولم تكن هناك وسيلة لإبعاده أكثر من ذلك بعد أن فرضه الإنجليزى بدباباتهم يوم « ٤ فبراير » المعروف .. ولم تجد محاولة إشراك بقية الأحزاب فى الحكم ، مع الوفد شيئاً ، فى صده عن الاستئثار بالحكم ...

واستطاعت الرقابة الصحفية التى كانت تفرضها الأحكام العرفية فى ذلك الوقت أن تستر الواقعة ، وتهيئ لها من التمويه والتضليل ما هوّنها على الرأى العام ، حتى هتف للسفير البريطانى بطل الواقعة ، وحمله على الأكتاف ، ورحب بعودة الوفد ، لا سيما بعد أن طالت غيبته عن الحكم وامحت من الأذهان مساوئه فى آخر مرة ولى فيها الحكم ، وزاد من الترحيب به ما بدا من عجز الحكومات

المتتالية عن حل مشكلات التموين والغذاء والكساء ، تلك المشكلات التى فرضتها قيود الحرب .

ولكن الرأى العام فى الجيش لم يكن لديه نفس ذلك الاستعداد ، فقد أحس الضباط منها حرجاً أوغر صدورهم ، فقد كان اعتداء مسلحاً على « قائدهم الأعلى » وقفوا هم منه موقف المستسلم العاجز .. وفرضت دبابات الإنجليز على « الملك » والبلد ما لم يملكوا هم دفعه ، وهم أحق الناس بذلك ، لأنهم يملكون القوة التى يمكن لها أن تدفع القوة ، أو على الأقل تقاومها .

وكان « الملك » حبيباً إلى نفوس الضباط كرمز وكشخص ، إذ لم تكن مظاهره وأفعاله البادية وقتئذ تنم عن الشذوذ والعناد والشر ، التى نمت عنها أعماله فيما بعد .. بل كانت فى جملتها العامة الظاهرة لا تبدى منه إلا ما يحببه إليهم .

وكان عزيز المصرى قد استبعد من رياسة هيئة أركانحرب الجيش ، بعد أن أعجزته طبيعته العجيبة وتفكيره المنفرد عن التعاون مع من حوله ، والاستمرار فى مركزه وأداء واجبه .

وكاد « الزيدى » يخلفه ، لولا وشايات ودسائس جعلت القصر يفضل أن يضع على رأس الجيش أحد ياوران « الملك » لكى يضمن — كما كان يعتقد — أن يضع قبضته على الجيش ، مبتدئاً بذلك سياسة ضمان ولاء الجيش بوضع رجال « الملك » فى رياساته المختلفة .

وهكذا تولى « إبراهيم عطا الله » رياسة هيئة أركانحرب الجيش ، وبدا الاندفاع الواضح المفتعل يجعل الجيش تحت جناح الولاء ، ولم تعد تميز رئيس هيئة أركانحرب الجيش قدرته على رياسة الجيش وتدريبه وتسليحه وتنظيمه وإدارة وحداته ومناوراته بقدر ما كانت تميزه قدرته على الاحتفاظ بولاء الجيش « للملك » ، وإظهار هذا الولاء فى كل فرصة وحين .

تلك كانت الحالة .. عندما عادت القوة الخفيفة إلى قواعدها بكوبرى القبة ،

وعاد معها « علّى » .. لأنه لم يكن هناك مفرّ من عودته ، إذ لم يكن لدى أحد الفرصة أو الوقت للتفكير فيه ، وفى المكان الذى يجب أن ينقل إليه حتى يبقى بعيداً عن القاهرة .

وكان « القائد » أول من تذكر موضوعه عندما لمح اسمه نوبتجياً فى دفتر الأوامر .. وسأل الصاغ فهمى قائلا :

ـــ ما رأيك فى مسألة على عبد الواحد ؟

وأدرك فهمى ما يرمى إليه القائد .. ولكنه تصنع عدم الفهم وتساءل قائلا :

ـــ أى مسألة ؟

ـــ مسألة إبقائه دائماً خارج القاهرة ؟

ـــ يا افندم .. هذه مسألة أظنها انتهت ، ولم يعد أحد يفكر فيها .. فمن غير المعقول أن يحكم على شخص بالبقاء خارج القاهرة طول العمر ، ثم إلى أين ننقله إذا كانت كل قواتنا قد انسحبت .. اللهم إلا إذا كنت تأمر بنقله إلى قوات الألمان فى مرسى مطروح .

ـــ أتمزح يا حضرة الصاغ ؟

وضحك فهمى وأجاب فى رجاء :

ـــ دعك منه .. لتنس المسألة كلية .. وأؤكد لك أنه لن يذكرها أحد .

ـــ وإذا ذكروها فماذا نقول ؟

ـــ سأتولى الرد أنا حينذاك .. إنى مسئول عن ذلك .

ـــ أنت لست مسئولا .. إن المسئول هو أنا .

وكان « سليمان » يرقب المناقشة فى صمت .. فتدخل قائلا :

ـــ أعتقد يا افندم .. أنه لن يذكر المسألة أحد .. لأنى أعرف الدافع إليها .. وأعتقد أنه انتهى تماماً .. وأستطيع ـــ بعد إذنك ـــ أن أوضح المسألة كلها « لعلّى » وأطلب منه أن يحذر من أن يعمل عملا يحركها ثانية .

وصمت القائد برهة ، ثم قال منذراً :

ـ قل له إن مصيره متوقف عليه وحده .. وإنه فى هذه المرة سيكون النقل خارج السلاح .. لأنى لا أريد متاعب .

وعاد « سليمان » إلى مكتبه فرفع سماعة التليفون قائلا لعامل التحويلة :

ـ أعطنى اليوزباشى « على عبد الواحد » .

وبعد فترة سمع صوت « على » يقول مرحباً :

ـ أهلا سليمان .

ـ أهلا علىّ .. كيف حالك ؟!

ـ الحمد لله .. وحالك أنت ؟!

ـ ماشيةَ .. لقد أوحشتنى وأريد أن أراك .

ـ أطلبتنى من أجل ذلك ؟

ـ ألا تكفى وحشتك لكى أطلبك ؟!

ـ قل ماذا تريد ودعك من اللف ؟!

ـ والله لا أريد أكثر من أن أراك .. أين تذهب الليلة ؟ .

ـ مرابط فى القشلاق .. لأنى ضابط عظيم .

ـ إذاً سآتى إليك .. ألديك ما يمنع من دعوتى للعشاء ؟

ـ أتتكلم جاداً ؟

ـ أى والله .

ـ إذاً ، سأنتظرك وأعمل حسابك فى العشاء ؟

ـ لا تنس أن توقد المدفأة .. فقد اشتقت إلى جلستها .. أتذكر جلستنا حولها فى أيام النوبتجية ؟!

ـ كانت أياماً لذيذة .

وفى المساء ضمت الصديقين جلسة هادئة حول المدفأة فى بهو الميس ، وبدا البهو مغلق النوافذ مسدل الستائر مطلى الزجاج حتى لا ينفذ الضوء إلى الخارج ، فتبدو منه بارقة تهتك ستر الظلمات المعتمة التى تسود القاهرة ، تحجبها عن

الطائرات المغيرة بثوب حالك السواد .

وجرى الحديث بين الصاحبين يتناول أموراً شتى .

قال سليمان متسائلا :

ـ أقمت اليوم بتجربة للدفاع الجوى السلبى ؟

ـ أجل .. ولو أننا لم نعد فى حاجة إلى تجربة .. فقد علمتنا بضع الغارات الأخيرة المتتالية كيف نأوى إلى الخنادق بلا حاجة إلى تجربة .

ـ أظن الخنادق كلها حفرت ؟

ـ تقريباً .. عدا خنادق حديقة السوارى ، فما زال هناك خندق لم يتم حفره ، وقد سألت اليوم عنه ، فأخبرونى أنهم ينتظرون حتى يخلع مستأجر الحديقة بضعة أحواض خضار لم تنضج بعد .

ـ ما شاء الله !! .. إذاً فعلينا أن نضحى بأرواح العساكر من أجل بضعة أحواض خضار .. كان يجب عليكم فسخ العقد مع هذا الرجل .. حتى يخلى الحديقة .

ـ إن المسألة لا تحتاج إلى فسخ عقد .. غداً سأعطى أمراً لباشجاويش الإدارة لكى يأخذ بضعة عساكر ويتموا حفر الخنادق .

ـ إتلاف الحديقة خسارة .. طالما تسليت فى نوبتجيتى بأكل الخيار والمشمش من أشجارها .. أتعرف أن أسوأ ما فعلته بنا الغارات هو هذه الخنادق ، التى بقرنا بها بطن الأرض ، وشوّهنا بها الحدائق والطرقات .

ـ هذا خير من أن تبقر هى بطوننا بشظاياها وقنابلها .. أتذكر غارة السبت الماضى ؟

ـ لقد كانت فظيعة ، لقد دمروا بها مطار هليوبوليس .

ـ وأعجب ما فيها أنها لم تصب شيئاً غير المطار .. إن البيوت المجاورة لم يمسسها سوء .

ـ لا شك أنها غارة ألمانية ؟

ــ لقد كنت أتوقع توالى الغارات بعد ذلك .. ولكنهم كفوا عنها منذ ذلك اليوم .

ــ يبدو أن حالتهم أمام العلمين ليست طيبة .

ــ لا شك أنهم يتأهبون لحشد قواهم للضربة التالية .

ــ لا أظن .. لا تستهن بهذا الشوط الذى قطعوه .. لقد تقطعت منه أنفاسهم .. إن الحشد مع بُعد القاعدة ، وطول المواصلات ، أمر غير هين .

ــ كنت أتوقّع أن يصلوا الإسكندرية بين يوم وليلة .

ــ لا أظن .. يخيل إلّى أنهم قد بلغوا آخر الشوط .. وأن الحلفاء سيردّونهم مرة أخرى .. لقد خبرت حرب الصحارى جيداً .. لم أضع هذه المدة التى شردتمونى فيها هباء .

وألقى « سليمان » بقطعة خشب إلى المدفأة ، وبدت عليه سيماء التفكير .. وسادت فترة صمت قطعها متسائلا ، وهو يحدق فى المدفأة :

ــ من الذى شرّدك يا « على » ؟

ــ تسألنى أنا ؟ .. سل الإدارة .

ــ كان يخيل إلّى أنك تعرف أكثر من الإدارة .

ــ ماذا تقصد ؟

ــ أقصد أن إدارة السوارى لم تشرّدك .. وأنت تعلم هذا جيداً .. لأنه ليس بها أحد لا يحبك ويقدرك .. لقد صدرت الأوامر بإبعادك عن القاهرة .. وكان المفروض أن تنقل إلى الحدود .. ليتولى قائده إبعادك .. ولكن الصاغ والقائد رفضا نقلك من السلاح .. ولم نجد حلا للمسألة سوى أن تتولى قيادة دبابات سيوة .. فالإدارة إذاً فعلت كل ما فى وسعها من أجلك .. وأوامر إبعادك صدرت من جهات عليا ؛ لا تملك الإدارة مخالفتها .

ــ ماذا تقصد بجهات عليا ؟

ــ لا تتجاهل يا « على » .. أنت تعرف أن الأمير إسماعيل لا يستعصى عليه

إبعادك عن القاهرة . ألا تعتقد أنه هو السبب ؟

ودون أن يحوّل « عليّ » بصره عن النيران أجاب فى صوت هامس :

— ربما !

— على أية حال لقد مرّت المسألة بخير .. والقائد أبدى استعداده لتناسى أوامرهم بإبعادك .. وعدم إثارة المسألة .. بشرط ألا تفعل أنت ما يثيرها .

— ماذا تقصد ؟

— أقصد أن تكف عن كل صله لك « بأنجى » .. وألا تحاول رؤيتها ، أو الاتصال بها .. حتى لا تذكر الأمير بوجودك ، فيعود إلى طلب إبعادك .

— لقد انتهى كل ما بيننا يا « سليمان » قبل أن أسافر إلى سيوة .. ولم يعد هناك أبداً ما يمكن أن يثيره .

وصمت « عليّ » قليلا ثم أردف قائلا فى سخرية مريرة :

— اللهم إلا إذا كان مجرد التفكير يسبب له قلقاً .. وعلى أية حال لن يمنعنى الإبعاد من هذا التفكير .

وأحس « سليمان » بعطف شديد على « على » وهو مطرق نحو المدفأة ، وقد بدت مظاهر أسى تعتم وجه ، وقال فى رفق :

— اسمع يا « على » إن تفكيرك من حقك وحدك ، وليس لأحد أن يتدخل فيه .. لا الأمير ولا غير الأمير .. ولكنى مع ذلك أتساءل .. ماذا يدعوك إلى التفكير فيها بعد كل هذا ؟ .. وماذا يمكن أن يكون مدى أملك فى هذا التفكير ؟

وصمت « على » برهة .. وبدا كأنما لا ينوى الإجابة .. حتى همّ « سليمان » بمعاودة السؤال ، ولكن « على » أجاب فى صوت خفيض وكأنه يحدث نفسه :

— لا أظن من السهل أن أشرح ما بنفسى .. ولكنى مع ذلك سأحاول .. ليس هناك من يعرف مدى يأسى منها بقدر ما أعرفه أنا .. فأنا أوقن تماماً .. أنه لايمكن أن آمل منها فى أى نوع من أنواع الصلات.. وصدقنى إذا قلت لك:إنى..

لا يهمنى كثيراً أن أراها ، أو أكلمها ، أو أسمع عنها .. لقد قطعت فى نفسى كل رجاء منها كمخلوقة حية .. وكل رغبة فيها كشىء مادى .. ولكننى مع ذلك لم أستطع .. ولا أظننى سأستطيع أن أقتلع إحساسى بها ، كشىء مغروس فى أعماق ، ممتزج بكيانى .. فهذا إحساس .. إن أفلحت فى إخماده اليوم أو غداً ، بكل وسائل التبغيض واليأس .. فليس أسهل من إيقاظه وتأججه بمنظر عابر ، أو نسمة سارية ، أو حلم من أحلام الدجى .. أو حتى بغير هذا ولا ذلك .. إن إحساسى بها كصلة روحية لا يمكن اجتثاثه ، فأنا فى اجتثاثه كمجتث الشعرة .. كلما قطعها .. لا يلبث أن يجدها نمت على مر الأيام ، دون أن يعرف كيف اشتدت ولا متى نمت .. إنها أشبه بالداء المزمن لا برء منه .. ولا علاج له .. وإن كنت أجدها داء خفياً ، بلا خطر ولا ضرر .. بل إنه أضحى ألزم إلىّ من صحتى ، ومن حياتى .. أفهمت كيف أفكر فيها وأحس بها ؟! لقد باتت شيئاً كامناً فى نفسى ، لا زوال له ، ولا خلاص منه .

وأمسك « سليمان » المسّاك الحديدى « الماشة » يقلب النيران ، ولم يكن من قبل يؤمن بمثل هذا الشعور الذى حدّثه عنه « على » .. شعور الإصرار على تملك ما لا سبيل إلى تملكه ، ولكنه أحس من نبرات « على » إيماناً قوياً راسخاً لا يتزحزح ولا يتزعزع .. ولم يكن هناك معنى لأن يحاول زحزحته أو زعزعته .. وقد طواه فى نفسه ، وضمه بين جوانحه .. ولم يعد منه ضرر ولا خطر .

وقال « سليمان » بعد فترة تأمل وتفكير :

ــ قد تكون على حق فى تفكيرك ومشاعرك ، وحتى لو لم تكن على حق .. فلا أظن هناك من يقدر على تغيير طريقة تفكيرك وتبديل كيفية إحساسك ، ما دمت تجد فيها نوعاً من السعادة أو العزاء .

ولكن كل ما أطلبه منك ، وأنصحك به ، هو ألا تجعل لتفكيرك ومشاعرك مضاعفات ، تغير مجرى حياتك .. أو تؤثر على طبيعتك أو عملك

أو تصرفاتك .. لا تدعها تجعل منك إنساناً سلبياً حالماً شارداً .. استهلكها فى باطنك ، حتى لا يبدو لها أثر على ظاهرك .. أفهمتنى ؟

وهز « علىّ » رأسه وأجاب :

ــ أجل أفهمك جيداً ، وأسالك : ألا تجدنى أفعل كما تقول ؟ لو لم أقل لك ما قلت .. أكنت تجد بى ما ينمّ عنه ؟ إنى أعمل .. وأتحرك ، وآكل ، وأشرب ، وأتحدث كغيرى من بقية البشر .

ــ لست أقصد هذا .. فليس يكفى أن تعمل وتتحرك ، وتأكل وتشرب وتتحدث ، وتبدو كغيرك من بقية البشر .. بل يجب أن تكون خيراً من بقية البشر .. لأن لديك الطاقة والقدرة على أن تكون كذلك.يجب أن تكون لك آمالك الكبار التى تتناسب مع قدرتك .. والتى يمكن أن تستهلك فى تنفيذها طاقتك وجهودك .. إنى أعتقد أنك لست بالمخلوق العادى ، الذى يمكن أن يكتفى منه بمجرد العمل العادى ، بالأكل والشرب والتحدث والنوم والسير .. فيجب أن تخرج عن هذا النطاق الضيق الذى حددت فيه أملك ، وأغلقت عليه رجاءك .. يجب أن تخرج من سلبيتك التى تضاعفهاقناعتك بالتفكير الشارد الحالم .. دع تفكيرك ينفذ إلى محيط أكبر وأوسع ، إلى محيط واقعى تستطيع أن تلمس به ما حولك من مهالك ، وبلايا تطبق علينا ، وأغلال نرسف فيها ، ونرزح تحت ثقلها .

ــ لست أفهم ما تريد .

ــ أيعجبك هذا الفقر والجوع والمرض ، الذى ينخر فى أمتنا ؟ أيعجبك هذا الاعتداء الصارخ على سيادتنا وحريتنا ؟! أتعجبك هذه المذلة والهوان ؟! ماذا تبقى لنا من كرامة بعد أن وطئت نعالهم القذرة رمز سيادتنا !؟ وبعد أن أذلونا بدباباتهم وفرضوا علينا رغباتهم ؟!

ــ وماذا تريدنى أن أفعل ؟! ماذا أملك أو يملك غيرى لمنع هذا ؟!

ــ تملك كل شىء .. تملك الإيمان والعمل .. يجب أن نثأر لكرامتنا .

يجب ...

— اسمع يا « سليمان » .. أنت تعرفنى جيداً .. منذ أن كنا طلبة .. أنا لا أعمل إلا فى حدود واجبى .. ولا أحب أن أحيد عنه .. أنا ضابط .. وواجبى هو أن أكون ضابطاً جيداً .. ويجب ألا تخرج جهودى عن هذا النطاق .. إن آمالى كلها مركزة فى الجيش ، وفى أن أكون ضابطاً ممتازاً .

— حتى هذا لا تفعله .. إنك تكاد تؤدى عملك .. لماذا لم تفكر مثلا .. فى الدخول فى كلية أركانحرب .. ألا يدخل هذا فى حدود آمالك ؟! ألا يجب أن تبذل فيه جهدك ؟

— لايمكننا ذلك ، لأنه لم تمض علينا المدة الكافية ، وليس هناك ما يدعونا إلى العجلة .

— بل مضت المدة الكافية ، وتستطيع أن تقدم طلب الالتحاق من الآن .. وتركز كل جهودك فى الاستعداد لامتحان الدخول .. غداً سنقدم طلبنا ، ونبدأ مذاكرتنا سوياً .. ما رأيك ؟ اتفقنا ؟

وبغير اكتراث .. أجاب « على » :

— كما تريد .

(٥٢)

هزيمة

انهمك« على »و« سليمان » فى الاستعداد للدخول فى كلية أركانحرب وفى نهاية العام نجحا فى الامتحان ، وأمضيا العام الذى يليه فى الدراسة فى الكلية .. غارقين فى ملفات القوات المدرعة والمدفعية وواجبات الأركانحرب والمشروعات التكتيكية والإدارية .. وكان أكثر ما يشق على « علىّ » فى الكلية هو دراسة علومها الإنجليزية .. فقد كانت هيئة التعليم مكونة من ضباط إنجليز من البعثة العسكرية .. يساعدهم بعض ضباط منتخبين من المصريين .. وكان عليه أن يمضى الليالى الطوال ، وهو منهمك فى الدراسة والقراءة وإعداد المشروعات ، ووسط هذا الانهماك الشديد ، والجهد الشاق .. كان يختلس اللحظات ليدنى الطيف النائى الذى بدا خجلًا لا يجسر على الاقتراب منه .. كأنما يخشى أن يضيع وقته .. كان يدنيه ليلتمس فى صدره بعض الراحة .. ويستجلب من مسة يده بعض الهدوء .. ومن تحسيسة شعره بعض الطمأنينة والسكينة .

وبين آونة وأخرى كان يدفعه إلى « كريمة » شعور مختلف بين رغبة فيها ،وحنين إليها ، وإشفاق .. وكانت زياراته فى أول الأمر متقطعة متباعدة ، حسبما تدفعه الرغبة ، ثم أخذت تتقارب وتنتظم ، حتى اتخذت شكلا رتيباً منتظماً ثابتاً .. وخصص لها أحد أيام الأسبوع .. يكاد لا يمنعه عنها إلا سبب طارىء ، أو عذر قاهر .

وكان « حسين » قد نقل خلال هذا العام إلى بوليس القصر ، وزادات علاقاته بالطبقات العليا وتقرّبه منها .. وحاولت أمه بضع مرات أن تثير موضوع زواجه « بهية » فصدّها برفق بدعوى أنه مضرب عن الزواج ، وأنه لا يريد أن

يحمل نفسه مسئولية زوجة وأولاد .

وكان الوفد فى ذلك الوقت قد استبدّ بالحكم ، وبدت مظاهر الطغيان ، فى كل مظهر من مظاهر تصرفات أقطابه ، وأولى الأمر فيه .. سواء كان ذلك فى التصرفات الشخصية أو العامة.. دفعهم إلى هذا الاستبداد والطغيان شعورهم بالسيطرة التامة التى لا تحدّها مقاومة ، وإحساسهم بالثبات فى مقاعد الحكم ثباتاً أبدياً ، لا تقدر على زحزحتهم عنه قوة فى البلد ، بعد أن سندتهم فيه القوة الكبرى .. قوة الإنجليز بدباباتهم وسيطرتهم .. وبعد أن ضمنت لهم خلوداً ، جعلتهم يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبداً .

وهكذا أحست الأداة الحاكمة أنها مسيطرة بلا رادع ، متصرفة بلا محاسب .. وبات الحكم نهبة لكل من بيده سبب من أسبابه — ولو ضؤل — ، وأضحى استغلال نفوذ الحاكم وسيلة صريحة ، لا غبار عليها ولا حرج فيها ، للنفع الشخصى والكسب المادى ، وباتت مستباحة مستحيلة لكل من يمت إلى الحكم بصلة .

وبمضى الوقت ، أصبح استثناء ذوى القربى والحواشى والتوابع قاعدة من أبرز قواعد الحكم ، وأضحت تصاريح الاستيراد هبات ومنحاً ، تخلع من أصحاب السلطان وذويهم .. وبدت البلد كأنها صيد قناصه حاكموه ، ولم يجد الصف الثانى من الحكام من نواب وشيوخ، بداً من أن يدلى بدلوه فى الدلاء .. وكانت دلاؤهم .. قوت الشعب وثيابه وأكفانه .

وفى ذلك الحين اتخذ « الملك » الجانب الخير الطيب الأمين ، وتطلع إليه الشعب المغلوب على أمره ، المسلوبة حقوقه .. كقوة منقذة منصفة ، ولم تخيب سماته ومظاهره رجاء الشعب فيه ، بل أيدتها كل أعماله ، منذ جلسة الرغيف ، التى حضرها فى مجلس وزراء « حسين سرى » .. حتى طوافه بالصعيد على صرعى الملاريا ، فى الوقت الذى تشاغل فيه أقطاب الوفد بالخطب ، والهتافات المدوية فى الإذاعة .

وبدا تعلق الشعب بالملك على أشدّه فى حادث القصاصين ، وفى احتشاده لاستقباله فى عودته بعد أن بلّ من أصابه .. وبدت حوادث الاحتكاك بين الحكومة والقصر تزداد ، وبدت مظاهرها واضحة فى التحدّى المتبادل ، وردّت الحكومة على تعطيل المراسيم بالحركات الصبيانية المثيرة من هتافات إلى خطب إلى لافتات ، إلى اتخاذ رئيس الحكومة فى حركاته ، وفى بيته ، سمات الملك ومظاهره .

وحدث فى الوفد صدع جديد .. فصل عنه ركن قوى من أركانه ، وخرج « مكرم عبيد » ثائراً على الوفد وحكمه .. يدفع إلى ثورته مزيج من الأسباب .. بعضها ظاهر يرجع إلى فساد الحكم ، والبعض خفى يرجع إلى زلزلة سلطانه ، بوساطة القوة الأخرى التى نحته عن مكانته ، وأمسكت بزمام الوفد ، وسيطرت على قيادته ، وهى قوة « زوجة رئيسه » .

ووقف « الملك » ووراءه المعارضة بما فيها من مكرم وكتابه الأسود .. ووقف وراءهم الشعب يتطلع إليهم ، آملا أن يزيحوا عنه الكابوس الذى أطبق على رزقه وقوته وكسائه ، وبدا للملك أن يقدم على إقالة الوفد ، وهيأ فعلا الوزارة التى ستخلفه ، وجمع وزراءها فى قصره استعداداً لحلف اليمين عندما أمره الإنجليز بعدم التغيير .

وكان للملك فى ذلك الحين منزلة كبرى فى قلوب الضباط ، وكانوا يتطلعون إليه كما يتطلع بقية الشعب كمنقذ للبلد ورمز للسيادة ، وكانو يعلقون عليه آمالا كباراً ، وزاد من حبهم له أنه كان يمثل الجانب الطيب المغلوب على أمره .. الذى تقف فى سبيله قوى الشر ، التى مثلها الوفد والإنجليز .

وعنى الملك — أو المدبرون لسياسته — بكسب قلوب الضباط بشتى الطرق والوسائل .. وتعوّد أن يذهب كل عام إلى نادى الضباط فى ٤ فبراير بذكرى اعتداء الإنجليز على القصر — ليجلس معهم بلا كلفة ويتحدث معهم حديث الأصدقاء .

ورآه « على » و « سليمان » فى النادى فى إحدى المرات .. كان يقهقه ويمزح .. ويلقى النكات الخارجة كواحد منهم .. وعندما غادر الصاحبان النادى ، قال سليمان فى حماس :

ـــ إنى أحب هذا الرجل .. إنه يبدو مصرياً يحسّ بأحاسيسنا ، ويشعر بمشاعرنا .. ليس به من سمات أرستقراطية الملوك والأمراء شئ .. إنى أحس أنه أمل مصر .. ما رأيك أنت ؟ .. ألا تحس أن خلاصها سيكون على يديه ؟

وضحك « على » وأجاب قائلًا :

ـــ والله أنت أدرى منى .. أدرى بمصر وأملها وخلاصها .. لأنى لا أفهم فى هذه الأشياء .. لأنى لا أعرف ممن تريد مصر الخلاص .. ولا ماذا تأمل ؟

ـــ بصفة عامة .. ما رأيك فيه ؟

ـــ لا بأس .. إنه مخلوق مثلى ومثلك .. ولو وضعتنا أمك أو أمى مكانه .. لما بدونا أقل منه .

ـــ أيها المغرور !!

ـــ لست مغروراً .. ولكنك أنت تندفع اندفاعاً شديداً ، وراء كل ما تتحمس له .

ـــ ألا تعجبك فيه هذه الديمقراطية البسيطة غير المتكلفة ؟

ـــ تعجبنى .. ولكن لا تعجبنى قهقهته الشبيهة بقهقهة المجانين .. ولا تعجبنى طريقة حديثه .. المفروض أن يكون أكثر اتزاناً .. وأفضل حديثاً .

ـــ إنه لا يتكلف معنا .

ـــ والمفروض أن يكون متزناً فاضلًا .. بلا تكلف .

ـــ على أية حال إنى أحبه .

ـــ لأنك متحمس له .. إنك دائم التحمس .

ـــ وأنت لا تتحمس أبداً ؟

ـــ ليس فى حياتنا كلها ما يستحق التحمس .. دعها تسير .

— كيف تسير والوفد جاثم « على قلبها .. لطولـون » .. — كما يقول رئيسه — لم تعد لى أمنية إلا أن ينتصر « الملك » ويلقى بالوفد خارج الحكم .

وانتصر « الملك » أخيراً ، وأقال الوفد إقالة مسببة بالعجز والتقصير والفساد ، وفى غمضة عين وجد الوفد نفسه ملقى على قارعة الطريق .. دون أن يستطيع سنده القوى أن يثبته فى مقاعد الحكم .

وتولت مجموعة الأحزاب المؤتلفة الحكم برياسة أحمد ماهر ، وبدأت حكمها بمعركة على مقاعد النواب .. فقد أدرك رئيس كل حزب أن عدد نوابه هم الذين سيضمنون مستقبله فى الحكم .. وانتهت معركة الانتخابات بإيغار الصدور ، وضياع الثقة .

واستمر « أحمد ماهر » فى الحكم مع مجموعة الأحزاب المتعاونة حتى اغتياله فى البرلمان ، بعد أن قرر أن تدخل مصر الحرب مع الحلفاء ، حتى تكتسب عضوية هيئة الأمم المتحدة .

وتولى « النقراشى » الحكم .. واستمر فيه .. حتى خرج مكرم بحزبه .

ثم تولى « صدقى » الحكم بحزبى الأحرار والسعديين ، وفشل فى الوصول إلى اتفاق مع الإنجليز .

وخلفه « النقراشى » مرة ثانية ، وعرض قضية مصر على مجلس الأمن ، مهاجماً الإنجليز ، دون أن يتوصل إلى شئ .. واستمر فى الحكم بعد ذلك ، حتى دخول حرب فلسطين .. وحل جماعة الإخوان بعد تعدد حوادثهم واغتيالاتهم .. ثم كان مصرعه بيد أحدهم فى وزارة الداخلية .

وخلال تلك الفترة .. تطور إحساس الشعب والجيش « للملك » تطوراً واضحاً .. بدأ منذ انتصار « الملك » على الوفد ، وطرده من الحكم .

لقد خلف هذا الانتصار آثارا عدة .. فلم يعد « الملك » بعد ذلك يمثل الجانب الطيب الخيّر المظلوم المغلوب على أمره ، والذى يتمتع بحب شعب ذى ميل غريزى إلى المظلوم والمغلوب على أمره ،بل بدأ يمثل الجانب الأقوى ،

صاحب الأمر والنهى ، الذى أضحى بيده مصير الحكام ، والذى يستطيع — دون الشعب — رفعهم إلى مقاعد الحكم .. وخفضهم عنه .. بعد أن تمكن من طرد قوة الوفد الكبرى ، التى كانت تستمد قوتها من الشعب تارة ، ومن الإنجليز تارة أخرى .

وهكذا أخذ « الملك » يفقد عطف الشعب بإتخاذه الجانب الأقوى صاحب الجبروت والسلطان ، الذى سلب الشعب حقه المفروض فى وضع الحكام وعزلهم .

وزاد من غرور « الملك » وجبروته .. إحساس الحكام أنفسهم ، بأنه قد بات صاحب اليد العليا عليهم .. وأن مصيرهم معلق بيده أكثر مما هو معلق بشئ آخر .

وفتق الغرور والإحساس بالسيطرة التامة التى بعثتها الزلفى ، والخضوع والخنوع من الحكام ما بباطن « الملك » من سوء متأصل ، وشذوذ كانت تحجبه ستر المظاهر ، والرغبة فى كسب المحبة والعطف والتأييد .. عندما كان يحس بأنه مغلوب على أمره .. لا يملك فى قبضته القوة الإيجابية التى يستطيع بها أن يفعل ما يريد .

وبفقد « الملك » كل ما كان يتمتع به من حب طبيعى ، وتأييد غير متكلف من الشعب والجيش .. بدأ العمل على استعادة هذا الشعور بطريق التصنع والافتعال ، وحشدت كل قوى الحكام والأتباع لكى تفرض حب « الملك » على الشعب فرضاً وتدفعه فى قلوبهم دفعاً .. وبات هدف الدولة الأول بكل ما فيها من مرافق ووسائل هو تمجيد « الملك » وتأليهه ، وإحاطته بهالة زائفة من البطولة والقدسية ، وحجبه وراء ستر برّاقة من الأكاذيب المضللة ، والدعايات الخدّاعة .. وأضحى مقياس نجاح الأعمال يقاس أولًا برضاء « الملك » عنه وإفادته منها .

وكانت النتيجة الحتمية لهذه السياسة البلهاء الساذجة هو عكس ما توقع

أصحابها أن يجنوا منها ، فقد ضاقت النفوس بهذه النوبة المجنونة من التمجيد غير المعقول .. وبات خِلَع الحب ومنح الولاء التى تفيض بها خطب الحكام ، ومقالات الصحف وأناشيد الإذاعة ممجوجة مستثقلة . وأحس الناس كأنها فرض على أذهانهم وآذانهم .. لابد لهم من قبوله والتسليم به .

وأحس « الملك » بالكثير من الطمأنينة وراء هذه الحجب الزائفة من البطولة والقدسية ، وأوهم أنه قد ضمن رصيداً ضخمًا من الحب والولاء لا يتبدد على الزمن .. وانطلق على سجاياه الخبيثة المجنونة وراء هذه الحجب متحرراً من قيوده كملك .. بل من قيوده كبشر ، ولم يجد ما يدعوه لأن يكلف نفسه مشقة أداء واجبه ، أو كسب محبة شعبه ما دام قد ضمنها له من حوله بطلائهم الزائف ، وتمويههم الخادع .. ولم يجد مبرراً لأن يجهد نفسه فى عمل جاد ، ما داموا قد جعلوه — بلا جهد — العامل الأول ، والفلاح الأول .

وبدأت حلقة مفرَّغة من طغيان « الملك » واستخذاء الحكام ، فأخذ انتفاخ « الملك » يزيد من انكماش الحكام .. وانكماش الحكام يزيد من انتفاخ « الملك » .. كأنهما بالونتان تفرغ إحداهما هواءها فى الأخرى ، حتى انتهى الأمر بأن أفرغت بالونة الحكم كلها فى جوف « الملك » وأضحي القصر هو وحده صاحب النفوذ .

وفى ذلك الوقت ظهرت قوة شعبية جديدة بعد انكماش شعبية الوفد ، وهى جماعة الإخوان الذين استمدوا قوتهم من الدين ، وأفرغوها فى السياسة .

وعندما أنبتت لهم دعوتهم الدينية، ريشاً ومخالب، انقضوا بها على فريسة الحكم .. فلم يجد الحكام بدأمن نتف الريش ، وتقليم المخالب ، ووأد البغاث المستنسر ، المنقض ، بعد أن أشاع فى البلد جواً من الإرهاب .

وتطور الشعور فى الجيش بمثل ما تطور فى الشعب .. وأخذ الضيق والملل والسخرية والاشمئزاز يزداد فى نفوس الضباط بازدياد سخافات الولاء ، وآلمهم وأسخطهم أن يجدوا رياستهم قد شدّتهم بأسلحتهم وجنودهم فى عربة الولاء ،

وأنهم لم يعد لهم من عمل سوى الانسياق زرافات إلى القصر لإظهار ولائهم فى مناسبة وغير مناسبة، وأن يقتصر واجبهم على الاحتفالات والمواكب والاستعراضات ، وأن تستنفد جهود صيانتهم وأشغالهم إلى إعداد مواكب الشعلة وأقواس النصر ، وأن يكون النجاح فى مثل هذه السخافات والتفاهات هو مقياس نجاحهم واستحقاقهم للثناء .

لقد كرهوا — كما كره الشعب — أن تستغفل عقولهم .. وأن يكونوا مجرد أداة لإثبات الولاء للذات العلية ، ووسيلة لتثبيت رئيس أركان الحرب فى مركزه ، واكتسابه لرضاء القصر ، وتثبيت رؤسائهم فى رياساتهم ، واكتسابهم لرضاء رئيس هيئة أركان الحرب ، أى وسيلة لسلسلة تثبيتات واكتساب للرضاء .

وباتت جهود رياستهم المفتعلة لإظهار الولاء مثار تندرهم وسخريتهم ، وأضحى تغيير شعار الجيش من « الله والوطن والملك » إلى « الله والملك والوطن » فكاهة الموسم .

واشتمت أول روائح التبرم والسخط عندما اعتقل بعض الضباط فى ميس المشاة وحقق معهم بتهمة الشيوعية ، ولم يكن هناك بد من كبش فداء يفتدى به « الملك » .. ويظهر أن السخط والتبرم لم يكن منه وأنه لا يتمتع إلا بالولاء والمحبة .. وكانت الضحية هى أقرب الناس إليه .. وقطعت اليد التى طالما أعتصرت جهود الجيش ، لتقدمها قطرات ولاء فى كأس « الملك » وتنحى « عطاالله » عن رياسة الجيش .

وتولى « حيدر » وزارة الحربية بدل « عطية » فى وزارة النقراشى ، وأمسك بزمام الجيش .. ولكنه لم يكن أكثر فهماً للمشكلة .. وخيل إليه أن جناية « عطاالله » كانت التقصير فى جمع صكوك الولاء .. فاندفع فى طريق الولاء اندفاعًا أشد وأقوى .. عَلَّه يعّوض ما فات سلفه .. ويحصل ما قد يكون قد قصر فى تحصيله .. ووجد أن مجرد سوق الضباط للتعزية فى ذكرى وفاة « الملك فؤاد » — كما كان يفعل سلفه — أمر لا يكفى لإظهار الولاء ، فألبسهم كرافتة سوداء فى ذلك اليوم مبالغة فى مظاهر الحزن ، فى الوقت الذى كان ارتداء

الكرافتة السوداء على البذلة الكاكى يعتبر لبساً على وجه غير لائق يعرض الضباط للجزاء ، وكان الضابط لا يستطيع ارتدائها حتى فى يوم وفاة أبيه ، ومع ذلك فهو يؤمر بارتدائها حتى يقنع « الملك » بأن الضباط فى حزن على أبيه الذى مضى على وفاته ما يربو على عشر سنين .

وأغرق الضباط فى الترقيات .. وكان « حيدر » يستمد نفوذه فى الوزارة من القصر .. ولم يكن هناك من يجسر على معارضة مطالبه .. واتخذت ترقيات الضباط مظهرًا يشعرهم الجميل ، فقد كانت تعمل احتفالات يسلم فيها « حيدر » علامة الرتبة للضابط بيده ، حتى يشعر بما فيها من منح .

وتسلم « علىّ »و « سليمان » علامة الصاغ من « حيدر » فى صالة الجمباز فى الكلية الحربية .. وكان « على » قد عين مدرساً بالكلية الحربية بعد تخرجه فى كلية أركان الحرب ، أما « سليمان » فقد تقلب فى بعض مناصب فى رياسات الجيش ، ثم عاد إلى السوارى .

ولم تكن السنون قد غيّرت من « على » .. كان هو هو ، بنفس رزانته وهدوئه .. لم يأبه كثيراً .. لما يخرج عن دائرة عمله .. كان يعتقد أنه ليس هناك ما يستحق منه الجهد سوى تلاميذه ودروسه .. أما ما يفعله « عطاالله » و « حيدر » .. وما أدّت إليه المفاوضات ، أو ما فعلت هذه الوزارة أو تلك ، فلم يكن بعيره جهداً إلا من باب المعرفة والاطلاع .

لم يكن يضيق بسوق الضباط إلى القصر لإظهار الولاء ، لأنه لم يكن يذهب أبداً ، لإعتقاده أنه ليس هناك من يشعر بغيابه أو وجوده ، وأنه لن يفيد ولن يستفيد ، وفى المرات التى كان يذهب فيها ، عندما كانت إدارة الجيش تشدد فى أوامرها بالذهاب ، وتأمر القواد بالتتميم على ضباطهم بالاسم ، كان يجد فى الذهاب متعة لقاء الزملاء القدامى ، الذين فرّقتهم دواعى العمل ، ولم يعودوا يجتمعون إلا فى مثل هذه المناسبات .

ولم يكن يضيق بالكرافتة السوداء ، لأنه كان يلبس فى ذلك اليوم « البوشيرت » أو قميصاً مفتوح الياقة ، ولم يكن يفعل هذا لأنه لا يريد أن يظهر

ولاءه ، بل لأنه لا يملك كرافتة سوداء .

ولم يكن يهتم كثيراً بالفائز فى سباق شعارهم .. أهو الله أم الوطن أم الملك .. لأنه لم يكن يفكر كثيراً فى الشعار ، ولا كان يعتقد أن للشعارات أية أهمية .. وكان واثقاً من أن الله أو الوطن لن يضيرهم كثيراً أن يقدم رئيس أركان حرب « الملك » عليهما فى لافتاته وأقواله .

ولكن « سليمان » لم يكن كذلك .. كانت حماسته « للملك » قد باتت سخطاً عليه .. وكانت ثورته على الاستعمار ، وكفره بالأحزاب ، قد زاد اشتعالًا وتأججاً .

وحاول « سليمان » — كما كان يحاول من قبل — أن ينقل إلى « علىّ » عدواه ، وأن يثير اهتمامه بالمسائل العامة ، ولكنه لم يلق منه سوى قلة الاكتراث الطبيعية والبرود العادى .

وأعلنت حرب فلسطين .. وتقابل « سليمان » مع « علىّ » فى مكتبه بالكلية الحربية ، وبدا الحماس على « سليمان » .. وقال وهو يفرك يديه فى غبطة ورضاء :

— أخيراً .. آن لنا أن نتقدم لإنقاذ فلسطين الجريحة .

ورفع « علىّ » بصره عن المذكرات التى كان يراجعها ، وبدت عليه الدهشة .. وأطلق ضحكة قصيرة ساخرة ، وقال متسائلًا :

— نتقدم لإنقاذها بأى شئ ؟

— بقواتنا المسلحة .

— اسمع يا « سليمان » .. دع الآخرين يقولوا هذا .. ولكن لا تدعنا نضحك على أنفسنا .. أتعتقد أن جيشنا يستطيع الدخول فى حرب بحالته الراهنة ؟!

— ولِمَ لا ؟!

— لا تدع الحماس يدفعك إلى إنكار الواقع .. أنت فى السوارى .. وتعلم

جيداً مدى قدرة أسلحته وجنوده على القتال .. أنت تعرف أن السوارى أمضى مدة الحرب الأخيرة ، وقد فرّقت جنوده لحراسة المرافق ، بلا دبابات ولا عربات .. كانوا مجرد دوريات مشاة .. وتعلم أن السوارى لم يعد يتدّرب إلا على طوابير الاحتفالات ، وتعلم أن نصف دباباته معطل ، ومدافعها غير صالحة للضرب ، وليس هناك ما يكفى من السائقين والمدفعجية . أتعتبر بعد ذلك أن لديك قوات مدرعة تستطيع أن تخوض بها معركة ؟! أتعتبر أن كتائب المشاة التى لم يتدرب عساكرها على أكثر من طوابير السير ، يمكن أن نعتمد عليهم فى احتلال موقع ، أو فى الدفاع عنه ؟! أتعتقد أن أسلحة الجيش المعاونة .. كخدمة الجيش ، والصيانة والمهمات .. يمكن أن تقوم على تموين جيش وصيانته فى ميدان قتال ؟! فكّر فى هذا وأجبنى ، كيف يمكن أن نزج بجيشنا بحالته الراهنة لإنقاذ فلسطين ؟! لقد ذهلت عندما سمعت خبر دخولنا الحرب .

ـــ كل هذا سينتظم مع الوقت .. وكل جيوش العالم تبدأ معاركها ، وهى على مثل هذا الحال .. أنسيت حال الإنجليز فى بداية معارك الصحراء الغربية ؟ أنسيت حال الأمريكان عندما نزلوا أول الأمر فى شمال أفريقيا ؟

ـــ لم أنس .. لقد كانت حالتهم سيئة فى أول الأمر ، ولكنها تحسنت ، لأن لديهم رصيداً من الإمدادات والمؤن لا ينفد .. ولكن قل لى من أين سنأتى بالذخائر ؟ من أين سنأتى بالأسلحة ؟! أنت تعلم ان كلّ ما لدينا من ذخائر فى مخازن الجيش .. يمكن استهلاكه فى معركة أو معركتين .. وماذا سنفعل بعد ذلك ؟

وفكر « سليمان » برهة ، ثم أجاب :

ـــ لابدّ أن يكون المسئولون قد دبروا ذلك .. لابدّ أنهم أعتمدوا ، عند إعلانهم الحرب ، على مصادر موثوقة تمدهم بكل ما يلزمنا من أسلحة وذخائر .. وأغلب ظنى أن إنجلترا قد ضمنت لهم كل ذلك .

ـــ وإذا أخلت إنجلترا بضمانها ؟ أتثق أنتَ فى إنجلترا بعد كل ما قلنه عنها فى

كل مناسبة. أتعوّدت إنجلترا أن تفى بوعودها؟

وبدا القلق على «سليمان»، ولكنه ما لبث أن طرده من نفسه، وقال فى حماس:

ــ دعها لله.. إنه لابد ناصرنا.. إن لدينا فى قلوبنا من الإيمان ما يكفى لتحطيم إسرائيل كلها. ثم إنها ليس لديها من القوات ما يمكنها مقاومتنا، ويجب علينا أن نخوض المعركة بأية وسيلة.

وهز «على» رأسه ولم يجب، فقد عرف أن المناقشة غير مجدية.. ولم يكن هو يقتنع كثيراً بأن الحماس والإيمان يمكن أن يحل فى الهجوم أو الدفاع محل الأسلحة.. ولكنه كره أن يبدد إيمان «سليمان».. وأقنع نفسه بأنه ربما كان لدى الجيش فعلا أسلحة لا يعرفها، وأن الحالة ربما تكون أفضل مما يتصور.

وبدأت الحرب.. بداية استعراضية طيبة. وبدأ الجيش فى التقدم على الخرائط فى كوبرى القبة وقصر النيل.. وكانت القيادة تنقل القوات على الخرائط لكى تحتل مواقع لم تحتلها بعد فى الميدان. وكانت القوات تضطر إلى التقدم مكرهة لكى تطابق مواقعها على الخريطة مواقعها على الأرض. أو لكيلا تجعل كلام القائد العام فى كوبرى القبة «ينزل الأرض».

وانقضت المرحلة الاستعراضية الأولى.. وتناثرت القوات المصرية بحالتها التى وصفها «على» «لسليمان» فى أراضى فلسطين.. بلا تدريب ولا أسلحة ولا ذخائر.. ولم يكن هناك من سبيل إلى إمدادها بالأسلحة والذخائر بعد الحظر الذى فرض عليها.. وانطلق سماسرة الأسلحة والذخائر يجمعونها من البقايا والمخلفات المبعثرة فى الصحارى، ومن الأسواق السوداء فى أوروبا، وكانت الحاجة ملحة عاجلة، وكان لابد من رفع القيود المالية المفروضة على وسائل الشراء. فقد كانت السرعة والضرورة تطغيان على الممارسة والتخير فى الأسعار والأصناف، وترك كل وسائل الشراء الحكومية ببطئها المأمون.. وكان الهدف الأول هو إعطاء القوات التى تكاد تهلك ظمأ إلى الأسلحة والذخائر ما يلزمها بأى ثمن وأية وسيلة، وفتح هذا الباب ــ باب تحطيم القيود المالية أمام

الحاجة الملحة ـــ طريق العبث لأصحاب النفوذ الضعيفة .. واندفعوا يغترفون من مال لا رقيب عليه ولا حسيب .. وأصبح لمعركة فلسطين وجهان : وجه يقطر دماً ومرارة وسخطاً ، ووجه يقطر مالاً ورضاء ونعيما .

وانتهت المعركة بالهزيمة كنتيجة حتمية لاندفاع طائش لا يستند على أسس .

وبدأت وزارة « عبد الهادى » التى خلفت وزارة « النقراشى » أول أعمالها بالهدنة ، وثنت بقطع دابر جماعة الإخوان ، وتشتيت شملهم ، واندفع رئيس الوزارة إلى القضاء عليهم اندفاعاً شديداً ، وهو يعتقد مخلصاً بخطورتهم على البلد ، وبضرورة التخلص من براثنهم الإرهابية وسيطرتهم الرجعية المتعصبة ، يؤيد هذا الاعتقاد ويقويه ، إحساسه الشخصى الطبيعى بالضغينة لمقتلهم سلفه وصديقه ، وتهديدهم لحياته هو .

وأنتجت سياسة التنكيل بالإخوان والارتباط بالقصر ومجرد الوجود فى الحكم نتائجها فى إحساس عام بالنفور من وزارة« عبد الهادى » .

وأحس « الملك » ومن حوله بالبغضاء تشتد ، والكرْه يتفاقم . ولم تعد حجب الولاء المفتعل ، التى ينسجها حوله الحكام والأتباع ، قادرة على حجب مساوئ « الملك » عن الشعب ، أو تذمر الشعب من « الملك » ، ووجد أن استمرار الارتباط بمجموعة الأحزاب الحاكمة السائرة فى ركابه .. لا يفيده سوى مزيد من بغضاء ، وبدا له أن يقدم بها كبش فداء للشعب .. وأن يستعيض عنها بقوة أخرى قد تكون ـــ رغم نفوره منها ـــ أقدر على منحه بعض التأييد الشعبى ، بعد أن استعادت شعبيتها بالبعد عن الحكم .

وهكذا ألقى « الملك » بضحية جديدة فداء له .. وفقد بتضحيتها آخر نصير كان يشدّ أزره ، ويمشى فى ركابه .

وأجريت الانتخابات .. ففاز الوفد ، وتقدم إلى الحكم على أساس جديد .. هو أن « الملك » ـــ خصمه التقليدى السابق ـــ قد أضحى بيده مصير الحكام .. وأن الشعب سنده الأول ، والإنجليز سنده الثانى .. لم يعودوا يملكان له ضراً

ولا نفعاً .

وأنه ما دامت الأقليات تستقر فى الحكم .. باسترضاء « الملك » .. فلن يكونوا هم أعجز منها على إرضائه ، والاستقرار بدلها فى مقاعد الحكم .

(٥٣)

شائعات

انتهى انتداب « علىّ » من الكلية الحربية ، وعاد إلى الخدمة فى السوارى كقائد لإحدى كتائب العربات المدرعة ، وكان يحب السوارى .. ويحس بين جدرانه وإصطبلاته وجراجاته طمأنينة المستقر ، وسكينة الموطن .. ويشعر لكل من فيه من ضباط وجنود ، وخيول وعربات ، بحنين المرء إلى الأهل والخلان .

وقرب « علىّ » — بحكم مركزه الجديد — من « سليمان » الذى كان يتولى قيادة إحدى كتائب الدبابات .. وكانت الآلايات المدرعة قد احتلت الثكنات الواسعة وراء السوارى ، التى أخلاها الجيش الإنجليزى بعد جلائه عن القاهرة .

وكانت الصلة بين « علىّ » و « كريمة » قد وطدها مرّ الايام .. وبدأ يشعر من وفائها وقناعتها وتفانيها فى حبه .. وخشيتها عليه .. بالكثير من الثقة والطمأنينة والإحساس بالجميل . ولم يعد يعتبرها مجرد دمية يشبع بها رغبة ويقضى بها حاجة .. ولا عاد يداخله من صلته بها شعور بالخجل أو الحياء .. وبات يجد فيها مخلوقة لا تعدم جوانب الخير ، ونواحي الفضيلة ، بمعانيها الواسعة التى لا تقتصر على مجرد الاحتفاظ بالجسد نقياً طاهراً .. كان يجد بها برّا بالمحتاج، وعطفاً على المسكين.. وكانت بها رقة وحنان، وميل إلى التضحية.. لم يكن «على» فيما مضى يتوقع مثل هذه الجوانب الطيبة فى مثل هذا النوع من النساء.

ولم يكن هناك شك فى أن مر الأيام الذى وطد صلته بكريمة ، قد أوهى تفكيره فى « أنجى » ، رغم انعدام الشبه بين الصلتين ، ورغم أنه لم يحاول قط أن يقارن بينهما ، أو يحل إحداهما محل الأخرى .

لقد وهى تفكيره فى « أنجى » .. وإن لم ينقطع .. ولم يكن قد بقى بينه وبينها سوى صلة التفكير ومناجاة الطيف وعتابه ، وزاد الطيف من نأيه ، ولكنه لم يرحل ، وظلت الموءودة فى القلب .. وإن تراكمت عليها أتربة الأيام التى تمر ، والبعد الذى يتزايد .

ومع كل هذا كانت باقية .. بقاء عزيز ناء تضمحل صورته ، ولا تمحى ذكراه .

ولقيها خلال تلك الفترة مرتين : رآها مرة من بعيد فى إحدى حفلات الفروسية ، وانصرف قبل أن تراه ، ورآها مرة أخرى فى إحدى الحفلات فى فندق هليوبوليس .. والتقى بصراهما برهة ، ثم غاب كل منهما عن الآخر .. وأحس فى المرتين ـــ رغم الزمن الذى مرّ ، والهجر الذى وقع ـــ أنها ما زالت سارية فى دمه .. راسبة فى أعماقه .

وتوفى أبوه بعد أن سرى الشلل إلى أطرافه حتى أقعده ، ودبت الشيخوخة ومرض السكر فى جسد أمه حتى أنهكها ، وما زال حلمها فى زواج ولديها يداعب رأسها .. وما زالت « بهية » قابعة بجوارها تحنو عليها حنو الابنة ، رافضة من تقدم إليها من « خُطّاب » .. مفضلة أن تبقى بجوار خالتها .. وأن تنتظر .. وتنتظر علّ الله يحقق أملا ما زال يراود نفسها منذ الصبا .

وجلس «على ، وحسين ، وسليمان ، » فى ليلة الذكرى الأولى بعد أن انصرف المعزون .. ودخلت الأم عليهم متسائلة :

ـــ أجهز لكم العشاء ؟

ونهض « سليمان » مستأذناً :

ـــ سأعود أنا .. فقد قاربت الساعة الحادية عشرة .

وجذبه « علّى » محاولا إعادته إلى المقعد :

ـــ اجلس ياأخى .

وضمت الثلاثة مائدة صغيرة فى الشرفة المطلة على سكة الحديد .. وكان

الوقت أوائل أكتوبر ، وقد بدأت نسمات الليل تبرد .. وقال « علىّ » :

ـــ لقد أوحشنا البرد .. وأوحشنا ركوب الخيل .. ما رأيك يا « سليمان » فى الركوب بعد الظهر ؟

ـــ والطوابير ؟

ـــ بعد الطابور .

ـــ لا أظننى أستطيع .. فلدىّ أعمال تشغلنى .

ـــ أية أعمال هذه التى تشغلك ؟! إنى لا أكاد أراك فى هذه الأيام ؟ .. ماذا وراءك ؟

ـــ أبداً .. أشغال مختلفة .

ـــ أما زلت تعمل فى تحضير الأرواح ؟

ـــ أجل .

وتساءل « حسين » :

ـــ أى أرواح تحضرون ؟

ـــ أرواح مختلفة .. بالأمس حضرنا مثلا روح سعد زغلول . ومصطفى كامل .

ـــ يا أخى .. حتى فى الأرواح تشغل نفسك بالسياسة .. ألا تودّ أن تريح نفسك ؟

وضحك « سليمان » ضحكة مريرة ساخرة وأجاب :

ـــ ولماذا أريح أنا نفسى .. وليس هناك فى البلد كلها إنسان يحس بالراحة ؟ إننا نسير من سىء إلى أسوأ .. ويعلم الله إلام يمكن أن ننتهى .

وضحك « حسين » وقال :

ـــ لن ننتهى .. لقد كنا دائما هكذا .. وسنظل كما كنا .. ماذا جدّ علينا ؟!

ـــ لا يا « حسين » .. لم نكن أبدا هكذا .. لقد كان الشعب دائماً يجد فى صفه قوة معارضة للطغيان والا ستبداد . كانت بالبلد ثلاث قوى .. الإنجليز ..

والقصر بأحزابه .. والوفد .. وعندما كان للشعب يواجه طغيان الإنجليز والقصر .. كان يجد فى الوفد سنداً يشد أزره ويجأر بشكواه ، وعندما واجه طغيان الوفد والإنجليز ، كان يجد فى القصر منقذه وملاذه .. أما الآن فأين يجد الملاذ بعد أن ائتلفت عليه العصابة .. حتى القلة المعارضة قد طردت من مجلس الشيوخ . بعد أن فتقت عن فضائح الأسلحة ومخازى الحاشية ، وأضحى البلد الآن صيداً حائراً بين الجشع الملكى والطمع الوفدى .. وقد تعلم الوفد ألا يشين نفسه بالسرقات الصغرى .. واستغنى عنها بمضاربات القطن ، والصفقات الدسمة .. وبات آمنا مطمئناً بعد أن اتفق مع القصر على سياسة « شيلنى وأشيلك » .

ورد « حسين » بلهجة الواثق :

ـــ القصر ليس له دخل فى شىء .. أنا أعرف جيداً ماذا يشغل الملك .. إنى أصحبه أحياناً فى بعض السهرات كحرس خاص .. وأعرف ماذا يفعل خلال الليل ، أى فى الساعات التى يكون فيها فى حالة يقظة .

ـــ أنت على نياتك يا « حسين ».أنت لا تبصر إلا جانب العبث والقمار واللهو .. ولكنك لا تعرف أن « الملك » وحاشيته مشتركون فى كل صفقات الأسلحة الفاسدة ؟

وبهت « على » وقال مستنكراً :

ـــ غير معقول .. إن « الملك » قد يرتكب كل معصية إلا السرقة .. لأنه متخم بالمال .. غير معقول أن « الملك » يسرق .

ـــ بل هذا هو ما حدث فعلا .. إن العنصر الفعّال فى قضية الأسلحة هو « الملك » ورجاله .. وإذا سرق « الملك » ورئيس الوزراء والوزراء .. فقد انهارت المثل .. ولم يصبح من حرج على أى إنسان فى الدولة أن يرتشى أو يسرق .. وأضحى البلد كله نهبة للأداة الحاكمة التى جعلت لتكون أمينة على أمواله .. لا يمكن أن يستمر الحال على هذا أبداً .. يستحيل أن يبقى زمام البلد فى

يد هذه الشرذمة الأفاقة .. ويستحيل أن يستمر بها هذا الحكم الذى ليس به من الديمقراطية شىء سوى بضع مئات من النواب والشيوخ ليس لهم من عمل إلا المحافظة على أطيانهم ، وحمايتها من الضرائب .. لا بد لهذا الحال من نهاية .. حرام أن يظل هذا الشعب يتمرغ فى الرغام ويتضوّر من الجوع والعوز .. لا ترعاه سوى عصبة عابثة لاهية ، تستحل كل نقطة من دمه .

ضحك « حسين » وقال ، وهو يدفع إلى « سليمان » بطبق الأرز :

— كل .. كل .. من يومك وأنت تبكى على الشعب .. ماذا يزعجك إذا كان الشعب نفسه قانعاً راضياً .. إن هذا هو ما تعوّده ، وما سيبقى عليه .

و لم يتكلم « على » ، لأنه كان يفكر فيما قال « سليمان » ويشعر بمدى ما فيه من صحة ... لم يتلق الكلام فى أذن ويخرجه من الأذن الأخرى ، كما كان يفعل معه دائماً .. إنه رغم نأيه بنفسه عن السياسة وتباعده عن الأحداث العامة ، يحس فى باطنه كثيراً من مرارة لذلك الفساد الشامل ، الذى عمّ البلاد وغمر الأداة الحاكمة ، وأحلّ لها العبث بمصالح الناس وأقواتهم ، بل بحياتهم .

ولكنه لم يكن يملك أكثر من هذا الإحساس السلبى بالمرارة والضيق، كلما قرأ أو سمع شيئاً عن الوقائع المخزية فى قضية الأسلحة أو فى مضاربات القطن أو فى غيرها من الفضائح الملكية والوزارية التى أخذت الألسن تلوكها والصحف تتغامز بها .

وبعد فترة صمت رفع « على » كتفيه وقال فى يأس واستسلام :

— لا فائدة .. « إذا كان رب البيت بالدف ضارباً » .

وأكمل « حسين » قوله ضاحكا :

— فشيمة أهل البيت كلهم .. النهب .

وأردف « علىّ » متمماً حديثه :

— ماذا يمكن إذا كان « الملك » كما تقول ، هو أسّ السرقة والفساد ؟

وأردف « سليمان » فى حماس وتأكيد :

— أجل .. إنه السارق الأول .. والفاسد الأول .. والعابث الأول .. والمقامر الأول .

وقال « حسين » متمماً :

— والحاكم الأول .. والمسيطر الأول .. ليس عليه إلا أن يرفع إصبعه لكى يخر أمامه الزعماء سجداً ، ويسبحوا بحمده .. ويخلعوا عليه أسماء الله الحسنى .

وتمتم « علىّ » فى أسف :

— تلك هى العلة .. ليس هناك من يستطيع مقاومته .. أو معارضته .

وردّ « سليمان » قائلا :

— بل أضحت هناك بعض المعارضة على صفحات الصحف ، وأظن العريضة التى قدمت إليه من زعماء المعارضة .. دليلا على وجود الوعى المعارض .

وأجاب « حسين » :

— أهذه معارضات ؟! . إنها صرخات فى واد .. وليس هناك أسهل من إسكاتها .. ما دام الحكام صاغرون ، حريصون على إرضائه بما يشاء من قوانين تحميه ،وتضمن له السلامة .

وأردف « سليمان » :

— لا .. لا .. ليس الأمر بمثل هذه السهولة .. إن الشعب كله يغلى بالغضب .

وضحك « حسين » قائلا فى سخرية :

— لا تأبه كثيراً للشعب .. فليس أسهل من إسكاته ببضع عصى أو ببضع طلقات .. ما دام الجيش فى قبضة « الملك » .. فلا تأبه كثيراً لغضب الشعب .

وأجاب « سليمان » فى ضيق :

— إن الجيش ليس فى قبضة « الملك » .. ولن يكون أبداً سوطاً فى يده يلهب به ظهور الشعب .

وردّ « عليّ » فى أسى :

ـ ولكنه كذلك يا « سليمان » .. ولن يغيرّ قولك ولا حماسك من الأمر الواقع شيئاً .

ـ إذا كان الأمر كذلك .. فيجب ألا يكون كذلك .. إن الشعب كله ينظر إلى الجيش كمنقذه الأوحد ، بعد أن تكالبت عليه كل عناصر الفساد ، واتحدت عليه كل قوى الشر .. لا بد من أن يكون هناك سند للشعب .. ويجب أن نكون نحن هذا السند .

واعتبر « عليّ » حديث « سليمان » تتمة لأحاديث الحماس التى كان يطلقها من صدره ، و لم تكن أكثر من تفريج للثورة المكبوتة بين جوانحه .. و لم يجد هناك مبررا لمناقشته.. لأنه اعتبره نوعاً من الهذيان الحماسي، لا يقصد به معناه الحقيقى .. ولكنه يلقى على سبيل التمنى المستعصى ، والرجاء المستحيل .

وانتهت الجلسة ، وغادر « سليمان » البيت .. وقبل أن يأوى الأخوان إلى فراشهما لم تنس الأم أن تنشر عليهما الغطاء ، وتحكم غلق النوافذ ، كأنهما لا زالا طفلين .. وتتمتم لهما ببعض دعوات ، ختمتها بقولها التقليدى :

ـ ربنا يرزقكم بابنة الحلال ، ويجعل لواحد منكم نصيباً فى « بهية » .. ليتنى أفرح بزواجكما قبل أن أموت .

وعلقت الجملة الأخيرة فى ذهن « عليّ » ، وهو يسحب الغطاء على رأسه ، ويبرز منه أنفه .

ووجد نفسه يفكر فى أمنية أمه الدائمة المستعصية .

لماذا لا يحاول الزواج ؟! . أو يحاول مجرد التفكير فيه ؟!

وأحسّ بالطيف النائى يلم به من بعيد فى خشية وحذر ، وأحس بالموءودة فى قلبه ترتجف وتهتز .

أيمكن أن تكون الموءودة أو طيفها أو ذكراها ، هى التى تصدّه عن مجرد التفكير فى الزواج ؟! أيمكن أن يكون قانعاً بصلتها الروحية التى لا تنفصم ..

مستغنياً بها عن غيرها من الصلات ، التى جرى بها العرف الواقعى ؟!

أيمكن أن تكون فى نفسه بارقة من أمل خفى ، لم يزل يراوده وسط هذه الظلمات ، الجاثمة من اليأس ؟!

من يدرى !! ربما .

إن الشىء الذى يستطيع أن يجزم به هو أنه لم يحس حاجة إلى الزواج ، أو دافعاً إلى التفكير فيه لحظة ما .

ولكن ترى ما هو السبب ؟ أهى الموءودة وحدها ؟!

أهى حقاً التى أغنته عن الزواج ؟!

وقفزت إلى ذهنه صورة « كريمة » بجسدها اللين الدافئ ورغبتها الحارة الدائمة المشبعة ، وحبها المريح الطيع الوفىّ .

ألا يحتمل أن تكون هى الأخرى سبباً لعزوفه عن الزواج بعد أن هيأت له كل وسائل الاستمتاع الجسدى ؟

بل ألا يحتمل .. أن تكون أمه .. و « بهية » نفسها .. سبباً آخر معاوناً للأسباب السابقة .. فى قناعته بحالته ، وعدم إحساسة بالحاجة إلى الزواج بعد أن دبرتا له حياته ، وهيأتا له ما يحتاجه من مسكن ومأكل ، وحياة منزلية مستقرة مستريحة ؟!

وقفزت إلى ذهنه .. صورة « بهية » .

عجباً له !! لماذا لم يحاول مرة واحدة أن يبصر فيها أكثر من أخت ؟! لماذا يستبعدها دائما من نطاق تفكيره كأنثى ! لماذا لم يخطر له على بال قط .. أن يكون هو المعنى بقول أمه .. « ربنا يجعل لواحد منكم نصيباً فى بهية » ؟!

أليس هو يمثل ذلك « الواحد » من الاثنين اللذين تقصدهما الأم فى أمنيتها ؟

لِمَ يلصق الدعوة فى تفكيره دائماً « بحسين » ؟

ألأنه مشغول الروح والجسد ؟! ولكن أيمكن أن يكون أخوه أقل منه انشغالا؟!

أم لأن « بهية » نفسها .. قد وقفت نفسها على « حسين » ؟

أجل .. هذا هو السبب .

إنه يوقن تماماً .. من أن « بهية » تحب « حسين » ، وهو ينظر إليها دائماً كأنها شيء من متعلقات « حسين » .. بل و « حسين » نفسه يحس بذلك ويؤمن به .. ولكنه يعتبرها متاعاً .. ليس به إليه حاجة .. ويعتقد أنه يثقل حركته ، ويقيد حريته .. وهو يأبى إلا الانطلاق خفيفاً متحرراً .

وانتهى به التفكير إلى أن يرفع الغطاء عن رأسه ، ويقول « لحسين » ببساطة كأنما كان يشاركه تفكيره ومناقشته لنفسه :

ـــ « حسين » .. لماذا لا تتزوج « بهية » ؟

ودهش « حسين » من سؤال أخيه المفاجيء ، ورفع الغطاء عن رأسه .. وحملق تجاهه فى الظلمة .. ومضت برهة قبل أن يجيب « حسين » متسائلا فى سخرية :

ـــ لماذا لا تتزوجها أنت ؟! إنك الأكبر ، والأحق بالزواج .

ـــ ولكنها تحبك أنت .

ـــ أيتحتم على كل إنسان أن يتزوّج من يحبه ؟

ـــ ولَمَ لا ؟!

ـــ إن « كريمة » تحبك .. لِمَ لا تتزوجها إذن ؟

ـــ « كريمة » شيء .. و « بهية » شيء آخر .. « كريمة » لا يهمها أن تكون زوجة .. إنها لا يرضيها أكثر مما هى فيه .. لا أظنها تفكر أبداً فى الزواج ، لأنها لا تستغنى عن حياتها العامة ، ولا عن عملها على المسرح أو الشاشة .

ـــ من قال لك هذا ؟! أتعلم أنها قد فضت من حولها كل أصحابها وعشاقها ـــ ومن ضمنهم أنا ـــ وقطعت كل صلة بنا منذ عرفتك !! أتعلم أنها تتصرف دائماً كأنها امرأة متزوجة فاضلة .. وأن هذا أفقدها الكثير من الأرباح والأفلام !! كل هذا من أجلك .. ومن أجل وفائها الأحمق لك .

ـــ لى أنا ؟

ـــ طبعاً لك أنت . لقد أضحت بغباوتها امرأة فاضلة ، والمرأة الفاضلة فى الأوساط الفنية تفقد الكثير من مواهبها .

ـــ ولكنى لم أطلب منها هذا .. إنى لم أسألها شيئاً .. وهى لم تحاول مرّة أن تفرض علىّ أى نوع من الارتباطات . إن أحدنا لا يقيد الآخر بأى شيء .. إنها تبدى منتهى الرضا عن علاقاتنا بحالتها الراهنة التى لا تزيد عن زيارات خفية لا يدرى بها أحد .

ـــ أنت على نياتك جداً يا « على »أتظن حقاً أن علاقتك بها خفية لا يعرفها أحد .. إن الناس كلهم يعرفون ما بينكما ، لقد قويت إشاعة زواجكما ، حتى كدت أنا أن أصدقها ، ويبدو لى أن خير ما تفعل لكى تقضى على تلك الشائعات هو أن تنصرف عنها وتستبدل بها أخرى .. خذها نصيحة منى ، لا تطل علاقتك بهذا النوع أبداً .. فهو يجرّك برغمك إلى التزامات وقيود لا قبل لك بها .. لا تلتصق بواحدة .. بل تنقل بينهن .

وبدأت المسألة تدور فى رأس « على » .. لقد كان دائماً يأخذها مأخذاًسهلا ، مجرد علاقة ترضيه دون أن تكلفه ثمناً ، أو ترهقه عسراً .. وكانت هى كريمة معه بحيث لم تحاول أن تثقل عليه بطلب أو بقيد .. واستطاعت بذلك أن تحتفظ بعلاقتها معه طوال هذه المدة ، دون أن تحمله من أجلها أقل تفكير أو حساب .

لم يطف بذهنه من قبل هذه اللحظة أن تتطور علاقتهما معاً إلى ارتباط بزواج .. لقد كانت توفر له فى الأوقات التى يقضيها معها أقصى أسباب الراحة والمتعة .. و لم يذكر قط أنه ضاق بها أو ملها .. ولكنه رغم ذلك لم يحاول أن يضعها موضع الزوجة .. فقد كانت الفكرة أبعد وأكثر استحالة من أن تدخل فى نطاق تفكيره .. بل لم يكن هناك قط ما يدعو إلى هذا التفكير من جانبها أو من جانبه .

ومع ذلك .. فها هو أخوه يحدثه عن شائعات زواجه بها وينصحه أن يستبدل

بها أخرى ويدفع به إلى التفكير فيها بطريقة أكثر جدية وأشد عمقاً .

ولكن أيستطيع حقاً ، هو أن يستبدل بها أخرى بنفس السهولة التى يفعلها أخوه ؟! أيستطيع هو التنقل كالنحلة من هذه إلى تلك ؟!

أيمكن أن يعتبر علاقته « بكريمة » .. مجرد علاقة شهوة عابرة ، تستطيع أية امرأة أن تمنحه إياها !؟

قطعاً لا .

إن « كريمة » تعتبر بالنسبة إليه أكثر من هذا .

قد يكون لا يحبها .. حبه للطيف النائى ، والموءودة الراقدة ، وقد تكون المقارنة بينهما لا محل لها فى قلبه أو فى ذهنه .

ولكنه رغم ذلك يحبها ، ولا يستطيع أن ينكر أنها أقدر الناس على منحه الراحة والثقة والطمأنينة ، وأنها تزيد كثيراً عن مجرد جسد يفرغ فيه رغبته ، وأنه يلمس فى قرارة نفسها عندما يهدأ كل منهما إلى صاحبه أشياء كثيرة طيبة ، راسبة فى أعماقها قد لا يدركها عابر سبيل ، لا يلمس منها سوى السطح المعربد العابث .

وهو .. لو كان خلىّ القلب .. مطلق سراح الروح .. أو لو كانت لديه الجرأة على ركل آراء الناس وقطع ألسنتهم .. لما وجد أصلح منها بين نساء الأرض ، لكى تكون زوجة له .

وبهذا التسلسل فى المنطق ، والتطور فى التفكير .. بدت له فكرة الزواج غ مستبعدة ولا مستبشعة .. بل أكثر من هذا بدا له أن هجرها واستبدالها خوفاً م الشائعات ، هو الجبن المستبعد ، والخسة المستبشعة .

ولم يجد رداً على أخيه ، خيراً من أن يغمض عينيه ، ويضع غطاءه على رأسه .

ومنذ تلك الليلة لم يعد « علىّ » يحاول أن يتكتم علاقته « بكريمة » . ولم يعد يشعر بحرج ولا خجل من زيارته لها ، بل بات يحس بأن لها حقوقاً قبلَه ، والتزامات عليه .

★ ★ ★

وفى تلك الفترة بدأ الوفد يحس أن القصر قد أخذ فى التخلى عنه . وأنه قد بات بلا سند ، كما أحس القصر أن الوفد بترامیه على أعتابه واندفاعه وراء أسلاب الحكم ومغانمه .. قد فقد شعبيته التى كان قد استرد بعضها فى فترة إبعاده عن الحكم ، تلك الشعبية التى كان القصر يأمل فى أن يستعين بها على تغطية مباذله ومخازيه .

وهكذا وجدت كل من القوتين الحاكمتين الناهبتين السالبتين نفسها وحيدة مزعزعة معلقة فى الهواء ، وأخذت كل منهما تبحث عن سند ، بعد أن تبين لهما أن استناد كل منهما إلى الأخرى قد أودى بكليهما إلى أسفل سافلين .. وبعد أن حق عليهما المثل : « جبتك يا عبد المعين تعينني ، لقيتك يا عبد المعين تنعان » .

وهكذا وصل تعاون القصر والوفد — على الإثم والعدوان — إلى نهايته .. وأعطى كل منهما ظهره للآخر ، وبدأ يبحث عن سند يتشبث به .. أو قوة تشد أزره .. وكانت القوتان الباقيتان من القوى الأربع التى فى البلد .. هما : الشعب والإنجليز .. وكان من البديهى أن يتجه كل منهما إلى القوة المضادة للقوة التى اتجه إليها الآخر ، فى عام ١٩٤٢ - عندما استند الوفد إلى الإنجليز .. اتجه القصر — بالطبيعة — إلى الشعب .. ولكن يبدو أن الاتجاه إلى الشعب فى هذا الوقت ، وبعد أن فضحت كل مخازى القصر ، قد أضحى فى حكم المستحيل ، ولم يكن هناك بد ، والأمر كذلك ، من الاتجاه إلى القوة الأخرى التى لم يكن فى استمالتها شىء من التعذر والاستحالة .. وبدت مظاهر هذا الاتجاه فيما بعد فى تعيين « حافظ عفيفى » صاحب الآراء الواقعية الصريحة والميول الجدية المستقيمة فى الاتفاق مع الإنجليز رئيساً للديوان و « عبد الفتاح عمرو » مستشاراً للملك .

ولم يجد الوفد .. سوى وجه الشعب .. ملجأ أخيراً .. فانحرف إليه .. انحرافاً مفاجئاً .. وتغيرت سياسته .. من تقبيل يد « الملك » .. إلى محاولة تقبيل يد الشعب .

ولم يكن استرضاء الشعب ، وكسب تأييده بالشىء الهين السريع ..

كاسترضاء القوتين الأخريين : الإنجليز و « الملك » . وكانت الحاجة إلى الاسترضاء ملحة عاجلة .. لا يمكنها انتظار الثمرة الطبيعية الناضجة ، لأية مشروعات إصلاحية جدية ، قائمة على صدق النية ، وحسن الاستعداد .

ولذلك لم يكن هناك بد من خبطة سريعة عشواء .. وحركة بهلوانية ، مثيرة خلابة ، تبهر الأنظار ، وتفغر الأفواه .

وكان إلغاء معاهدة ١٩٣٦ هو خير الحركات المسرحية الرائعة التى ألقى بها الوفد نفسه بين أحضان الشعب .

وهكذا قفز الوفد .. من أقدام « الملك » .. إلى رؤوس الشعب ، ووجد نفسه فى خضم متلاطم ، لم يتأهب لخوضه ، وأحس بصيحاته تتضاءل بجوار صيحات الشعب ، وخطواته عن اللحاق به .. ووجد رؤوس الشعب الذى تعوّد أن يسرقها سوقاً سهلا هيناً ، قد أضحى منها على صهوة جواد جامح منطلق فى عنف ، إلى كفاح جدّى ؛ لم يخطر له ببال ، ولا أعد العدة له .

و لم يكن هناك شك فى أن الوفد نفسه .. كان من أشد الناس حيرة ومفاجأة ، بنتيجة ما فعل ، وبدا فى حيرته وارتياعه كمطلّق سراح مارد من قمقم ، لم تعد له أمنية أكثر من أن يعود المارد إلى قمقمه .

ولكن إعادة المارد كانت أمنية مستحيلة .. و لم يجد الحكام المرتاعون بدأ من أن يعدوا وراء الشعب ، مهرولين فى أعقابه .. حائرين فى تصرفاتهم بين تدير الحاكم المسئول ، وحمق الثائر المندفع .. وبدأوا يصدرون أوامرهم من مقاعد الحكم ، بعقلية قواد المظاهرات .. وتوالت أوامرهم البلهاء لرجال البوليس أشباه العزّل ، بأن يقاتلوا الإمبراطورية البريطانية لآخر طلقة .. ولآخر رجل .. ولآخر دقيقة فى حكم الوفد .

---

(٥٤)

وراء سراب !

وقف « على » مع بقية الضباط مصطفين فى ساحة عابدين داخل أسوار القصر ، وقد واجهوا الشرفة الرحبة المطلة على الساحة فى انتظار خروج « الملك » لتقديم فروض الولاء والتهنئة بولادة ولى العهد من الملكة الجديدة .

و لم يستطع « على » أن يتخلف كعادته ، فقد كانت الأوامر مشدّدة بالتتميم على الضباط ، لضمان حضورهم بأكبر قوة ، كمظهر من مظاهر الولاء المطمئن فى هذه الظروف الحرجة القلقة ، التى علت الهتافات العلنية الصريحة ضد « الملك » ، واشتدت فيها حملات الصحف المتطرفة ، وأضحى « الملك » فى حاجة إلى مزيد من الطمأنينة والثقة وإلى أن يتحسس سيفه المصلت على أعناق الشعب .. لكى يتأكد من وجوده بجواره ، ومن سيطرته على قبضته .

و لم يكن أسهل على رياسة الجيش من أن تصف له الضباط بسذاجة فى ساحة القصر .. موقنة أنها قد ضمنت بذلك الاصطفاف التأييد التام والولاء المطلق .. و لم يعد عليها إلا أن تتلقى رضاء « الملك » ، وتستريح ناعمة البال فى مقرها .

وبدا « الملك » فى الشرفة .. بجسده الضخم المنتفخ ، أو كما قيل فى الصحف وقتذاك .. أشرقت طلعته ، وهلت أنواره . وصرخ القائد العام فى الضباط « انتباه » ورفع يده بالتعظيم ، وبعد لحظة صاح الملك منادياً :

— حيدر !

وانطلق القائد العام يعدو ، حتى وصل إلى أسفل الشرفة ، وأردف « الملك » يصيح بصوته الضخم :

ـــ قل للضباط إنه ليس لدىّ ما أهديه إليهم فى هذه المناسبة سوى .. ابنى .

و لم يعرف ما إذا كان بأذنى القائد العام ثقل فى السمع ، أم أن الهدية نفسها لم تكن مفهومة .. فقد وقف الرجل وقفة الحائر الوجل ، مما اضطر « الملك » أن يكرر نطقه السامى ويؤكد « الهدية » .

وعاد القائد العام يكرر على الضباط ما قاله « الملك» .

و لم يكن « على » قد فهم معنى الهدية .. ولا أدرك مظاهرها ، أو النتائج المبنية عليها .. ويبدو أن بقية الضباط لم يكونوا يزيدون فى ذكائهم عنه ، أو عن القائد العام .. فقد أخذوا يتهامسون متسائلين .. وقال سليمان لعلىّ فى سخرية وهما يسيران إلى موقف العربات :

ـــ مبروك يا على .

ـــ على أى شىء ؟

ـــ على الهدية الملكية .. ألم يهد « الملك » ابنه إليك ؟!

ـــ إلىّ أنا ؟!

ـــ طبعاً .. ألست ضابطاً فى الجيش .. إن لك فيه قطعة .

ـــ لم أفهم معنى الإهداء .

ـــ إهداء معنوى .. ككل هداياه .. يعطى معنوياً .. ويتسلم مادياً .. يهدى رتباً ونياشين ، ويقبض نقوداً .. ألا تذكر ما جمعه من هدايا الزواج الملكية ؟ لقد أصرّ على أن تكون كلها ذهباً ، حتى يحولها إلى سبائك .

ـــ لست أدرى ما حاجته إلى كل هذا ؟

ـــ إنه مرض .. لا يمكن أن يكون رجلا سليما .. لا بد أن يكون مجنوناً .. تصوّر بلداً يحكمها مجنون .. مغرق فى جمع المال والقمار والعبث مع الراقصات ؟! غير معقول أبداً أن يستمر الأمر على هذا الحال ، أؤكد لك أنه ...

وقاطعه « على » :

ـــ لا داعى لهذا الآن يا سليمان .. ليس هذا وقته .. الضباط كثيرون من

حولنا .

ـــ الضباط كلهم يحسون ما نحس .. إن نفوسهم حانقة ثائرة .. ألم تقرأ منشورات الضباط الأحرار ؟!

ـــ قرأت بعضها .

ـــ ماذا وجدت فيها ؟

ـــ وجدت فيها ما يعبر عما بنفوسنا من إحساس بالسخط .. ولكن ماذا يمكن أن تفعل بضعة منشورات يصدرها بعض الضباط ؟

ـــ بعض الضباط !! .. لقد أضحى الجيش كله ضباطاً أحراراً .. وسترى قدرتهم فى السيطرة على انتخابات نادى الضباط .

ـــ ومن أدراك أن لهم دخلا فى هذا ؟!

ـــ لأنى واحد منهم .

ونظر إليه « على » وقال فى شىء من الدهشة :

ـــ حقاً !! .. كان يجب أن أتوقع هذا .

ـــ لقد فكرت بضع مرات أن أضمك إلينا .. ولكنى تردّدت لأنى لم أجد فى تباعدك وانطوائك ، وعدم مبالاتك بالحالة التى وصلنا إليها .. ما يشجعنى على ذلك . ولكن ...

وضحك « على » وأجاب قائلا :

ـــ وحسناً فعلت .. فأنا أكره التدخل فيما لا يعنينى .

ـــ أيها الغبىّ .. أتعتبر إنقاذ البلد .. أمراً لا يعنيك ؟

ـــ لا أعتقد أن فيما تفعلون إنقاذاً للبلد .. أنت تعلم منذ أن كنا فى ثانوى أنى أكره إضاعة الوقت فى المظاهرات والتدخل فى كل ما له صلة بالسياسة .. ولا أظننى الآن أكثر استعداداً للاشتراك فيما لا جدوى وراءه ، ولا ....

ـــ قاطعه « سليمان » فى يأس :

ـــ انتهينا .. لا فائدة منك .. لقد كنت دائماً أتوقع ردّك هذا .

ووصلا إلى العربة « البيك آب » وقال سليمان متسائلا :
— إلى أين ستذهب ؟
— إلى الدقى .
— ولمه ؟
ولم يجد « على » موجباً للإخفاء فقال ببساطة :
— سأزور كريمة .
ولم يبد على سليمان الارتياح وقال ناصحاً :
— ألا تنوى أن تضع حداً لعلاقتك بها ؟
— ولمه .
— لأنها توشك أن تلوث سمعتك .. إن لم تكن قد لوثتها فعلا .. إن ألسنة السوء تشيع أنك قد تزوجت بها ؟
— وماذا فى ذلك إذا كان قد حدث ؟! أنا لا أجد هناك حاجة لألسنة سوء كى تعمل على تزويجى .. لأنى لا أجد به سوءاً .
— ماذا تقول ؟! أتمزح ؟
— أبداً .. إنى لا أجد فى الزواج منها أى حرج أو عيب .. وأؤكد لك أنى لن أتوانى عنه .. إذا ما أحسست أنها ترغب فى ذلك .
— لا بد أن تكون قد جننت . أنت تتزوج راقصة ؟ إنك ستهدم مستقبلك وستطيح بسمعتك .. وأؤكد لك أنى سأكون أول من يقطع صلته بك .. أتظننى أقبل أن تدخل بها بيتى وتجلسها مع زوجتى ؟!
— يا أخى لا ضرورة لأن أدخلها بيتك ، أو أجلسها مع زوجتك .. إنى أنا الذى سأتزوجها ولست أنت .. وعلى أية حال دعنا من هذا ، فلا موجب لأن نتخاصم على شىء لم يحدث .. هيا بنا .
واتجهت العربة إلى الدقى ، ووقفت أمام إحدى العمارات المطلة على النيل .. وهبط « على » مودعاً « سليمان » وحمله المصعد إلى شقة « كريمة » التى انتقلت

إليها أخيراً .

فتحت « كريمة » الباب واجتازه « على » إلى الداخل ، وكان الوقت قبيل الغروب .. وصقيع يناير قد أخذ يلسع الأطراف وينفذ إلى العظام .

وأحس « على » من دفء المكان وسكينته بالكثير من الراحة والهدوء ، ولم تكن الشقة رحبة الأرجاء .. إذ كانت لا تزيد عن ثلاث حجرات : حجرة للنوم يصلها بالحمام ممر صغير ، وحجرتين يفصل بينهما باب زجاجى متسع وضع بهما الصالون والسفرة ، وصالة صغيرة بها مدفأة فى الحائط أحاط بها مقعدا « فوتيل » كبيران ، وعلقت فوقها لوحة زيتية مكبرة من صورة « لعلى » يمتطى جواده فى أحد طوابير الخيالة .. ولم تكن تلك الصورة هى الأثر الوحيد « لعلى » فى الدار .. إذ لم تخل حجرة من صورة له معلقة أو فى برواز على قاعدة ، وكان هناك دولاب مخصص لأمتعته ، ورف رصت عليه بعناية بعض كتب ومجلات جلبها للقراءة فى المرات السابقة .

وتناولت « كريمة » الكاب الذى رفعه « على » عن رأسه ووضعته على مشجب فى الممر القصير الكائن بجوار الباب ، ثم مدت ذراعيها مرحبة ، وقد بدت على وجهها أقصى أمارات الوله والحب ، وضمها « على » إليه فى رفق .. ولكن الضمة الرقيقة لم تطفىء غلتها .. فأحاطت صدره العريض بذراعيها وضمته إليها بكل ما لديها من شوق ولهفة .. ورفعت إليه شفتيها فى نهم .. فألصق بهما شفتيه بنفس الطريقة الهادئة المترفقة المجاملة .. ثم ما لبث حتى تخلص منها برفق متقدماً إلى الصالة ، ثم جلس مسترخياً على أحد المقاعد المريحة أمام المدفأة .

ووقفت « كريمة » ترقب ملامحه ، وقد علتها سمة تجهم وشرود .. وبدت فى وقفتها ممشوقة القدّ ، ملفوفة الجسد فى بلوزة من الصوف السماوى ، ذات الياقة المغلقة العالية ، التى تعودت دائماً أن تحيط بها عنقها ، وحزام عريض أسود لمّ خصرها .. وجيب كاروهات رمادى الأرضية ، أزرق الخطوط .

واقتربت منه ، وجلست نصف جلسة على حافة المقعد ، وأحاطت عنقه

بيسراها ، وأخذت تعبث بشعره مترفقة بأنامل يمناها ، وقالت فى حنو :

ــ تبدو مرهقاً مكدوداً .

وأجابها وهو مستمر فى استرخائه وشروده محملق فى فراغ المدفأة الأسود :

ــ لم أسترح منذ الصباح .

ــ ولمه ؟

ــ أعمال وتشريفات .. لقد أضحى نصف وقتنا ضائعاً ، فى رفع فروض الولاء للقصر .

ــ ولكنك لم تتعوّد أن تذهب إلى هناك ؟!

ــ لم يعد هناك مفر من الذهاب بعد هذا التدقيق والتأكد والتتميم .. لقد أمضينا ساعتين ، ونحن وقوف فى ساحة القصر لتسلم الهدية .

ــ هدية !!؟ .. أية هدية ؟

ــ الهدية الملكية .. لقد أهدى إلينا ابنه .. لقد قال « سليمان » إنه يهدى معنويات ليقبض ذهباً .

ــ لقد خسر بذلك كثيراً .. إن الشعب بات يكرهه .

ــ طبعاً .. لقد خسر الشعب نقوده .. وفقد هو كل معنوياته .

ــ أسمعت عن مظاهرات الجامعة التى حطموا فيها صورة « الملك »؟ أترى تبلغه الهتافات المعادية التى ينادون بها ؟

ــ لا أظن . إن ألسنة المنافقين تحوّلها إلى هتافات بحياته .

ــ على أية حال دعنا منه .. ليحيا .. أو ليسقط .. قم وأبدل ملابسك . سأعدّ لك حماماً ساخناً يزيل عنك متاعب اليوم ، ثم أعد لك الشاى بعد ذلك ، لقد صنعت لك قالب « الكريم كرامل » الذى تحبه ، وسأوقد لك المدفأة ، وأشوى لك « أبو فروة » ما رأيك ؟

وأذابت حرارة حماسها جليد همومه ، وبددت رغبتها الأكيدة فى الإمتاع والاستمتاع غيوم الضيق ، وسحب القلق التى أحاطت به .

وأحس بحاجته إلى كل ما أعدت له .. الحمام .. الشاى .. والكريمة .. وأبى فروة .. إن خير ما فيها هى أنها تعرف دائماً ما يحتاج إليه .

وقفزت من حافة المقعد .. وخفت إلى الحمام .

و لم تكن تستبقى فى ليلة زيارته أحداً من الخدم .. كانت تكره أن يشاركها فى خلوتها به مخلوق .. وكانت تحب أن تستأثر بخدمته .. وتجد فى هذا الاستئثار متعة الامتلاك. إذ يدخلها إحساس ممتع بأنها زوجته .

وترك « علىّ » مقعده ووقف وراء زجاج الشرفة المطلة على النيل ، وانحسرت الستارة الأورجاندى الرقيقة عن المجرى العريض ينساب فى أنساة ورفق ، وبدت أشباح الدور فى الجانب الآخر من الشاطئ ، وقد علاها شريط داكن معرّج من جبال المقطم تتوسطه القلعة ، تعالت فيها المآذن ، شاحبة فى ظلمة الغسق ، وظلال السحب الداكنة .

وتدافعت عليه بضع مرئيات ذهنية .. دفعها إلى ذهنه منظر القلعة .. الذى جرّ وراءه ما جاوره من مقابر .. شيّع إليها أباه .. وبدا له أبوه فى جهاده ومطامحه .. وفى شلله ، وفى وفاته .. ثم بدت له أمه .. وجرت أمه « بهية » .. وجرّت « بهية » « حسين » .. واتباع « حسين » نصيحته ، ثم نصيحة « سليمان » وتحذيره .

وأوقف شريط المرئيات المتتالية صوت « كريمة » وهى تنادى عليه :

ـــ الحمام جاهز .

واستدار « على » ونفخ بأنفه كأنما يطرد ما خلّفته ذكرى النصائح ، والتحذيرات ، من ضيق وقلق ، واتجهت « كريمة » إلى حجرة السفرة فى نشاط ، وهى تردف قائلة :

ـــ سيكون الشاى معداً بمجرد خروجك من الحمام .

وعندما انتهى « على » من الحّمام كانت المدفأة قد اشتعلت ، ومنضدة الشاى الصغيرة المتحركة قد صفت عليها أدوات الشاى ، ووضعت بين

المقعدين .

وجلس « علىّ » مسترخياً فى مقعده ، وتناول فنجان الشاى يرشفه فى هدوء ، وأحس بأنه قد بات أكثر استعداداً لاستقبال نعم الحياة والاستمتاع بها .

وكانت « كريمة » تعرف الجو الذى يرتاح له « علىّ » . كانت تعرف أنه يكره العربدة والضجيج ، وقد عوّدت نفسها أن تحب ما يحب ، ولم تعد تشعر ـــ كما كانت تشعر فيما مضى ـــ بالحاجة الملحة إلى كؤوس الخمر ، لتهيئها لاستقبال المتع .. بل أضحى الشاى والمدفأة والجلسة الشاعرية الهادئة ، أقدر على إرهافها من كل عناصر الإرهاف المعربدة ، التى تعوّدتها فيما مضى .. وباتت توقن أن أدوات الإرهاف كلها سواء ، وأنّ قدرتها كائنة فيما يتوهمه المرء فيها وما تعوّده منها ، وأن أصل الإرهاف كامن فى النفس وفى الرغبة ، أكثر مما هو كامن فى العناصر المسببة له ، وقد يتساوى فعل كأس من الخمر مع فنجان من الشاى ، مع أريج عطر .. مع لا شىء .. فى تهيئة نفوسنا .. مادامت بنا رغبة فى الاستمتاع ولهفة عليه .

وكانت « كريمة » ما زالت متشاغلة بترتيب ملابس «على » وتجفيف الحمام ، وهتف بها « على » يدعوها إليه :

ـــ ألا تنوين الحضور .. أم ستتركيننى أتناول الشاى وحدى ؟

ـــ سآتى حالا .

وقبل أن تتخذ مجلسها بجواره ، قالت وهى تتجه إلى حجرة الصالون :

ـــ لقد أعددت لك مفاجأة ستطربك .

ـــ ما هى ؟!

ـــ انتظر لحظة .

وأخرجت من أحد الأدراج أسطوانة وضعتها على البيك آب ثم أدارتها .

وسمع « على » الموسيقى التى تسبق قصيدة « جبل التوباد » .

وبدا الفرح على وجه « على » وسألها فى دهشة :

ــ متى أحضرتها !! وما الذى جعلك تفكرين فى إحضارها ؟

ــ أعرف أنك تحب قصائد شوقى وعبد الوهاب .. وقد سمعتك آخر مرة تترنم بمطلع هذه القصيدة .. فصممت على أن أفاجئك بها .

وبدأت القصيدة .. ونهضت « كريمة » فأطفأت النور ، ثم عادت إلى مكانها ، وتناولت فنجانها ترشفه فى صمت .

و لم يكن هناك ما يمكن أن يرهف أحاسيس « على » أكثر من هذا الجو الذى أحاطته به « كريمة » .. الألسنة الحمر ، المتراقصة فى جوف المدفأة .. والصوت الشادى العميق يهتف « وسقى الله صبانا ورعى » .

وأحس « على » بالطيف النائى .. يدنو رويداً رويداً .. وكأن بينه وبين اللحن المترنم ، والجو الصامت الخاشع تقارباً وانسجاماً .. وبدت ألسنة النيران المتراقصة كأنها الشعر الذهبى تحركه النسائم ، وقد جسد له الحنين المفرط والشوق العائد ، الطيف الدانى المقترب ، حتى لكأنه يجلس بجواره ، وكأن الأنامل المطبقة على الفنجان أنامله ، والشفتين المرتشفتين شفتاه .

وخيل إليه أن الطيف يهمس مع الصوت الشادى :

« وخططنا فى نقا الرمل فلم تحفظ الريح ولا الرمل وعى »

وظل مغرقاً بكل ما يملك من أحاسيس مرهفة فى شروده اللذيذ ، وحلمه الممتع ، والطيف الجميل الجالس بجواره يسمع له ويهتف به ، حتى انتهى الشادى إلى قوله :

« كم يهون العُمر إلا ساعة وتهون الأرض إلا موضعا »

وساد الصمت .. وتطلعت « كريمة » إلى الوجه المطرق بجوارها .. وقد بدت ملامحه فى ضوء المدفأة الباهت ، وبه شرود شديد ، وكأن الأنشودة قد حملت صاحبها بعيداً .. بعيداً .. إلى الساعة التى لم تنس ، والموضع الذى لم يهن ، والطيف الذى لا ينأى على بعد الشقة وطول الهجر .. وتذكرت الرسالة المحترقة التى قطعت بها خيوط الأمل ، وأقامت على رمادها سدّ

القطيعة .. وتملكها الأسى وهى تحس نفسها على فرط قربها أشد نأياً من الطيف النائى .. الذى لا تقف فى سبيلة حوائل ولا سدود .

وانطلقت منها تصعيدة حرّى استدعت « على » من جولته الهائمة . ورفع إليها عينيه ، فبدا له ما بوجهها من حزن وأسى ، وتملكه إحساس بالعطف والندم .. وهو يجد كلّ ما ملكته من حب .. وما بذلته من جهد فى إدنائه وإرضائه .. لم يفلح إلا فى إهاجة الذكرى وإيقاظ الحنين .

ومدّ يده فتحسس يدها فى رفق ، كأنما يحاول الاعتذار عما فى باطنه ، ورفعت هى يده فمستها بشفتيها فى تبتل وخضوع ، وهمست قائلة ، وما زال الأسى يكسو ملامحها ، ويقطر من نبراتها :

ـــ أتذكر لقاءنا أول مرة ؟!

ـــ أجل أذكره !

ـــ لقد أحسست ليلتذاك .. أن مصيرى قد بات معلقاً بك .. وأنك منحتنى بحديثك الحنون ، وباختيارك لى دون بقية الراقصات أملا حلواً .. ما لبثت أن أطفأت جذوته حينما قلت لى إننا أشبه بمسافرين فى قطارين متضادين لن يكون نصيبهما من اللقاء أكثر من لحظة خاطفة ، يذهب كلّ منهما بعدها إلى مصيره .

ـــ وكانت إجابتك أن أحد الراكبين قد يبدل قطاره ، ويلحق بالآخر ؟

ـــ ولقد حاولت فعلا أن أبدل قطارى ، وألحق بك .. فعلت فى سبيل ذاك أقصى ماأستطيع .. ولكن يبدو لى أن اللحاق متعذّر .

ـــ ألا يجلس كلانا ، جنباً إلى جنب ؟

ـــ ومع ذلك أشعر أنك بعيد عنى بعد السراب .. لا سبيل إلى اللحاق به .. أو الإطباق عليه .. إن بيننا فاصلا لا يمكن قطعه .. بقدر ما أقترب بقدر ما تبتعد .. لا أنت تدنينى ولا أنت تنأى عنى .. لا يأس ولا أمل .. لا شىء أكثر

من ظامئ يعدو ، وسراب يتباعد .. وقطار يعدو فى أعقاب آخر .. لا هو غائب عنه ولا هو لاحق به .

و لم يعرف « على » كيف يجيب .. كان يشعر أنها على حق فى كل ما قالت .. وكان يكره أن يكون هذا هو كل نصيبها منه .

إنها لا شك .. تستحق أكثر ، ولكنه لا يملك أن يعطي هذا الشيء الذى تستحقة .. وإن كان يملك أن يعوّضها عنه رفقاً وحناناً ورداً للجميل .

وأحست « كريمة » من مسحة القلق التى كست وجهه .. ندماً على ما قالت ، وكرهت أن توجه إليه لوماً على ما ليس له فيه حيلة .. واستحمقت نفسها أن تفسد ليلتها بعد طول ما انتظرت ، وبعد كل ما بذلت للاستمتاع بها .. بفلسفة فارغة لا فائدة منها ولا مبرر لها .

ومالبثت أن نفضت عن نفسها شبح الضيق الجاثم .. وقالت متضاحكة ، وكأنما تستدرك ما قالت :

— ومع ذلك ، فأنا أشعر أنى لم أكن فى أية فترة من فترات حياتى بأسعد مما أنا الآن .. حتى ليبدو لى أحياناً أنى أستمد سعادتى من مجرد مطاردتك ، ومحاولة اللحاق بك .

— ليس هناك مطاردة يا « كريمة » .. إنى أسعى إليك ، لأنى أريدك .. ليس هناك من يوفر لى سبل الراحة والطمأنينة والسكينة سواك .. إنى أؤكد لك .. أنى أشعر دائماً بحاجتى إليك .

— إن أكثر ما يسعدنى أنى أستطيع أن أقضى لك حاجتك ، أهيئ لك كل ما تشتهى .

ونهضت «كريمة» متجهة إلى البيك آب وأضاءت النور ، وقد صممت على أن تبعد ذلك الجو الداكن الذى أحاطت نفسيهما به ، وقالت وهى تضحك :

— سأسمعك رقصة السامبا التى وضعها عبد الوهاب .. إنى لا أتمالك نفسى

أبداً من الرقص كلما سمعتها .

ووضعت الأسطوانة ، وعلا صوت الموسيقى الراقصة ، وأخذت كريمة تتحرك فى رشاقة وخفة على دقاتها .. وأمسكت بذراع « على » قائلة :

ـــ قم لنرقص سوياً !

ـــ إنى أفضل أن أستمتع برؤيتك وأنت ترقصينها وحدك .

ولم يكن « على » مجاملا فى قوله .. فقد أطربته رقصتها فعلا ، وهى تتحرك حوله فى خفة ورشاقة ، وتدق الأرض مع الموسيقى ، وتتثنى فى دلال ممتع .

وانتهت الرقصة ، ووثبت بخفة إلى ساقيه ، وضمته إليها قائلة :

ـــ سآتى إليك بأبى فروة .. ما رأيك ؟

ثم وثبت بنفس الخفة متجهة إلى المطبخ ، وما لبثت أن أحضرت « أبو فروة » وجلست تتشاغل بشوائه على نيران المدفأة .

وبدت عليها أقصى مظاهر السعادة ، وهى جالسة أمام المدفأة ترمقه بين آونة وأخرى .. بنظرات ملؤها الشغف والحب .. وأحست بالكثير من الاستقرار والقناعة اللذين يداخلان زوجة .. قد ضمها كنف زوجها وقالت وهى تعبر عما بها من هناء :

ـــ هذه أسعد أوقات عمرى .. إنى أحس كأنى أتلقى بها تعويضاً عن كل ما لاقيته فى حياتى من جهاد وشقاء وضنك ويأس .. إنى أنتظر هذه الليلة كما ينتظر التلميذ إجازة الخميس والجمعة .. لقد ركزت فيها كل أمانى وآمالى .. ولم أعد أرجو من دهرى ـــ مالا .. ولا شهرة .. ولا أى نوع من أنواع المتع ـــ سوى أن أقبع بجوارك .. أحدثك وأستمتع إليك ، وأقضى حوائجك .. هذا كل ما أرجوه .. أتراه كثيراً علىّ ؟

وأحس « على » أن هذه المخلوقة تستحق أن يمنحها كل ما ترجو . بل أكثر مما ترجو ، ووجد من السخف أن يقيد نفسه بآراء الغير ممن لا يحسون ما يحس ،

أو يقتنعون مما يقتنع ، وملأه من حديثها الحار المخلص شعور بالجرأة ، جعله يقول ببساطة وبلا مقدمات :

— ليس هناك ما يكثر عليك يا كريمة .. لقد قلت لك إنى أشعر دائماً بحاجتى إليك .. وأؤكد لك أنى على استعداد للزواج منك .. فى أى وقت .. غداً إذا شئت .

ونظرت كريمة فى ذهول ، وأمسكت بيده فمسحت فيها وجهها كأنها كلب أمين . وسحب « على » يده ، وقد أحس بسيل من الدمع يهطل عليها .

(٥٥)

سيف الملك

أخذت عربات الضباط تتتابع إلى ميدان عابدين قبيل ظهر يوم السبت ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، وتدفقت وفودهم إلى الصالة السفلى التى يفضى إليها بـاب التشريفات ، تلبية لدعوة الغداء الملكية احتفاء بمولد « ولى العهد » .

وكان سائق « علىّ » يحاول جهده أن يشقّ طريقه بين جموع المتظاهرين المحتشدة فى شارع إبراهيم ، والتى أخذت تتدفق من الطرق الأخرى المفضية إلى ميدان عابدين ، وقد تعالت هتافاتها المعادية للاستعمار .

وكان بنفس « علىّ » كثير من انقباض وقلق ، دفعهما إحساس عام بالأسى والفجيعة ، شمل جميع المصريين ، عقب إذاعة الأنباء المروعة لمجزرة الإسماعيلية فى الليلة السابقة .. وإحساس خاص بالخشية من ذلك القرار الذى اتخذه بزواج « كريمة » واتفق معها على تنفيذه هذا اليوم .

أما فجيعته على شهداء الإسماعيلية ، فقد شابها خليط من مشاعر متباينة متعددة .

كان أقوى هذه المشاعر وأولها تسرّباً فى نفسه هو الغضب الشديد والانفعال الثائر المتهور ، الذى يملؤه رغبة جامحة فى الثأر من الإنجليز ، لاعتدائهم الوحشى الغشوم على ضحايا أشباه عزل .

ويلى هذا إحساس بالسخط على حكومة حمقاء .. زجّت بالبلد فى معركة لا عدة لها فيها سوى خطب برّاقة تلهب المشاعر ، دون أن يكون لها سند من استعداد مادى ، أو خطط موضوعة .

ويختلط بهذا السخط .. إحساس بالخجل .. وهو يجد الشعب الأعزل ،

والبوليس شبه الأعزل يخوض المعارك ضد الإنجليز ، ويقدم أعناقه رخيصة سهلة لتجزّها أسلحتهم جزّ النعاج ، والجيش المسلح .. الذى يمتهن المعارك ويحترف القتال ، والمفروض عليه أن يدافع عن العزّل وأشباه العزّل ضد القوات المعتدية .. رابض فى سكون .. يمارس استعراضاته ، ويقدم ولاءه إلى قائده الأعلى ، ويتلقى رضاءه السامى .. ويستمتع بولائمه الشهية .

ويحيط بكل هذه المشاعر .. حيرة مضنية .. وسؤال لا جواب له .

ما آخر كل هذا ؟! وما هو الحل لهذه المشكلة ؟ وكيف الخروج من هذه الورطة التى جعلت الأمة تدافع عن الجيش ؟

أيخوض الجيش المعركة ؟ وإذا خاضها .. فكم من الزمن يستطيع مقاومة قوات الاحتلال ؟! أيام ؟.. أم ساعات ؟.. أم دقائق ؟ وما نتيجة هزيمته ؟ احتلال جديد فى قلب البلد ؟

أيخوض المعركة .. بضباطه وأفراده وأسلحته كمتطوعين فدائيين ؟! وهل يخدع الاحتلال بهذا !! ثم ماذا يصبح الجيش بعد ذلك .. أيسرّح .. أم يلغى .. ما دامت القوات غير النظامية ، هى التى تتولى الدفاع عن البلد ؟

وفى وسط هذه الدوامة من المشاعر ، والعربة تشق طريقها بين قسم عابدين ، وسينما رويال .. بلغت مسامع « على » هتافات جعلته ينتفض فى مقعده .

لم تكن هتافات معادية للإنجليز ، ولا معادية « للملك » ولا للوزارة .. بل كانت هتافات معادية للجيش .

لقد بدت لعلى كأنها ردّ عنيف على سلسلة أفكاره .

واستمرت العربة تشق طريقها بين الأجساد المتدفقة ، والهتافات تدوى من حولها « إلى القتال ياجيش الحفلات » « إلى القتال يا جيش الخمر والقمار ».

وأحس « على » بالدماء تغلى حارة فى عروقه .. كأنما قد تلقى صفعة مفاجئة ، وتحفز فى مقعده ، كأنما ينوى أن يرد الصفعة ، وأحس ببغضاء شديدة لهذه الحشود الحمقاء التى توجه الإهانات والتهم الظالمة إلى الجيش .

كان « على » يحب الجيش ويؤمن به إيماناً قوياً راسخاً فى دمه ، ومن أجل حبه للجيش .. أحس بكره شديد للشعب الذى تمثله هذه الجموع الصاخبة ، المهووسة .. وبكره أشد للحكومة التى ورّطت الجيش فى هذا الوضع الذى لم يكن له فيه حيلة .. وأبدته عاجزاً مقصراً ، وهو لا يملك صد التهمة ، ولا الخروج من عزلته ، وأحس بكره « للملك » المغرق فى لهوه وعبثه وحمقه .. والذى شد الجيش إليه ، واتخذ منه درعاً ، يصد به سخط الشعب وكراهيته ، فجلب إليه السخط والكراهية ، وجعله سيفاً يجزّ به رقاب الشعب بدلا من أن يكون حصناً يقيه .

ومن أجل حبه للجيش ..أمسى يكره نفسه وبقية الضباط الذين لا يملكون — وهم أقوى عناصر الأمة — إلا أن يكونوا أداة سهلة طيعة فى أيدى رؤساء خانعين .. يتقدمون بها مطأطئين إلى السدة العلية السامية ، وكأنها الكلب الأمين يتمسح فى أعتابها .. وينبح على خصومها .

ومن أجل حبه للجيش .. أحس الكره للإنجليز الذين كانوا السبب الأساسى لكل ما حدث ، بإصرارهم على البقاء ، ومماطلتهم فى الرحيل بلا فائدة مرجوة ، سوى المحافظة على هيبة قديمة موهوبة ، تجلب عليهم السخط والبغضاء .

وبهذا القلب المفعم بالكراهية ، والنفس الضائقة بالإهانة ، هبط « على » من عربته متجهاً إلى باب التشريفات ، الذى تكأكأ فى شرفته الضباط ، وما زالت هتافات الجماهير ترن فى أذنه ، وقد احتشدت فى منتصف الميدان ، يمنعها من الاقتراب صف طويل من جنود الحرس .

والتقى « بسليمان ».. وقد وقف وحيداً فى أحد الأركان ، وبدا عليه تجهم وشرود ، وحياه متسائلا ، وهو يرى الضباط محتشدين حول دفتر التشريفات :

— أهناك ضرورة لأن أقيد اسمى ؟

— لا ضرورة لذلك ، فقد كتب الأركانحرب أسماءنا جميعاً ..

وساد بينهما صمت قلق ، وانحرف ذهن « على » من تفكيره العام فى الشعب

والجيش و « الملك » والإنجليز ، وما يوشك أن يحل بالبلد من أحداث .. إلى تفكيره الخاص فى نفسه و « كريمة »، وما يوشك أن يقع بينهما من روابط تشدهما إلى الأبد .. وأحس بالخشية تتملكه ، وهو يرقب وجه « سليمان » المتجهم ، وتذكر تحذيره له وإصراره على أن يقطع كل ما بينهما ، إذا هو أقدم على ارتكاب هذه الحماقة أو المعصية .. وتدافعت فى ذهنه صور أخرى منذرة .. صورة أبيه ، وأمه ، وأخيه ، و « بهية » .. ثم .. الطيف النائى الحبيب .. العاتب فى أنين .. الهامس فى إشفاق وجزع .

وقطع عليه « سليمان » حبل تفكيره ، وهو يقول متسائلا فى صوت خفيض :

ـــ أرأيت ما هو حادث فى البلد ؟

وأجاب « على » فى مرارة وضيق :

ـــ أجل .. رأيت المظاهرات التى تهتف ضد الجيش .

ـــ أهذا كل ما رأيت ؟ إن البلد كلها فى حالة هياج شديد ، لقد خرج جنود بلوكات النظام يطالبون بالسلاح للثأر لزملائهم شهداء القنال .. وقد اتجهوا إلى الجامعة وانطلقوا مع الطلبة فى سيول متدفقة ثائرة .. وقد خطب فيهم أحد الوزراء بما زاد النار اشتعالا .. إنها أشبه بثورة . والبوليس يقف موقف المشاهد المشجع .

وبدت الدهشة على وجه « علىّ » وقال ، وهو غير مصدق :

ـــ عجيب ما تقول .. إنى لم أبصر سوى مظاهرات سلمية .. أثارنى منها هتافاتها العدائية ضد الجيش .

ـــ هتافات فقط !! لقد اعتدوا على عربة أحد اللواءات وكادوا يحطمونها .

ـــ هذه مسألة خطيرة .. إذ يجب أن تبقى للجيش هيبته ، فهو صمام الأمان فى هذا البلد .. وهو الأداة الوحيدة التى يمكن أن تسيطر على الأمن .

ـــ كيف يسيطر عليه ؟! أيمكن فى هذا الوقت أن توجه قوة الجيش ضدّ

الشعب .. وهى أحق أن توجه ضد الإنجليز .. إن مكاننا كان يجب أن يكون فى القنال .

ــ كيف يتوجه الجيش ضدّ الإنجليز ؟ فى معركة رسمية ؟ أم فى حرب عصابات ؟! وماذا تكون نتيجتها على البلد ؟ إنها مشكلة معقدة لايمكن حلها بمجرد إرسال الجيش للقنال . إن كل ما حدث الآن ، وما يمكن أن يحدث مستقبلا ، ناتج عن الارتجال فى دخول المعارك .. بلا أدنى استعداد .

ــ أجل إنها مشكلة معقدة فعلا ، ونحن مشرفون على أحداث خطيرة قد تودى بالبلد كلها .. ومع ذلك فيجب أن يكون لنا دور إيجابى فيها .. دور غير تقديم فروض الولاء ، والاستمتاع بالولائم .. غير معقول أبداً .. أن يشغل الجيش بالجلوس إلى الموائد الملكية .. فى الوقت الذى يغلى فيه الشعب ، ويرزح فيه البلد تحت وطأة البلايا والمصائب .

ــ أجل إنها مفارقة عجيبة .. كان يجب أن تلغى الوليمة ، بمجرد إذاعة نبأ أحداث الإسماعيلية .. فليس أقلّ من أن نشارك البلد حدادها .

وبدأت أفواج الضباط المحتشدة فى القاعة السفلى المشرفة على باب التشريفات ، تتحرك إلى الدور العلوى .

وكف الصاحبان عن مناقشتهما بعد أن اندمجا وسط الضباط . وأخذ « على » يرقب روعة البناء .. وفخامة النقوش ، وهو يسير ببطء فى الموكب المتحرك .. ودلف يميناً إلى الدرج الرخامى الفخم ذى الدرابزين المعدنى المؤكسد الذى يبدو بنقوشه تحفة رائعة .. وكانت تواجهه ثلاث مرايا كبيرة ، تشغل جدار البسطة العريضة التى يتفرع منها السلم إلى شعبتين : يميناً ويساراً .

واستمر « على » فى سيره البطئ وسط الركب حتى وصل إلى القاعة العليا ، ثم انحرف يميناً ماراً بالسوبة الزجاجية الرحبة التى صفت فى وسطها ، وعلى أجنابها نباتات الظلّ المختلفة ، والتى تعالت فى وسطها أشجار اللتانيا .

وألقى « على » فى سيره نظرات خاطفة على نقوش الجدران وعلى مختلف

اللوحات الزيتية الرائعة .. وأحس كـأنما قـد علـق مـن بصره إلى الجدران والسقف .. حتى وصل إلى حجرة المائدة الرحبة ، واتخذ مكانه بجوار سليمان على أحد المقاعد .

وكانت المناضد قد صفت متلاصقة بطول القاعة ، وكان « على » يواجه الشرفة المطلة على الحديقة ، وبدت له نوافذها ذات الزجاج الملوّن المنمـق بالنقوش ، وأخذ يتطلع مبهوراً إلى الثريات الضخمة ، وتشاغل بقراءة الحكم والآيات المنقوشة على أعلى الجدران قرب السقف ، وعلق بصره بحكمة مواجهة له : « الملك العادل محفوظ بعون الله ، محروس بعنايته » ، وتساءل عن مدى مطابقة هذه الحكمة على صاحب القصر .

إن مجرد كتابتها .. هى وغيرها من الحكم .. المزركشة المنمقة .. وما يحيط بها من نقوش وزخارف .. وإفراط فى الفخامة والأبهة .. يجعل الحكمة تبدو وكأنها سخرية من صاحب القصر .

فالحكمة لم تكتب لتعظ .. ولا قصد منها الاستفادة بمدلولها .. ولكنها مجرد قطعة زخرفية تشترك هى وسواها فى منح القصر مزيداً من فخامة وأبهة .. ولتثبت فى الواقع نقيض مدلولها .. ولتجزم بأن صاحب القصر مللك غير عادل ، وغير محفوظ بعون الله ولا محروس بعنايته .

هذا الإفراط المروّع فى الفخامة والأبهة .. معقول أن يحاط به ملك شعب يعيش فى بسطة ورخاء .. أو على الأقل يجد كفايته من العيش ، أما أن يحاط « ملك مصر » بهذا البذخ الجنونى .. فى الوقت الذى لا يجد خمسة وسبعون فى المائة من شعب مصر لقمة عيش ، ولا خرقة كساء .. فهو أمر عجيب ، لا يمكن أن يـدلّ على شيء مـن العـدل .. أو حتـى العقـل .

إن هناك فوارق بين الطبقات فى كل الشعوب .. وللملك جلاله وأبهته .. ولعامة الشعب مستوى أدنى تقنع به وتستريح إليه .. والشعوب لا تخلو من بعض مظاهر الفقر والضنك والحاجة والمسغبة .. كل هذا شيء مسلم به ، ولكن

الشيء الذى لا يقبله العقل ، هو ذلك الإفراط الزائد فى أبهة الملك ، أبهة لا تتناسب قط مع الانحطاط الزائد فى مستوى الشعب .. هو تلك الهوّة السحيقة البشعة بين فرد ، أو قلة تعتلى القمة .. وأغلبية تتمرغ فى السفح .

ودفع به التفكير فى الهوّة والقمة والسفح .. إلى ذكر هوّة قديمة بين أميرة صغيرة تعتلى القمة ، وابن بستانى يقف على السفح وتذكر جهوده فى تخطى الهوّة .. وتذكر كيف أضحى ابن البستانى ضابطاً عظيماً يجلس إلى المائدة الملكية ، ومع ذلك لم تضق الهوّة .. فما زالت الأميرة تجلس فى أعلى القمة ، وما زال هو قابعاً فى أسفل السفح .

وانطلقت من أنفه ضحكة مريرة خافتة . هذه الدنيا مليئة بالسخريات . إنه ما زال يحبها .. ليس يدرى لِمَ ؟! قد يكون لمجرد حرمانه منها .. أو يكون ، لأنها ممتزجة فعلا بكيانه ، ومع ذلك يجد العمر يتسرب كما يتسرب الماء من بين أصابعه ، دون أن يبلغ منه مايبلّ به ظمأه أو يسدّ به رمقه ، وهو يهب نفسه طائعاً مختاراً لأخرى .. رفقاً بها وعطفاً عليها ، ومكافأة لها على حبها .

أقد هانت نفسه إلى هذا الحد .. حتى يجعلها مجرد هبة ، ومكافأة ؟

ولكن ماذا يمكن أن يصنع بها أكثر من هذا .. إذا كان توءمها ، قد نأت به التقاليد ، وقامت دونه السدود والعراقيل ، ماذا يفعل بها إذا كان مالكها قد زهد فيها ، وأعرض عنها ؟

ولكن أيدعوه هذا إلى التفريط فيها ، مكافأة على حب وردّا لجميل ؟!

والصلات الروحية ، التى تتخطى التقاليد وتعبر السدود !! والحب الدائم إلى الموت وما بعد الموت !

لماذا لا يذكر مواثيقه وعهوده ، على الأقل أمام نفسه ؟

إنها ، مع كل ما فعلت من هجر وقطيعة ، لم تتزوج بعد .. أفيتزوج هو ؟

ولكن ماذا منعها من الزواج ؟. غير معقول أن تكون عهودها ومواثيقها .. غير معقول أن تكون بعد ما لفظته ، قد صدّت خطابها من أجله .

ولكن ماذا يدفعه إلى مثل هذا التفكير الأبله ؟!

أين هو ؟! وأين هى ؟!

لماذا يحاول أن يدفع إلى ذهنه بمثل هذه الأوهام الخادعة فى هذا الوقت !! ألكى يتخذ منها ذريعة .. يفلت بها من المغامرة التى يوشك أن يقدم عليها ؟! ألكى يجد منها مبررات لجبنه .. وتهرّبه ؟!

لا ..لا .. يجب أن يكون أشجع من هذا .. يجب أن يفى بوعده لكريمة .. دون أن يأبه لأحد .. لا روح أبيه ولا أمه ، ولا أخيه ، ولا سليمان ، ولا هذا الطيف الذى لا يفتأ يلح عليه ، ويحوم حوله ، ويشعل فى ذهنه وقد الذكريات وجمرات الحنين .

وقطع تفكير « على » همهمة عرف منها أن « الملك » قد « شرف »، ودفعه تشريف « الملك » إلى أن يخفض بصره الذى لم يزل محملقاً فى الحكمة التى دفعت إلى ذهنه كل هذه السلسلة من الأفكار التى بدأت « بالملك العادل » وانتهت إلى « كريمة » المظلومة .

وأعقبت همهمة وصول « الملك » جلبة الأكل .. وغطت طرقات الشوك والملاعق فى الأطباق على كل ضجة أخرى ، وبدأ « على » يلقى على الصحاف المرصوصة أمامه نظرة فاحصة ، بعد أن شملها فى أول الجلسة بنظرة عابرة .. ووضع « الفوطة » الأنيقة على حجره ، ثم مدّ ملعقته إلى طبق « المايونيز » الأنيق المزركش ، فغرف فى طبقه كفايته .. والتقط بضع محشوات من طبق « الضلمة » وشريحتين من طبق « الديك الرومى » .. وانهمك فى التهامها .

ومضى ما يقرب من ربع الساعة ، والجميع منهمكون فى تناول الطعام الفاخر .. وبدأت الأيادى تمتد إلى صحاف « التورتة » وأطباق الفاكهة .. ثم أخذت المقاعد تتزحزح إلى الخلف قليلا .. والأيادى تلقى فى استرخاء على المناضد ، وبدأت الهمهمة تعلو فى الجو مع دخان السجائر ، وتشاغل الذين لا يهمهمون بتسليك أسنانهم ، ثم بدأ الخدم بملابسهم المزركشة يتسرّبون بين المناضد حاملين القهوة .

وأحس « على » فى ركن القاعة البعيد حركة غير طبيعية ، ثم أخذ الضباط فى الوقوف ، وسرت « الهسهسة » التى تأمر بالصمت والكف عن « الهمهمة » ووقف « على » مع بقية الضباط ، واستدار إلى ناحية الحركة فأبصر « الملك » وقد أحاط به كبار الضباط ، وقد بدا وجهه الضحم ، ورأسه الأصلع ومنظاره على عينيه ، وارتدى الحلة العسكرية الكاكية التى حشر فيها جسده السمين .. و لم يستطع « على » أن يمنع نفسه من المقارنة بين هذه الجثة الضخمة ، وبين الجسد الرشيق الذى ما زال يذكره ممتطياً حصانه فى حفلة التتويج ، و لم يستطع أيضاً أن يمنع نفسه من المقارنة بين خلقه الآن وخلقه فى ذلك الحين ، ولا بين ما كان يتمتع به من حب الشعب و ما أضحى يلاقيه من سخطه وبغضائه .

وألقى « الملك » حديثاً لا يخلو من الملق ولا من مظاهر الإحساس ، بأن الضباط درعه الواقى وملجؤه الأمين .. فأمعن فى الترحيب بهم ، وأنبأهم أنه فكر فى إلغاء الحفل من أجل الحوادث المؤسفة ، ولكن معزّتهم عنده جعلته يعدل عن إلغائها ، ونصحهم بالضبط والربط .. وذكّرهم بالصلة القديمة بين أجداده والجيش .

ويبدو أن أحد كبار الضباط قد رقّق استجداء « الملك » قلبه ، وأثار حميته .. فاندفع يصيح فى حماس .. وكأنه يجيب مطلب « الملك » .. ويمنحه بغيته : « الجيش سيف الملك ».

وانطلقت الصيحة وحيدة مختنقة .. دون أن يرن لها صدى .. أو يرددها مجيب .. وأحس لها « علىّ » فى أذنه وقع اللحن النشاز .. وبدت نواجذ « سليمان » وهى تضغط فى غيظ وهمس « بعلىّ » :

ـــ أهذا وقته ؟!

ورد « علىّ » فى حنق :

ـــ إلى متى سنظل وقوفاً هكذا ؟!

ونظر فى ساعته فوجدها الثالثة إلا ربعاً .. وكان المفروض أن يلقى « كريمة »

فى الساعة الثالثة لمشاهدة أول عرض لفيلمها الأخير الذى ستختم به حياتها الفنية .. ثم يذهبان إلى الدار بعد ذلك ، لإتمام إجراءات الزواج .

وأخيراً غادر « الملك » القاعة إلى جناحه .. وبدأ سيل الضباط يتدفق إلى أسفل فى طريقهم إلى الانصراف ، وفرّق الزحام بين « على » و « سليمان » .. واختفى « سليمان » برهة عن عين « على » ، ووقف « على » فى القاعة السفلى ينتظره حتى أقبل وسط زرافات الضباط ، وقد بدا عليه تجهم شديد .

وتساءل فى لهفة :

ـــ أتنتظرك عربتك فى الخارج ؟

ـــ أجل .

ـــ إذاً هيا بنا لتحملنى معك إلى القشلاق .

ـــ ولكنى لن أذهب إلى القشلاق .

ـــ كيف ؟!! لقد صدرت الأوامر الآن بأن نعود جميعاً إلى الثكنات .. لأن حالة الطوارىء قد أعلنت .

وبدت على وجه « على » علائم القلق والحيرة ، وقال فى ضيق وتردد :

ـــ ولكنى على موعد هام .. ولا بد أن أذهب إليه .

ـــ أى موعد فى هذه الساعة ؟

وصمت « على » برهة ، ثم قال فى شىء من الاستحياء :

ـــ موعد مع « كريمة » للذهاب إلى سينما راديو .

ورفع « سليمان » حاجبيه فى دهشة ، وقال ساخراً :

ـــ سينما راديو ؟.. لقد احترقت سينما راديو .. واحترقت كل دور السينما .. إن القاهرة تتأجج وسط اللهب .

ـــ غير معقول .

ـــ ما هو هذا غير المعقول ؟! لقد كنت أتوقع هذا ، وأنا فى طريقى إلى هنا ، ولقد بلغت أنباء الحريق الآن للقصر . هيا بنا .

وبدا الانزعاج على وجه « على » وردّ قائلا :

— إذاً لا بد أن نمر على السينما لأرى كريمة وأعتذر إليها .

— تراها وتعتذر إليها ؟! أتظنها ما زالت تنتظرك هناك ؟ أتعتقد أنها جُنَّت حتى تترك بيتها وتخوض فى هذه المظاهرات ، وتنتظرك أمام السينما وهى تحترق ؟! ثم كيف تذهب والطرقات كلها مغلقة فى قلب البلد ؟! أتجسر على السير وسط المظاهرات بعربة الجيش !. لقد صدرت الأوامر بألا تسير العربات إلا ومعها جندى مسلح .. وسنعود من شارع فاروق ، لأن شارع إبراهيم كله يحترق .

وركب الاثنان العربة و « على » لم يقتنع بعد بما قاله سليمان .. وما زالت بنفسه رغبة فى أن يذهب ليرى « كريمة » حتى لا يتركها تنتظره أمام السينما ، ولكن العربة لم تكد تغادر عابدين حتى بدت آثار الحرائق والتدمير ، واضطر السائق أن ينحرف إلى شارع حسن الأكبر ، متخذاً طريق باب الخلق إلى شارع فاروق إلى العباسية ، حتى وصلا إلى الثكنات .

ووجد « على » أن التعليمات قد صدرت إلى الآلاى بالاستعداد للتحرك بمجرد صدور الأوامر ، فاتجه إلى كتيبته وجمع ضباطه ، وأشرف معهم على شدة الكتيبة ، وإعداد العربات المدرعة والجنود .. وأجرى تجربة للجمع والاستعداد للتحرك .

وعندما اطمأن إلى إعداد كتيبته اتجه إلى مكتبه ، ليطلب « كريمة » فى التليفون كى يطمئن عليها ويعتذر لها ويتفق معها على موعد آخر عندما يهدأ الموقف وتزول حالة الطوارئ .

وأدار القرص ، وتوالت دقات الجرس دون مجيب ، وأعاد طلب الرقم ثانية وثالثة دون أن يرد عليه أحد .

وأصابه القلق .. وخشى أن يكون قد أصابها مكروه من غوغاء الشوارع ، وزادت لهفته على الاطمئنان عليها .

وحاول السؤال عنها فى الاستوديو فلم يجدها ، وخطر له أن تكون قد تناولت

الغداء عند صديقتها « بثينة » التى تعوّدت أن تصاحبها فى كل غدوة وروحة ، والتى كانت كثيراً ما تتناول غداءها عندها

وأجابته « بثينة » بأنها فعلا تناولت الغداء عندها ، ثم غادرتها فى الساعة الثانية لتبدل ملابسها ، ولتذهب للقائه فى السينما .. وطلب منها « على » أن تحاول البحث عنها ، وأن تخبرها بأنه اضطر للذهاب إلى الثكنات لإعلان حالة الطوارئ ، وأنها يمكن أن تتصل به فى تليفون السوارى حيث سيظل هناك حتى تصدر لهم الأوامر بالتحرك .

وغادر المكتب متجهاً إلى كتيبة سليمان وقد تملكه — رغم قلقه على كريمة — إحساس خفى بالراحة تسرى فى أعماقه كأن اليد التى توشك أن تدفع به إلى الهاوية قد خففت عنه قبضتها إلى حين .. أو كأن الجرف الذى وضع عليه حافة قدمه قد تباعد قليلا .

وخطر له أن يصارح « سليمان » بالأمر كله ، وأن يعترف له باعتزامه زواج « كريمة » عله يخفف باعترافه بعض ما يشغل نفسه .. أو عله يجد منه موافقة تهوّن عليه أمره .. أو عله إن لم يفز بهذا أو ذاك .. أن يجد فى ثورته عليه ما يصده ويردعه .

وقبل أن يبلغ مكتب سليمان أبصر به يخرج مندفعاً ، وقد بدت على سيمائه الثورة ، ولم يكد يراه حتى صاح قائلا :

— هذا عبث .. إنهم سيضيعون البلد فى شربة ماء .

— ماذا حدث ؟

— المدينة كلها تحترق .. والأمور قد أصبحت بأيدى الدهماء .. لقد حدثنى أخى من البيت .. وقال : إنه قادم فى التو من قلب البلد .. وأنه لم يعد هناك من يأمن على روحه أو أهله أو ماله .. لقد انقلبت المظاهرات المطالبة بالكفاح ضد الغاصب .. إلى عصابات للحرق والتدمير .

— تدمير دور اللهو ؟

— أبداً .. تدمير كل شيء .. لقد بدأت بتدمير دور اللهـو .. ومحلات الأجانب .. ولكنها انتهت إلى عاصفة من الاعتداء الأحمق المجنون .. واندفع الغوغاء والسوقة يحطمون وينهبون ويسلبون .

— وأين البوليس ؟

— النصف مشترك فى المظاهرات .. والنصف الآخر عاجز بلا حول ولا قوة أمام ثورة الدهماء .

— والحكومة ؟! والمسئولون ؟!. أين هم ؟!. لماذا لا يخرجوننا ؟! ماذا ينتظرون ؟!

— ينتظرون خراب مالطة .. إنى أكاد أجن .. حتى ليبدو لى أن أخرج بكتيبتى بدون أوامر ، فإنى أخشى أن ننتظر حتى يأتى الإنجليز لاحتلال القاهرة وضمان الأمن بأنفسهم مادمنا عاجزين عنه .

وقبل أن يجيب « على » أقبل أركانحرب الآلاى مسرعاً وقال فى عجلة :

— لقد صدرت الأوامر بأن يتحرك كلاكما بكتيبته حالا ليبقى فى حديقة الأزبكية .. تحت أوامر قائد قوات الأمن .

ولم تكد الساعة تقترب من الخامسة حتى كانت القوات المسلحة قد تحركت فى طريقها إلى شوارع المدينة ، لتمسك بزمام البلد الضائع فى أيدى الدهماء .

(٥٦)

مذنبة تستغفر

الإنسان مجموعة من مركبات الخير والشر ، والسمو والضعة ، والأحداث التي يمرّ بها الإنسان هى التى تدفع هذه المركبات المتناقضة إلى الظهور ، وإلى أن يغلب أحدهما الآخر فيبدو فى أجلى مظاهره وأوضح صوره . والشعوب — وهى مجموعة من آدميين — تمرّ بها موجات من الأحداث والظروف التى تظهر أجمل عناصرها أو تكشف أسوأ سوءاتها .

ولا شك أن التاريخ قد سجل للشعب المصرى الأحداث التى دفعته إلى أن يظهر أكرم عناصره وأفضل مركباته .. وقفزت به إلى قمم المجد وذرى الإنسانية .

ولا شك أيضاً .. أن التاريخ سيسجل حريق القاهرة هو أحد الأحداث .. التى دفعت الشعب المصرى إلى التهاوى فى مدارك الشر والتدمير ، وأبرزت فيه عناصر السوء والأذى .

كان « علىّ » يسير بعربته المدرعة وسط المدينة المختنقة المحتضرة ، وقد بدت له كأنها تلفظ آخر أنفاسها فى صورة هبّات من اللهب الأحمر أو الدخان الأسود .. وبدت الحوانيت مبقورة الأبواب .. منهوشة الأحشاء . واختلطت صيحات الاستغاثة بتأوهات المصابين .. واندفع الناس فى الطرقات مشدوهين مأخوذين .

وكانت طلائع التخريب والنهب قد أخذت تمتد إلى الضواحى .. وهى لا تجد ما يوقفها .. بعد أن انكمشت أمامها قوات البوليس العاجزة أو المتعاجزة .. وبلغت ثورة الحقد والضغينة التى تغلى بها نفوس الدهماء أقصى حدتها ، وهم يقفون حائلا بين رجال المطافئ والدور المحترقة ، ويمنعوهم من مد يد العون

إلى الأنفس الملهوفة التى أحاطتها النيران ، وتطاولت إليها ألسنة اللهب .

ولم يكن من العسير على القوات المسلحة أن تسيطر على زمام الأمن ، فقد كان مجرد خروجها من ثكناتها ، واندفاعها فى الطرقات بدباباتها الهادرة ، ووجوهها المتجهمة المغطاة بالخوذ ، وأسلحتها المصوّبة .. كافياً لأن تحسر موجة التدمير والهياج ، وأن تدفع فيران الدهماء إلى جحورها .

وعبر « علىّ » ميدان المحطة ، وهو يبصر ألسنة اللهب الأحمر تتعالى صوب السماء .. وقد أخذت الجموع تتفرق فى الميدان مذعورة ، وبدت هنا وهناك عربات محطمة محترقة .

وانحدرت العربات المدرعة فى شارع إبراهيم .. وبدا فندق شبرد كتلة من اللهب والدخان ، يتعالى منها خليط من الفرقعة ، وأصوات الاستغاثة والولولة .

واجتاز « علىّ » شارع فؤاد ، مخترقاً إحدى كتل الدهماء التى أوسعت الطرق للعربات .. مصفقة هاتفة للجيش .

وتملك « علىّ » دهشة من التصفيق والهتاف .. وتذكَّر ما لقيه من إهانة منذ بضع ساعات ، وهو فى طريقه إلى القصر .. وأحس أن القوّة وحدها .. هى أشد الوسائل إقناعاً وأبعثها على التقدير والإعجاب .

وتلفت حوله مروّعاً مما أصاب المتاجر من تخريب وتدمير ، وما أوسعه فيها الدهماء من نهب وسلب وحرق .. وأحس أن كل ما حدث ، لابد وأن يكون له بواعث فى نفوس الدهماء أعمق من مجرد ثورة مفاجئة .. أو اندفاع طارئ .

ومرة أخرى وجد « علىّ » ذهنه يذكر تلك الهوة السحيقة البشعة الكائنة فى هذا البلد بين طبقتين : أقلية متخمة تحتل القمة .. وأغلبية محرومة تتمرغ فى السفح .

إن هذه الهوّة غير معقولة .. وبقاء الأمور فى هذا البلد بهذا الوضع .. شئ غير طبيعى ، واستمرار الهوة يكاد يكون أمراً مستحيلا .. إلا بجهد دائم وضغط مستمر .. يسند الأقلية ليبقيها فوق القمة ويمنعها من الانحدار ، أو يضغط الأغلبية ليبقيها فى السفح ويمنعها من الصعود .

إن بقاء هذه الهوة .. ورضاء الأغلبية القابعة فى السفح بوضعها .. أمر مفروض بالقوة .. فإذا وهنت هذه القوة .. وأحست الأغلبية بثغرة ضعف .. اندفعت فى سخطها ومرارتها ، لتقضم ما تستطيع اقتضامه من الأقلية المستوية على القمة .

وأحس « على » أنه كفرد فى الجيش ، يمثل أحد مركبات تلك القوة .. التى تفرض على الأغلبية الرضاء بالإكراه ، والتى تسخَّر للمحافظة على استمرار الهوّة السحيقة البشعة .. بين أقلية فى القمة ، وأغلبية فى السفح .

ولم يجادل « علىّ » نفسه .. فى أن واجبه أن يحافظ على كيان هذا البلد .. وأن يمنح أهله الأمن والسكينة والطمأنينة . ولكنه ساءل نفسه : ألا يمكن أن تمنح هذه السكينة والأمن ، بطريقة أجدى وأعمق من هذه الطريقة المهددة الباطشة ؟! ألا يمكن أن يكون الجيش أداة لبتر العلة ، بدلاً من أن يكون وسيلة لفرضها والرضاء بها والصبر عليها ؟! ألا يمكن أن تتحول قوته من المحافظة على الهوّة .. إلى تضييقها .. أو إزالتها ؟

وتذكر « سليمان » وإيمانه بالجيش كقوة إيجابية فعالة فى إصلاح الأوضاع الخاطئة .. واقتناعه بضرورة أن تؤدى أقوى عناصر الأمة عملا إيجابياً فعالا لصالح هذه الأمة .. وأحس لأول مرة .. أنه يشارك « سليمان » بعض تفكيره .. ويؤيد بعض مبادئه .

وانتهى « على » من جولته بين أطلال المدينة الخربة .. التى بدت بعد أن تفرقت منها الدهماء وخلت طرقاتها إلا من دوريات الجنود .. بخوذاتهم وبنادقهم ، كأن جيشاً من المغول والتتار قد أغار عليها .. وفتك بكل ما فيها .. ثم رحل عنها .. بعد أن أحرق أخضرها وذرى يابسها .

وعاد قبيل الثامنة إلى مقر الرياسة فى حديقة الأزبكية .. ولم يكد يهبط من عربته حتى أقبل عليه أحد الضباط ، وأنبأه أن إبراهيم تليفونجى السوارى ، قد تحدث من القشلاق قائلا : أن إحدى السيدات قد طلبته بإلحاح ، فلما أخبرها

أنه لا يعرف مقّره سألته إذا ما لقيه أن يطلب منه الاتصال بهذا الرقم فى أقرب وقت .

وأمسك « علىّ » بالورقة التى بها رقم التليفون .. ولم يشك فى أن « كريمة » هى التى طلبته .. بعد أن اتصلت بها « بثينة » ، وأنبأتها بمحادثته .. ولكنه لم يكد يقرأ الرقم المكتوب حتى بدت عليه الدهشة .

وأسرع إلى كشك التليفون ، وقد ملأته الوساوس .. ولم يكد يدير الرقم ، وقبل أن يسأل عن المتحدث ، أجابه صوت فى لهجة سريعة :

ــ مستشفى الجمعية الخيرية .

وأحس برجفة تسرى فى بدنه ، وتردّد برهة حتى يلتقط أنفاسه اللاهثة . ثم قال ، وهو يتمالك :

ــ من فضلك أعطنى الحجرة رقم ١٢ .

ــ معاك يا فندم .

وبعد لحظة سمع صوت« بثينة » تجيب :

ــ آلو ..

ــ أنا « على » يا « بثينة » .. ماذا حدث ؟!

وأجابته « بثينة » فى صوت يخنقه البكاء :

ــ إن « كريمة » هنا .. وهى تريدك .

وأحس « علىّ » بدوار فى رأسه وغيام على عينيه ، وتساءل فى جزع :

ــ ماذا بها ؟!

ــ لقد احترقت .

ولم تستطع « بثينة » أن تتم حديثها فقد خنقها البكاء .. وما لبثت حتى تمالكت وأردفت قائلة :

ــ أرجوك .. تعالَ بسرعة .. إنها لا تكاد تفيق حتى تطلبك .

ووضع « علىّ » السماعة واندفع فى غير وعى إلى إحدى العربات « البيك

آب » ، وهتف بالضابط الذى سلّمه الورقة قائلا :

— قل للقائد إذا سأل علىّ أنى سأعود بعد ساعة .

— وإذا سأل إلى أين ذهبت ؟

— مسألة خاصة .

— ألا أقول له غير ذلك ؟

— قل له إن إحدى قريباتى قد أصيبت ، وأنى ذهبت لأراها فى مستشفى الجمعية .

واندفعت العربة تخترق الشوارع المظلمة الخالية .. تعترضها بين آونة وأخرى صيحات الجنود ، وهم يعترضونها ببنادقهم « قف .. من أنت ؟ » فلا يكادون يميزون فيها ضابطاً حتى يفسحوا لها الطريق .

ووصل « علىّ » المستشفى ، وهو يحس بعجز تام عن التفكير .. واندفع يصعد الدرجات حتى وقف أمام الحجرة رقم (١٢) ثم تردد برهة يلتقط أنفاسه ، ودفع الباب فى بطء .

وانفرجت فتحة الباب رويداً رويداً .. لتبدو له « كريمة » مسجاة على فراشها ، وقد غطت الأربطة البيض وجهها وجسدها ، ولم يبد منها غير جفون مسبلة وفم مطبق .

وأقبلت « بثينة » على أطراف أصابعها ، وهى تنشج بالبكاء .

وتساءل « علىّ » فى لهفة :

— ماذا حدث ؟

— لقد غادرتنى بعد الغداء لكى تلقاك فى السينما .. ولم أعرف ماذا حدث .. حتى دقّ لى التليفون « زكى محمود » المصوّر ، بعد أن حادثتنى أنت ، وأنبأنى أنها كانت فى حجرة مدير السينما عندما هاجم المتظاهرون السينما وأحرقوها ، وأن عربة الإسعاف قد حملتها إلى قصر العينى ، فأسرعت إليها وأحضرتها إلى هنا .

ونظر «على» إلى الجسد المسجى مشدوهاً جزعاً وتساءل هامساً :

ـــ وكيف حالها ؟

ـــ كما ترى .. لقد احترق كل جسدها .. وبذل الدكتور «سليمان» أقصى ما يستطيع .. ربنا ينجيها .

وارتجف جفنا «كريمة» .. وانفرجا فى بطء وتثاقل ، ومضت برهة وعيناها تحملقان بلا وعى .. واقترب «على» منها فى سكون .. ووقف ينظر فى عينيها الغاربتين .. وأحس بحزن يثقل عليه ويرسب فى أعماقه .. وهمس بها فى رفق :

ـــ كريمة .

وكأنما بعث النداء فيها الحياة .. وردّ الروح .. فاهتز جفناها ، وتحركت مقلتاها فى محجريهما .. وبدت فيهما النظرة الراجية المتوسلة التى طالما تطلعت بها إليه ، وانفرجت شفتاها هامسة :

ـــ على .

ثم صمتت لحظة وأردفت فى لهجتها الخفيضة المهيضة :

ـــ خشيت ألا تحضر .. وألا أراك قبل أن أذهب .

ـــ لا تقولى هذا .. إنك بخير .

ـــ أنا لست بخير .. وأنا أستحق كل ما حدث .. كان يجب أن أكتفى .. بما وهبتنى من نفسك .. وأن أحمد الله على رفقتك .. ولكننى كنت شديدة الطمع .. فأردت أن أستولى عليك بأكملك .. وتقت إلى ما ليس لى فيه حق .. إلى أن أكون زوجتك .. وظللت بك حتى دفعتك إلى ما أتوق .

ـــ أنت لم تدفعينى إلى شئ .. لقد عرضت أنا عليك الزواج .

ـــ بل أنا التى دفعتك إليه .. بلهفتى عليه .. ورغبتى فيه .. إنك لم تسألنى الزواج إلا لترضى لهفتى ، وتردّ جميلى .. وأنت مخلوق مرهف رقيق .. تكره أن تخيب أمل إنسان أو ترد رجاءه .. لقد أذنبت فى حقك .

ـــ إنك لم تذنبى أبداً .. ثم إنه ليس هذا وقت إثارة نفسك بهذه الأحاديث ..

يجب أن تهدئى وتستريحى .

— بل يجب أن أتكلم .. إن راحتى فى الكلام .. لقد أذنبت فى حقك كثيراً .. وكل عذرى فى ذنبى أنى أحببتك .. أحببتك بجنون .. منذ أن لقيتك أول مرة ، وأنت طالب فى المدرسة .. ولكن الحب ليس عذراً لكى نذنب فى حق من أحببنا .. إن حبنا لشئ لا يبرر خطايانا فى سبيل الحصول عليه ، وليس من حقنا أن نصر على الحصول على الشئ لمجرد أننا أحببناه .. كان يجب أن أحتمل الحرمان .. كما احتملته أنت من قبل .. لقد أحببت أنت ، ولكنك روّضت نفسك على الحرمان ، وسلمت به .. أما أنا فقد أصررت على أخذك ، وعاونتنى الظروف على ذلك .. فقذفت إلىّ بالرسالة التى كنت تضع أملك فيها .. فأحرقتها .

— الرسالة !! أية رسالة ؟

— رسالتها إليك .. التى منحتك بها مزيداً من أمل .. لقد أحرقتها . فقطعت خيط رجائك ، وبددت أملك .. وألقيت بنفسك إلىّ تلتمس العزاء .. فصممت على الاحتفاظ بك ، ويبدو لى أن الله قد أرسل إلىّ الجزاء من جنس العمل .. لقد حرمنى منك كما حرمتك منها ، وأحرقنى كما أحرقت الرسالة .

— أنت أحرقت الرسالة ؟! كيف أحرقتها ؟

— لم أحرقها عن قصد ، وإنما تركتها تحترق .. كنت أستطيع إنقاذها ، ولكن شيطان حبك المستقر فى باطنى شلّ يدى .. فلم تمتد إليها حتى أتت عليها النيران .. لقد كرهت أن تصل إليك كلماتها الملتهبة .. فجعلت لهيبها رماداً .

— ولكن كيف وصلت إليك ؟! لقد قال لى « حسين » إنها لم تردّ .

— بل لقد ردّت بأحر وأخلص ما يردّ إنسان . ردّت عليك بما ألهب الغيرة فى جوانحى ، وأطار قلبى شعاعاً .. لقد وجدت الرسالة فى جيب أخيك وأنا أخرج علبة سجائره .. كان يقضى الليلة عندى ، وفى نيته أن يذهب إليك ليسلمك الرسالة فى الصباح ، وكنا مخمورين ، وفضضت الرسالة .. وأنا لا أعلم ما بها ،

ولم أكد أنتهى من قراءتها حتى ملأتنى المرارة واليأس وألقيت الرسالة جانباً ، وبعد لحظة رأيت نيران السيجارة ترعى فى ثناياها ، ووجدت سطورها تنقرض وكلماتها تتآكل ، ولم أحاول أن أمد يدى لإنقاذها .. فقد أحسست من لهيبها راحة كبرى ، وكأن النار التى صيرتها رماداً .. قد صهرت أغلالا ثقيلة تشدنى إلى هوة اليأس ، وبدا لى وقتئذ أننى قد قطعت الخيط الذى يجذبك بعيداً عنى ، ولم يكذب ظنى ، ولم يطل انتظارى .. فقد عدت إلىّ ذات ليلة ، وأنت مغرق فى اليأس ، وأحسست وأنا أضمك بين ذراعي أن روحى قد ردّت ، وعزمت على أن أحرص عليها ، فلا أدعها تفلت منى أبداً .. كانت رغبتى فيك وحبى لك أقوى من كل شئ .. أقوى من إحساسى بالذنب .. وكنت على استعداد لأضحى بكل ما أملك فى سبيل الاحتفاظ بك ، وكان يخيل إلىّ أنى أستطيع أن أهيئ لك من السعادة ما يعوّضك عن السعادة المفتقدة ، وأن أشدك إلىّ وأبدد يأسك .. ولكنى كنت لا أكاد أجذبك إلىّ ، حتى أجدك قد ازددت نأياً وتباعداً .. وأنى لأحس الآن ، رغم الليالى الطويلة التى قضيتها بين ذراعى .. أنى لم أمتلكك أبداً .. وأحس أن نعمة الحرمان خير من شقاء الامتلاك الكاذب .. لقد كنت أنانية .. حينما تركت الرسالة تحترق ، وكنت أكثر أنانية حينما دفعتك إلى طلب زواجى ، وأحس بأنى تلقيت جزائى ، وأشعر من هذا الجزاء .. براحة التفكير ، وكل ما أرجوه منك هو أن تمنحنى غفرانك ، وألا تشيعنى وأنا أفارقك بشعور السخط ، وأن تعتذر لى عن كل ما فعلت .. بشئ واحد هو أنى أحبك ، ولست أشك فى أن الحب هو أخف أسباب الذنب ، وأكثرها تبريراً لطلب الغفران .

وصمتت « كريمة » .. وكانت تلقى حديثها بنبرات متقطعة متهدّجة ، وصوت منهك مجهد ، وقد تعلقت عيناها بعلى فى نظراتها الراجية المتوسلة المستغفرة .

وكان « على » يلتقط كلماتها مأخوذاً مشدوهاً .. وقد تلاطمت

أمواج الأحاسيس فى نفسه ، حتي بدا كأنه يتخبط وسط أعاصير عاصفة ، لا يكاد يتبين منها مشاعره ، ولا يدرك أفكاره .

لقد ارتجفت الموءودة رجفة الحياة .. ونفضت عنها تلول الثرى ، وأكوام الأنقاض والأطلال ، ودنا الطيف النائى المبعد المظلوم يعاتب فى رفق ويشكو فى حنان .

وأحس « على » بالمرارة تفيض فى نفسه ، وهو يبصر الفراغ الطويل العريض الذى خلفته فيه السنون الطويلة من الهجر والفراق والقطيعة .

وبدا له كأنما يسير وحده فى صحراء مقفرة ، قد ضل طريقه فيها وأمعن فى الضلال ، حتى لم يعد له إلى النجاة سبيل .. وتلفت حوله ، فلم يجد سوى الجسد المسجى أمامه ، وقد رقد يطلب الغوث فى تلك الفلاة الموحشة .

ونظر إلى العينين المتوسلتين الراجيتين .. ولم يحس لهما شيئاً من البغضاء أو الضغينة .. بل أحس لهما كثيراً من حنان وشفقة .. لقد صدقت صاحبتهما .. إن الحب هو أخف أسباب الذنب وأدعاها إلى الغفران .. إذا كانت قد أذنبت لأنها أحبته .. فذنبه هو أشد لأنه لم يحبها .. لأن الذى يحب خير من الذى لا يحب .

ومهما حدث من أمر .. فهى إذا كانت قد أذنبت فإنها تعترف بذنبها .. وتطلب قطرات عفو ومغفرة .. أيبخل بها عليها ، وهى مشرفة على الهلاك ؟

أيشيعها بالبغضاء .. بعد أن أضاعت عمرها فى حبه ؟

واقترب منها حتى لاصق فراشها وأعيته الألفاظ .. ولم يعرف كيف يسوق إليها مغفرته وعفوه .. ولبث برهة مغرقاً فى الصمت ، وهى تتطلع إليه بعينيها الراجيتين المستغفرتين .

وفى بطء انحنى عليها حتى لامست شفتاها شفتيه وهمس قائلا :

ـــ ثقى أنى لا أحمل لك فى قلبى سوى أطيب المشاعر وأجمل الذكريات .

ورفع عنها وجهه وأبصر بدمعتين صافيتين تنسابان على الأربطة البيض ،

وكأنها تعبير عن أصدق آيات الشكر .

ووقف بجوار الفراش وقال :

ـــ تشدّدى .. وكونى قوية كما عهدتك دائماً .. إنى مضطر إلى العودة إلى مقر الرياسة فى الأزبكية .. وسأعود إليك فى الصباح المبكر .. إن المدينة قد أضحت خرائب وأطلالا .. وكان يجب ألا تغامرى بالخروج وسط هذه الثورة العاصفة .

وكانت « بثينة » قد عادت بعد أن تركتهما برهة ، فقالت معلقة على قوله :

ـــ لقد نصحتها بألا تنزل إلى البلد ، فقد كانت لدينا أنباء عن المظاهرات .. ولكنها أصرّت على ألا تخلف الموعد وألا تدعك تنتظر .

وأجاب على :

ـــ هذه مشيئة الله .. فليرعها الله ، ويكلأها بعنايته .

ـــ ستشفى بإذن الله .. إن الله لن ينساها ، فهى لم تؤذ فى حياتها أحداً ، ولم تفعل إلا كل خير .

ونظر « على » إلى « كريمة » وقال فى رفق :

ـــ تصبحين علَى خير يا « كريمة » .. شدّى حيلك .. سينتهى كل شئ .. سليمة بإذن الله .

وكررت « بثينة » قوله ، وهى ترفع يدها إلى السماء :

ـــ سليمة يارب .. ارحمها يارب .

وغادر « على » الحجرة ، و « كريمة » ترمقه بنظراتها الصامتة التى بدت أكثر رضاء وسكينة .

وهبط « على » من المستشفى ، وسارت به العربة تخترق الشوارع الصامتة إلا من صيحات الجنود .. وقرقعة النيران المتصاعدة من الأبنية المحترقة .. وكأنها أفران محمية يتأجج باطنها ، وكانت ألسنة اللهب ما زالت تتطاير ، ورائحة الحريق الخانق تملأ الجو .

وأحس « على » بالأسى يملأ جوانحه .. وبميل شديد إلى البكاء .. وبدت له حياته قطعة من الأطلال المحترقة ، سوداء قاتمة ، ما زال بباطنها وهج يستعر ليأتى على البقية الباقية منها . وبدأ يستعيد ما قالته « كريمة » عن رسالة « إنجى » المحترقة .. فزاد به الأسى وتضاعفت الوجيعة .

لشدّ ما أنكرها وظلمها .. فى تفكيره .. وأبعد عن ذهنه طيفها .. كان يقاوم ذكراها ، كما يقاوم الداء الفتاك .

والآن .. وبعد هذه السنين الطوال من البعد والقطيعة يحس بارقة أمل تلوح فى الصحراء المجدبة ، والظلمات الحالكة .. ولكن ما الفائدة ؟! ما فائدة هذا التفكير ؟! لقد أعانه الزمن على السلوان .. فلماذا يحاول أن ينكأ الجرح ويدمى القرح ؟

وأخيراً وصل إلى مقر الرياسة .. وأوى إلى مضجعه فى إحدى الخيام .. وأغمض عينيه ، والصور تتزاحم متكأكئة فى مخيلته .. صورة « إنجى » تهتف به عاتبة .. وصورة « كريمة » مسجاه فى أربطتها البيض ترنو راجية مستغفرة .. وتختلط الصورتان بصورة الجموع الثائرة ، والدور المحترقة ، والأصوات المستغيثة .

وقبيل الفجر أغفى برهة .. ثم استيقظ فجأة على صوت ينادى على باب الخيمة :

ـــ حضرة الصاغ .. حضرة الصاغ .

وهبّ من نومه متسائلا فى لهفة :

ـــ مَن ؟

ـــ أنا محمود ، عامل التحويلة .

ـــ ماذا هناك يا محمود ؟

ـــ التليفون عليز حضرتك .

ـــ مَن ... ؟

ـــ سيدة ألحت فى أن أوقظك .

وأحس « على » بيد قاسية تعتصر شيئاً فى باطنه .. وأصابه ما يشبه الغثيان .. لقد خشى المكالمة .. بما وراءها .

وأسرع يرتدى البنطلون والكبود ، ووصل إلى التليفون ورفع السماعة فأجابه صوت « بثينة » مختنقاً بالبكاء :

ـــ « كريمة » .. خلاص .. يا « على » .

أكان يصدق نفسه .. وهو يعدّد — إلى جانب مساوئ الوفد — مناقب « الملك » .

أكان يخدع الشعب .. أم يخدع الملك .. أم يخدع نفسه ؟

أكان ماكراً كبيراً ، أم أحمق أكبر ؟

أكان يرى أن بعض التطهير أجدى من عدمه ، وأن بعض الفساد خير من كله .. وأنه يمكن أن يصد مفاسد القصر باللين والمكر .. أم أن تأثير الملك عليه .. وخضوعه لسلطانه .. قد جعله يستمرئ الفساد الملكي ويراه فوق مستوى التطهير ؟

أياً كان الذى يراه .. لقد بدا فى حكمه وكأنه يتعلق فى الفساد بيد ، ويضربه باليد الأخرى .. أو كقاطع غصن يجلس على طرفه ، كلما زادت ضرباته تزعزع موقعه .. حتى يقطعه فيهوى معه .

وهكذا هوى الهلالى .. بعد بضعة أشهر .. وبعد أن ضاقت به الحاشية .. وضاق به الفساد .. وكان سقوطه مفاجأة له .. وإن لم يكن مفاجأة للمنطق .. فليس من المعقول أن يتشبث الفساد بمن يمعن فى محاربته ، ولا أن يظل الجالس على طرف الغصن معلقاً فى الهواء ، وهو يمعن فى ضرب الغصن .

وقيل إن الملك وحاشيته قد ارتشوا بمليون من الجنيهات من أحد رجال الأعمال فى سبيل إسقاطه ، وإحلال أحد موظفى رجل الأعمال محله .

وتولى « حسين سرى » الوزارة بوساطة رجال الحاشية .. وضمّ أحدهم فى وزارته .. ليتقى تدخلهم فيما بعد ، وكأنه يقول « وداونى بالتى كانت هى الداء » .

وهزل الحكام ، وضاعت هيبة الحكم .. وبدت مصائر الشعب والحكومات كأنها دمية يلهو بها « الملك » فى فترات اليقظة القصيرة التى يحس بها بين ساعات نومه وساعات جلوسه إلى مائدة القمار .

وكان الاستبداد الملكى محتملا عندما كان الملك يستبد بالأمة وأمورها ، وهو

فى وعيه ، بواسطة وزراء مسئولين وموظفين رسميين .. أما أن تهون البلد .. ويهون الشعب .. ويهون الوزراء والموظفون إلى هذا الحد .. إلى أن يستبد الملك بهم أجمعين ، وهو مغرق فى ملذاته وشهواته بواسطة قلة لا تزيد فى مجموعتها على خادم فراش ، أو سمير مائدة قمار ، أو زوج عشيقة ، أو قوّاد ، أو سائق عربة ، أو كهربى ، أو ما أشبه هذا .. فذلك ما لم يستطع احتماله أحد .. وما جعل أمور البلد تنحط إلى أسفل مهاوى الفساد والسوء وما عجّل بانهيار كل مثل أعلى أو عمل طيب .

و لم ينج الجيش رغم سيطرة الملك على رءوسه وطأطأتها له من أن يدس فيه بأصابعه غير المسئولة .. واستطاع أحد هذه الأصابع وهو « حسين سرى عامر » أن يحوز على أكبر قسط من بغضاء الضباط وكراهيتهم .. وبدا الملك كأنما يعشق البغضاء ويبحث عن الكراهية .. فزاد من تقريبه .. وتحدّى الضباط به .

وزاد التحدّى من تكتل الضباط .. وبدأت أول مظاهر التحدّى فى انتخابات مجلس إدارة نادى الضباط ، عندما جمع الضباط الأحرار نفوذهم ، وأسقطوا مرشحى القصر ، وأنجحوا مرشحيهم ، ورفضوا بالإجماع أن يكون للحدود الذى يرأسه « حسين سرى عامر » مندوب فى مجلس الإدارة .

و لم يكن لمجلس إدارة النادى فى حد ذاته أهمية ، ولكن أهميته وقتئذ كانت تنحصر فى كونها أولى المعارك المكشوفة بين الضباط الأحرار والقصر ، وبدا منها لأول مرة فى تاريخ الجيش عجز القصر عن فرض إرادته على الضباط .

واستشاط الملك غضباً ، وأمر أعضاء المجلس المنتخبين بواسطة الضباط بالاستقالة فرفضوا ، وزادت ثورته ، وأمر بغلق النادى .

وكان « على » خلال هذه الفترة .. يرقب الأحداث العامة فى سكون وانطواء واستسلام عاجز يائس .. محاولا جهده أن يجعل نفسه بمعزل عنها .

كان يشعر فى أعماقه بمرارة خلفتها حادثة موت « كريمة » ، وكان لا يستطيع

أن يمحو من ذهنه .. صورتها وهى مسجاة على فراشها ، وقد أخفتها الأربطة البيض عدا عين تدمع ،وشفة ترتجف .

كان لا يستطيع أن يمحو من أذنيه .. صوتها الخافت المتهدج وهى تقر بذنبها ، وتطلب مغفرته .

لقد كان واثقاً أنه لم يحبها فى يوم ما .. وأن كل ما أحسه لها لم يزد عن رغبة أو شفقة .

وكان واثقاً أيضاً .. أنها أذنبت فى حقه .. وأنها بددت هبة الأمل الحلو التى كان يتعطش إليها .. وقطعت خيط الرجاء الذى كان يعلق به روحه .. وألقت به فى هوّة سحيقة من اليأس الخانق .. ودفعت به إلى بيداء عريضة موحشة ، لا يؤنس وحدته فيها سوى ذكريات الهجر والقطيعة .

كان واثقاً بعد أن شيّعها من كل هذا .. ومع ذلك لم يستشعر حقداً عليها ولا ضغينة .. بل أحس من موتها الحزن الممض ، والأسى المرير .. وود لو استطاع أن يضمد جراحها .. أو أن يمنحها قبل الرحيل مزيداً من العطف والرقة والغفران .

كان موقناً من أن ذنبها — كما قالت — هو حبها له ، وكان يشعر أنها بذلت كل ما تستطيع لكى تؤنس وحدته ، وتزيل وحشته .. وتملأ فراغه .

ولم يستطع أن ينكر أنها نجحت إلى حد ما .. بدليل ازدياد إحساسه بالوحشة ، والفراغ ، بعد رحيلها عنه .

أجل .. لقد زاد شعوره بالوحدة والفراغ زيادة مروعة ، ولم يكن هناك شك فى أن رحيل « كريمة » كان بعض علته .. أما أصل العلة فهو عودة الحنين المطوى .. وتدفق الشوق المكبوت إلى الحبيبة الموءودة والطيف النائى .

كان اعتراف « كريمة » بحرق الرسالة .. بمثابة شرر أشعل هشيم المشاعر التى جففها طول الهجر .. وفرط اليأس .. وأضاء الظلمة المعتمة التى لفته .. فبدا له الفراغ الأجوف البارد الذى يعيش فيه .

لقد هدم الاعتراف فى لحظة .. سد القطيعة الذى شيده فى سنين .

كان يجلس الساعات الطوال فى شرفة الدار أو فى حديقة الميس ، شارد الذهن ، يجتر فى شرود ذكراها .. يدنى طيفها .. وينصت إلى همساتها .

ودفعه الحنين إلى أن يخرج آثارها وهداياها التى أمعن فى إخفائها ، كى يساعدنفسه على اليأس والنسيان .. وأعاد إلى معصمه ساعتها التى كانت تذكره بها فى كل دقة .. وفى كل ثانية .

لم يعد يخشى ذكراها .. أو يخاف طيفها .

و لم يكن الشوق العائد ، والذكرى المتدفقة ، والحنين الجارف .. مظهراً من مظاهر الأمل .. أو بشيراً من بشائر الرجاء .. فقد كان يعرف .. أن السنين قد أضاعت الأمل .. وأن طول القطيعة قد أطاح بالرجاء .. ويعرف أن شوقه لا يتعدى الشوق إلى ذكرى بائدة ، والحنين لا يعدو أن يكون حنيناً إلى طيف أوهام وأضغاث أحلام .

ولكنه لم يملك أن يكبح جماح نفسه المتعطشة اللهفى .. المحرومة حتى من الأوهام والأحلام .

لقد انتهى حبه كما بدأ .. حب تشيد قصوره على هامات السحب .. وتنسج خيوطه من الذهن ، والعين مغمضة .. والروح هائمة .. والقلب مرهف خفاق .

كان يهيء اللقاء ، ويتخطى السدود ، ويحطم القيود كما سبق أن حطمها فى صباه .. عندما كان يرقد فى فراشه فى بيتهم المجاور لأسوار القصر ، ويشم عبقها ، فى نسيم الليل بزهر البرتقال .

كان يجدد العهد .. ويعيد الود .. ويردد العتاب والمناجاة ، ويدبر الصلح .. وينظم الحياة المشتركة والمستقبل المأمول .

فإذا ما صحا من أحلام يقظته ، وأفاق من غفوة أوهامه .. أحس بالفراغ العريض المظلم الذى كانت تملأ « كريمة » بعض عرضه .. الوحدة المضنية التى كانت تخفف بودها وحنانها بعض وحشتها .

وكان « على » يسائل نفسه لو لم تحرق الرسالة .. كيف كانت تصبح حياته ؟! أتضحى حقاً كما يرسمها فى أوهامه .. ويشيد قصورها فى أحلام يقظته .. ؟! أم تراها لن تزيد عما قال أخوه « حسين » عندما عاتبه .. ذات مرة .. على إخفائه أمر الرسالة ،وتستره على حرق « كريمة » إياها .

لقد رفع « حسين » رأسه وتساءل فى دهشة .

ـــ من أنباك بأمرها ؟

ـــ « كريمة » .

ـــ متى ؟

ـــ ليلة وفاتها .

ـــ لتريح ضميرها ؟!

وأطلق ضحكة قصيرة ساخرة ، ثم أردف قائلا :

ـــ حمارة كبيرة .. أظنها قالتها وهى مسبلة العينين مرتجفة الصوت ، كأنها مذنبة تدلى باعترافاتها أمام قسيس ليغفر الله لها ؟

ـــ بل لأغفر أنا لها .

ـــ وغفرت بالطبع ؟ .. فأنت كعهدى بك غفور رحيم .

ـــ أتسخر يا حسين !

ـــ طبعاً أسخر .. ما هذا الذى غفرته لها ؟! أغفرت لها أكبر حسنة فعلتها فى حياتها ؟

ـــ حسنة ؟!

ـــ أجل .. حسنة غير مقصودة .. لقد منحتك الراحة من أوهامك الكاذبة وأمانيك الحمقاء ، ولو لم تحرق هى الرسالة لمزقتها وأنا فى طريقى إليك .. كان يجب أن يقطع ما بينكما بطريقة ما .. فأنت تعرف ماذا أصابك عندما حاولت اللقاء الأخير .. لقد ندمت على إعطائها الرسالة ، وتمنيت ألا تردّ ، وعندما ردّت هممت بتمزيق الرسالة لولا إحساسى بالضعف وبقية من أمل كاذب .. وقد أسرعت بالعودة إليك فى نفس الليلة.. خشية أن تذهب عني الضعف فأمزّقها..

فلماأحرقتها « كريمة » أدركت أن الله يحبك !

ــ أهذا تبرير لإرضاء ضميرك ؟

ــ ضميرى . أيها الأبله .. أنت تعرف أن ضميرى لا يغضب ، وإذا غضب فلا يهمنى إرضاؤه .. إنى لا أسمح له أبداً أن يدس أنفه فيما أعمل .. حتى لا يفسد حياتى .. إنما أقول لك ما أحس أنه حق .. أنت تعرف أنك شردّت بإيحاء من أبيها ، وتعرف أنه لو استمرت العلاقات بينكما ، لتطور الأمر إلى أسوأ من هذا .

ــ إنى لم أكن أطمع فى علاقة مادية .. كل ما كنت أرجوه ، وأقنع به .. هو إحساس كل منا بشعور الآخر .. هو استمرار الصلة الروحية .

ــ صلة روحية ؟!!

ــ أجل .. إنها الصلة التى لا تستطيع أن تقف فى سبيلها فوارق ولا تقاليد .

ــ يا أخى لا تكن أحمق ، ولا تتحدث كالصبية المراهقين .. ليست المشكلة فى الفوارق والتقاليد .. بل فى الطريقة التى تحاول بها تخطيها .. إن هذه الفوارق التى أعجزتك إلا عن الصلة الروحية .. لم تمنعنى من أن أعقد عبرها صلات لا تمت إلى الروح بصلة ، و لم تحل بينى وبين الرقاد مع الكثيرات من صاحبات السمو ، والاستمتاع بكل ما فيهن من تهتك وفجور ، لم أجده فى أكثر العاهرات حنكة وتجربة .. ثم أين هى الفوارق والتقاليد .. إذا كانت صحبة « الملك » الحاكمة المسيطرة ، لم تعد تزيد على خادم أو سائق أو حلاق .. إنك بمفردك تعادل الأسرة المالكة بحالها ، ولكنك مع ذلك تأبى إلا أن ترقد وراء سدود التقاليد والفوارق الموهومة ، تتطلع من ورائها إلى أميرتك الساحرة .. تطلع ابن الجناينى من كوخه إلى اسوار القصر العالية .. إنك تفكر بعقلية القرون الوسطى ، إنها ما زالت تنتظرك حبيسة فى أبراج القصر .. حتى تتخطى الأسوار ، وتحملها فوق جوادك ، وتصرع أباها وأخاها ، اللذين يقفان بنبالهما ليحرساها من ابــن الجناينى.. أنت تقبع غريقاً فى وحدتك وأوهامك، وهى تنطوى فى سجنها وعزلتها.. بلا زواج، ولا ظهور فى مجتمع ولا حفلات، كأنها راهبة فى دير، ولو تهتكت هى وفجرت أنت، لأضحى كل منكما فى أحضان الآخر بين يوم وليلة.

ـــ فجور وتهتك ومبيت فى الأحضان ؟! أهكذا كل ما تعرفه عن الحياة ياأخى ؟! ألا تستطيع أن تدرك أن بها أشياء أعمق مما يمنحه هذا تسيطر على نفوسنا ، وتمنحنا من المتع أكثر كثيراً من الفجور والتهتك والمبيت فى الأحضان .

ـــ لا .. لا أعرف ، أو أعرف أن هذه الأشياء العميقة التى تتحدث عنها ستنتهى بنا حتما إلى رقدة فى فراش ، إلى الفجور والتهتك والمبيت فى الأحضان .. إن هذا هو نهاية كل إحساس بين رجل وامرأة مهما عمق .. اللهم إلا إذا ظل إحساساً معلقاً لا يصل إلى نهاية ، كما يحدث فى قصص العشق الكبرى التى تسمع عنها ، أو كما سيحدث فى قصتك أنت ، وأميرتك الساحرة التى تنتظرك فى أبراج قصرها .

وأطرق « على » وبدا واجماً شارداً ، ومضت فترة صمت قطعها « حسين » بقوله وهو يهز رأسه فى عجب :

ـــ كنت أظن أن « كريمة » قد علمتك الواقعية .. وأخرجتك من أبراج أوهامك .. ومحت آثار « أنجى » .. ولكن يبدو لى أن آثارها كانت أعمق من أن تمحى .. وأنها كما تقول راسبة فى أعماقك ، مختلطة بدمك .. ويخيل إلىّ أنك ستقضى عمرك قابعاً وراء الأسوار ، تتمتع بالحرمان .. حتى يهن العظم منك ومنها .

ثم صمت برهة وأردف ضاحكا :

ـــ أو تقفز إليها بجوادك .. وتنقذها من وراء القضبان ، وتفر بها بين نبال أخيها وأبيها .

ولم يجب « على » .. وشرد ذهنه يتخيل الصورة الساخرة التى رسمها له هو على جواده وأمامه « أنجى » وقد تطاير شعرها الذهبى .. ومن ورائه تتهاوى النبال التى يطلقها الأمير وابنه .

ولم يشعر بسخرية من الصورة .. بل تمنى حدوثها .. وكره ألا يمنحه زمنه فرصتها ، وأن يتركه ـــ كما قال أخوه ـــ يقضى عمره قابعاً وراء الأسوار يتمتع

بالحرمان .

واقتنع « على » بأن حرق الرسالة أو وصولها لم يكن ليغير فى الأمر الواقع شيئاً .. وأن الحرمان واقع واقع .. وأن المشكلة — كما قال أخوه — ليست فى الفوارق والسدود ، ولكنها فى طريقة تخطينا لها .. وأحس أنه يفضل أن يبقى حيث هو يتمتع بالأوهام ويقبع وراء الأسوار .. من أن يتخطاها بطريقة « حسين » .

وهكذا قنع « على » بعزلته وأحلامه .. وروّض نفسه على الحرمان ، وكبت فى نفسه كل شوق إلى رؤيتها ، وقتل كل محاولة للقائها .. حتى دفع بها القدر إليه على غير انتظار .

كان اللقاء فى نادى الجزيزة وقد صحب « علىّ » « سليمان » تلبية لدعوة أحد زملائهما لتناول الشاى .

وكان « علىّ » يركب فى عربة « سليمان » ، وقد سارت العربة فى الطريق المجاور للنيل ، وتجاوزت مبنى الزهرية ، واندفعت فى طريقها ، ثم انحرفت يسرة فى الطريق المتسع الذى يخترق النادى .. وسمع « على » صوت « كلاكس » يعلو وراءهما طالباً صاحبه الإفساح لمرور عربته ، وحاولت العربة المرور فكادت تصطدم بعربتهما ، وأصر « سليمان » على ألاّ يفسح الطريق ، واستمر سائقاً عربته حتى وصل إلى مكان الوقوف ، والعربة الأخرى تلاحقه وتقف بجواره فى عنف ، ونظر صاحبها إليه وصاح فى حنق :

— تعلموا السواقة قبل أن تسوقوا .

والتفت « علىّ » إلى صاحب الصوت فإذا به « علاء » وإذا بجواره سهيلة ، وقد بدت على شىء من السمنة عقب زواجها به .

وصاح « سليمان » فى غيظ ، وقد ميّز « علاء » :

— تعلم أنت السواقة .

وأجاب « علاء » فى لهجته الوقحة :

ـــ إنى أعرف السواقة قبل أن يلبسوك هذه البدلة .. ليس الخطأ خطأكم إنه خطأ الذى عملكم ضباطاً ، وأعطاكم عربات .

وهبط « سليمان » من عربته فى حنق لتأديبه .. وهبط « علىّ » ليمنع المعركة .. ولم يكد يتقدم تجاه العربة حتى أبصر « أنجى » فى المقعد الخلفى .. وقد بدا عليها الضيق مما فعله « علاء » .

وتسمر « علىّ » برهة فى مكانه وكأن قوة قاهرة تمنعه من الحركة .. وبدا له أن يندفع إليها ليضمها بين ذراعيه ، ويتحسس شعرها الذهبى المعقود على قمة رأسها ، ويتلمس أنفها الدقيق وشفتيها الفاغرتين فى دهشة .

ولكن صيحة « علاء » الساخرة أعادته إلى وعيه .. فقد صاح به « علاء » عندما أبصره يهبط من العربة .

ـــ أهو أنت .. أما زلت ضابطاً ؟

وتوقف « سليمان » عن الاندفاع عندما أبصر « أنجى » .. وأبصر « علىّ » ينظر إليها مشدوهاً .

وأجاب « على » فى هدوء :

ـــ أجل .. ما زلت ضابطاً .

ـــ أما زلتم تحرسون الكبارى ، والمحلات التجارية .. وتسيرون فى الموالد والزفف !! لماذا لا تحاربون ، بدلا من التسكع فى الطرقات ؟! إن المفروض فى جيوش الأمم أن تحرس حدودها .. لا أن تزاحم أهلها فى شوارعهم .. اذهبوا وحاربوا الأعداء .. أمامكم اليهود والإنجليز .. اعملوا عملا مفيداً .

وأحسَّ « علىّ » بالدماء تتصاعد إلى وجهه ، وبدا له أن معركة توشك أن تحدث .. وتخيل حرج « أنجى » وضيقها .. ولم يجد بداً من أن يكبت غضبه .. ويكبح جماح ثورته .

وضحك « سليمان » ضحكة قصيرة مريرة وسحب « على » من ذراعه ، وهو يقول فى سخرية :

ــ أعداؤنا كثيرون .. غير الإنجليز واليهود .. وسنحاربهم جميعاً إن شاء الله .. ونعمل للبلد عملا مفيداً .

وهبطت « أنجى » ، وقد تعلق بصرها بعلى ، ثم سارت هى وأخوها وسهيلة إلى مبنى النادى ، وصعدوا بضع درجات وصلوا منها إلى الشرفة القائمة على مدخله ، واتجهوا إلى التراس القائم أمام حمام السباحة ، وجلسوا على منضدة قريبة من الحوض .

ووقف « سليمان » يتلفت حوله باحثاً عن صديقه اليوزباشى خيرى ، صاحب الدعوة .. فوجده يجلس على منضدة نائية فى أحد الأركان فاتجه إليه يتبعه « علىّ » .

وجلس « علىّ » ، وهو يحس بفورة رأسه .. وقد تملكه خليط من مشاعر الحنين والشوق التى أثارتها « أنجى » .. ومشاعر الغضب التى أثارها « علاء » بسخريته وإهانته .. وأحاسيس الحيرة التى أثارتها جملة « سليمان » الساخرة وضحكته المريرة .

وتمنى « علىّ » فى قرارة نفسه ، لو صدق قول « سليمان » ، وعمل الجيش فعلا .. شيئاً مفيداً نافعاً .. فقد أحس أن الجيش صار سخرية البلد الذى يجلس على فوهة بركان من الفساد والانحلال ، وتنتظر خلاصها على يديه ، وهو صامت لا يفعل شيئاً .. وكان كل من يلقاه يسأله : إلى متى سيظل الجيش ساكناً لا يتحرك .. والبلد يحتضر ؟! حتى آمن فى قرارة نفسه .. بأن الجيش هو القوة الفعالة التى يجب أن تفعل شيئاً .. والتى يجب أن تتحول من سيف يحمى الفساد إلى سيف يبتره .. ولكنه لم يكن يدرى كيف يمكن أن يحدث هذا .. ولا كيف ينتقل السيف من يد « الملك » إلى عنقه .

لم يكن هو يدرى كيف يمكن أن يحدث هذا .. ولكنه خيّل إليه أن « سليمان » يعرف .. وإن لم يحاول أن يحدثه عنه منذ أن خذله وضاق به .

وأحضر الجرسون الشاى ، وأخذ الثلاثة يتناولونه و « علىّ » يسترق النظر

إلى « أنجى » .. وقد بدا له جانب وجهها ، وهى تنظر شاردة إلى مياه الحمام الزرقاء .

وحملته المياه الزرقاء .. إلى مياه « المعمورة » .. وتذكر لطمة الموج .

وقبل أن يسترسل فى شروده الممتع ، أقبل أحد أصدقاء « خيرى » وحياهم ، واتخذ مقعداً على مائدتهم ، وعرفهما به « خيرى » على أنه « محمد عثمان » الصحفى .

وبدأ « عثمان » حديثه متسائلا فى لهجة تنم عن الخطورة :

ـــ أعرفتم أن « حسين سرى » استقال ؟

وبدت الدهشة على وجوههم ، وقال « سليمان » :

ـــ غير معقول .. إنها قد أضحت مهزلة .

وتساءل « على » :

ـــ ولماذا استقال ؟

ـــ لأنه طلب تعيين محمد نجيب وزيراً للحربية فرفض « الملك » وأمر بتعيين « حسين سرى عامر » .

وصاح الثلاثة فى نفس واحد مذهولين :

ـــ حسين سرى عامر .. وزيراً للحربية !!

ومضت برهة صمت ، وهز « علىّ » رأسه وقال فى أسف وسخط :

ـــ إن هذا منتهى الحمق .. إنها إهانة مصوّبة لمشاعر الضباط .. وتحد أبله .. يريد أن ينال من كرامتهم .. غير معقول أن يسكتوا على هذا .. لا بد أن يفعلوا شيئاً !

(٥٨)

فجر جديد

غادر سليمان و « علىّ » نادى الجزيرة ، وسارت بهما العربة متجهة إلى الثكنات ، حيث كان « على » ضابطاً عظيما للطوارىء .. واستغرق « سليمان » فى شرود شديد ، وتفكير عميق .. وسادت بينهما فترة صمت لم يلبث « سليمان » أن قطعها فجأة متسائلا :

ــ ماذا دفعك إلى القول بأن الضباط لن يسكتوا على ما حدث ، وأنهم لا بد أن يفعلوا شيئاً ؟

ودهش « على » من سؤال « سليمان » المفاجىء ، ومضت فترة قبل أن يجيب فى لهجة حائرة مترددة :

ــ لأنى .. لأنى أحسست أن دمى يغلى فى عروقى ، وأنا أسمع عن هذا التحدى السافر لنا .. والاستخفاف الصريح لمشاعرنا ، والاستهتار العابث برغباتنا .

ــ عجباً !

ــ ما هو هذا العجب ؟

ــ أن يغلى دمك فى عروقك لمثل هذه الأشياء .. لم أتخيل أبداً أنه يمكن أن تشاركنا فى مشاعر الثورة ، وإحساسات الغليان .

ــ ولماذا ؟

ــ لأنك تأبى دائماً الاشتراك فى المشاعر العامة ... أنسيت أنك كنت تقول دائماً .. إنه يكفى أن تفعل واجبك كضابط .. لكى تقر نفسك ، ويهدأ ضميرك ، وأنه يجب على كل إنسان أن يعمل فى حدود واجبه .. وأن التشاغل بالسياسة العامة مظاهرات صبيانية ؟

— أجل .. لقد قلت هذا .. ولكن إذا كانت الأمور قد اضطربت من حولنا ، واختلفت المقاييس ، واستشرى الفساد ، ولم يعد هناك من يعرف حدود واجباته ، وأشرفنا كلنا على الهلاك .. فأظن أن الخروج عن حدود الواجبات لإنقاذ البلد ، لا يعتبر مظاهرة صبيانية .

— أتقول هذا من قلبك ؟

— وهل عوّدتك الثرثرة والسفسطة ؟

— أليس ما بك فورة غضب ؟

— وهبه كذلك .. ماذا يحركنا فى حياتنا غير الانفعالات والفورات .

— أأفهم من ذلك أنك على استعداد ، لأن تشارك فى فعل هذا الشىء الذى لا بد أن يفعل ؟

وصمت « علىّ » برهة ، ونظر إلى « سليمان » نظرة فاحصة ، وتساءل فى شىء من العتاب :

— أتستدرجنى يا « سليمان » ؟! لماذا لا تصرح لى بما فى ذهنك مباشرة بدل هذا اللفّ ؟

— أجبنى أولا .. أأنت على استعداد للاشتراك فى هذا الشىء الذى تحس أنه يجب عمله ؟

وأجاب « على » بلا تردد :

— طبعاً على استعداد .. ما دمت أفهمه .. وأعرف إمكانياته وحدوده .. ووسائله وأهدافه .

— ستعرف كل هذا بالطبع .

— أهو شىء مدبر جيداً ؟

— تمام التدبير .. لقد أعددنا لكل شىء عدّته .. ووضعنا الخطة المحكمة .. وقد أصبحت كل قوّات الجيش فى أيدى ضباطنا ، تستطيع أن تحركها وقتما تشاء .. وكان التصميم على أن نقوم بحركتنا فى نوفمبر ، ولكن يبدو أن الأمور

تتعجلنا .. فقد بات من الخطورة أن ننتظر أكثر من هذا .. لو تولى « حسين سرى عامر » الوزارة فسيفتك بنا .. يجب أن نأخذهم قبل أن يأخذونا .

— وما هو المفروض علىّ أن أعمله ؟

أن تكون بكتيبتك جاهزاً لتأدية ما يطلب منك فى حينه .

— ألا يجب الاستعانة ببعض ضباط البلوكات ؟

— سنستعين بهم جميعاً .. فكل ضباط كتيبتك من الأحرار .. وهم يعرفون واجباتهم جيداً .

— ضباط كتيبتى أنا من الأحرار؟! وكان المفروض أن تخرج الكتيبة بدونى.. ألا تخجل من هذا يا « سليمان » ؟

— أنا الذى أخجل .. أم أنت ؟ طالما حاولت أن أضمك إلينا ، فسخرت منى . واتهمتنى بالعبث .

— لم أكن أظن أعمالكم تتعدّى بضعة المنشورات التى تهاجمون فيها الفساد .

— والآن ؟

— يبدو لى أنكم مقدمون فعلا على عمل جدّى .. ولكنى أخشى ألا تكونوا قد حشدتم له الإمكانيات اللازمة .

— لا تخش شيئاً .. دعها لله .

وكانت العربة قد عبرت باب السوارى ، وسارت فى طريقها إلى الآلاى الخامس .. وسأل « علىّ » « سليمان » وهو يغادر العربة :

— إلى أين ؟

— لدينا اجتماع فى بيت « جمال » ... لا بد أن نتخذ فيه قراراً حاسماً .. سأنبئهم بأنك انضممت إلينا ، وسأمر عليك بعد الاجتماع .

وفى تلك الساعة كان حشد من العربات ، قد تكأكأ على بيت « الهلالى » على شاطئ البحر فى الاسكندرية قرب « المندرة » وكان الصحفيون يدبون حول البيت كالنمل يتنسمون الأخبار ، بعد أن شاع خبر تكليف « الهلالى »

بتشكيل الوزارة .

وكان « الهلالى » قد قبل الوزارة كردّ اعتبار لاستقالته السابقة .. وبعد أن اشترط على القصر عدة شروط ، وعد بتنفيذها ، وكان أهمها إقالة « حسين سرى عامر » وتعيين « نجيب » قائداً عاماً للقوات المسلحة (وهو ما كان قد طالب به قبل استقالته) وإجراء الانتخابات وإلغاء الأحكام العرفية فى الوقت الذى يراه مناسباً ، وحسب إرادة الوزارة لا حسب إرادة القصر .

وتم تشكيل وزارة « الهلالى » الثانية فى اليوم التالى دون تدخل من القصر فى أول الأمر ، وتناول الوزراء غداءهم فى بيت « الهلالى » وجلسوا ينتظرون عودته من القصر بالمراسيم حتى يذهبوا لحلف اليمين ، وقبيل الثانية ظهراً عاد « الهلالى » وقد بدت عليه مظاهر القلق ، وقال لهم إن « المراغى » كان قد أنبأه أنه مرهق بوزارتى الداخلية والحربية ، وأنه قد سأله أن يعفيه من إحداهما ، ولذلك كانت النية متجهة إلى تعيين وزير للحربية فى المستقبل القريب ، ولكن « الملك » رأى أن ننتهى من المسألة الآن ، وأن يعهد بوزارة الحربية إلى « إسماعيل شيرين » .

وبدا الوجوم على الوزراء .. وأحسوا بالمأزق الذى تورّطت فيه الوزارة ، وهى وشيكة التشكيل ، ووجدوا أن أول الشروط التى قبل على أساسها تشكيل الوزارة — وهو عدم تدخل القصر فى شئون الوزارة — قد ضرب به عرض الحائط ، بل بات مجرد ذكره محل سخرية .. بعد أن فرض « الملك » زوج شقيقته وزيراً للحربية .

وطلب وزير المواصلات « طراف : على » أن يكون تعيين « إسماعيل شرين » مصحوباً فى نفس الوقت بإقالة « حسين سرى عامر » حتى يحدث بعض التوازن ، ويحمل شيئاً من الترضية للرأى العام فى الجيش .

واعترض « الهلالى » بأن إخراج « حسين سرى عامر » فى نفس الوقت الذى يعلن فيه تشكيل الوزارة غير مستطاع ، وأكد أنه سيخرجه فى أول اجتماع لمجلس الوزراء .

وأقسم الوزراء اليمين ، وفى المساء أذيعت مراسيم التشكيل .

وفى الوقت الذى تمخضت فيه أضواء الإسكندرية عن آخر وليد ظهر فى سلسلة الوزارات المتتالية التى أنجبها تهتك « الملك » السياسى وعبثه بالحكم كانت ظلمات القاهرة تتمخض عن وليد طالما هفت إليه قلوب المصريين ، وتنسمت من مولده نسائم الخلاص وبشائر التحرر من رق الفساد والانحلال .

كان « على » قد التقى بـ « جمال » (الرأس المدبر للثورة) مع « حسين » و « خالد » و« ثروت » وبقية الضباط الذين سيقودون حركة الفرسان فى منزل أحدهم فى ثكنات العباسية .

وكان ذهن « على » مشوشاً مضطرباً ، وكانت المسألة كلها فى نظره لا تزيد على مغامرة حمقاء ستنتهى بهم إلى السجون أو المشانق ، وإن كان الإقدام عليها أمراً لا بد منه ، وفداء لا مناص من تقديمه .

ولكنه لم يكد يجلس إلى الفتى الأسمر العريض المنكبين المجعد الشعر ، ويستمع إليه ، ويحس بحرارة إيمانه ، وشدة ثقته .. حتى أحس أن النصر مضمون والفوز أكيد .

كان يعرف « جمال » من قبل .. يعرفه كرجل رزين متئد ، ولم يكن يتصوّر فيه كل هذه القوة من العزيمة والإيمان والاندفاع .

وكان يرقبه صامتاً مشدوهاً .. وكأنه بطارية تستمد شحنتها من مولد قوىّ ، حتى انتهى « جمال » من حديثه .

وكان آخر ما سمعه منه ما قاله لزميلهم « ثروت » ، وهو يضغط فى عزم على نواجذه : « اضرب بشدة .. نحن نعمل لمصر ، فلا مجال للعواطف » .

وغادرهم الدينامو المتحرك ، العريض المنكبين ، الفارع القامة ، بقميصه وبنطلونه ، ورأسه المجعد العارى ، لينقل تعليماته إلى الكتيبة الثالثة عشرة التى كانت ستقوم بالدور الأساسى للمشاة .

كانت الكتيبة قادمة من العريش فى طريقها إلى السودان ، وقد استقرت برهة

فى القاهرة لتتأهب للسفر ، وتمنح أفرادها الإجازات اللازمة .. وكانت أبعد الكتائب عن الشبهات لا فتقارها إلى الذخائر والعربات وتطرّف موقعها فى أقصى ثكنات العباسية ، وكان ملخص خطتها أن تقوم إحدى سراياها بتطويق « قشلاق العباسية » من ناحية بوابة المؤسسة ، وتحتل سرية أخرى محطة الإذاعة ، وتحتل الثالثة رياسة الجيش والرابعة رياسة الحدود .

ووزعت الأوامر التفصيلية على الضباط ، وعرف كل ضابط فى كل سلاح واجبه .

وجلس « على » وزملاؤه ينتظرون فى بيت صاحبهم فى الثكنات ، وأخذ الوقت يمر بطيئاً متثاقلا .. وكل منهم يحاول أن يجتذب زملاءه من شرودهم ويقطع هذا الصمت البغيض بكلمة أو بضحكة تنطلق عالية جوفاء ، ولا تلبث أن تخفت كالشرر المنطفئ ، ويعود كل منهم إلى أفكاره البعيدة .

ورغم الأحداث الخطيرة ، فقد انطلق « على » بذهنه يفتش عن الطيف النائى ، ويوقظ الراقد — لا الموءودة — فى القلب ، وتذكر آخر لقاء لها .. وأخذ يستعيد لنفسه جلستها ونظرتها .. كيف وجدته ، وكيف أحست له .

أتراها تذكره فى رقدتها ، كما يذكرها فى يقظته ؟

أتذكره فى أمنها ، كما يذكرها فى مخاطرته ؟!

أيخطر ببالها ما هو مقدم عليه ؟

لو نجحت هذه الثورة التي يوشك أن يخوض غمارها ، ماذا تراها قائلة ؟

أتراها ستضيق بها من أجل أسرتها ، أم ستسعد بها من أجله .. ومن أجل مصر ؟

إنه يعرف تفكيرها ، ويعرف عقليتها .. إنها لا شك سترحب بها .

سترحب بها على الأقل ، لأنها ستضيق هذه الهوّة الواسعة التى بينهما أو تطيح بها .. فلن تكون هناك إمارة ، أو نبل ، أو سمو ، أو عظمة .

أحقاً سيحدث هذا ؟! أيمكن أن يطأطئ أبوها رأسه ، ويجدع أخوها أنفه ؟

ولكن ما هذه السخافات التي يفكر فيها ؟ أمن أجل هذا اشترك فى الثورة ـ؟!
أمن أجل هذا يريق هو وإخوانه دماءهم ويقدّمون أعناقهم ؟

أم من أجل الملايين المستعبدة الذليلة ؟

أجل .. من أجل هذا تقدّم الأعناق .

وتذكر أمه .. ماذا تراها قائلة .. لو عرفت بما هو مقدم عليه ؟!

أما كان خيراً له لو رآها الليلة .. وودّعها .. وتلقى إحدى دعواتها !

لا .. لا .. ليس هناك ما يدعو لكل هذا .

وأطلق أحدهم نكتة لم يسمعها « على » ولكنه لم يملك إلا المساهمة فى الضحك عليها .

ونظر آخر فى ساعته وقال :

ـــ الساعة الحادية عشرة إلا خمسة .. هيا بنا .

وتحركت العربة فى سكون الليل وظلمته الجاثمة ، التى لا تبددها إلا مصابيح متناثرة فى طرق الثكنات تلوح هنا وهناك حمراء مرتجفة .. وأخذت تقترب من السور الشائك القائم على الحدود الخلفية لثكنات الفرسان ، ومن إحدى الفتحات نفذت العربة ، وكل من بها واجم شارد ، واحتمال الفشل يستبد بأذهانهم كلما قربت الساعة الحاسمة .

وكان كلّ ما حولهم يبعث الشك .. ويثير الريبة .. هذه عربة تطاردهم .. وهذه أصوات تقترب منهم .. وهذه آذان تنصت إليهم .

وعندما وصلت العربة إلى الثكنات انقطع النور ، وساد المكان ظلمة بغيضة موحشة ملأت نفوس الثوار قلقاً وتشاؤماً ، ولكن ضخامة العمل وفرط الإيمان ، كان أقوى من التشاؤم .. وسرعان ما أوقدت الشموع ، وألقيت الأوامر ، وسرت بين الكتائب حركة دائبة ، جعلت الثكنات المظلمة كخلية النحل .

وفى ذلك الوقت كان أول أنباء الحركة قد أخذ يتسرّب إلى رياسة الجيش ،

فقد كان أحد ضباط المدفعية يغادر بيته متجهاً إلى الثكنات قبيل العاشرة للقيام بما عهد إليه .. فسألته والدته عن سرّ خروجه فى هذه الساعة .. فلم يستطع حماسه أن يمنعه من أن ينبئها أنها ستسمع غداً عما فعله ، وستعرف الدور الذى لعبه فى تاريخ مصر .. وتوجست السيدة خيفة من قوله ، ولم تشك فى أنه قادم على مغامرة قد تودى به .. فأنبأت أخاه الأكبر ، وهو أحد ضباط الطيران القدامى ، فحجزه فى البيت وأسرع بإبلاغ الضابط النوبتجى فى قصر القبة .. وانتقلت أنباء الحركة إلى رئيس هيئة أركان حرب .

ويبدو أن إذاعة أنباء الحركة قد انطبق عليها المثل « ربّ ضارة نافعة » .. أو أن الله كان يشد أزر الرجال الأوفياء .. الذين قدموا أعناقهم فى سهولة ويسر .. فحوّل كل عناصر الشر لتكون خيراً فى جانبهم .. فقد نتج عن هذه الإذاعة أن تجمّع كل رؤساء الجيش ليقدموا أنفسهم صيداً سهلا ، وغنيمة باردة لأيدى الثوار .

كان رئيس هيئة أركان حرب الجيش يعتقد أن حركة الضباط ستوجه ضد قصر عابدين .. فاتجه بعربته هو ومدير مكتبه .. ورئيس الإمداد والتموين إلى مقر البوليس الحربى فى المحطة ، حيث كان يمكنه الحصول على قوة عاجلة ، دون إثارة الشكوك .. وسأل الضابط النوبتجى عن عدد القوة التى يستطيع تجهيزها فى التوّ ، فأجابه الضابط بأنه يمكنه أن يحرك أربعين جندياً .. فأمره بأن يتبعه بهم إلى قصر عابدين ، وأن يعد بقية القوة للحاق بهم .

ووصلت القوة إلى ميدان عابدين محملة فى عرباتها .. يتقدمها راكبو الموتوسيكلات، فأمر بإطفاء أنوار الميدان ، والكف عن إحداث أى ضجة لعدم إثارة الشكوك .. وأخفيت القوة فى مبنى الحرس المشاة الكائن عن يمين القصر ، وأرسلت دوريات لحراسة المداخل المؤدية إلى الميدان .. وتحركت الموتوسيكلات فى دوريات سيارة إلى ميدان العتبة والأزهار .

وكان رئيس هيئة أركان حرب يبدو مرحاً متمالكا لأعصابه ، وفى اعتقاده أن

المسألة لا تعدو مجرد « تهويشة » وأن كلّ شيء على ما يرام .. وأن أقصى ما يمكن توقعه هو تجمهر بعض الضباط حول عابدين تجمهراً لا يتعذر فضه ، واستقر رئيس هيئة أركان حرب فى مكتب ضابط نوبتجى البوليس عن يمين مدخل التشريفات .. وانهمك فى الحديث بالتليفون .. واتصل به « أحمد كامل » قائد بوليس القصور للاستفسار عن حقيقة الموقف ، فطمأنه بأنه لا يوجد أى اضطراب ، وأن الحالة هادئة ، وأنه واثق من عدم حدوث أى شيء نتيجة اتصاله بالقواد ، وأمره إياهم بالذهاب إلى أماكن قياداتهم .

وتوجه « حسين فريد » بعد ذلك إلى قصر عابدين للمرور على أسلحة الجيش ، حتى يطمئن على هدوء الحالة بنفسه .

ووصل إلى سلاح الفرسان قبيل منتصف الليل .. وفى صحبته قائد القوات المدرعة .

وفى ذلك الوقت كان القلق قد بدأ يسرى فى نفس « على » وزملائه عندما اتصلت بهم رياسة قسم القاهرة ، وسألت عن قوة الطوارئ ، وعن المدة التى يمكن أن تكون جاهزة خلالها للتحرك .

وبدا السؤال من رياسة القسم فى هذا الوقت مثيراً للقلق والمخاوف . ولكن البكباشى « حسين » الذى كان يتولى رياسة قوات الفرسان أجاب فى ثبات وبساطة أن الوقت اللازم لتحريك القوة هو ساعة . ثم أمر « تروب » من الدبابات بالتحرك إلى بوابة التكنات القائمة عند تقاطع كوبرى القبة ، لكى يكون مستعداً للحركة فى أية لحظة .

وفى هذا الوقت وصل رئيس هيئة أركان حرب وقائد القوات المدرعة إلى بوابة السوارى .. وأدهشهم وقوف الدبابات على أتم استعداد للحركة .. وأحسا بخطورة الموقف ، وسأل « حسين فريد » ضابط « التروب » عن سبب وقوفه فى مكانه .. فأجابه بأنه من قوة الطوارئ وأنه فى حالةاستعداد .. فسأله عمن أمره بذلك .. فأجابه بأنه قائد الكتيبة .

وطلب « حسين فريد » من الضابط النزول فرفض الضابط وبدا له بوضوح أن الموقف يوشك أن يفلت ، فأسرع إلى مكتبه لإحضار القواد لإخماد الحركة .. واتجه حشمت قائد القوات المدرعة إلى داخل الثكنات للسيطرة على الموقف ، ولكنه لم يكد يقترب من ثكنات الخيالة . حتى أحاطت به ثلة من الجنود ، وأسرع أحدهم لإنباء قيادة الحركة .

وأذهل الضباط نبأ وصول الأمير الاى « حشمت » .. و لم يعد لديهم شك فى أن حركتهم قد كشفت . وأن مصير البلد ومصائرهم قد باتت معلقة فى خيوط اللحظات الدقيقة الحاسمة التى تمر بهم .. وفى قدرتهم على التصرف والتمالك والحزم والإقدام خلال هذه الهنيهات العصبية .

وأحس « علىّ » بدقة الموقف ، وهو يرى وصول قائد القوات المدرعة فى هذه اللحظة الحرجة التى يتأهب فيها للتحرك بين آونة وأخرى .. وأحس برجفة ، وهو يتخيل ما يمكن أن يحدث لو استطاع القائد أن ينتزع منهم زمام الموقف ، ويسيطر على القوات ويخضعها تحت أوامره .

لم يكن ذلك بالأمر المستبعد .. وهو القائد الفعلى للقوات ، المفروض أن تتلقى منه أوامرها .. لا سيما أن أغلب الجنود لم تكن لديهم فى أول الأمر فكرة عن أسباب تحركهم .. كلّ ما كانوا يعرفونه ، هو أن القوّات فى حالة طوارئ وأنها تستعد للتحرك للمحافظة على الأمن .

وزاد من إحساس « على »برهبة الموقف وحرجه ما طبع عليه من خلق عسكرى .. غرس فى نفسه طاعة الرؤساء واحترامهم .. مما جعله يسائل نفسه .. كيف يمكن أن يواجه قائده — الذى تعود طاعته واحترامه — مواجهة خصم خارج على الطاعة ، ثائر على النظام .

وكان « حسين » أول من تمالك نفسه ، وقال للضباط فى حزم :

— إن مجئ « حشمت » إلى الثكنات فى صالحهم .. فقد كان مفروضاً أن يقبض عليه فى بيته .. أما وقد جاء بقدميه .. فقد ألقى بنفسه فى الفخ .. ولا شك

أنه سيمنحهم باعتقاله طمأنينة كبرى .

وقفز « حسين » « وثروت » إلى إحدى عربات الجيب .. و لم يكادا يصلان إلى « حشمت » حتى صاح « بحسين » آمراً إياه بصرف الجنود .

وأجابه « حسين » فى هدوء .. بأن لا داعى للمقاومة ، وأنه قد أتى لتأمينه من الجنود ، وطلب منه العودة معهم فى هدوء .

ووجد القائد نفسه ، وقد وقف بين ضباطه الأصاغر ، وقد صوّبوا إليه أحد مدافع الأستن ، وبدا أنه لم يستطع أن يقنع نفسه بجدّية العمل الذى هم مقدمون عليه ، وأراد أن يستعمل تأثيره الطبيعى عليهم فأخذ يحذرهم من عواقب هذه الأعمال الصبيانية ، وقال لهم إنهم يلعبون بالنار ، ولا يقدرون مسئولية مثل هذا العمل الذى هم مقدمون عليه .

وأجاب « حسين » فى هدوء وثقة بأنهم يعرفون بالضبط ما يعملون ، وأنهم يعرضون أنفسهم للخطر .. ولكنهم يشعرون أن أرواحهم تهون كثيراً إذا ما قيست بالهدف الذى تبذل من أجله ، وهو إنقاذ البلد من حالة الانحطاط والفساد والضعة التى وصلت إليها .

وعاد « حشمت » يضرب على وتر العاطفة الحساس .. فأنبأهم أنه قائدهم الذى علَّمهم ، وهم أحداث صغار .. وأنه ينصحهم كوالد لهم .

وبنفس الهدوء والاحترام أجابه « حسين » بأنه لو كان أبوه مكانه لما تصرف معه بغير هذا .

و لم يجد القائد بداً من التسليم ، وحاول أن يركب عربته فأمره « حسين بأن يركب معهم العربة الجيب .. ولكن العربة عطلت .. فاضطر إلى السير إلى ثكنات القوات المدرعة سيراً على الأقدام .

وكان القبض على قائد القوات المدرعة أول خطوات الحركة الإيجابية ، وأحس « علىّ » بعده أنهم قد دفعوا بأيديهم إلى النار ، وزجوا بأنفسهم إلى أتون المعركة .. وطغى حماسه للمعركة على كل إحساس بالقلق أو الرهبة .. وأخذت

« تروبات » كتيبته تتحرك لا حتلال أماكنها المعينة لها ، الواحدة تلو الأخرى .. وعندما انتهى من تحريك كتيبته كان عليه أن يرافق « سليمان » إلى تكنات العباسية .. للعمل مع الكتيبة الثالثة عشرة .

وكان ضباط الكتيبة قد تجمعوا عند « الميس » فى ثكنات العباسية .. و لم تكن تبدو عليهم سمات المقدمين على أمر جلل .. كان البعض منهمكاً فى لعب الطاولة ، والبعض يتناولون الساندوتش والكوكاكولا ، والبعض الآخر قد التفوا حول الراديو .. يسمعون إذاعة مراسيم تشكيل الوزارة .

وأقبل « علىّ » « سليمان » على ضباط الكتيبة فأنبأوهم بالقبض على قائد المدرعات ، وبخروج القوات المدرعة لاحتلال أماكنها فملأهم طمأنينة وثيقة ، وأزالا الوساوس التى دفعها إلى نفوسهم نبأ اكتشاف الحركة .

وبدأ الضباط يغادرون « الميس » لإعداد جنودهم للتحرك ، وفى هذا الوقت وصلت بعض عربات محملة بالذخيرة من مركز تدريب اللواء السابع .. وصرف البنزين للحمالات المدرعة ، ونبّه على سائقيها بعدم إدارتها حتى لا تحدث ضجيجاً يثير الشكوك .

وبعد فترة وصل « قول » من عربات خدمة الجيش لنقل الجنود ،وبذلك أضحت الكتيبة جاهزة للتحرك بذخيرتها وعرباتها .

وتحركت السرية الأولى ، ومعها جماعة حمالات مدرعة وتحرك معها « سليمان » ليقودها إلى « تروب » العربات المدرعة (الهمبرا) الذى كان ينتظرها عند مدخل الثكنات فى شارع الخليفة المأمون .. وتحركت بعد ذلك السرية التى كان عليها ضرب نطاق غربى الثكنات عند باب المؤسسة .. وكان على السريتين الثانيتين أن تتحركا مع الدبابات للإذاعة والحدود فى الساعة الرابعة والخامسة صباحاً .

وتحرك قائد الكتيبة لمعرفة تطور الموقف فى إحدى عربات الجيب ، وبجواره «زكريا» وفى الخلف جلس «حماد» و «علىّ» وقد أمسك كل منهما بمدفع أستن .

وأخذت العربة تقطع الطريق الرئيسى للثكنات ، وقد خيمت من حولها الظلمة وساد السكون إلا من صوت ما كينة العربة ، وصوت إطارات العجل تطوى الأسفلت .

وبدت من حولهم أشباح أشجار الكافور .. سوداء داكنة تطبق على أبنية الثكنات المنخفضة ، كأنها عبء يجثم عليها .. وأرخى « علىّ » قبضته على مقبض المدفع الذى لم يفارق يده لحظة واحدة .. وترك أصابعه تسترخى عليه .. وإن لم تتركه .

كان يحسّ منه قوة وثيقة .. وكان يذكر كلما شدّ عليه يده كلمات « جمال » ، وهو يضغط على نواجذه ، ويقول فى حزم : « اضرب بشدة .. نحن نعمل لمصر .. فلا مجال للعواطف » .

كان يعرف أن هذا المقبض .. هو الذى سيضع حداً للعواطف الرقيقة غير المطلوبة فى هذا الوقت العصيب .. وكان يؤكد أن هذه القطعة الصلبة الباردة من الحديد ، لن توقف طلقاتها الحارة شفقة ، أو عطفاً .. فقد كان مصير الحركة .. أو مصير مصر .. فوق كل شفقة .. وفوق كل عطف .

وكان يشعر بتوقد فى الذهن ، وتوتر فى الأعصاب .. و لم تكن أذناه لتكف عن سماع حركة جنازير الدبابات .

وهبت عليه ريح الليل الرطبة والعربة تنهب بهم الأرض فلفحت وجهه ، واندفعت إلى خياشيمه .. وأحس بلحظة استرخاء ترك خلالها قبضته تستريح على مقبض المدفع .

وفجأة طرق أذنيه صوت طلقات سريعة ، فشدّد قبضته على مدفعه ، وأطفأ « شوقى » قائد الكتيبة نور العربة التى كان يقودها .

وبلغت مسامعهم فى نفس الوقت نفخات البورى تنبعث فى جوف الليلة بنوبة « كبسة » فاتجهوا بعربتهم إلى مركز تدريب اللواء السابع .. فلقيهم زميلهم « عبيد » حيث أنبأهم بخطورة الموقف ، لأن قائد اللواء السابع قد وصل إلى

مركز قيادته ومعه بعض ضباط اللواء ، وأنه يقوم بتجهيز اللواء للقضاء على الحركة .

ولم يجدوا بداً من العودة إلى البوابة الرئيسية فى ميدان العباسية ، حيث كان مفروضاً أن تحتلها إحدى قواتهم ، ولكنهم ما كادوا يقتربون منها ، حتى وجدوا أن قوات البوليس الحربى قد احتلتها .

وأسقط فى أيديهم بعد أن سدّ الطريق أمامهم ، ولم تكن هناك فرصة للرجوع ، بعد أن باتوا على قيد خطوات من القوة .. وأضحت العودة تعرّضهم للشكوك ولإطلاق النيران على ظهورهم .

وأحس « علىّ » بفورة القتال تتصاعد إلى رأسه ، وزاد من تشديد يده على المقبض ورفع سبابته فوضعه على التتك .

واستمرت العربة تتقدم حتى وصلت إلى حافة البوابة ، فإذا بقائد البوليس الحربى يقف بجوار دورية البوليس ويقترب منهم .

وزاد وجود قائد البوليس الحربى من قلقهم ، وملأ صدورهم بالوساوس ، وصاح به « زكريا » متسائلا :

ـــ ما الذى أتى بك إلى هنا يا حسن ؟

وكانت دهشة قائد البوليس أشدّ من دهشتهم ، فقد رفع كتفيه ، وقال مشدوهاً :

ـــ أنا لا أدرى شيئاً .. إنى فى حالة ذهول .. إن إدارة الجيش محاصرة ويضرب عليها نار .. وقد طلبوا منى تخليصها بأية وسيلة .

وأرخى « على » قبضته ، ورفع أصبعه عن زناد المدفع .. لم تكن فى لهجة قائد البوليس الحربى ما ينمّ عن العداء ، وكان مفروضاً عليه بحكم منصبه أن يقاوم كل خارج على النظام أو اعتداء على السلطات ، وأن يقضى على أية محاولة لإثارة القلاقل .. وبدا عليه أنه لم يكن يعرف طبيعة الحركة ولا الدافع إليها ، ولا الغرض منها .. كل ما يعرفه أن رياسة الجيش محاصرة وتضرب عليها نيران ،

وأن رؤساءه المحاصرين يطلبون منه تخليصها .

ووجد « على » نفسه يتمتم فى مودة وإخلاص :

— إذا كان المطلوب منك أن تخلص إدارة الجيش .. فالمطلوب منا أن نخلص مصر ، وأظن خلاص مصر خيراً وأجدى .

ومضت فترة صمت قصيرة .. بدا خلالها كأن قائد البوليس يقارن بين واجبه فى خلاص إدارة الجيش وواجبه فى خلاص مصر .

ووجد قائد الكتيبة أن الوقت يمر ، فقال يستحثه :

— اركب معنا .

وأحس « علىّ » بالراحة ، وهو يرى صاحبهم قد آمن بواجبه فى خلاص مصر ، وقفز على سلم العربة .

واندفعت العربة بسرعة البرق دون أن يحاول أحد من البوليس الحربى اعتراضها ، وهم يرون قائدهم يتسلق سلمها .

ووصلت العربة إلى باب الفرسان ، وكان « ثروت » يقف أمامه ، ولم يكد يرى قائد البوليس حتى ضمه إليه فى حماس هاتفاً :

— برافو « حسن » .. هكذا الرجال .

وتذكر «حسن» فى هذه اللحظة أن فى أعقابه القوة التى استنجد بها لتخليص إدارة الجيش .. وكانت تبلغ ثلثمائة جندى مسلحين بالمدافع الآلية والبرتات .. وخشى من وصولهم حدوث مجزرة باشتباكهم مع الجنود التى تحاصر إدارة الجيش ، فأنبأ بأمرهم « زكريا » .

فسأله « زكريا » :

— ماهى الأوامر الأولى التى صدرت إليك ؟

— الانتظار فى عابدين .

— إذاً ، خير ما تفعل هو أن تأخذهم وتذهب بهم إلى عابدين .. نحن لن نقترب هناك .. إن مسألة عابدين لا تعدو أن تكون خدعة .

وعاد قائد البوليس ليحوّل قواته إلى عابدين ليجد « كمال » قد احتل مدخل العباسية بمدافع ١٧ رطلا ، وليخبر « عاكف » عندما اتصل به من الإسكندرية ليطمئن على المدافع ١٧ رطلا بأنها موالية للحركة .

وكانت مسألة اللواء السابع .. ومحاولة قائده إعداده للمقاومة لم تحل بعد .. وكانت رغم انضمام قائد البوليس الحربى وعدم تدخل قواته ما زالت تشغل الأذهان .

وتحرك « تروب » من العربات المدرعة لمحاصرة اللواء .. ولكنه لم يكد يصل إلى مقره ، حتى وجد أن قائده قد غادر مقرّه ليستطلع الحالة فوقع فى الأسر ، ولم يكد ضباط اللواء يرون « التروب » المدرع ، حتى خرجوا إليه بجنودهم لمعاونة الحركة .

وبدا لعلى أن قوّة فوق قوّتهم تدبر أمرهم .. وأن معونة من الله تذلل له الوعر ، وتسهل الصعب .. وتحركت بهم العربة متجهة إلى رياسة الجيش .. حيث وجدها « على » قد أحيطت بالعربات المدرعة والجنود المشاة .

كان قواد الجيش قد تجمعوا هناك لوضع خطة إحباط الحركة .. وكان قائد كتيبة المدافع الماكينة قد اقتحم الرياسة بإحدى سراياه للقبض عليهم .. وإخماد حركة المقاومة فى منبتها .

وعبرت العربة شريط الترام ، ونفذت من الباب الحديدى القصير الذى أحاط به الجنود ، وكانت أصوات الطلقات تدوّى حادة تشق سكون الليل ، وإحدى عربات المستشفى تغادر المبنى حاملة جنديين جريحين .

وأعقب الطلقات صمت مخيم .. وبدا الليل فى أواخره، وكأنه يجر آخر أذياله ويلفظ آخر أنفاسه .. أمام هجمات فجر جديد .. لم تبد بشائره بعد من وراء الأفق .

وضاق « على » بلحظات الصمت الثقيلة التى خيمت عليهم وشدّد قبضته على المدفع فى يمينه ، وبدا له أن يهدئ توتره بضغطة على الزناد يفرغ بها بضعة طلقات تزيل ذلك السكون البغيض .

وفجأة ظهر فى مدخل البناء موكب عجيب ، وبدا رئيس هيئة أركان حرب بقامته المشدودة ، وملامحه الصارمة .. وقد أحاط به الجنود بأسلحتهم وعلى رأسهم قائدهم « صديق » الأسمر العملاق .

وهبط « حسين فريد » السلم الرخامى العريض ، وأخذ « على » يرقبه فى إعجاب ، وقد سار بخطواته العسكرية الشديدة الثابتة ، وكأنه يسير فى طابور استعراض .. وعندما بلغ الباب الخارجى وقف له الثوار صفاً واحداً .. ورفعوا أيديهم بالتحية العسكرية ، ورفع هو يده يرد لهم التحيه فى قوة .. وتفرّس فى وجوههم واحداً بعد واحد .. « جمال » .. « عبد الحكيم » « كمال » « حسن إبراهيم » « زكريا » « شوقى » « حماد » ثم « على ».

وهبطت يده بعد التحية إلى جانبه .. وقال فى نبراته الصارمة :

ـــ طيب .. متشكر أوى .

واستمر الموكب فى سيره إلى معتقل الكلية الحربية .

وكما تتلاحق أضواء الفجر ، تلاحقت أضواء الحركة . وكما تتساقط قلاع الظلام .. أمام سهام الأنوار .. تساقطت قلاع الظلم والفساد والاستبداد .. أمام أسلحة الأحرار .

وتوالت الأحداث فى سرعة البرق ، واستقر « نجيب » ـــ القائد العام الجديد ـــ فى مقر قيادته .. وتدفقت قوات الجيش تسيطر على مرافق البلد .. وتمسك بزمامه .. دون أن تزهق روح ، أو يراق دم .

وهبّ المصريون من سباتهم صباح ٢٣ يوليه ، مشدوهين مبهوتين ، وقد أحسوا أن كابوساً انزاح عن كواهلهم .. وأن أنفاسهم تخرج سهلة من صدورهم .. لتستنشق نسمات أنقى وأصفى .

وفى الساعة السابعة .. حمل إليهم الراديو صوت البشير مؤذناً بفجر جديد .. هاتفاً بأول بيانات الثورة إلى الشعب المصرى :

« اجتازت مصر فترة عصيبة فى تاريخها الأخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم .. إلخ ».

(٥٩)

يد مرتجفة

اتصل « الهلالى » من بيته فى الإسكندرية بـ« نجيب » فى مقر القيادة بالقاهرة قبيل إذاعة البيان الأول للثورة ، وحاول إقناعه بالعدول عن إلقاء البيان ، فطلب « نجيب » مهلة للتشاور مع زملائه ، والرد عليه بعد خمس دقائق . و لم يتلق « الهلالى » من « نجيب » ردّاً سوى إذاعة البيان .. فعقد مجلس الوزراء فى الساعة الثامنة ، وعرض الأمر عليه ، فتقرّر إيفاد « المراغى » للتفاوض مع الثوار ، ولكنه فشل فى مجرد لقائهم ، وأبدى « الهلالى » للوزراء استعداده لأن يطير إلى الضباط لتلبية مطالبهم ، وطلب من « شيرين » الاتصال « بالملك » ليأخذ منه تفويضاً يقبول مطالب الجيش .

واتصل شيرين « بالملك » وعرض عليه مطلب الهلالى ، فرفض « الملك » فهدده شيرين بأن الحالة سيئة جداً ، وأن العرش فى خطر ، وأخيراً قبل الملك أن يتكلم « الهلالى » عن مجلس الوزراء ، ويعد بمحاولة إقناع الملك بالمطالب .

واتصل زعلوك بنجيب ، فأنبأه نجيب ، أنه مع احترامه الشديد لشخص الهلالى ، إلا أنه يريد وزارة دستورية ، فسأله زعلوك عما يقصده بوزارة دستورية ، فأنبأه أن وزارة الهلالى بها وزيران غير مرغوب فيهما فسأله زعلوك :

ــ الذى عندك واحد منهم (يقصد المراغى) ؟

ــ نعم .. والثانى عندكم (يقصد شيرين) .

واتصل الهلالى بالمراغى عقب هذه المحادثة . وأنباء بعدم جدوى مقابلته لنجيب ، لأن الوزارة كلها غير مطلوبة .. وذهب إلى السراى وقدم استقالته ، ثم كلف « على ماهر » بتشكيل الوزارة .

وفى اليوم التالى وافق « الملك » على مطالب الجيش ، وأعلن نجيب أن الجيش سيظل مشرفاً على المرافق العامة حتى تحقق الحركة ما تهدف إليه .

ولم يكن « على » قد غادر الثكنات خلال هذين اليومين سوى بضع دقائق ذهب خلالها إلى أمه ليطمئنها على نفسه .

وفى اليوم الثالث للحركة ، وهو يوم ٢٥ يوليه ، وصل « على » بعرباته المدرعة إلى الإسكندرية عبر الطريق الصحراوى ، ووصل سليمان بدباباته التى نقلت بوساطة عربات السكة الحديد بعد أن تقرر خلع الملك .

وقبيل الظهر استقل القائد العام طائرة حربية من مطار مصر الجديدة الحربى إلى الإسكندرية ، وقام بتفقد القوات التى بدأت فى الوصول إليهامنذ الصباح ، ثم قابل رئيس الوزراء محدداً موعداً آخر للقائه فى نفس اليوم ، وفى نيته أن يفاجئه فى ذلك اللقاء بالإنذار الذى يطلب فيه الثوار خلع الملك .

وكان الرأى قد استقر على خلع « الملك » فى ذلك اليوم . ولكن الاستعداد لم يكن قد تم .. كان الجنود فى حاجة إلى الراحة ، والمدرعات فى حاجة إلى التموين .. وكانت كثرة مخابئ فاروق فى قصر التين والمنتزه وأركانه الأخرى ، واحتمال مقاومته تحتم أن تكون خطة الحصار محكمة والاستعداد تاماً .

وتقرر تأجيل الخلع إلى صباح اليوم التالى السبت ٢٦ يوليو ، وخشى ضباط القيادة أن يثير اعتذار القائد العام عن لقاء رئيس الوزراء فى الموعد الذى كا مفروضاً أن يتم فيه تقديم الإنذار شكوك الرئيس ، ولم يكن هناك بد من إرسال أحدهم . وهو « أنور » ليزيل شكوكه ويبدد مخاوفه ، ويقنعه أن الجيش لا يضمر شراً بعد أن أجيبت مطالبه .

وفى تلك الليلة نشأت مشكلة البتّ فى مصير « فاروق » بعد عزله .. أنطلق سراحه ؟! أم نحكم عليه بالنفى .. أو الإعدام ؟ وانقسمت الآراء .. وطار جمال سالم إلى القاهرة فى تلك الليلة ليعرف رأى بقية أعضاء القيادة الباقين هناك لإمساك زمام الأمور فى القاهرة .. وأخيراً استقر الرأى على نفيه ، فقد كرهوا أن

تلوّث دماء بياض الثورة التى نجحت دون أن تريق نقطة واحدة .

واستيقظ أهل الإسكندرية فى صبيحة يوم ٢٦ يوليو وضجيج جنازير الدبابات يقرع مسامعهم ، وأزيز الطائرات يطن فى آذانهم ، ونسائم البحر تحمل فى خلالها رائحة رهبة وخطر ، ونفوسهم يداخلها إحساس بحدث جلل يوشك على الوقوع .

وأغلقت الدبابات المتحركة لحصار المنتزه طريق الكورنيش ، وبدت المدفعية والدبابات والعربات المدرعة فى نطاق متسع حول الساحة الخارجية لرأس التين ، والمشاة فى نطاق أضيق داخل الحديقة .

وفى إحدى العربات المدرّعة المحيطة بالقصر وقف « على » يرقب البناء الشامخ .. الذى بدا فى صمته موحشاً خرباً .. ومن حوله وقف الشعب زرافات تهمهم مأخوذة مشدوهة حائرة كأنها لا تصدق ما ترى .. ولم تلبث الحيرة أن تمخضت عن هتافات تحية للجنود وصيحات سخط على أصحاب القصر .

وكان « على » يقف خارج القصر متحفزاً للهجوم .. وفى داخل القصر .. وعلى أتم استعداد للدفاع .. كان يقف أخوه « حسين » .

لقد أوقف القدر كلا منهما فى جانب من المعركة .

ولم يكن كل منهما واثقاً من وجود أخيه فى مواجهته . ولكنه كان يحس بوجوده .

كان « حسين » أحد ضباط الحرس الخاص للملك .. وكان قبيل حدوث الحركة يتوقع السفر مع الملك إلى رأس الحكمة ، وفى ليلة الحركة كان يقوم بدوره فى النوبتجية ، وكان يجلس منذ الساعة السابعة مساء فى مقر الحرس المخصوص فى سراى المنتزه فى انتظار خروج « الملك » لقضاء سهرته المعتادة حول مائدة القمار ، فى نادى السيارات ، أو فى الاسكارابيه .

ومرت الساعة تلو الساعة .. و « حسين » يتثاءب فى ملل حتى بلغت الثانية عشرة دون أن يخرج الملك .. وأخيراً نهض هو وزملاؤه لخلع ملابسهم استعداداً

للنوم .

وفى الثانية عشرة والنصف دق التليفون ، وتحدث قائد البوليس الملكى ، وسألهم عما إذا كانت لديهم ملابس رسمية ، ثم طلب منهم الخروج إلى البوابة والانتظار فيها دون أن يوضح لهم السبب .

وانتظر حسين هو وزملاؤه على باب القصر حتى الفجر عندما بدأت تتواتر لديهم الأنباء بخروج الجيش واستيلائه على مقاليد الحكم .

وفى الصباح وصلت إلى القصر عربات محملة بالجنود والضباط لتعزيز الحراسة فى السراى .

ومرّ اليوم التالى دون أن تبدو بوادر خطورة ، وأحس الملك بعد تغيير الوزارة أن أهداف الضباط لا تتعدى مطالبهم التى وافق عليها .

وسرت فى نفسه طمأنينة نسبية ، حتى هبت ريح الخطر مرة أخرى ليلة الجمعة عندما أبلغ نبأ تحرك القوات المسلحة إلى الإسكندرية .

ولم يكن قصر المنتزه بحدائقه الشاسعة ومداخله المكشوفة بالملجأ الأمين .. ولم يكن هناك بدّ من الرحيل إلى رأس التين .. وفى الهزيع الأخير من الليل والإسكندرية مغرقة فى سباتها والشوارع خالية ساكنة ، انطلقت إحدى العربات فى سرعة جنونية تنقل الأسرة الملكية من المنتزه إلى رأس التين ، وكأنها فأر يفر من جحر إلى جحر .

وعندما وصل ضباط القيادة إلى الإسكندرية يوم الجمعة . زادت وساوس الملك وقال لعلى ماهر :

ـــ الجماعة دول لما جم اسكندرية مشى كان حقهم ييجوا ولو يمضوا بس فى الدفتر .

فأجابه على ماهر :

ـــ هّم حايقابلونى بكره الساعة التاسعة .

وأوجس الملك خيفة وبدا له أن الضباط ما زالت لهم مطالب أخرى وسأل

« على ماهر » .

ـــ علشان إيه . أنا نفذت لهم كل حاجة عايزينها . هم لسه لهم مطالب تانيه ؟

وكان آخر ما يخطر على بال الملك .. أن تكون هذه المطالب الثانية .. هى عزله هو .

واستيقظ حسين فى صبيحة اليوم التالى على صوت الدبابات تحاصر القصر .. والمدافع تصوّب فوهاتها إلى أسواره وجدرانه .. والجنود المشاة يجوسون خلال حدائقه .

وسرت فى القصر موجة دهش وذعر .. ولم يستطع أحد أن يدرك الغرض من هذا الحصار .. وخمن بعض الضباط أن يكون مجىء الجيش للقبض على « حلمى حسين » و « پوللى » اللذين كانا يختبئان فى ثكنات الحرس .. ولكن « مقلد » أحد ضباط الياوران هز رأسه وقال فى ثقة : « مش معقول .. دى مش حكاية « حلمى حسين » و « پوللى » ، دول جايين له هو بالذات » .

وأيقن ضباط الحرس أن المسألة فعلا لا يمكن أن تقتصر على « حلمى حسين » و « پوللى » ، وأن الحاشية كلها لا تستحق كل هذا الضجيج .. وأن الهدف لا بد وأن يكون أكبر ، وأن ريح الثورة توشك أن تقتلع الرأس الأكبر .

وأحسّ الضباط أن من واجبهم أن يكونوا ملاصقين للملك فى محنته الكبرى ، فاتجه حسين وزملاؤه إلى الحرملك حيث كان الملك يقف فى الصالة المستديرة ، وقد ارتدى بدلة البحرية وبدا الضيق فى ملامحه ، والاضطراب فى خطواته السريعة القلقة .

وكان جنود المشاة المحاصرون للقصر قد تسرّبوا إلى طريق الحرملك وبدأ الاشتباك بينهم وبين جنود الحرس الهجانة ، ودوّت الطلقات سريعة حادة ، فبدا الجزع على « الملك » وأمر بإيقاف الضرب طالباً من الضباط عدم المقاومة حتى لا تحدث إصابات .

وأسرع أحد الضباط لإبلاغ أوامر « الملك » إلى قائد حرس المشاة .. وما

لبث الهدوء أن استتبّ مرة أخرى .

وهز « الملك » رأسه فى أسف ، وهو يزفر فى ضيق :

ـــ أظنّ أن هذا درس يجب أن نستفيد منه .. ليست هناك حراسة كافية ، بدليل أنهم وصلوا إلى الحرملك .. وإن شاء الله لا يتكرر هذا مستقبلا .

ووصل « على ماهر » الذى أرسل « الملك » فى استدعائه لكى يستوضح منه جلية الأمر ، وأقبل يستحث الخطى حائراً مشدوهاً ، فصاح به الملك :

ـــ إيه الحكايه ؟! إيه اللى جاب الجيش ؟

ـــ أنا كمان مش عارف .. لأنى لغاية امبارح بالليل كنت مع نجيب ، وأخذت منه وعد إنه ما يقرّبش على السراية .

ـــ طيب روح شوف الحكايه إيه ؟

وغادر « على ماهر » القصر .. ليرى « الحكايه إيه » .. وعندما عاد فى المرة التالية .. كان قد عرف الحكاية .. وتسلّم الإنذار الذى وجهه الجيش إلى الملك يطلب منه التنازل عن العرش .

وسمع « الملك » لأول مرة .. ما كان يجول فى خاطر كل مصرى .. ولا يجسر أن يرتفع به صوت .. سمع « الملك » .. الحق الذى وضعه حيث يجب أن يكون : عابثاً ماجناً .. أخرق أحمق .. بدل الباطل الذى كان يرتفع به إلى مستوى الرسل والأنبياء .. سمع « الملك » بوضوح .. صوت الشعب يصيح به فى قوة وعنف :

« إنه نظراً لما لاقته البلاد فى العهد الأخير من فوضى شاملة . عمت جميع المرافق نتيجة سوء تصرفكم وعبثكم بالدستور ، وامتهانكم لإرادة الشعب ، حتى أصبح كل فرد من أفراده لا يطمئن على حياته أو ماله أو كرامته .. ولقد ساءت سمعة مصر بين شعوب العالم من تماديكم فى هذا المسلك ، حتى أصبح الخونة والمرتشون يجدون فى ظلكم الحماية والأمن والثراء الفاحش والإسراف

على حساب الشعب الجائع الفقير » .

سمع الملك أوصافه وأعماله بوضوح وصدق .. وعرف أن هذه الأوصاف والأعمال تحتم عليه التنازل عن العرش فى موعد أقصاه الثانية عشرة ظهراً .. ومغادرة البلاد فى موعد أقصاه السادسة مساء .

وصمت صوت الإنذار .. ليخلف سكوناً مطبقاً ، ووجوماً شديداً . وغادر « على ماهر » المكان ومعه قائد البوليس .. و لم يكن الضباط قد عرفوا جلية الأمر بعد .. كانوا يعرفون من ملامح رئيس الوزراء المتهجمة وسيماه الواجمة أن شيئاً خطيراً قد حدث ، ولكنهم لم يدركوا تفاصيله بعد .

ووقف « كامل » قائد البوليس ينبئهم فى شرود أن الأمر قد انتهى وأن « الملك » لم يعد بعد ملكا .

و لم يستطع حسين أن يصدق أذنيه .

لم يصدق .. أن كلّ هذا السلطان يمكن أن يزول فى غمضة عين .. وأن هذا الجاه العريض والأبهة التى لا حدود لها .. والملك الذى كان دوامه فوق مستوى الشك والريب قد حلت نهايته بمثل هذه السرعة .

ووقف « حسين » يدور ببصره فى أنحاء القاعة الرحبة المستديرة . وقد أقيمت اللوحات الرائعة على حوائطها وإلى المنضدة الرخامية السوداء والمقاعد المصفوفة .. ثم شردت عيناه إلى ماوراء النوافذ المواجهة ، حيث بدا الفراغ العريض الأزرق خليطاً من الماء والسماء .. وتملكه إحساس شديد بضآلة الإنسان وتفاهته .. وغروره وعجزه .

واسترعى « حسين » من شروده وقع أقدام مقبلة من الطرقة العريضة المفضية إلى القاعة ، وبدا الملك فى حلته البيضاء عارى الرأس ، وقد وضع منظاره الأسود على عينيه ، وأمسك منديلا فى إحدى يديه يجفف به عرقه ، ثم توقف فى مدخل الطرقة ، واتكأ بذراعه على الباب .

وكان يبدو فى وقفته كطير ذبيح سرقه السكين ، يحاول التماسك كأن لم يصبه

شيء .

وأحس الضباط من هيكله المنهار المتماسك ، بالمرارة تفعم نفوسهم ، ولم يستطع قائد الحرس أن يوقف دمعه الهاطل .

واقترب الضباط من « الملك » الواقف الجاثى ، وهمس قائد الحرس ، وهو يكبح جماح دموعه :

— كل هذا فعلته بك القلة المخادعة المجرمة التى كانت تحيط بك .. والتى كنت تبعدنا لتقرّبها .. أنا قائد حرسك ، كنت أشعر ببعد الهوّة بيني وبينك .. كنت أبعد الناس عنك .. لم تحدثني مرة واحدة .. أنا الذى كان يملأ نفسى الإخلاص لك .. كنت أشعر أنى غريب عن قصرك .. دخيل عليه .

ورفع « الملك » المنديل يجفف جبينه ، وأطرق ، مسلماً بما سمع ، ولكنه ما لبث أن هزّه فى يأس وأجاب :

— لا فائدة الآن .. لقد انتهى الأمر .. إنى أحس الآن مدى وفائكم لى .. ولكم وددت أن آخذكم معى جميعاً .. ولكنى لن أستطيع أن آخذ سوى ستة منكم .

ثم التفت إلى قائد الحرس وأردف قائلا :

— ياأحمد .. شوفهم لى .

وعاد « الملك » إلى الطرقة وما لبث أن اختفى بجسده الضخم ، وقد بدا فى سيره كأنه يحاول أن يرفع عن نفسه أثقالا تشده إلى الأرض .

ووقف قائد البوليس يسأل عن الضباط غير المتزوجين ، الذين يمكنهم أن يصحبوا « الملك » قائلا : إن رئيس الوزراء على علم برحيل هؤلاء الضباط ، وأنهم سيعتبرون فى مهمة رسمية .

ولم يتردد « حسين » فى أن يكون ضمن الستة المصاحبين للملك .. دفعته إلى ذلك طبيعته المغامرة المندفعة وإحساسه بالوفاء للملك المهيض والعطف عليه .

وفى تلك اللحظة استدعى قائد البوليس إلى خارج القصر ، وما لبث أن عاد

ومعه « سليمان حافظ » وكيل مجلس الدولة ، وقد حمل فى يده مظروفاً وضع به الوثيقة أعدها لتنازل الملك عن عرشه .

وجلس الرجل فى كثير من الوجل ، قد تملكته رهبة الموقف على أحد المقاعد الكبيرة الملاصقة للحائط .. وغاب قائد البوليس داخل الطرقة التى اختفى فيها « الملك » منذ برهة .. وبعد لحظات أقبل فى خطاه السريعة قائلا :

ـــ سيأتى الملك لمقابلتك .

وبعد لحظة أردف يقول فى لهجة رجاء :

ـــ إن للملك أمنية يود لو استطعتم تحقيقها .. فقد اعتقل الجيش « پوللى » و « حلمى حسين » عند محاولتهما الخروج من القصر هذا الصباح .. ولبوللى معزّة خاصة عند الملك فهو يلازمه منذ طفولته ، ويسرّه فى هذه الظروف لو أمكن لكم التوسط للسماح له بمصاحبته اليوم والرحيل إلى غير رجعة .

ـــ إنى أعد أن أبذل كل جهدى فى هذا الشأن .

ـــ ولا شك أن جميلكم سيكون مضاعفاً إذا أمكن أيضاً السماح لحلمى حسين بمرافقته .. أما إذا لم يكن ذلك ممكناً فيكفى الإفراج عن پوللى فقط .

ـــ سأحاول أن أفعل كل ما أستطيع .

وساد السكون .. وأخذت الدقائق تمر بطيئة ثقيلة .. وحسين ينظر إلى الكهل الأشيب ذى الوجه المجعد والعينين التى أحاطت بهما هالة من السواد ، وقد انكمش على مقعده فى خشية وتواضع ، وكأنه لم يأت لإطاحة « الملك » عن عرشه ، وكأن الورقة بيمينه لم تكن السيف البتار الذى سيستأصل فساداً تشعبت جذوره وتوطدت دعائمه .

ومرة أخرى سمعت خطوات « الملك » تقترب فى الطرقة ، وكانت هذه المرة خطوات سريعة متوترة ، ولم يلبث حتى بدا بهيكله الضخم ، وقد جمدت ملامحه .. وبدا من خلالها الجهد الذى يبذله للسيطرة على أعصابه وتمالك قواه .. وإن نمت سعلاته القصيرة المتتالية على فرط توتره وانفعاله .

واتجه الملك إلى المنضدة الرخامية المستديرة التى توسطت القاعة ، ومد يده مصافحاً العجوز الذى هرول إليه ، والذى أخرج وثيقة التنازل من غلافها ، وقدّمها إليه فى إجلال واحترام .

وتساءل « الملك » وهو يتسلم حكم الإعدام على عرشه :

ــ أهى محكمة الوضع من الناحية القانونية ؟

ــ أجل .

وألقى عليها نظرة خاطفة ، ثم عاد يتساءل :

ــ ما هى أسباب النزول عن العرش ؟

ــ لقد استلهمناها من مقدمة الدستور .

ورفع الملك الوثيقة ، وأخذ فى قراءتها ، ثم أخرج من جيبه قلما وعاود قراءتها متمهلا .. وكأنه يفحص كل كلمة .

« نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان .

« لما كنا نتطلب الخير دائماً لأمتنا ، ونبتغى سعادتها ورقيها ، ولما كنا نرغب رغبة أكيدة فى تجنيب البلاد المصاعب التى تواجهها فى هذه الظروف الدقيقة ، ونزولا على إرادة الشعب ...

وهنا توقف برهة ورفع بصره عن الوثيقة ، وسأل الرجل الماثل أمامه كالجلاد :

ــ ألا يمكن إضافة كلمة « وإرادتنا » بعد عبارة « ونزولا على إراد الشعب » ؟

ــ لقد صغنا نزولكم عن العرش فى صورة أمر ملكى .

ــ أتقصد أن الأمر الملكى ينطوى على هذا المعنى ؟

ــ أجل .

ــ إذاً فليس هناك ما يمنع من إضافة هذه الكلمة ؟

ــ إننا لم نصل يا مولاى إلى هذه الصيغة المعروضة على جلالتكم إلا بشق

الأنفس .

ورفع « الملك » حاجبيه ، وتساءل فى دهشة واهتمام :

ـــ إذاً فقد كانوا يريدون منى أن أوقع على ورقة أخرى ؟

ومضت فترة وجوم ، لم يلبث أن قطعها قائلا :

ـــ أيمكن أن تحدّثنى عما كان بها ؟

ـــ إنى لم أطلع عليها يا مولاى .

ـــ أتمسك عن ذكر ما بها حتى لا تجرح شعورى ؟ إنى أعدك ألا أتأثر بما أسمع !

ـــ أقسم بشرفى أنى لم أطلع عليها .

ووضع الملك طرف القلم على أسفل الوثيقة ، وبدت يده ترتجف وتهتز وأوثق قبضته على القلم حتى لا تخونه أعصابه .

كان قلمه هذه المرة يعبث بمصيره هو .. لا بمصائر الغير .. كان يعرف أنه بهذه الدوائر المتتالية التى يخطها .. فى أسفل الوثيقة .. قد طأطأ هامته ، وخفض جناحه ، وكسر شوكته ، وأذل عزّه ، وأضاع سلطانه .. وأنه قد أضحى كغيره من عباد الله .. لا يمشى فى الأرض مرحاً .. ولا يخرق الأرض ولا يبلغ الجبال طولا .

ورغم قبضته الموثقة على القلم.. لم يستطع أن يمنع عنه رجفة كرجفة الموت .. وبدت الإمضاء التى كانت مستهترة مستخفة فى تقرير مصائر الغير .. ذليلة مرتجفة فى تقرير مصير نفسه هو .

ونظر إلى الإمضاء وأحس أنها فضحت انهياره وتحطيمه ، ورفع رأسه ببطء فى مذلة واستحياء ، ليجد وجه الجلاد العجوز جامداً صامتاً ، وكأنه النسر على قمة الشجرة ينتظر الفريسة حتى تلفظ آخر أنفاسها .

وازدرد « الملك » ريقه ، وتمتم فى خجل :

ـــ لعلك تلتمس لى العذر فى أن التوقيع لم يكن كما أود ، ولذا سأوقع مرة

أخرى .

وارتفع سن القلم إلى أعلى الوثيقة ، فأعاد الإمضاء .

وتناول العجوز سلاحه .. وبدا له أن الذى أجهز عليه يستحق منه بضع كلمات رثاء يشيعه بها إلى لحده ، فأخذ يردد حديثا عن قضاء الله وحكمته ، ووجوب الرضاء به .

وهز « الملك » رأسه فى استسلام .. لم يكن يملك سواه .

واقترب قائد البوليس فكرر على مسامع الملك ما سبق أن تحدث به عن پوللى وحلمى حسين فأيد الملك أقواله وألح فى طلبه ، فكرر الرجل وعده فى أن يبذل كل جهده .. وسأله قبل أن ينصرف عن أية رغبة أخرى فتحدث عن رغبته فى أن تبقى أمواله فى مصر حتى تئول إلى أولاده أو توزع عليهم من الآن .

وانصرف الرجل فى هدوء وخشية ورهبة .. بعد أن سحب العرش من أسفل الملك ، وقذف بالتاج من فوق رأسه .

ووقف الملك حائراً مشدوهاً .. بلا عرش ولا ملك ولا تاج .. وسار بخطوات متثاقلة حتى استقر على مقعد بجوار منضدة صغيرة عليها تليفون ..

وأخذ يضرب يده بجبينه كأنه غير مصدق لكل ما حدث .

ولم يكن هو وحده الذى لا يصدق حقيقة ما حدث ، كان الضباط الذين التفوا حوله ، زائغى الأبصار ، فاغرى الأفواه ، يضربون كفاً بكف .. وكان حسين يستبعد أن تتم المسألة بمثل هذه السرعة .. كان يتخيل أن انهيار هذا الملك الشامخ والسلطان الجبار .. يحتاج إلى أكثر من ورقة فى يد عجوز هياب وجل منكمش يحتاج إلى ضجيج وعنف وصخب وأحداث خطيرة جليلة .

ومع ذلك .. فهو يجد المسألة قد تمت .. والنهاية قد حلت لا ريب فيها ولا شك .. وأن الرجل المنهار أمامه على المقعد يضرب يده بجبينه فى ذهول .. والذى كان منذ برهة تطاطئ له الرءوس .. وتذل النفوس .. قد طأطأ رأسه .. وذل نفسه .. وأن « الملك » الذى كان منذ لحظات طاغية جباراً .. لم يعد بعد ملكا ، ولا طاغية ، ولا جباراً .

(٦٠)

غروب ..

نظر « حسين » إلى ساعته فإذا بالعقارب تسير ، والوقت يمر .. وفى تلك اللحظة أحس أن سير العقارب يغير أوضاعاً ويبّدل أموراً .. وأن الوقت الذى يمر .. لم يعد يمر فى تراخ وهدوء وسكينة كما كان يمر من قبل ، وأن الدقائق التى يقطعها الوقت ، باتت تحتسب من حياة هذا البلد ، ومن حياته فى هذا البلد .. وأنه عندما يدور العقرب بضع دورات لم يكن يحس بها فيما مضى .. ستصبح مصر شيئاً آخر غير ما كانته مصر ، وسيضحى هو إلى خارج مصر إلى غير رجعة .

أجل ! هذه حقيقة .. لا لبس فيها ، ولا غموض .. حقيقة مرّة .. لم يحاول أن يفكر فيها من قبل ، عندما ساقه الاندفاع وحب المغامرة والإحساس بالوفاء إلى أن يقبل الرحيل مع « الملك » لحراسته .

وتوالت على ذهنه صور سريعة خاطفة لحياته .. بدأت بماضيه القريب .. الحافل المزدحم .. الملئ بحياة الاستهتار المكشوف ، واللهو المفضوح .. فى مستوى أرستقراطي وطبقة رفيعة .. وتذكر صحبته « للملك » فى نوبات حراسته حيث كان يصل الليل بالنهار ، و « الملك » لا يتزحزح عن مائدة اللعب ، وصحاف الشطائر تتوالى عليه ليلتهمها فى نهم واحداً بعد واحد ، وتذكر جو المؤامرات والدسائس والفتن والفساد والانحلال . وبدا له كأنما كان يحيا فى ضباب ، أو يدور فى دوامة ، وسط مستنقع قذر .

وتتابعت الصور فى ذهنه .. فحملته من ماضيه إلى جو أهنأ وأنقى .. وأحس — بعد طول الجهد واللهث — الحنين إلى البيت الهادئ ، والصدر

الحنون ، والنفس الصافية ، والقلب الوافى .. وتذكر « أمه » و« بهية » وبدتا له كالملجأ الدافئ فى يوم قر .. دفعته أمواج المطامع والمتع بعيداً عنه .. ولم يحس بحاجته إليه إلا بعد أن أضناه الجهد وأضرّ به الضلال .

وألحت على ذهنه صورة « بهية » .. فى حبها الصامت له ، الحب العميق القوى المثابر ، الذى لا يحدّ من تدفقه ، إنكار أو إهمال ، أو هجر أو بعد ، وأحس لأول مرة بلهفة عليها ، وهو الذى لم يطف ذكرها برأسه مرة واحدة .. وبدت له فى تلك اللحظة .. كأنها جزء منه ، لم يفكر فيه ولم يشعر بوجوده إلا وهو يوشك أن يفقده .

وتذكر وفاءها العجيب .. ورفضها لكل من تقدم لزواجها .. رفضاً باتاً بلا بحث ولا تفكير ولا مناقشة .. وحياتها فى الدار كراهبة وهبت نفسها لخدمتهم جميعاً .

وتذكر رغبة « أمه » فى زواجه بها ، واستنكاره هو لهذه الرغبة ، وتطلع « بهية » إليه كرجاء دائم لا يأس منه .. وأمل مشرقٌ لا مغرب له .. رغم قطعه لكل رجاء .. وإطفائه لكل أمل .

وتذكر تكالبها على خدمته ، وفهمها لكل مطالبه وقضاءها لكل حوائجه ، وإحساسها الواثق بأنها شئ تابع له ، أرادات الأقدار أم لم ترد ، وشاءت الظروف أم لم تشأ .

واستمرت الصور فى تتابعها على ذهنه ، فدفعت إليه أخاه « على » .. أو نصفه الآخر .. النصف المثالى القويم .

وكان قد عرف فى اليوم التالى للثورة .. أنه قد اشترك بكتيبته المدرعة ضمن قوات الفرسان .. وبهت فى أول الأمر .. فقد كان يعرف عن أخيه كرهه للمغامرة .. وميله الشديد إلى التزام حدود واجبه ، وتقديسه للنظم المفرضة عليه كرجل عسكرى .

ولكن دهشته لم تلبث أن زادت عندما علم أن الجيش كله قد اشترك فى

الثورة .. وأن « على » بلا شك يعتبر فى قرارة نفسه أنه بات يعمل فى حدود واجبه الحقيقى .. وأنه باشتراكه فى عمليات الثورة .. إنما ينفذ الأوامر المضبوطة الحقة .. التى تهدف إلى صالح البلد .. وأن الأداة المسيطرة الآن على الجيش .. والتى تصدر إليه الأوامر .. أحق بالطاعة من حاشية السوء .. والجهل .. والفساد .. التى كانت تسيطر على الجيش .

وعلم « حسين » قبيل الظهر من أحد زملائه أن « علىّ » يشترك مع القوات المحاصرة للقصور .. وأنه لا تفصله عنه سوى بضع دقائق .

وأحسّ الشوق إلى أخيه .. والرغبة فى أن يتزود منه بلقاء أخير قبل الرحيل ، وبدا له اللقاء سهلا ميسوراً .. فهو لابد أن يجهز نفسه للسفر .. وما زال أمامهم بضع ساعات يستطيع خلالها أن يخرج ليعد حاجياته ، ويلقى « على » .

وكان « الملك » ما زال مطرقاً وقد قبع على مقعد بجوار التليفون ، وكان ينادى « أحمد كامل » قائد البوليس بين آونة وأخرى .

واقترب « حسين » من « كامل » .. وقال فى صوت منخفض متسائلا :

— ما هى الملابس خلال السفر .. أسنرتدى البوشيرت ؟

وأجابه « كامل » فى ضيق .. فقد كان فى ذهنه من المشاغل ما يغنيه عن التفكير فى ملابس ضباط الحرس :

— تفاهم مع « أبى النصر » .

واتجه « حسين » إلى « أبى النصر » قائد الحرس قائلا :

— إنى أريد الخروج لإحضار ملابس .

وأحس « الملك » بصوت « حسين » يقطع الصمت الجاثم .. والسكون المخيم ، فتساءل قائلا :

— ماذا تريد ؟

وارتبك « حسين » وأجاب :

— إنى أتساءل .. هل أستطيع الخروج لإحضار ملابسى ؟

وأجاب « الملك » فى دهشة :

— أية ملابس هذه التى ستخرج لإحضارها ؟ .. البس أى شئ .. البس قفطان .. إلبس جلباب .. البس ما تريد . ألن نستطيع أن نحضر لك بدلة .. يكفى التضحيات التى بذلتموها .

وأحس « الملك » بجفاف فى حلقه فصاح :

— ماء .

ثم أخذ يرتشف الكوب رشفة رشفة ، وعيناه زائغتان ، وما لبث أن صاح فى عصبية ظاهرة :

— هات لهم ماء .

والتف الضباط حوله فى شبه دائرة ، وقد عقدت الدهشة ألسنتهم ، وبدا عليهم ذهول شديد .

ووقف بينهم « حسين » .. شارد الذهن .. وقد اختلط تفكيره واضطرب ذهنه .. وهو يحس تعذر الخروج أو استحالة لقاء أخيه .. ويجد الخيط الأخير بينه وبين أحب الناس إليه قد قطع .. ويحس أن وطنه يوشك أن يلفظه إلى مصير غامض ومقر مجهول .

وحل موعد الغداء .. وجلس « حسين » مع بقية الضباط يلوكون لقمات من الفاصوليا الجافة ، وبضع شرائح من اللحم المحمر .. وقد سادهم الوجوم ، وأطبق عليهم الصمت إلا من بضع كلمات دهشة وعجب .

ودنت ساعة الرحيل ، وانهمك الخدم فى حمل الحقائب إلى اللنش الواقف بجوار الشمندورة .. وأقبلت الأميرة « فوزية » وزوجها لوداع « الملك » .. وقد شحب وجهاهما ، وبدا الذعر فى ملامحهما .

وجلس « حسين » فى ركن بعيد يرقب عقارب الساعة فى صمت ، ومن حوله زملاؤه الخمسة يكتبون لذويهم رسائل وداع .. دون أن يحاول هو أن يخط حرفاً .. فقد أحسّ بذهنه يتلبد .. وانتابته حالة من اليأس ، جعلته لا يأبه لكل

ما حوله .

والتفت إليه أحد الزملاء متسائلا :

ـــ لماذا لا تكتب ؟

ـــ وماذا أكتب ؟

ـــ ألا تريد أن تكتب كلمة وداع لأخيك ؟

ـــ وما فائدة كلمات الوداع ؟

ـــ إذن اكتب كلمة تطمئن بها والدتك .

وأمسك « حسين » القلم وأخذ يكتب :

أخى « على » .

لست أدرى ماذا أكتب إليك .. فالكلمات تعتبر تفاهة وعبثاً ، إذا ما قيست بضخامة الأحداث التى تمر من حولى ..والمشاعر التى تصطخب فى باطنى .. والأفكار التى تحتشد فى ذهنى .

إنك تقف الآن فى عربتك المدرعة ومن حولك جنودك وزملاؤك ، ومن حولكم الشعب كله .. وقفة المنتصرين على الاستبداد .. المحطمين للطغيان .

وفى داخل القصر الذى تحيطون به ، ووراء الجدران العالية التى تصوّبون إليها مدافعكم .. يقبع الطغيان .

وكم أود لو وقعت الجدر بين القوتين .. قوتكم وقوة الطغيان .. حتى يتضح الفارق العجيب بين القوتين .

إنى لأتساءل فى حيرة .. كيف تسنى لهذا الفرد العاجز وثلته الهزيلة ، أن تسيطر على كل هذه القوى الهائلة من الشعب والجيش التى تزأر فى الخارج ؟! كيف تسنى لها أن تجثم عليها ، وتطبق على أنفاسها .. وتسوقها سوق غرائب الإبل .

إن الاستبداد وهم تخلقه القوى المنساقة بلا تفكير .

وليس فى هذا العالم قوة فرد مستبد .. تعادل مجموعة القوى المستبد بها

أبداً .. إنما الطغيان خدعة يفرضها الفرد على المجموع ، ويلبسها المجمـوع للفرد .. بعد الاقتناع بها والخوف منها .

إن قوى الطغيان والاستبداد .. مستمدة من وهم الحكم ، وهو لا يزيد فى حقيقته على صيحة راعى الإبل .. أو هشة صاحب الغنم .. كل قدرتها كائنة فى خوف الإبل منها .. وانقياد الغنم لها .

لست أدرى لِمَ أكتب إليك هذا فى هذه اللحظات الحرجة والوقت الضيق .. قد يكون الدافع إلى ذلك أحساسى العميق بمدى ضآلة الفرد فى حد ذاته وفى محيط نفسه .. لقد رأيت المستبد .. يفقد استبداده فى لحظات .. وهو .. هو .. لم يتغير فى تكوينه شىء . لم ينقص من قوى جسده ولا خفت قوى عقله .. لم يبتر منه عضو .. ولا نزع منه ظفر .. فى دقيقة كان مرهوباً .. مروعاً .. وفى الدقيقة التالية كان ذليلا .. مرتجفاً .. لماذا ؟!!

لأن القوى المنساقة .. قد كشفت الخدعة .. وبددت الوهم .. ووجدت أن قوى المستبد من قوتها .. فاستردتها .. وتركته عاجزاً ضعيفاً بلا حول ولا قوة .

إن العقارب تسير .. لست أدرى سر هذه السرعة التى تسير بها .. وإن لحظاتى على أرضنا هذه قد باتت معدودة .

إنى حائر فيما أقول لك .. فالكلمات — كما حدثتك فى أول الرسالة — تعتبر عبثاً إذا ما قيست بحشد مشاعرى .

أتسخر منى كثيراً .. إذا ما قلت لك إنى أحس بحنين شديد .. إلى بيتنا .. البيت الذى ولدنا فيه .. إلى جلسة الطبلية .. والحصيرة .. والفراش المشترك .. إلى الطين الأسود .. والحلبة الخضراء .. والماء العكر ؟

أتسخر منى كثيراً .. إذا ما قلت لك .. إنى .. إنى .. أحب « بهية » ؟

أجل يا « على » .. ما أحسست بها فى حياتى كما أحس الآن ، وأنا أوشك أن أرحل إلى غير رجعة .

إنها كانت تنتظرنى دائماً .. بلا أمل فى شىء .. وأغلب ظنى أنها ستظل

تنتظرنى .. كما تعوّدت أن تنتظر .. قل لها إن انتظارها هذه المرة .. لن يكون بلا أمل .. لأنى إذا عدت فسأعود لها .

أرها رسالتى .. وقبّل لى أمى .

إنى أحبكم جميعاً . المخلص

حسين

وأطبق حسين الرسالة .. ثم وضعها فى الظرف وسلمها لزميله .. ليضعها ضمن الرسائل التى كتبها الضباط الستة إلى ذويهم .

وكانت الساعة قد اقتربت من الخامسة والنصف ، فأمر قائد الحرس بإعداد قره قول شرف يصطف من القصر إلى الميناء لتوديع « الملك » .

وكان رئيس الوزراء قد خيره بين السفر بالطائرة أو البحر ، فاختار البحر وتقرر السفر بالمحروسة ، واستدعى قائدها « جلال علوبة » إلى القصر .

وأخذت الحوادث تتلاحق ، والكل يتحركون فى صمت كأنهم أشباح ، وفى الساعة السادسة إلا عشر دقائق هبطت الملكة والملك الصغير والأميرت الثلاث ، وعزفت موسيقى الحرس السلام الملكى .

واتخذ الجميع أماكنهم فى اللنش ، ووقف الضباط وبقية الموظفين بجواره ، وبعد خمس دقائق هبط الملك ، وتحرك وسط الحاشية المودعة والحرس المصطف ، كأنه راحل فى إحدى رحلاته الملكية .. ما زالت تحف به مظاهر الأبهة والملك .. وفى خطواته الثبات الأخير للطير الذبيح ، وعزفت الموسيقى بالسلام فرد التحية ، وتسلم العلم من ضابط العلم .. ثم اتجه إلى اللنش ، وقبل أن يأخذ مكانه فيه ، ودع رئيس الوزراء والسفير الأمريكى ، وحيا الضباط والمواطنين .

وتحرك اللنش يشق طريقة فى المياه الزرقاء الهادئة .. وبدت جموع الشعب محتشدة على الميناء .. ورفع « الملك » الكاب محيياً البحارة وطلبة البحرية .

وفجأة بدت إحدى المراكب الصغيرة ، وبها مصوّر ممسك بآلته فصاح « الملك » فى انفعال :

— خذوها منه .

وأمسك بالمصوّر وألقى بآلته إلى البحر ، وأعدم بذلك كل أثر لرحيل « الملك » .

ووصل الركب إلى المحروسة .. وصعد « الملك » وأسرته وتبعه « حسين » وبقية الضباط ، ودوت طلقة تحية من إحدى المراكب فأصابت « الملك » رجفة كشفت عن انهياره الداخلي ، كأنما كان لا يصدق أن ينجو بجلده ، أو كأنه كان يتوقع ضربة قاضية تنزل به فى أية لحظة .

وبعد برهة اقتربت إحدى المراكب من السفينة ، وقد حملت ضباط الثورة الذين أتوا لوداع « الملك » ، ودارت حول المركب دورة ، وحياه ركابها ، فلم يرّد التحية لأنه لم يرهم حتى لفتت « الملكة » نظره ، وكانت تبدو رابطة الجأش .

وصعد « نجيب » و « جمال » إلى المركب وحيوا « الملك » ووقف الخصمان يواجه أحدهما الآخر ، وكانت قوة الأحداث وسرعة تطورها أشدّ من أن تترك لكل منهم فرصة التفكير فى روعة اللحظه الحاسمة التى يقفون فيها .. كان كل منهما يرى الآخر من خلال ضباب الأحداث الكبرى التى أدّت إلى هذا الموقف والأحداث الكبرى التى ستترتب عليه .

كان « الملك » ينظر إلى هولاء الذين ركلوه عن العرش فى لمح البصر .. من هم ؟ كيف تبدو سماتهم ؟ .. وأين كانوا من رعيته الخاضعة ؟ .. وشعبه المطيع ؟ .. لماذا لم يبطش بهم قبل أن يبطشوا به ؟! وبدا أنه يحاول جهده أن يكون ملكا فى ساعاته الأخيرة ، وأن يحتفظ بوقفة الذبيحة على أقدامها حتى آخر لحظة ، وألا يخر أمام قصابيه .

ونظر إليه الضباط نظرتهم إلى ثور يترنح ، وهو ما زال يقف على أربع .. و لم تبدو عليهم رغبة فى إطالة اللقاء .. وانتهى الوداع الشكلى فى لحظات ، بعد أن حاول « الملك » أن يلقى خلاله بآخر أوامره « الملكية » فأمر « جمال » بنزع عصاه ، وأجابه « جمال » بنظرة أفهمته أنه لم يعد ملكا ، وذكر الذبيحة بالسكين التى سرقتها .

وغادر الضباط المركب ، بعد أن ودعهم « الملك » بأطيب تمنياته التى لم يكن لها فى قلبه ما يبررها ، والتى بدت كآخر مظهر يخلع به على رحيله سمات الروعة الملكية ، ويكسب به وداعه أمارات السمو .

وفى السابعة إلا ربعاً تحركت المركب بعد أن تم تموينها ، وأخذت تنساب فى بطء على الموج الأزرق الراجراج ، وكانت الشمس قد أخذت تتهاوى فى الأفق الغربى ، وبدت السفينة فى انزلاقها نحو الأفق كأنها شمس أخرى آفلة إلى غير عودة ، غاربة إلى غير شروق .

ووقف ركاب السفينة يرقبون المدينة تتباعد ، والذيول الحمر التى خلفتها الشمس الغاربة تقرضها أنياب الليل السود فتنحسر عن المدينة .. لتخلف دورها الشاهقة أشباحاً باهتة مضمحلة .. ورويداً رويداً .. أطبقت الظلمات على الأشباح الرمادية القائمة فى الأفق ، كأنها شواهد القبور .. دفنت تحتها قوى الطغيان ومظاهر السلطان والجبروت .

ووقف الملك متكئاً بذراعه على حافة السور .. وقد تعلق بصره بالظلمة المطبقة ، التى بدت من خلالها أضواء مرتجفة تتراقص فى الأفق الحالك .. ملوّحة بآخر آثار ملكه .. وما لبثت الأضواء المرتجفة أن ابتلعتها الظلمات ، كأنما قد عصفت بها الهبة الأخيرة من العاصفة ، التى اقتلعت عرشه وأطاحت بتاجه .

وخميت على عينيه سحابة دمع لم يقو تجلده على تبديدها ، ومد يده يتحسس رأس « الملكة » الواقفة بجواره ، كأنما يحاول أن يجد شيئاً تبقى له من ملكه الزائل .. وبعد برهة التفت إلى الضباط قائلا :

ـــ استريحوا فإنى لا أحتاج فى المركب إلى حراسة .

واندفعت السفينة تشق طريقها بين الظلمات .. وأوى الركاب إلى حجراتهم ، بعد أن غربت عن أبصارهم آخر بارقة فى أرض الوطن . وجلس « حسين » على حافة الفراش الصغير يريح جسده المكدود ، واضعاً مرفقيه على ركبتيه .. مسنداً رأسه على كفيه ضاغطاً جبينه بأصابعه كأنما يحاول أن يسكن ذلك الصداع .. الذى يكاد يحطم رأسه .

وأحس ، وقد خلا إلى نفسه لأول مرة .. فى هذا اليوم الصاخب الحافل رغبة فى البكاء ، وكانت عبراته كقطرات المطر التى تتلهف عليها الأرض لتغسل شوائبها بعد هبوب عاصف وإعصار مترب .. ولم يحاول أن يكبح جماح دمعه وتركه ينساب فى صمت بين أصابعه .. ليغسل همومه .. ويفك ضيقه .

وفعلت نوبة البكاء فعلها .. وأحس بعد ذلك بشىء من السكينة والراحة .. وما لبث أن نفض عنه دموعه كما نفض همومه .. وتحامل على نفسه مستدعياً طبيعته المغامرة .. وروحه المستهترة .. وكان أول ما فعل أن نهض إلى المرآة وأخذ فى حلاقة ذقنه .. واغتسل ، ونسق ملابسه قدر الاستطاعة ثم خرج إلى ظهر السفينة .

وفى الساعة التاسعة غادر « الملك » حجرته ، وقد ارتدى ما يشبه العباءة البيضاء كست كل جسده .. واتجه إلى الضباط ووقف بينهم متكئاً على السور وشرد ببصره فى ظلمات الأفق التى اختلط فيها سواد البحر بسواد السماء .. وما لبث أن أطلق زفرة حارة ، وقال وكأنما يحدث نفسه :

ـــ بعد كل اللى حصل ده ... أنا حاسس أنى أخطأت فى حاجة واحدة . وهو أنى لم أكن أتوقع أن اللى حصل النهارده بالذات حايحصل .. لأنى امبارح قلت لعلى ماهر إن الجماعه دول ما دام جم اسكندرية حقهم ييجوا ولو يمضوا فى الدفتر . فقال لى إنهم جايين بكره الساعه ٩ ، فجت فى مخى إن لهم مطالب ثانية .. والواحد نفذ لهم كل حاجه عايزينها .. لكن مجاش فى مخى أبداً إن اللى

حصل حايحصل .

وسادت فترة صمت ، و لم يعرف أحد من الضباط بماذا يعلق على قوله .. وما لبث « الملك » أن عاود حديثه قائلا :

ـــ الراجل « كافرى » ده . راجل كويس جداً . أنا مدّيت له مدته مع الحكومة الأمريكية ، ومن سنتين كنت شاعر إن اليوم ده مسيره ييجى .. وقلت له كده ، فقال لى إن دى حاجه مش معقول تحصل .. فقلت له دا شعبى وأنا عارفه كويس ، فرد علىّ بأنه مهما حصل فهو مستعد لأى خدمة فى أى وقت . فقلت له إنى أنا مدخرك للوقت المناسب .. ولما جالى النهارده قلت له .. إن ده هو الوقت المناسب .

وهبت نسمة ملأ بها صدره العريض .. ورفع يده فضم عباءته وأردف قائلا :

ـــ اللى يعمل خير ما بيروحش .. إحنا أكرمنا عائلة سافوى ، وأعتقد إن احنا لما حانوصل إيطاليا حايستقبلونا كويس . أنا مش عارف دلوقت إحنا حانعيش فين ، ولكن أما نوصل يحلها ربنا .. وإذا احتجت لأى حاجه حابقى أبعت أى حد فيكم .

وتلفت إليهم وألقى عليهم نظرة فاحصة ، وقال فى شبه رجاء .

ـــ أنا محتاج لكم كلكم .. وحانعمل نظام للحراسة تتكلم عنه بعدين .. لكن أهم حاجه عايز اقولها لكم دلوقت إن فيه جماعه « جانجستر » ما عند همش مانع إنهم يخطفوا ابنى .. دول أهمّ حاجه لازم ناخد بالنا منهم .. وعلى العموم حنتكلم فى الموضوع ده بعدين .

وقال أحد الضباط :

ـــ إحنا مستعدين لكل حاجه . مولانا ما يحملش هم أبداً .

وأجاب « الملك » فى صوت خافت :

ـــ أنا عارف .

ثم استدار مرة أخرى ليواجه ظلمات البحر ، وليشرد ببصره قائلا فى استسلام :

ـــ أنا بقالى أربعتاشر سنه تعبان من الُملْك .. وعاوز استريح .. مش عايز ارجع دلوقت .

وبدا من قوله أن السكين ما زالت تسرقه .. وأن الذبيحة ما زالت تقف مترنحة على أقدامها ، وأن كل ما يشعر به هو أنه ملك فى إجازة .. أوفى حالة استجمام من أعباء الُملْك.. وأنه سيعود بعد أن يستجم ويستريح.

وأخيراً عاد « الملك » إلى جناحه ، وتفرّق الضباط فى مضاجعهم ، ومضت فترة طويلة و « حسين » راقد فى فراشه مغمض العينين دون أن يقرب النوم جفنيه .. وصور الماضى ما زالت تتوالى فى إلحاح على ذهنه .. وكانت أشدها إلحاحاً صورة « بهية » .

وأشرقت شمس يوم جديد ، والسفينة تمخر عباب اليم ، والساعات تمر ثقيلة بطيئة. وجلس الضباط يقطعون الوقت بلعب الطاولة.. والأميرات الصغيرات يتسلين بمشاهدتهم ضاحكات فرحات لا يبدو عليهن أى إحساس بالوقت .. وكأنهن فى رحلة قصيرة للنزهة .

وكان « الملك » يروح ويغدو ببنطلونه الرمادى ، وصدره العارى .. وقد ذهبت عنه علائم القلق وسيماء الشرود .. وعاد مرة أخرى ملكاً فى سفينته الخاصة .. وبين حرّاسه المخلصين .. وبدا له كل ما حوله لم يتغير قيد أنملة عن أيام الُملْك والسلطان .. كل شخص يراه .. وكل كلمة يسمعها .. تؤكد له أنه لم يزل مولانا .. جلالة الملك المعظم .

حتى أخذت السفينة تقترب من الساحل الإيطالى ، ووصلت إشارة مفاجئة من القاهرة .. تأمر بأن لا يهبط من السفينة سوى « الملك » وأسرته ، وأن يعود معها كل المصريين الذين بها .

وهنا خرّت الذبيحة .. وأدرك « الملك » أنه لم يعد ملكاً ، بعد أن أحسّ أن

كلّ صلة بملكه قد قطعت .. وأنه قد لفظ منها لفظ النواة .. وأنه سيهبط من السفينة طريداً وحيداً .

ووصلت السفينة إلى « كابرى » فى فجر يوم الثلاثاء وسط زوبعة عاصفة ومطر منهمر .. ووقفت بها حتى الضحى .. حيث كان يرسو يخت « الملك » الخاص « فيض البحار » مع قائده « حمدى » .. ثم تحركت إلى « نابولى » فوصلتها فى الظهر ، وقادتها إلى الميناء المراكب الصغيرة .. حيث شوهد نطاق من البوليس الإيطالى يرابط فى الميناء .

وبعد فترة قصيرة وصل القنصل ، وتلاه السفير المصرى « عبد العزيز بدر » وزوجته ، ومندوب وزارة الخارجية الإيطالية ، وبدا الاستقبال فاتراً ، لم يحقق آمال « الملك » الأخير ومطامحه فى أن يرد الإيطاليون جميله على آل سافوى ، وأحس « الملك » بخذلان شديد .. وهو يجد نفسه لأول مرة مجرّداً من الحاشية ، أعزل من الأتباع ، خلواً من كل أبهة وسلطان ، لا تحيط به غير وجوه شاحبة واجمة .

ووقف عارى الرأس مرتدياً بدلته البنية ونظارته السوداء.. وأخذ الخدم ينقلون الأمتعة .. وبينها صناديق الويسكى الأربعون التى أشيع أنها صناديق ذهب .

وهبطت « الملكة » و « الأميرات » بينهن « بترو » الحلاق و « كافاتشى » سائس الكلاب .. و « جارو » التوفكشى .. وأربعة خدم من الأرناءوط ، وخمس كلفاوات .. ولم يهبط من المركب مصرى واحد .

وهبط « الملك » بخطى ثقيلة متباطئة .. كأن هناك ما أنقض ظهره .. وأحس ، وهو ينزع قدميه من سلم المحروسة .. أنه ينتزعها عن آخر قطعة من مصر .. مملكته التى مشى فى أرضها مرحاً .. والتى خرق فيها الأرض .. وبلغ الجبال طولا .. وكان يحاول جهده أن يتمالك ويتماسك .. وأن يستر دموعه الصامتة وراء منظاره الأسود .. ولكن لم تكد أقدامه تبلغ آخر الدرج ، حتى

انهارت مقاومته .. وانطلق نشيجه لأول مرة عالياً مسموعاً . وأخذ جسده الضخم يهتز من البكاء .

وأحس الجميع أن الذبيحة قد تهاوت .. وأنها تلفظ آخر أنفاسها .. فاغرورقت الأعين ونشجت الصدور .. وبكت « الملكة » .. وبكت « الأميرات » .. وبكى الضباط .. وبكى الخدم .. و لم يعد هناك من لا يجهش بالبكاء .. حتى الحرّاس الإيطاليون .

---

(٦١)

لا شماتة

غادرت المحروسة « نابولى » فى اليوم التالى ، بعد أن أخذت حاجتها من الوقود ، ووصلت إلى الإسكندرية ظهر يوم السبت .

وعاد « حسين » إلى بيته بعد غيبة لم تطل سوى أسبوع ظنها فى رحيله غيبة أبدية .. وبنفسه إحساس غريق أوشك على الهلاك ، وطال به عصف الموج ، وأفعم قلبه اليأس .. ثم وجد نفسه فجأة ، وقد قذفت به موجة إلى شاطئ النجاة ، ومرفأ السكينة والأمان .

عاد مرهقاً مكدوداً .. ليجد الراحة والطمأنينة التى افتقدها فى الدوّامة التى كان يعيش فيها خلال السنوات الأخيرة ، وسط غيوم الفساد والانحلال .

وأحسّ ، وهو يضم « بهية » إلى صدره ، ويمسح عبراتها الهامية بشفتيه .. بسكينة المستقر بعد طول لهث وضلالة وهيام .. وهتف بها ، وهو يقبّل عينيها ضاحكاً :

— لم أعرف قيمتك إلا وأنا أمام الحوض فى المركب ، وقد كوّمت ملابسى .. وانهمكت فى الدَّعك ، والقرض والشطف ، والعصر .. حتى « بقبقت » أصابعى .

— أكنت تغسل ملابسك بيديك ؟

— طبعاً .. لم يكن لدينا سوى غيار واحد .. وكان علينا إما أن نحتمل القذارة والعرق .. وإما أن نغسل غيارنا بأيدينا .. على أية حال .. لقد ذكرتك فى كل شطفة ، وفى كل عصرة .

— وأنا ذكرتك فى كل حركة وهمسة ونومة ويقظة .. لم يداخلنى اليأس من

عودتك قط .. كنت أتخيلك وراء كل طرقة بالباب .. لقد ملأتني رسالتك بالأمل الجميل ، ووجدت في قولك أنك تحبني .. عزاء عن كل شيء .

وحقق « حسين » أمنية أمه الخالدة .. وأضحى الماجن العابث ربّ بيت مثالياً .. وزوجاً نموذجياً .. بعد أن أتخم مجوناً وأنهك عبثاً .. واستقرّ في البيت ينعم بمتعة الاستقرار ونعمة السكينة ، وانتقلت الأُسرة إلى أحد بيوت مصر الجديدة .. وجرت الحياة بأفرادها الأربعة هادئة ناعمة .. دون أن يطرأ على مجراها تغيير يذكر .

واستقر « على » في إحدى حجرات الدار وحيداً .. تشيعه في كل غدوة وروحة دعوات أمه بأن يرزقه الله بابنة الحلال ، وهو يتلقى الدعوة بلا تفكير في معناها .. كما يتلقى التحية والسلام .

وفي عمله ، تسلّم قيادة أحد الآلايات المدرعة .. وعاود الانهماك في حياته العسكرية بروح الإخلاص ، والأمانة والتركيز التي تعوّد أن يباشر بها عمله .. وأضحت قيادة الآلاي المدرَّع هي جلّ مطامعه وأفضل أمانيه .

واندفع « سليمان » إلى خضمّ السياسة .. وكان لا يفتأ يزور « عليّ » بين آونة وأخرى يتبادلان الآراء ، ويسر كل منهما إلى صاحبه بما في نفسه .

وسارت الثورة في طريقها .. وبدأت تحقق أول أهدافها ، وهو إزالة الهوة الكبرى .. بين القلة المتربعة على أعلى القمة ، والكثرة الملقاة في أسفل القاع .

وصدر قانون « تحديد الملكية » ليقلم الرءوس المتعالية .. المتطاولة إلى السماء .. ويقرّب بينهما وبين عبيد الله .. الذين يشقون على الأرض .. وليفتت كتل الإقطاعيات ، ويقرّب بين أدنى الممتلكات وأقصاها .. ويقضي على الملوك الصغار ، بعد أن طوّح بعرش كبيرهم .

وأحس قوّاد الثورة بثقل العبء الملقى على عاتقهم .. وأن عملية الثورة نفسها بما فيها من خلع الملك .. لم تكن في حد ذاتها هدفاً .. بل كانت وسيلة لأهداف أضخم .. وأنها لم تكن خاتمة الشوط .. بل بدايته .

وبدت لهم ، وهم يقفون على حافة المسئولية .. وضخامة الطوفان الذى يشرفون عليه ، وأحسوا له فى أول الأمر رهبة ، وأوجسوا منه خيفة .. إذ لم يخطر ببالهم أن دورهم سيتعدّى دور الطليعة الفدائية التى تقتحم الأسوار ، وتمهد الطريق .

وبدت لهم قيادة السفينة فى خضمه شيئاً لا قبل لهم به وودوا لو سلموها للربابنة القدامى .. يوجهونها توجيهاً سديداً بأسلوب جديد مستقيم ، لا يلويه فساد ولا انحلال .. إلى الهدف الأكبر .. إلى بناء وطن حر قوىّ ، ينعم أبناؤه بحياة كريمة نظيفة ، لا ظلم فيها ولا عوز ولا مرض ولا جهل .

وصدر « قانون تنظيم الأحزاب » .. ولكن القانون لم يستطع تغيير العقلية أو الأسلوب .. فلم يكن هناك بدّ من إلغائها ، بعد أن تبين أن سوس الفساد نخر عظامها ، وجراثيم الشهوات ، والمطامع والأنانية والصراع على مغانم الحكم ، قد تأصلت فى كيانها .

وأصاب الثوار خذلان شديد .. وهم يجدون الطريق الذى اقتحموا السور إليه وأزالوا منه العقبة الكبرى ، ما زال مليئاً بالأشواك والألغام .. وأن الجموع التى تخيلوها ستسلم المقود ، وتندفع إلى الهدف المنشود .. قد تزاحمت فلول مسعورة نابحة ناهشة .

وبدأت عملية رفع الألغام ، ونزع الأشواك .. وإزالة العقبات والصخور ، وملأت الثقة نفوس الثوار للقيام بدورهم الجديد فى قيادة السفينة وسط الطوفان ، وأحسوا — بعد أن تضاءل الربابنة من حولهم .. وتساقطوا كأوراق الخريف — أنهم أقدر الناس على السير بالمركب .. وأن الذى اقتحم السور وأزال الطاغية ، لا يملك إلا الاندفاع أمام الصفوف وقيادتها ، حتى يبلغ هدفه ، ويحقق أمله .

واستمرت الثورة فى سيرها بالركب .. تزيل الأشواك والألغام وتضع أسس البناء .

وأوشك عام أن يمر من عمر الثورة و « سليمان » منطلق فى ميدان السياسة غريق فى خضمها .. و « على » منطو فى وحدته . وبنفسه إحساس عابر صحراء مجدبة .. بلا هدف يلوح أو حتى سراب يغرى ، وقد أغلق جسوانحه على مشاعره ، وبات صدره والموءودة فى داخله ، وكأنه صندوق الموتى .

وبين آونة وأخرى تصيبه رجفة حنين .. أشبه برجفة المقرور .. ولا يلبث أن يتحامل على نفسه .. ويطرد عنه الطيف الدانى المقترب ، وهو يحس منه مرارة ولوعة .

وكلما أصابته رجفة الحنين وهزّة الشوق .. عاد يسائل نفسه .. ترى لو بلغته الرسالة التى أحرقتها « كريمة » ، أكان قد انتهى بحبه إلى مثل هذا المصير اليائس ؟! ولكن ماذا كان يمكن أن تحتويه الرسالة ؟! لقد سألها مزيداً من أمل .. أتراها قد وهبته فيها هذا الأمل الذى يطلبه ؟! أم تراها لم تحملها سوى عزاء عن القطيعة واليأس ؟. وهبها وهبته هذا المزيد من الأمل .. تراه ماذا كان صانعاً به ، إزاء سدود الفوارق ، وقيود التقاليد .

ثم لا يلبث أن يذكر قول أخيه..«ليست المشكلة فى الفوارق والتقاليد..بل فى الطريقة التى نحاول بها أن نتخطاها . إنك تأبى إلا أن ترقد وراء سدود التقاليد والفوارق الموهومة .. تتطلع من ورائها إلى أميرتك الساحرة . تطلع ابن الجناينى من كوخه إلى أسوار القصور العالية .. إنك تفكر بعقلية القرون الوسطى ، وكذلك هى .. إنها ما زالت تنتظركِ حبيسة فِى أبراج القصر .. حتى تتخطى الأسوار وتحملها فوق جوادك .. وتصرع أباها وأخاها .. اللذين يقفان بنبالهما ليحرساها من ابن الجناينى ».

أجل .. إن المشكلة — كما قال أخوه — هى مشكلة الطريقة التى يحاول بها تخطى الفوارق .. وليست مشكلة الفوارق نفسها .

وأين هى الفوارق .. وقد أخذت تتهاوى وتنهار أمام معول الثورة ؟! لقد حطمت الثورة الرأس الأكبر .. فانخفضت بعدها الرءوس المتعالية ، وذلت

النفوس المتجبرة المتكبرة .. ومع ذلك فما زال هو حيث كان .. وما زالت هى حيث كانت .

لقد أطاح قانون تحديد الملكية بمعظم أملاك أبيها .. ولم يبق له إلا العزبة المحيطة بالقصر .. وفجعت الثورة الرجل فى أراضيه التى كان يطبق عليها بأسنانه .. والتى كان يخشى عليها من نهب الفلاحين .. وأطاحت بسلطانه الذى كان يفرضه على من حوله من العبيد .

وأحس الأمير بإمارته توشك على الزوال .. وأبصر بشمسها تميل نحو الغروب ، وأصابه حزنه على فقد أملاكه وفجيعته على زوال سلطانه بذبحة صدرية ، كادت تودى به .. وتركته طريح الفراش لا يستطيع حراكا .

ومع ذلك ، ومع كل ما حدث من تحطيم للفوارق .. فما زال « على » يحس بوجود الهّوة ، وقيام السدود .. وما زال يقبع — كما قال أخوه — وراء الأسوار ، يتطلع فى يأس إلى الأميرة الساحرة ، الحبيسة فى برجها .

إنه يشعر بأن يأسه منها ، باق ، بقاء حبه لها .. كل منهما دائم أبدى ، لقد رسبت فى أعماقه ، ومعها هذا اليأس ، ولم يعد أمامه إلا أن يسلم باستحالتين : استحالة انتزاعها من نفسه ، كإحساس ، واستحالة الحصول عليها ، ككائن حى .

وفى ليلة من ليالى يوليو جلس « على » فى شرفة داره وبجواره « سليمان » . وأحسَّ « علىّ » بنفس صاحبه ضيقاً وقلقاً وتبرماً .. وأدهشه أن يستمر « سليمان » فى إحساسه بالتبرم ، بعد أن تغيرت كل الأوضاع التى كان يتبرم بها فيما مضى .. وبعد أن هيأت الثورة له أن يفعل مع زملائه كل ما كان يرنو إليه .

وهز « سليمان » رأسه هزَّات خفيفة ، وبدا كأنما يودّ أن يقول شيئاً ، ولكنه لم يخرج عن صمته .. وتساءل « علىّ » قائلا :

— ماذا بك ؟

— قرف .

— ممّ ؟

— من كل شيء .

— لم يخطر لى ببال أن يصيبك القرف ، وقد تحققت جل آمالك ، والباقى فى طريقه إلى التحقيق .. بعد أن وضعت الأسس لتحقيقه .

— ومع كل ذلك .. يبدو لى أننا قد فزنا من أجل ما فعلناه بأكبر قسط من السخط والغضب .. لقد فعلنا ما لم يقو أحد على فعله خلال كل القرون الماضية .. لقد خلصنا مصر من كابوس ، كان يجثم على أنفاسها ويمنعها من الحراك .. ثم أمسكنا بيدها واتجهنا بها إلى الاتجاه القويم ، الذى تمليه علينا ضمائرنا .. إن أهدافنا صريحة واضحة لا يختلف عليها اثنان ، ونحن نسير فى سبيلها بكل ما نملك من قوة وعزم وإخلاص ، ومع ذلك أحس أننا استثرنا عداوة الناس .. وأن الأمر بات يحتاج إلى جهد خاص .. لا كتساب محبتهم وتأييدهم .. كأن الغرض الذى حققناه غير كاف لذلك .

ومد « علىّ » ساقيه فى استرخاء ، وأسندهما على حافة الشرفة ، ثم مال بجسده إلى الخلف فى جلسة مريحة وأجاب فى هدوء :

— إنك يا «سليمان » قليل الصبر ، سريع التأثر ، إن إثارتكم لسخط البعض وغضب البعض أمر غير مستغرب ، فليس هناك عمل أياً كان نوعه .. يمكن أن يسبب الرضاء المطلق لجميع الناس .. لأن الناس بطبيعتهم مختلفو الطبائع والأهواء والمشارب ، متباينو المطالب والأغراض . فأعمال الخير لن تلقى من الأشرار رضاء ، وأعمال الشر لن تلقى من الأخيار رضاء ، وأنتم قد أتيتم فى أعقاب فساد مطبق ، وانحلال متأصل ، وقد ضاعت المثل العليا ، والمقاييس الطيبة .. وأضحى العبث والاستهتار والرشوة والأنانية ، وكل أنواع السيئات .. عملا طبيعياً لا يبعث على احتقار أو استنكار .. وإعادة المثل العليا والمقاييس الطيبة ، وتطهير البلد من خلق السوء الذى تأصل فيها ، وإعادتها من انحرافها إلى الطريق السوىّ ، يحتاج إلى شدة وضغط وعنف ، والشدة بطبيعتها

مكروهة ، والضغط والعنف بغيضان إلى النفس ، ولا سيما النفس التى تعَّودت الانحلال ، ولذلك ليس هناك وجه لضيقك بذلك السخط والغضب ، فهو سخط طبيعى ، وغضب متوقع .

— أكنت تتوقعه أنت ؟

— بالطبع .. ماذا كنت تتوقع أنت ؟! أكنت تتوقع أن يحب كبار الملاك الثورة ، وقد نزعت أراضيهم ، ومزقت أوصالهم ؟! إن من الطبيعى جداً أن يكرهوها .. بل من الطبيعى ألا تحصل من حب الفلاحين — وهم الجهة المضادة — على قدر يوازى كره كبار الملاك .. بل وأكثر من هذا ، من الطبيعى أن يكرهها الفلاحون الذين لم يحصلوا على شىء من الأراضى المنتزعة .. لأنها لن تكفى إلا النزر اليسير منهم .. ومع ذلك فلم يكن هناك بد من فرض هذا القانون ، لإزالة الهوّة البغيضة الشاسعة بين فرد يملك عشرات الألوف من الأفدنة ، وآخر لا يملك شيئاً ، ولتحقيق نوع نسبى من المساواة .

وكان من الطبيعى أيضاً أن يكره رجال الأحزاب الثورة ، بعد أن سلبتهم مقاعد الحكم التى كانوا يتبادلونها كأنها حكر عليهم .. ومن الطبيعى أيضاً أن تنال من الكره أكثر من هذا وذاك .

وصمت « سليمان » وبدا عليه الشرود .. ثم كأنما يحدث نفسه :

— عجباً !! كنت أظن بعد ما قمنا به أننا سنوضع موضع الأبطال المعبودين .

وضحك « على » وأجاب :

— كان يمكن أن يحدث هذا لو انتهى دوركم عند عملية الثورة ذاتها .. إن دوركم فيها قد وضعكم فعلا فى مصاف الأبطال المعبودين .. ولكن الدور الذى تلا هذا ، والذى حملتم فيه المسئولية على عاتقكم ، وواصلتم السير بالركب .. وداومتم على الكفاح .. فى سبيل تحقيق أهدافكم .. هذا الدور الجديد .. لا يمكن أن يضعكم فى الإطار البرّاق .. إطار البطولة والفدائية الذى يستحوذ على الحب السريع .. والتقدير الخاطف .. ولا يجب أن يكون هذا مطمعكم

أو أمنيتكم .. ولا يجب أيضاً أن تغيروا من أهدافكم فى سبيل الحصول عليه .. لا يحسن أن تتطلعوا إلى تقدير سريع ، لأن طبيعة عملكم لا تهيئ لكم هذا التقدير .. إنكم تحطمون أطلالا خربة . لتشيدوا بناء ضخماً .. لا بد له من أسس متينة .. والبانى لا يمكن أن يستحوذ على التقدير بالأسس المخفاة فى باطن الأرض .. ولا يمكن أن يتعجل الجدران قبل الأساس ، لمجرد إحساسه بالحاجة إلى التقدير .. إن كل ما هو مطلوب منكم .. هو العمل الصالح .. والصبر على التقدير .. إنه لا بد آت .. وعندما يأتى سيكون أرسخ وأثبت على الزمن والتاريخ .

— قد تكون على حق ، ولكن لا بد من عمل حساب للرأى العام .. لا بد من إرضائه إرضاء مؤقتاً .

— لا داعى لهذا مطلقاً .. إنكم تملكون القوة لفرض الرضاء عليه .. وإذا أرضيتموه اليوم بالقوة .. فسترضونه غداً بنتائج أعمالكم الصالحة .. ولكن إياكم أن تدعوا إرضاءه يحولكم أو يشغلكم عن العمل الصالح نفسه .. إن البلد يمر بطفرة النشوء والارتفاء .. فيجب أن تبتعدوا به عن التدليل المفسد ، والإرضاء المفتعل .

— ولكن هذا سيكون استبداداً ما ، ونحن قد أقمنا ثورتنا على المطالبة بالحريات والحياة الدستورية .

— لقد أخذتم على عاتقكم المسئولية كاملة .. فقوموا بها بالطريقة التى تضمن لكم أفضل النتائج .. لا تتأرجحوا بين هذه الطريقة أو تلك .. ولا يهمكم مدى ما يروق لأعين الناس بقدر ما يهمكم ضمانها لنتائج أعمالكم ، فنتيجة العمل هى التى يجب أن تفرض طريقة ادائه .. وعندما كانت الطريقة فيما مضى طيبة فى ظاهرها والعمل فاسداً انتهت بتقويض النظام كله .. وإذا كانت الطريقة الطيبة قد هدمها عملها الفاسد ، فلن يستعصى هدم الطريقة الأخرى إذا فسد عملها .. المهم يا « سليمان » هو العمل فقط .

وتمتم « سليمان » قائلا :

ـــ أجل !.. معك حق .. إن المهم هو العمل .. وغداً سنقوم بعمل أعتقد أنه خطوة كبرى نحو أهدافنا الطيبة .

ـــ وما هو ؟

وصمت سليمان برهة ثم أجاب :

ـــ إعلان الجمهورية ، وإنهاء حكم أسرة محمد على وإلغاء ألقاب الإمارة .

ورفع « علىّ » حاجبيه فى دهشة ، وتساءل قائلا :

ـــ أقد تقرر هذا فعلا ؟

ـــ أجل ! سنحمل المسئولية صريحة كاملة على أكتافنا وسنسمى الأشياء بأسمائها .. ولن يكون فى مصر بعد الآن ملوك .. ولا أمراء .

وساد الصمت ، وعلقت بذهن « علىّ » الفقرة الأخيرة من قول « سليمان » ، وأحس بها تمس شيئاً كامنا فى أعماقه .

«لن يكون فى مصر بعد الآن ملوك ولا أمراء ؟».

وبدا له كأن سداً آخر من سدود الفوارق قد انهار ، وأن البقية الباقية من الترفع والتعالى ، الذى ما زال لقب الإمارة الوهمى ينفخها فى أصحاب السمو ، قد تهاوت .

ولكن ماله هو ، ولزوال الفوارق أو بقائها ، إن السدود قد أقامها يأسه ، وشيدها عجزه ، وسواء أزيلت الفوارق أم بقيت ، وسواء أضحى صاحب القصر أميراً ، أم حقيراً ، فهو لن يجسر على اقتحامه ، ولن يقوى على تخطى أسواره ، بل سيظل قابعاً يتطلع ـــ كما قال أخوه ـــ إلى أميرته الساحرة الحبيسة فى أبراج القصر ، التى تنتظره حتى يتخطى إليها الأسوار ، ويصرع أباها وأخاها ، ويحطم قضبان السجن ، ويفرّ بها فوق جواده .

وتطلع إليه « سليمان » تطلع من ينتظر رداً أو تعليقاً .. وطال شرود « علىّ » حتى اضطر « سليمان » أن يقطع صمته متسائلا :

ـــ ما رأيك ؟

واضطرب « علىّ » وهو يرى ذهنه قد تعلق بأتفه ما فى الموضوع ، وأنه لم يعنه من كل الأحداث الخطيرة التى توشك أن تقع ، والتى ستبدل نظام الحكم فى مصر .. إلا إلغاء ألقاب الأمارة .. وزوال هالة السمو التى كانت تحيط بالأمراء — أو على وجه التحديد — بالأمير إسماعيل .. السد الأكبر ، والحائل الأعظم ، بينه وبين .. أمنية العمر .

وأجاب « علىّ » كأنما قد أيقظه سؤال « سليمان » من سنة نوم :

— رأيى !! رأيى .. إنها عمل حاسم ، وخطوة موفقة ، كان يجب أن تتخذ من قبل .

— كل شىء مرهون بوقته .. الحمد لله الذى وفقنا إليها ، وهيأ لنا أن نقضى على آخر أسرة أجنبية تحكم مصر .

— أجل ! لقد أضحى مصيرنا بأيدينا ، وسيحكم مصر أبناؤها ، إن مجرد التفكير فى هذا يملأ النفس أملا .

وافترق الصاحبان ، واستلقى « علىّ » فى مضجعه تلك الليلة .. وقد تكأكأ على ذهنه حشد من الذكريات .. أثارت كامن الحنين ، وأيقظت هاجع الشوق .. وعندما استغرق فى النوم لم تخل أحلامه لحظة من أميرة ساحرة ، وأسوار وقضبان ، وصراع ، ونضال ، وجواد منطلق ، وشعر أصفر متطاير ، وفم حلو ، وأسنان منضدة .. وضمة لذيذة .

ومنحته الأحلام الكريمة فى ضجعته ، ما استعصى على القدر أن يمنحه إياه فى يقظته .

وفى اليوم التالى أعلنت الجمهورية .. واستقرت الثورة فى نضالها من أجل هدم الأنقاض الخربة .. ووضع الأسس لوطن جديد ، وطيد الأركان ، متين البنيان .

واستمر « على » فى طريقه المحدود .. وحياته الجامدة المنطوية .. وحنينه المتقطع ويأسه المستمر .

ومضى الصيف الثانى للثورة وحل الخريف ، وأخذت زهور الكريزانتيم فى التفتح .. حاملة فى تفتحها ذكريات بعيدة شاحبة .. للسوبة وحديقة القصر ، والفراشة الطائرة والترولى المندفع .

وذهب « على » لزيارة معرض الكريزانتيم الذى أقيم فى سراى الزراعة بالمعرض .. ساقته قدماه فى سكون كما ساقته من قبل للطواف حول أسوار القصر ، والتسلل إلى السوبة ، واستراق الخطى إلى شجرة الفيكس الضخمة .

ومر بالمعرض مروراً عابراً .. يختطف النظر إلى مجموعات القراولة الضخمة المختلف ألوانها .. حتى وصل إلى ركن ضم مجموعة كبيرة علقت عليها لافتة كتب بها فى الجهة العارضة « حدائق السيد إسماعيل »

وتوقف « علىّ » أمام مجموعة الزهور .. وأحسّ لها بألفة وحنين .. وبدا له أنها تتطلع إليه بعين المعرفة والود .. وأنها تكاد تهمس به أنه أوحشها وأن غيبته قد طالت .

هذه الزهور ليست غريبة عنه .. إنها بقايا أبيه .. لقد كان أبوه يقول عنها إنها ذريته الأخرى ، وإن حبها يجرى فى دمه كحب أبنائه .. وإن لها عليه حق الأبناء فى الرعاية والتربية .

إنه يكاد يبصره يحنو عليها بالرشاشة ، حنو المرضع على الرضيع ، وهو يذكره فى نفس هذا المكان منذ عشرات السنين .. يطوف بينها بجلبابه الفضفاض وعمامته الصفراء .. يتحسسها بفخر وإعجاب ، كما يتحسس رأسه ورأس أخيه .

وخيل إليه ، وهو يرمقها فى شرود ، أن طيفاً يقف بجواره .. يكاد يسمع حفيف أنفاسه .. ويحس بعينيه تشاركانه التطلع إلى الزهور .. وذهنه يشاركه اجترار الذكرى .

ورسم الطيف بعين الوهم ، رقيق الملامح ، دقيق التقاطيع ، حزين السمات ، شارد النظرات .. كما أبصره آخر مرة ، ولم يحاول التطلع إليه ، خشية أن يجفل

أو يتطاير .. واستمر فى نظراته الشاردة ، وفى إحساسه الممتع .. حتى أيقظه من حلمه صوت خشن يهتف به :

— سيدى « على » بك !

وتطلع إلى صاحب الصوت ، فإذا به محمود الجناينى ، أحد صبيان أبيه ، وقد مدّ يده يصافحه فى شوق وحرارة .

وردّ « على » تحيته متسائلا :

— كيف حالك يا محمود ؟! وكيف حال الجميع ؟

— بخير يا سيدى ، لماذا لا تحضر لزيارتنا ؟! إننا نذكركم فى كل لحظة .

— ونحن أيضاً نذكركم دائماً .. لقد أتيت إلى هنا ، لأرى زهوركم .

— وما رأيك فيها ؟

— مدهشة .

— إنها خير ما فى العرض كله ، ومع ذلك لم تصل إلى حالها أيام والدكم رحمة الله عليه .. لقد كان معلمنا كلنا .. إن أفندينا ما زال يذكره كلما ضاق بنا ، ويقول لنا إنه رجل لا يعوّض .

— وكيف حال أفندينا ؟

— كما هو .. أظنك سمعت عن الذبحة التى أصابته .. إنه الآن أفضل كثيراً .. إنه يتجوّل فى الحديقة ، وقد ارتفع صوته كما كان قبل مرضه ، وعاد إلى إمارته وصياحه .

وأخفى الرجل صوته ، وتلفت حوله فى حذر ، ثم أردف قائلا :

— لقد كنا نظن أن الثورة ستكسر أنوفهم ، وتعلمهم التواضع .. ولكنهم ما زالوا كما هم ، ولا سيما أفندينا الصغير ، لم يعد يحتمل أحداً ، إنه مجنون . لقد تركته زوجته ، لأنها لم تستطع احتمال جنونه ، ولم يَعد له عمل سوى الإمارة والعجرفة ، والتسلى بضربنا ، لقد كاد يقتل « عبد الحميد السائس » ضرباً لأن حصانه قد جرح .

— وما ذنب « عبد الحميد » ؟

— لأنه لم يربطه جيداً فأفلت من الإسطبل واصطدم فى حافة الباب . لقد ضربه حتى كسر عظمة كتفه .. إنهم ما زالوا يحتاجون إلى تربية .. لا بد أن تؤدبوهم أكثر من هذا .. ليس فيهم طيب عدا السيدة الصغيرة ، لا يكاد يحس بها مخلوق .

— وكيف حالها ؟

— كانت هنا بالأمس تشاهد المعرض .. ليتك حضرت بالأمس حتى تراها .

ومسّ قول الرجل العابر شغاف قلب « على » .. « ليته حضر بالأمس ؟ » .. أجل ليته .. لو كان يعرف لما غادر المعرض منذ افتتاحه .

ولكن لماذا كل هذا الإحساس بالخيبة ؟ ماذا تراه يجنى من نظرة عابرة ، ولقاء خاطف ؟

لا داعى لهذا التمنى .. فراحة اليأس خير وأبقى ..

ومد « على » يده فصافح الرجل وغادر المعرض ، وهو يحاول أن ينفض عن نفسه إحساساً بالخيبة والخذلان .

وفى صباح اليوم التالى ، وهو فى طريقه إلى الثكنات ، لمح فى صحف الصباح عنواناً بالخط العريض « مصادرة أموال وممتلكات أسرة محمد على » .

وأمسك بإحدى الصحف ، ليقرأ فى التفاصيل أن مجلس قيادة الثورة أصدر قراراً بمصادرة أموال وممتلكات أسرة محمد على .. ورد أموال « أحمد عرابى » لورثته .. وأن المصادرة قامت لرد أموال الشعب — التى سلبتها لأسرة المالكة — بعد أن حاول أفراد الأسرة تهريبها إلى الخارج .

وبدا « لعلى » كأن قرار المصادرة كان رداً على رجاء « محمود الجناينى » الذى همس به بالأمس :

« إنهم ما زالوا يحتاجون إلى تربية .. لا بد أن تؤدّبوهم أكثر من هذا » .

ووصل « على » إلى مكتبه ، وقد أمسك بالصحيفة مطوية فى يده .. وقد راود نفسه إحساس بالأسى .. وبدا عليه التجهم والشرود .

لقد قوّض قرار المصادرة آخر سدود الفوارق .. وهدم آخر أحجاره .. لم يعد هناك فارق قط بينه وبين أفراد الأسرة المالكة . لا لقب ، ولا مال ، ولا إمارة ، ولا جاه ، ولا سلطان ، ولا شيء أبداً .. لقد أضحى « ابن الجنايني » القابع وراء الأسوار .. تماماً كصاحب القصر المحلق فوق الأبراج .. لقد زالت الأسوار ، ودكت الأبراج ، وأضحوا جميعاً سواسية على ظاهر الأرض .. لقد انبسط الجبل .. فلم تعد به قمة ولا سفح .

ومع ذلك فهو يحسّ بأسى ممض

ما ذنب « أنجى » فى كل هذا ؟! إنها لم تختل بإمارة .. و لم تعتز بجاه .. ولن يضيرها أن تسحب منها الإمارة ، أو يضيع الجاه .. فلماذا يحكم عليها بكل هذا الإذلال ؟

ولكن أتراها تجد فى هذا إذلالا .. أم تسلم به كحق من حقوق الثورة والشعب ؟! ليته يستطيع أن يراها ويتحدث إليها !! ليته يستطيع أن يحمل عنها آلامها؟! ليته يستطيع أن يضمها إليه .. ويصدّ عنها كلّ ضيق وأسى .

لماذا لا يقدم على هذا .. وقد زالت السدود ، وطأطأت الرءوس المتعالية ؟. لماذا لا يتقدم إليها .. وقد أضحى هو الأعلى يداً ؟!

ولكن أيمكن أن يسلم أبوها وأخوها بهذا ؟! أتراهم يرونه حقاً قد ساواهم أو علا عليهم .. أم ما زالوا لا يرون فيه سوى ابن الجنايني .. الذى اتهموه بالجنون لأنه تقدم لخطبتها ؟!

ودق جرس التليفون ورفع « على » السماعة ، فسمع صوت عامل التليفون يقول له :

ـــ أركان حرب الفرسان مع سيادتك .

ثم سمع صوت أركان حرب الفرسان يقول له :

ــ صباح الخير يا « على ».. لقد تعينت عضواً فى لجان مصادرة أموال وممتلكات أسرة محمد على .. والمطلوب أن تقدم نفسك غداً فى قصر عابدين لرئيس اللجان .

وبهت « علىّ ».. وتساءل فى دهشة :

ــ أنا ؟.. عضو فى لجنة جرد ؟.. لماذا ؟.. إنى لا أستطيع أن أترك الآلاى لحظة واحدة .. وأنتم تعرفون هذا .. لماذا تعينوننى .. وأنا .. وقاطعه الأركان حرب فى هدوء :

ــ اسمع يا « على » لا داعى لهذا الضجيج ، نحن لم نعّينك .. لقد جاء تعيينك بأوامر القيادة .. فإذا كنت لا تريد الذهاب فاتصل بهم .. حتى يعينوا غيرك .. السلام عليكم .

وأجاب « علىّ » وهو يضع السماعة مشدوهاً :

ــ عليكم السلام .

ومضت لحظة ، وهو حائر فى هذا التعيين .. حتى برق فى ذهنه خاطر ما لبث أن رفع السماعة على أثره ، وقال لعامل التليفون :

ــ أعطنى الصاغ سليمان فى القيادة .

وبعد برهة أجابه صوت « سليمان » :

ــ آلو .. مين ؟

ــ أنا « علىّ ».

ــ صباح الخير يا « علىّ ».. كيف حالك .. لقد كنت أود أن أزورك منذ يومين .. ولكن حدث ..

وقاطعه « على » فى ضيق :

ــ اسمع يا « سليمان » دعنا الآن مما حدث .. وأخبرنى من الذى عيننى عضواً فى لجنة مصادرة أموال وممتلكات أسرة محمد على ؟

وأجاب « سليمان » ببساطة :

— أنا

— أنت ! ولماذا ؟

— لأنه قد خطر لى أن هذا يسرّك .

— يسرّنى ؟! ولماذا خطر لك هذا ؟

— حتى تتولى أنت مصادرة أموال وممتلكات أسرة مخصوصة .

وزادت حدّة « علىّ »، وهو يتساءل فى غضب :

— ومن الذى أنبأك أنى أريد أن أتولى مصادرة أموال هذه الأسرة المخصوصة ؟.. أعهدت فىّ من قبل .. الرغبة فى الشماتة والإذلال ؟

— هدّئ من حدتك ولاتكن غبياً .. ليست المسألة رغبة فى الشماتة أو الإذلال ، إنها على النقيض من هذا ، إنها رغبة فى تجنب الإذلال والشماتة .. إنى أريد أن أقيهم إياها .. والمسألة تحتاج إلى كياسة وذوق وحكمة وتصرف ، وقد بدا لى أنك أقدر الناس على ذلك ، وأشدهم حرصاً على تجنب الإذلال ؛ على الأقل بالنسبة لصاحبتك .. أم ترى أن أمرها لم يعد يعنيك ، وأنك تريد أن تتخلى عنها فى أول فرصة سنحت لك لمساعدتها ؟

وصمت « علىّ » صمت الواجم الحائر .

وعاد « سليمان » يسأل :

— لماذا لا تجيب ؟

ولم يجد « على » القدرة على الإجابة .. أترى حقاً أن أمرها لم يعد يعنيه وأنه يريد التخلى عنها ؟! أليس هو أحق الناس وأقدرهم على تخفيف الصدء عنها ؟

وأردف « سليمان » يتمم تساؤله .

— أتريد أن أغيّرك ؟

وأجاب « على » فى قول مقتضب :

— لا .. إنى سأذهب .

ووضع السماعة ببطء ، وهو يشعر أن عبئاً جديداً قد وضع على كاهله .

(٦٢)

دمار ..!!

فى صباح يوم من أيام نوفمبر ذات الشتاء المبكر .. لم تقو شمسه الهزيلة على مطاردة أفواج الضباب المتثاقلة على المزارع .. الجاثمة فى الطرقـات .. كان « علىّ » يجلس فى عربة جيب تنهب الطريق إلى قصر الأمير إسماعيل ، تتبعها إحدى عربات المحطة تحمل بقية أعضاء لجنة المصادرة ، وبصحبتهم رجـال البوليس المشرفون على تنفيذ عملية المصادرة .

وكسا التجهم سيما « على » وهو يحدّق من زجاج العربة محاولا اختراق حجب الضباب .. وأخذت تتواتر عليه أشجار الطريق قد لفتها الأبخرة البيض فبدت كالأشباح .. وتصاعد إليه صوت احتكاك العجـل بـأرض الطريـق كالفحيح ، وبين آونة وأخرى يقرع السائق « الكلاكس » لينذر بعض المارة بدوابهم أو ليتجاوز إحدى عربات الخضر .

كان « على » يشعر بثقل المهمة الملقاة على عاتقه .. وكان لا يفتأ يسائل نفسه .. ماذا حدا به إلى الرضوخ للأوامر وقبول القيام بها ؟

من بين كل مخلوقات الأرض .. لماذا يدفعه القدر .. وهو دون غيره .. ليجرد الأمير العاتى من أمواله وينزع عنه أراضيه وقصوره وعرباته وخيوله ويتركه صفر اليدين من كل مال وأبهة وسلطان ؟

أهى سخرية من سخريات القدر .. أن يذيقه مرارة الحرمان والطرد .. بعد أن أذاقهم إياها عندما حاول أبوه خطبة « أنجى » ؟

ولكن ما شأنه هو .. بسخرية القدر وعبثه . لماذا يكون مخلب قط فى يد القدر الساخرة العابثة ؟

ألكي تكون السخرية على أتمها ، والعبث على أشده ؟..

ألكي يكون المطرود طارداً .. والمحروم حارماً .. وتبدو المسألة كـأنها مسرحية محبوكة رائعة ؟

كيف يمكن أن يلقي الأمير !! وكيف يقول للجبار المتأله ، إنه قد أتى ليأخذ كل ماله ، ويتركه كواحد من عبيده .. عليه أن يكدح فى سبيل حياته ، ويشقى فى سبيل لقمته ؟

كيف يمكن أن يجرؤ على ذلك ، وهو الذى كان يخشى مجرد رؤيته ؟

وهى .. كيف ستلقاه ؟! وماذا ستظن به ؟.. وكيف يلقاها هو ؟ وماذا يقول لها ؟.. أيقول إنه .. بعد طول غيبة .. وفرط حنين .. قد أتى ليجرّدها من أموالها .. وينزع عنها مجوهراتها ؟

أيمكن أن يحدث هذا ؟! أيجسر هو عليه ؟

أكان يخطر بباله ، وهو يستدعى طيفها الذى لم يفارقه طـوال السنين الماضية .. أن يقف منها مثل هذا الموقف البغيض ؟

لماذا زجّ بنفسه فى هذا المأزق الكريه ؟

لماذا .. لماذا .. لماذا ؟

وبدا له أن يوقف العربة ، ثم يعود إلى حيث أتى .. ويطلب إعفاءه من لجنة المصادرة .

أجل .. إن هذا هو ما يجب أن يفعله .

ومع ذلك لم يأمر بإيقاف العربة .. ولا عاد إلى حيث أتى .. بل استمرت العربة تنطلق فى الطريق بين موجات الضباب ، واستمر ذهنه ممعناً فى شروده .

لو أنه عاد من حيث أتى .. وطلب تغييره من اللجنة .. فلن يغير ذلك من الأمر الواقع شيئاً .. لن يمنع من حدوث المصادرة بكل مظاهرها المزعجة .. وإذا لم يقم هو بإجرائها فسيقوم بها غيره .. مما لا تعنى « أنجى » لديه شيئاً ، ولا تدفعه عاطفة خاصة إلى الحرص على مشاعرها والرفق بأحاسيسها .

أيمكن أن يحرص عليها إنسان كما يحرص عليها هو ؟

ألا يعتبر انسحابه أنانية منه ؟! ألا يعتبر تسليما بما قال سليمان : « إن أمرها لم يعد يعنيه ، وإنه قد تخلى عنها فى أول — بل وآخر — فرصة تسنح لأن يقدم لها شيئاً » .. لا .. لا .. لا بد أن يذهب ، ويواجه الموقف بكل ما فيه من متاعب .

ومرة أخرى رجحت كفه استمراره فى مهمته .

وظل ذهنه متأرجحاً بين الذهاب أو الانسحاب ، والعربة مستمرة فى طريقها .. لا تتوقف ، ولا تنكص على عقبيها .. فقد كان التأرجح لا يخرج عن نطاق التفكير ، ولا يتعداه إلى حيز التنفيذ .. إذ كان ذهابه فى الواقع مؤكداً .. ولم تكن عوامل النكوص — مهما بلغت من الشدة — تستطيع أن تمنعه ، لسبب واحد ، هو رغبته الجارفة فى رؤية « أنجى ».

كان إحساسه بأنه سيراها هو القوة الخفية التى تدفعه إلى الذهاب ، والتى تتضاءل أمامها كل خشية ورهبة وقلق وضيق .

ألا تستحق مجرّد رؤيتها .. حتى ولو لم يستطع أن يفعل من أجلها شيئاً ، وأن يتحمل من أجلها المتاعب والمشاق ؟

وأخذت العربة تقترب من العزبة ، وبدا لعينيه من خلال الضباب شبح الجامع القائم بجوار دارهم القديمة ، وملأه إحساس بحنين يخالطه الحزن ، وتذكر أحلامه فى مضجعه وراء النافذة والنسمة تحمل إليه عبير أزهار البرتقال كأنها هبة من أنفاس الحبيبة .

وبلغت العربة القصر ، وتطلع « على » من وراء الزجاج إلى أسواره العالية .. فبدت له ضخامتها وعلوّها كأنها سد حائل منيع ، ولم يدر أى دافع دفعه إلى تذكر قول أخيه :

« إنك تأبى إلا أن تقف وراء سدود التقاليد والفوارق المهمومة .. تتطلع من ورائها إلى أميرتك الساحرة .. تطلع ابن الجناينى من كوخه إلى أسوار القصر العالية .. إنك تفكر بعقلية القرون الوسطى .. وكذلك هى .. إنها ما زالت

تنتظرك حبيسة فى أبراج القصر .. حتى تتخطى الأسوار وتحملها فوق جوادك .. وتصرع أباها وأخاها .. اللذين يقفان بنبالهما ليحرساها من ابن الجناينى » .

وانطلقت من شفتيه ضحكة خافتة ملؤها المرارة والسخرية .

إلى أى حدّ قد تحقق قول أخيه ؟.. وإلى أى مدى تبدو مقارنته الساحرة قريبة من الواقع ؟

إنه يقف وراء أسوار القصر فعلا .. يتطلع إليها تطلعه إلى سد منيع وهو ـ مهما كانت مهمته ومهما كانت الظروف التى تحيط به ـ لا يستطيع أن ينزع من نفسه إحساس الطفولة .. إحساس « ابن الجناينى » يتطلع من كوخه إلى أسوار القصر العالية حيث تقبع أميرة أحلامه الساحرة .

ولكن أين الأميرة الآن ؟! وكيف أضحت ؟!

أتراها ما زالت تنتظره ـ كما توهم أخوه ـ حبيسة فى أبراج القصر حتى يتخطى الأسوار ويحملها فوق جواده ويصرع أباها وأخاها ؟

أما انتظارها إياه .. فهو مالا يجسر على أن يطمع فيه .. ولئن استطاع أن يرجوه منها فيما مضى .. فأغلب الظن أن اليأس وطول الانتظار قد أضاعا منها إحساس المنتظر .. وأن الزمن قد بدّل لهفة الانتظار إلى استسلام العجز وسكينة اليأس .

أما تخطيه الأسوار .. فلم يعد بالأمر العسير .. ولا بات يحتاج إلى مشقة .. فهو بحكم مركزه ، والمهمة التى أتى من أجلها والسلطة المخوّلة له .. يستطيع بسهولة أن يتخطى الأسوار مهما ضخمت أو تعالت .

أما صرع أبيها وأخيها فلم يعد يتطلب جهداً .. فأغلب الظن أن أحداث الثورة قد هدت كيانهما ، وأن قرار المصادرة قد أجهز على البقية الباقية منهما .

بقيت عملية الإنقاذ فوق الجواد .

تلك هى السخرية الكبرى .. إن الأميرة الساحرة .. حبيسة بين أبراج

القصر .. سترى فارسها قد أقبل عليها أخيراً .. لا لينقذها فوق جواد .. ولكن لينزع عنها أموالها فى عربة « جيب » .

أهناك أشد من هذا سخرية ؟

أيمكن أن تتحقق أحلامه التى كان يتمنى وقوعها .. بمثل هذه الطريقة الماجنة الساخرة ؟

أكان يخطر ببال أخيه أن يتحول خياله الساحر إلى هذا الواقع الأشد سخرية والأكثر مرارة ؟

ومع ذلك فهو لا يملك إلا أن يسير فيه ، ويتحمل كل ما به من سخرية ومرارة .. من أجلها .. ومن أجل أن يخفف عنها وقع الصدمة .. ويجنّبها ما استطاع من الضيق والألم .. ومن أجل .. قلبه الراجى المتوسل .. المتلهف على لقاء .. الظامئ إلى نظرة .

ووقفت العربة أمام الباب الرئيسى للقصر .. وبدا الباب الضخم مغلقاً لا يقف به حرّاس .. ولا يسمع به صوت ولا حركة .. والسكون المطبق حوله .. يوحى بالوحشة ويبعث على الرهبة .

وتلفت « على » حوله .. علـه يجد أحد الحرّاس .. أو العمال .. أو الفلاحين .. وتطلع إلى الناحية الأخرى من الطريق حيث الترعة والحقول فلم يبد له مخلوق .. وكشف الضباب عن حافة المزارع الملاصقة للترعة .. فوجدها مغرقة بالمياه .. كأنها مستنقع لا يبدو به عود أخضر .

واتجه « على » بعربته إلى مكاتب الدائرة .. ولم تكن تبعد كثيراً عن الباب الرئيسى ، وتوقف أمام بابها الخشبى ... وهبط من العربة .. وهبط وراءه بقية أعضاء اللجنة ورجال البوليس .

وتقدم ضابط البوليس ومعه أحد رجاله ليدفع الباب ويمهد الطريق لعلى ، ولكن « على » سبقه قائلا فى أدب :

ــ أرجوك .. دعنى أتقدم .. إنى أعرف الطريق منذ طفولتى وأعرف

موظفى الدائرة جيداً .. وأظن ذلك سيسهل المهمة .

و لم يكد « على » يعبر الباب حتى راعته المياة التى أغرقت الفناء ، وتدفقت داخل المكاتب نفسها ، ووقع بصره على جثة كلب تراكم عليه الطين وغمرته المياه ، ثم أبصر أحد الخفراء يجر حماراً نافقاً محاولا إبعاده عن المكاتب .

وتقدم « على » مشدوهاً ، وأخذ يخوض وسط الوحل وقد ملأت نفسه الوحشة ، ونفذت إلى أعماقه ريح خراب ، كأنه يسير وسط أجداث أو خرائب وأطلال .

و لم يكد الخفير يراه حتى أقبل عليه مهرولا ، وقد بدا عليه الفزع وهو يراه فى حلته الرسمية ، ووراءه ثلة من الرجال .

وتساءل « على » وهو يتقدم نحو حجرة وضعت ببابها لافتة زرقاء باهتة كتب عليها « الناظر ».

ــ أين حضرة الناظر ؟

ــ إبراهيم أفندى ؟!!.. إنه يجلس فى السلاملك مع خليل افندى وعبد القوى افندى .. بعد أن أغرقت المياه مكتبه .. تفضلوا .. نقول له من ؟

وقبل أن يجيب « علىّ » بدا إبراهيم افندى بجسده المهدم وكتفيه المهدّلتين وظهره المحنى فى شرفة « السلاملك » العالية على اليسار أمام المكاتب .. وألقى على ثلة الرجال الواقفين وسط الفناء الخرب ، المغرقين فى الوحل ، نظرة جامدة لا تنم عن دهشة ، كأنما كان يتوقع حضورهم بين آونة وأخرى .

وتقدم « على » ووراءه أعضاء اللجنة ورجال البوليس ، متجهين إلى سلم الشرفة ، ووقف أمام إبراهيم افندى ، وقد بدا وراءه الرجلان الآخران هياكل متداعية ، تؤيد بمخايل التهدم البادية عليهم كل مظاهر الفناء والوحشة والخراب المحيطة المخيمة على المكان .

ومدّ « على » يده يصافح الرجل فى حرارة .. وهو يبصر فى تجاعيد وجهه .. وجه أبيه .. ويحس فى راحته .. خطاب التوصية الذى حمله إلى باشكاتب

المدرسة الحربية .. فكان له الفضل الأول فى القبول .

ذكر كفاح أبيه .. وماعوجهه المراق .. وذكر سعيه بخطاب التوصية كأنه يحمل توصية بالدخول إلى الجنة .. وذكر أمانيه الحالمة وآماله السرابية الموهومة .. وهو يشدّ على يد الرجل فى ترحاب وشوق .

ولم يميزه إبراهيم افندى ، ولم يبادله حرارة التحية ومظاهر الشوق ، فقد كان من العسير عليه — وعلى الهيكلين المتساندين خلفة — أن يبصروا فيه ذلك الصبىّ الصامت المطرق ، الذى كان يسعى وراء أبيه .. ملء نفسه الخشية من أن يرى الناس رقعة بنطلونه .

ولم يجد « على » بدأً من أن يعرف الرجل بنفسه .. وهو يحس ببرود التجاهل .. ووجوم الإنكار .. فقال بقدر ما استطاع من بشاشة وبقدر ما تركت فى نفسه وحشة المكان وثقل المهمة من قدرة على اللين والترفق :

— كيف حالك يا إبراهيم افندى .. أنا على عبد الواحد .. ألا تذكرنى ؟

ولم يبد على ملامح الرجل الجامدة وعينيه الخابيتين ، مادلّ على أنه يذكر شيئاً .

وأردف « علىّ » يزيد من تذكير الرجل به قائلا ببساطة :

— أنا « على عبد الواحد » .. ابن الريس عبد الواحد .

وانفرجت شفتا الرجل وارتفع حاجباه الأشيبان ، واهتزت ملامح وجهه ، ومضت برهة قبل أن يهتف فى صوت خافت مشدوه :

— ابن الريس عبد الواحد .. أنت ؟.. أنت ؟

وهتف « خليل افندى » من ورائه فى صوت يقطعه السعال :

— ما شاء الله .. ابن الريس عبد الواحد .. إنى أذكرك وأنت طفل تصحب أباك .. ما أسرع ما مرّ الزمن .

وكان إبراهيم أفندى ما زال يتمتم مشدوهاً :

— أنت ؟! ابن الريس عبد الواحد ؟!

ثم انطلقت من فمه ضحكة قصيرة ساخرة خافتة وأردف قائلا :

ـــ سبحان الله !

ثم رفع رأسه إلى السماء .. وتمتم فى قول يكاد لا يسمع :

ـــ سبحانك ياربى .. كم لك من حكم .. يدك فوق كل يد .. لقد طرد أفندينا الرجل ، وعاد ابنه ليطردهم جميعاً .. من كان يصدق هذا ؟!

وكره « على » تعليق الرجل .. وكره الموقف الذى يوشك أن يزج به فيه .. مظهر الشماتة والانتقام .. ولم يجد بداً من مقاطعة الرجل ، واستدعائه من مناجاته مع السماء .. فقال فى لهجة مترفقة :

ـــ أظن أنه قد بلغكم يا إبراهيم أفندى قرار مصادرة أموال أسرة محمد على ؟

ـــ أجل بلغنا .

ـــ لقد كلفت من قبَل الحكومة بتولى عملية المصادرة .. وإنى أحسّ أن المهمة دقيقة .. شاقة ، وكل ما أرجوه أن أتمها بأدنى مضايقة .. وأقل إزعاج ، وأظنك و « خليل أفندى » تستطيعان معاونتنا على ذلك ؟

وازدرد « إبراهيم أفندى » ريقه وهزّ رأسه فى حيرة ، ثم رفع كتفيه فى استسلام ، ومضت فترة صمت ، قبل أن يجيب فى تردد :

ـــ يبدو أن المسألة لن تكون فيها أى مضايقة أو إزعاج ، ولن تحتاج إلى معاونة أحد لأنك لن تجد ما تصادره .

وبدت الدهشة على « على » وتساءل :

ـــ كيف ؟.. وأين الأراضى والمحاصيل ؟.. والخيول .. والعربات ؟. والمجوهرات ؟

ـــ الأراضى قد أغرقت بمحاصيلها ، والدواب كلها قد سممت ، والعربات قد أحرقت .

ـــ ومن فعل كل هذا ؟

ـــ أفندينا الصغير . البرنس علاء .

ـــ وأين البرنس إسماعيل ؟

ـــ لقد سافر مساء أمس .. طار إلى استامبول .

وأحس « علىّ » بتوالى المفاجآت .. وخشى أن تفقده كثرتها قدرته على الثبات والتصرف ، وبات يتوقع المفاجآة التالية ، وأحس من وشك وقوعها بخيبة أمل مريرة .

أترى القدر قد خذله ، وحرمه من نظرة معزية ، ولقاء أخير ؟! أتراه قد دفع به إلى هنا .. ليريق حنينه على قصر مهجور ، وأرض غرق ودواب نافقة .. وأمير مجنون ؟

أهذا كل ما تبقى له وراء الأسوار العالية ، بعد أن تخطاها ؟

أقد رحلت أميرته الساحرة .. وبخل عليه القدر حتى بالواقع الساخر الأليم الذى رضى به ؟

وتعلقت عينا « علىّ » بالشفتين المغضنتين اللتين تنساب منهما الحقائق المفاجئة المريرة وتوقع أن تنطقا بخاتمة مرارتها ، وتعلنا عن رحيل « أنجى » .

ولكن الرجل لم ينطق بكلمة ، وبدا من صمته أنه قد انتهى مما عنده ، وأن على « علىّ » أن يقول شيئاً .. ينهى به المسألة .

وكان ذهن « علىّ » قد خلا إلا من « أنجى ».. لم يكن يفكر فى لجنة المصادرة ، ولا فى الأرض المغرقة والدواب المسمومة والعربات المحترقة ، كان كل ما يفكر فيه .. هو مصير « أنجى ».. أرحلت مع أبيها .. أم بقيت فى القصر مع أخيها المدمر المجنون ؟

وانطلق السؤال الذى يطنّ فى رأسه .. وفتح « على » شفتيه لا ليوضح كيف ينوى أن يتصرف فى المصادرة .. بل ليسأل إبراهيم أفندى فى قلق ودهشة :

ـــ والأميرة « أنجى ».. أسافرت معه ؟

ـــ لا . لقد رفضت السفر ، وأصرّت على البقاء فى القصر .

وأحس « على » بهزّة فى كيانه .. وغمرته موجة فرح عاتية .. جعلته حائراً مشدوهاً .. لا يعرف كيف يتصرف ولا ماذا يفعل .. وبدا له أن يقفز إلى

العربة ، ويندفع إليها ، ليضمها بين ذراعيه ويفر بها .

كانت تلك هي أقصى أمانيه ، ولكن الوجوه المحيطة به ، والأعين المترقبة التى تتطلع إليه .. جذبته من علياء أمانيه إلى أرض واقعه .. وذكره الدوسيه الذى يحمله « عبد القادر أفندى » مندوب الجمارك ، والحقيبة التى يحملها « حسان أفندى » مندوب الدمغة والموازين بأن هناك لجنة مصادرة ، وأن هناك عملا يجب أن يؤدى غير اختطاف « أنجى » والفرار بها .

وكان عليه أن يتمالك زمام نفسه ويبت فى الأمر الذى أتى من أجله .. ونظر إلى « إبراهيم أفندى » وقد وقف فى عجز واستسلام ، وسأله قائلا :

— أواثق أنت من كل ما قلت من حرق وإغراق وتسميم ؟

— بل واثق من أن كل شىء قد دمّر .. وأنه لم يبق هناك ما يستحق المصادرة .

— والمجوهرات والأموال ؟

— لا بد أن تكون قد هربت .. فلا أظن الذى يقتل الحيوانات حتى لا تنتفعوا بها .. يمكن أن يبقى مجوهراته وأمواله لتسليمها إليكم لقمة سائغة .. وعلى أية حال .. القصر أمامكم .. ادخلوا وأدوا واجبكم .. إن الأمير « علاء » والأميرة « أنجى » فى الداخل ، تستطيعون أن تسألوهما عن كل شىء .. أما أنا فلم يعد لى « لا فى الطور ولا فى الطحين ».

وتقدم ضابط البوليس ، وقال لعلى فى صوت خفيض :

— يجب أن نقتحم القصر .. إن المسألة كما يبدو لى ستحتاج إلى عنف .. فالبرنس « علاء » إنسان مجنون .. ولا يستبعد عليه شىء .. وإنى أفضل أن أطلب من النقطة قوة ، لكى نستعين بها إذا احتاج الأمر .

ونظر « على » إليه فى دهشة وأجاب :

— لِم كل هذا ؟! إن المسألة لا تستحق .. وأنا لا أحب العنف .. لقد فعل البرنس علاء ما يريد .. وأتلف كل ما يملك .. فليس هناك ما يبرر استعماله للعنف .. ثم إنه فرد .. ولا أظنه يحتاج إلى قوة مسلحة لردّه إلى عقله .

ونظر « على » إلى « إبراهيم أفندى » وبقية أعضاء اللجنة .. وبدا عليه التردد ثم أردف قائلا :

ـــ على أيه حال .. إنى أفضل أن أسبقكم وحدى .. لأمهد للمسألة .. ولأرى ما يمكن عمله دون إثارة شعور.. أو جرح إحساس .. إنى أعتقد أنى أستطيع أن انهى الأمر بمنتهى البساطة .

(٦٣)

معركة ...

جلس « على » فى العربة الجيب أمام عجلة القيادة بعد أن أنزل السائق .. واندفع بها وحده يغوص بين الأوحال والمياه التى أغرقت الأراضى وغمرت الأحواض والطرقات .

ولم يتبين حقيقة الشعور الذى دفعه إلى التسلل من بين أعضاء اللجنة والتخلص من السائق ، والاندفاع وحده إلى القصر .. إلا وهو منطلق بالعربة ، مخلفاً وراءه كل أحساس بالمسئوليات والعمل .

كان يملؤه شعور خليط من الرهبة والنشوة يدفعه إلى الإقدام على مغامرة طالما راودت أحلامه .. منذ رقدة صباه وراء النافذة .. وكان يتملكه ، وهو يندفع بالعربة ، إحساس الفارس على جواده يعدو لينقذ أميرته الساحرة من وراء الأسوار .. وكان يحس بمتعة عجيبة من الشعور العجيب الطارئ الذى سيطر عليه .

ومرّ بالشجرة الضخمة ثم انحرف إلى مدخل القصر .. وقبل أن يبلغه أوقف العربة تحت إحدى الأشجار المجاورَة له ، ثم هبط منها متجهاً إلى السلم الرخامى العريض .

وصعد بضع درجات ، ثم توقف أمام الباب الحديدى الضخم .. ولم يكن الباب مغلقاً .. وتلفت حوله فلم يجد مخلوقاً .. ووجد الصمت يخيم على القصر ، والوحشة تجثم حوله .

ومد يده فدّق الجرس ، وبعد برهة خرج إليه خادم نوبى ، ألقى عليه نظرة فاحصة ، ثم سألة عمن يريد .

وأجاب على :

— أريد أحداً من أصحاب القصر .

— لقد سافر أفندينا الكبير .. ولا يوجد غير أفندينا الصغير .

— أريد أن أقابله .

— أقول له مَنْ ؟

— رئيس لجنة المصادرة .

واستعاد الخادم الجملة عدة مرات حتى حفظها ، ثم أفسح له الطريق ، وقاده إلى مقعد فى مدخل البهو قائلا :

— تفضل بانتظاره حتى أبلغه .

وصعد الخادم ، وبعد برهة سمع « على » صوت « علاء » يصرخ فى حدة :

— لا أريد أن أقابل أحداً .. إن كل شىء أمامهم .. إذا وجدوا ما يستحق الأخذ ، فليأخذوه .

ومضت لحظة قبل أن يعلو صوت آخر ، جعل قلب « على » يكاد يثب من بين جوانحه ، وسمع صوت « أنجى » يتساءل مستفسراً :

— ما الأمر يا « محمود » ؟

وأجاب الخادم :

— بالصالون ضابط يقول إنه « رئيس لجنة المصادرة » يريد أن يلقى أحداً من أصحاب القصر .

ومضت لحظة أخرى ، ثم سمع « عَلى » صوت « أنجى » يقول :

— قدّم له القهوة .. وسأهبط إليه أنا .

وأحس « على » بأن مشاعره قد أرهفت ، حتى باتت أحدّ من الشعرة ، وبأن قلبه قد توالت دقاته فى عنف ، وأن أنفاسه قد تلاحقت فى شدة .. وخيل إليه أن اللحظة الحاسمة التى يتوقف عليها مصيره ، توشك أن تحل .

وأرهف سمعه .. وصوّب بصره إلى انحناءة السلم التى ستبدو منها عند

نزولها ، وأطبق بيده على حافة المقعد ، وقد توترت أعصابه .

وسمع دقات أقدامها على الدرج .. درجة .. درجة .. حتى وصلت إلى الانحناءة .. ثم بدت له .. حدود جسدها ورأسها فى الضوء الباهت الذى ألقته من ورائها النافذة الزجاجية المزخرفة عند بسطة السلم .

واستمرت فى الهبوط.. وأخذت ملامحها تتضح شيئاً فشيئاً.: شعرها الذهبى المعقوص وراء رأسها .. وملامحها الدقيقة .. وجسدها المتناسق .. ولم يكن يبدو عليها أنها قد ميَّزته بعد .. كانت لا ترى فيه سوى شبح الضابط الذى أتى لمصادرة أموالهم يقبع فى المقعد .. وكان فى نيتها أن تعتذر إليه ، وتنهى مهمته فى يسر ، وتجنّبه حمق أخيها .

وعندما وصلت إلى الدرجتين الأخيرتين ، نهض « على » للقائها .. وفى تلك اللحظة فقط ، استطاعت أن تميز من يكون ، وصاحت وهى مشدوهة مأخوذة :

ــ « على » ؟!!

وكان أول ما فعلته هى أن شدّت قبضتها على درابزين السلم خشية أن تتهاوى .. وتوقفت لحظة .. معقودة اللسان ، زائغة البصر ، تحس أن الأرض تكاد تميد بها . وتتمايل تحت أقدامها .

وبدا عليها إعياء شديد ، وأحست بأطرافها تبرد ، والغثيان الذى يصيبها عند الانفعال .. يشتد بها .. وتمنت لو استطاعت أن تتهاوى على أقرب مقعد .

وأحسّ « على » بما أصابها .. واندفع يقدم إليها يده حتى تستند إليها .

وهتفت « أنجى » فى مرارة ، وهى تعاود هبوطها محاولة جهدها أن تتمالك وتتماسك ، دون أن تستند إلى يده :

ــ أقد جئت أخيراً .. لتصادر أموالنا ؟

وأحسّ « على » كأنما قد وجهت إليه طعنة أدمت قلبه .. وملأ الأسى نفسه ، وهو يلمس ما فى قول « أنجى » من مرارة ، وأحس بأن ما خشيه قد وقع .. وأن

صدمة « أنجى » بلقائه فى هذا الموقف المرير .. قد غلبت كل إحساس آخر .. وأنها لم تجد ما يبرر حضوره سوى رغبته فى التشفى والشماتة .

وأحس « على » بيأس شديد .. وعجز عن تفسير موقفه وإيضاح حسن نواياه .

إنه يستطيع أن يقنعها بما فى قلبه .. ولكن ليس بكلمات خاطفة فى لحظات قصار ، وإنما بإحساسه الصادق فى لقاء طويل .. وفى غير هذا الموقف العصيب .. الذى يقفانه .. وقد بدا كل منهما كأنه خصم للآخر .

و لم يسعفه ذهنه الصاخب إلا بأن يقول :

ــ أنا آسف يا « أنجى » . إنى ...

وقاطعته « أنجى » فى لهجة عصبية مقتضبة :

ــ لا داعى للأسف .. إنك تؤدى واجبك .. إن القصر أمامك افعل كل ما تريد .. ليس هناك شىء مخبأ ، وسأحضر لك علبة مجوهراتى ... وهى كل ما فى القصر من أموال .. غير الأثاث .. عن إذنك .

واستدارت صاعدة الدرج .. دون أن تترك له فرصة الرد أو الشرح .

وأحسّ « على » بندم شديد .. إن الخطأ خطؤه .. إن أنانيته هى التى دفعته إلى محاولة اقتناص فرصة لقاء .

لأجل أن يمتع نفسه برؤيتها ولقائها .. زجّ بنفسه فى هذا المأزق الحرج ، وأوقف نفسه موقف الشامت المتشفى .

ماذا كان يمكن أن يتوقع خيراً من هذا ؟! لماذا يأتى هو دون غيره .. لنزع أملاكهم ومصادرة أموالهم ؟

إن القدر .. يأبى أن يرفع عنه النحس .

كان يجب ألا يخدع عن يأسه الدائم المقيم بهذه البارقة السرابية الطارئة .. كان يجب أن يقنع بأوهامه وأحلامه .. بدل أن يقدم على هذه المغامرة التى لم تورثه سوى الندم والحسرة .

وبعد لحظة هبطت « أنجى » ومعها صندوق مجوهراتها ، وقد حاولت أن تخفى إعياءها وانهيارها وخذلانها بمظاهر التجلد والثبات .

ومدت يدها بالصندوق ، و لم يعرف هو ماذا يصنع به ، لقد كان عليه أن يستدعى بقية أعضاء اللجنة لمباشرة مهمتهم فى حصر الممتلكات وفحصها وإثباتها فى محاضرها ، وأخذ الإقرارات اللازمة عن المملكات المستعملة والتحفظ فى أحراز على الأشياء المصادرة .

كان عليه — لكى يؤدى واجبه كرئيس للجنة المصادرة — أن يفعل كل هذا . ولكنه كان يفزع من أن ينتهى الأمر إلى مثل هذا الواقع البغيض ، وأن يكرههما القدر على وداع قد خلا إلا من مظاهر الخصومة والبغضاء .. وأن يحرمه من متعة آخر لقاء ، وأن يفرض عليه ما حاول أن يتجنبه ويتقيه ، وأن يؤخذ ظلماً بآخر ما يمكن أن يقدم عليه .

وأحسّ أنه يجب أن يمنح الفرصة والوقت لكى يوضح الأمر ، فأعاد إليها الصندوق قائلا فى رفق :

— أرجوك يا « أنجى » . إنى لم أقصد قط ....

ولكنها قاطعته قائلة فى مرارة دون أن تمد يدها لأخذ الصندوق :

— أرجوك يا « على » .. لا ضرورة للتوضيح .

وحاول « على » أن يكبت ألمه ، وقال فى هدوء وهو يمد يده بالصندوق :

— ولكنك تستطيعين الاحتفاظ بما تريدين من المجواهرت التى ...

وعادت « أنجى » تقاطعه فى لهجتها الجافة :

— لا داعى للعواطف .. أدّ واجبك .

وأحس « علىّ » بالدم يتصاعد إلى وجهه ، وببوادر الغضب تغلى فى صدره . وقال فى حنق :

— إن هذا هو واجبى .. إن الأوامر لدينا أن نترك لكم الحلىّ التى تحتاجونها لاستعمالكم الشخصى .. ولكن ما دمت تأبين أن تحتفظى بشىء منها .. فأنت

وشأنك .

وصمت برهة وهو يحاول أن يسكت نوبة الغضب التى أثارتها « أنجى » بظلمها له وإصرارها على ترك الاستماع إليه . وأخيراً قال فى لهجة يائسة :

ـــ لقد حاولت أن أفهمك .. ولكنك لا تودّين أن تسمعى . ولا تريدين حتى أن تمنحينى فرصة الكلام .

وأحست « أنجى » بما يعتمل فى نفسه من ألم وضيق ويأس ، وهو يستدير متجهاً إلى الباب قائلا :

ـــ عن إذنك .. سأذعو بقية أعضاء اللجنة من مكاتب الدائرة حتى يباشروا أعمالهم .

وقبل أن يبلغ الباب هتفت « أنجى » فجأة ، كأنما قد تذكرت شيئاً هاماً :

ـــ علىّ .

وأدار « على » وجهه ناظراً إليها فى دهشة ، فأردفت قائلة فى لهجة حزينة متوسلة :

ـــ من فضلك .. لقد كدت أنسى .. هناك شىء فى الصندوق ، أريد أن تردّه لى .

ومد « على » يده بالصندوق قائلا :

ـــ لقد قلت لك إنك تستطيعين الاحتفاظ بما تشائين ، وليس هذا تفضلا منى ، لأن هذه هى التعليمات التى تلقيناها .

وأمسكت « أنجى » بالصندوق ، وفتحته بيد مرتجفة ، وهى تقول فى اعتذار ذليل :

ـــ إنه شىء بسيط .. لن ينفعهم كثيراً .. ولكنه عزيز لدىّ .. وأخذت تبحث بين قطع الحلىّ وهى تتمتم :

ـــ إنى لا أستطيع الاستغناء عنه .. ويمكننى أن أعوّضهم عن ثمنه إذا أصرّوا على أخذه .

ولم يطل بها البحث حتى أخرجت بأناملها سلسلة دقيقة ، قد تدلى منها قلب ومفتاح .

ونظر « على » إلى « أنجى » مشدوهاً . وهى تضم القلب إلى صدرها فى حرص شديد ، وتهمس قائلة :

ـــ الحمد لله .. لقد رد إلىّ .. كدت أفقده .

وسرت رجفة فى جسد « على » .. وأحس بجلاميد اليأس والحزن والأسى والألم تتفتت وتذوب .. كأنما قد صهرتها أشعة سرت إليها من القلب المردود ..

ونظر إلى وجه « أنجى » .. وقد بدت عليه سيما اللوعة وهى تهمس به قائلة :

ـــ أشكرك .. يمكنك أن تذهب لمواصلة عملك ، وتأدية واجبك .

وهمس « على » فى صوت يذوب رقة وعطفاً ، وقد نسى كل ما مر به :

ـــ أنت واجبى الأول . إنى لم آت هنا إلا لأجلك .. لأجل أن أراك .. وأقيك كل سوء .. وأدفع عنك كل شر .. كانت فرصتى الوحيدة لكى أراك .. فغامرت بانتهازها .. رغم ما خشيته من تعريض نفسى للمظان والشبهات .. كان لى أمل فى أن تغلب ثقتك فىّ .. سوء ظنك بموقفى .. وكنت أرجو أن أفسر لك سبب قبولى المجىء ، ولكنك خيبت أملى ورفضت حتى أن تستمعى إلىّ .

وأجابت « أنجى » وهى ترفع إليه عينين ملؤهما الأسف :

ـــ كانت مفاجأة رؤيتك أشد من أن تحتمل . لقد هزّت كيانى هزاً . كدت أن أسقط مغشياً علىّ .. كنت آخر من أتوقع . فلما أبصرتك بعد طول فرقة .. ونحن على هذه الحالة من الركوع والضعة والمذلة .. ظننت بك سوءاً وخلتك قد أتيت للتشفى .

ـــ أتشفَّى فيك أنت ؟! أتشفَّى فى نفسى ؟

ـــ أما زلت نفسك .. بعد كل هذا الزمن الذى مضى ؟

ـــ إن الزمن الذى يغير كل شىء ، لم يغيرك فى نفسى . لقد كنت أثبت على الزمن .. من الزمن نفسه .. لم يستطع شىء قط أن ينزعك من أعماقى .. كم

حاولت وأدك فى قلبى .. ولكن كانت توقظك فى قلبى أول هزّة حنين ورجفة شوق .. إنى على فرط يأسى منك .. كنت أعتبرك أملى الدائم وأمنيتى الخالدة .. أبعد هذا كله تسيئين بى الظن ؟

وقبل أن تجيب « أنجى » ارتفع صوت علاء يصيح فى حدة :

— محمود .

وسمع صوت الخادم يجيب عليه :

— أفندم .

— ألم ينته بعد هولاء الغجر من مهمتهم :

— لا .

— عجباً ! ماذا يبقيهم ؟ إنهم لن يجدوا ما يأخذونه . لقد أقسمت على هذا .

وساد الصمت ، فهمست أنجى لعلى :

— أظن يجب عليك أن تذهب لمواصلة عملك .

— وماذا تبقى لنا من عمل بعد أن دمر علاء كل شىء .. إن كل ما سنقوم به لن يعدو إجراءات شكلية .. سنأخذ منكما إقرارات عن القصر الذى ترغبون فى الإقامة فيه ، والعربة التى تودون استعمالها .

وصمت برهة ثم أردف متسائلا :

— أين ستقيمين أنت ؟

— أنا ؟! لست أدرى .. كل شىء يتساوى فى نظرى .. إنى أحس إحساس الضالة الهائمة التى حكم عليها بأن تَظل فى هيامها حتى تموت .

وصمت « على » برهة ، وأطرق ، وبدت عليه سيما التفكير العميق ، ومد يده يعبث بالقلب الذى تدلى من السلسلة التى أمسكت بها « أنجى » وقال وهو ما زال مطرقاً :

— وددت لو أسألك سؤالا .. أخشى أن تسيىء الظن به ؟

— لن أسيىء الظن بك أبداً .

ـــ لقد اتهم أبوك .. أبى بالجنون .. عندما حاول أن يخطبك لى منه .ترى لو حاولت أن أكرر السؤال فى هذه الظروف .. أتظنين بى جنوناً ؟ وفاجأ السؤال « أنجى » .. وأحست برغبة جارفة فى البكاء ، وضغطت بأسنانها على شفتها السفلى ، حتى توقف نوبة البكاء .. ولم تستطع من فرط المفاجأة أن تتبين حقيقة مشاعرها .. كان ما بها خليطاً من دهشة ونشوة وحزن ويأس ، ومشاعر أخرى لا تستطيع تسميتها ولا تحديدها .

ولم تجب .. ورفع « على » بصره إلى عينيها المغرورقتين وهمس فى شبه اعتذار :

ـــ أرجو ألا أكون قد آلمتك .. إنى لا أنتهز فرصة ركوعكم كما سميتها . لأنى لا أراك أبداً إلا على هام السحب .. ولا أرانى إلا راكعاً أمامك أبد الدهر .. مهما كنت أنت ، ومهما كنت أنا . إنى أحبك . أحبك منذ أن كنت صبيا أرتدى البنطلون « المرقع » . منذ ذلك الحين حتى الآن ، وأملى فيك لم ينقطع لحظة واحدة . ولكن كانت تمنعنى عنك سدود هائلة من اليأس ، أحس فى هذه اللحظة أنها قد زالت ، وأنى أستطيع أن أتخطاها إليك .. ذلك هو ما دفعنى إلى سؤالى هذا . فإذا كنت قد أسأت إليك فاغفرى لى إساءتى .

وترقرقت فى عين « انجى » دمعتان ما لبثتا أن تحدّرتا على خديها وأجابت فى صوت يخنقه البكاء :

ـــ كيف تسىء إلىّ ؟ .. أتسىء إلىّ بأحب ما سمعت .. لقد رددت إلىّ قلبى مرتين .. مرة حين رددت إلىّ الحلية .. ومرة حين همست إلىّ بسؤالك .. لقد أحسست من مجرّد سماعه بأنى لم أعد ضالة ولا هائمة .. وبأن هناك مرفأ يلوح لى .. يمكن أن أقصده وأستقر عليه .. لقد سألتنى الآن « أين ستقيمين ؟ » ولو كانت لدّى الشجاعة لهتفت مما جال فى نفسى ، وقلت لك « حيث تقيم أنت » .

وخيل إلى « على » وهو يسمع حديثها أنه واهم .. وأن كل ما مر به لا يعدو

أن يكون أضغاث أحلام ، ووجد نفسه يهتف فى نشوة :

— اتقولين حقاً ؟

— أجل !

— إذاً هيا بنا !

— إلى أين ؟

— إلى حيث نقيم سوياً .

— الآن ؟!

— ولِمَ لا ؟

— وعملك ؟

— يمكن تأجيله .

— وعلاء ؟

— دعيه فى خرائبه ومذابحه .

— وأبى ؟

— لا تأبهى لمخلوق .. كفى ما أضعنا من عمرنا .. لنهدم اليوم كل ما حال بيننا من سدود .

— إذاً . انتظر حتى أحضر ...

— لا تحضرى شيئاً .. هيا بنا الآن .. يجب ألا نضيع لحظة واحدة .. إنى أخشى الزمن .. وأخشى أن يراجع نفسه فيسلبنا ما أعطى .. هيا بنا .

وأمسك بيدها وشدها إليه فى فرحة جنونية ، واندفع إلى الباب .. وقد أغمض عينيه عن كل ما حوله من واقع ، ولم يعد يبصر سوى أمنية العمر ، وقد باتت ملء يده .

وتجاوز الشرفة هابطاً الدرج ، متجهاً إلى العربة الجيب ، وملء نفسه إحساس الفارس الهارب بأميرته الساحرة .

ولم يكد يقترب من العربة حتى فوجئ بدوى رصاصة استقرت فى زجاج

العربة فهشمته .

وفزع « على » وصرخت « أنجى » . وتلفت ليرى مصدر الطلقة فـإذا بقهقهة « علاء » تعلو من الشرفة العليا وقد وقف ممسكا بمسدسه وصاح ساخراً وهو يشير إلى « أنجى » :

ـــ أهذه ضمن الممتلكات المصادرة يا حضرة الضابط ؟

وعقدت الدهشة لسان « علىّ » فلم يحر جواباً .

وعاد علاء يصيح :

ـــ لو كنت أعلم بما تنوى أن تفعله لسممتها كبقية الدواب ، ولكنى كنت أظن أن لها عقلا يميزها عن الدواب .. دعها تعود .. فلقد أقسمت ألا تأخذوا منا قشّة واحدة .

وحاول « على » جهده أن يتمالك نفسه ويستعيد رباطة جأشه ، وصاح به فى عزم وإصرار :

ـــ بل سنأخذ كل شىء .. سنأخذ الأرض الطيبة الباقية .. التى لم يستطع أجدادك ، و لم تستطع أنت أن تغير منها شيئاً .. وسنأخذ الروح الجميلة الخالدة التي لم ينل من جمالها وطهارتها .. كل ما أحاط بها . من سوء وحقد وشر .. سنأخذ أجمل وأبقى ما لديك .

وصاح « علاء » فى غيظ وحقد وتهديد :

ـــ دعها تعود .

ورد « على » فى عناد :

ـــ لن تعود .

ودوت رصاصة ثانية .. استعاض بها « علاء » عن إجابته واستقـرت الرصاصة فى قدم « أنجى » فندّت عنها صرخة حادة وسقطت فى الوحل ممسكة قدمها التى أخذت تنزف منها الدماء ، وجن « على » وانحنى على « أنجى » يفحص قدمها .

وأتت صيحة علاء مرة أخرى حادة منذرة :

ـــ دعها واذهب .

وهمّ « على » بحمل « أنجى » ليضعها داخل السيارة ويبتعد بها عن مرمى الرصاص .. ولكن لم يكد يمد إليها بديه حتى دوت رصاصة ثالثة استقرت فى جذعه ، وقد انحنى على « أنجى » ، فصرخ فى ألم وخرّ فى الوحل .

وأعقبت الرصاصة صيحة « علاء » ساخرة شامتة :

ـــ قلت لك دعها .. وإلا قضيت عليكما .

وأحس « على » بعجزة عن حماية « أنجى » ، وخشى على حياتها أن يضيعها ذلك الأحمق المجنون ، الذى يلهو بالطلقات ، وهمس بها فى يأس أليم :

ـــ عودى إليه يا « أنجى » .

وأجابت « أنجى » هامسة فى إيمان عميق :

ـــ بل سأبقى إلى جوارك .. إنى أحبك ، وأحب هذه الأرض ، وأحب مصر كلها .. وخير لى أن أموت معك على هذه الأرض .. من أن أحيامعه فى أبراج القصر .

واستمد « على » من قولها المخلص شجاعة وقوة وإيمان ، وسألها أن تزحف فى دروة العربة .. وأخذ يجر جسده ، ويزحف ببطء حتى استتر فى جانب العربة بجوارها ، ثم أطبق يده على مسدسه الذى وضعه فى قايش البنطلون أسفل السترة .

ومضت لحظة سكون كان « علاء » يرقب خلالها ماذا ينويان فعله .. و لم يكد يبصر يد « على » تسحب مسدسه حتى أطلق عليه الرصاصة الرابعة ، ومست الرصاصة كتف « على » ومر بأذنه فحيحها .. ثم سمعها تطرق سطح التى غمرت الأرض ، وتطاير الرشاش ، واستدارت الدوائر ، ثم غاصت الرصاصة فى باطن الوحل ، وبدت الأرض وقد أغرقتها المياه واختلطت خيوط الدم الأحمر بمياهها السوداء .

وعلا صوت « علاء » ساخراً ، وصاح بعلى :

ـــ ما رأيك فى رهان يا حضرة الضابط .. رهان على أرواحنا .. الفائز منا يأخذ روح الآخر ؟

وأحس « على » وهو يخوض المعركة مع المجنون كأنه فى كابوس مزعج أو دوامة مخيفة .. وكانت الحوادث تتلاحق مفاجئة بسرعة البرق ، دون أن تترك له لحظة تفكير .

ولم يكن أمامه إلا أن يطلق طلقة بطلقة .. فإما أن يردى المجنون ، أو يرديه المجنون صريعاً .

واستتر « علاء » وراء حافة الشرفة ، وأطلق رصاصة أخرى ، وكانت « أنجى » قد التصقت بعلى ..وأحست بقلبها ينزع وراء كل طلقة

واستقرت رصاصة « علاء » فى إطار العربة .

ـــ وأسند « على » مسدسه على حافة العربة ، وهو يحس بيده تـرتجف وجسده يتداعى ، وأطلق رصاصته الأولى فأصابت حجر الشرفة .. وعلت قهقهة « علاء » ساخراً :

ـــ غشيم .. يجب أن يعيدوك إلى المدرسة لتتعلم الرماية ، لو قدّر لك أن تنجو من هذه الطلقة .. انظر .. وتعلم أصول التنشين .. هذه الطلقة ستستقر فى ....

ولم يتم جملته .. فقد انطلقت رصاصة « على » الثانية لتستقر فى رأسه .. وتميت الكلمة على لسانه .

وأحس « على » بعد ذاك بقواه تخور .. وجسده ينهار ، وبالمرئيات تختلط أمام عينية .. ومضت فترة دون أن يسمع فيها طلقات « علاء » .

وأحس بالأسى والمرارة وهو يشعر أنه قد اضطر لإصابته .

وسقط المسدس من يد « على » .. وسقطت يده إلى جانبه ، ثم تهاوى جسده إلى الأرض المغرقة بجوار العربة .

وانحنت عليه « أنجى » وقد أحست بقلبها يتمزّق ، وهتفت به فى صوت يخنقه البكاء :

ـــ على .. هيا يا على .. سأساعدك على ركوب العربة ، وسأسوق أنا ونخرج من هنا . سنفرُّ وحدنا لنعيش سوياً . هيا يا « على » .

وأمسكت بكتفيه تحاول مساعدته على النهوض ، وقد أغرقهما الوحل وغمرتهما المياه .

وهمس بها على :

ـــ لا أستطيع النهوض .

وأغمض عينيه .. وبدا على وجهه الألم .. وانحدرت الدموع من عينى « أنجى » فسقطت على وجهه وهتفت به :

ـــ لماذا يا على ؟. ماذا بك يا حبيبى ؟

وأجاب « على » وهو يحاول أن يبتسم :

ـــ لا شيء يا أنجى .. لاشيء يا حبيبتى .. مجرّد ثقب فى البنطلون .. أتذكرين يا أنجى جلستى أمام الترولى .. إنى خجل من النهوض به أمامك . وأخشى أن تصغى لى به رقعة .. عدينى أن تهادينى بنطلوناً جديداً .. وأؤكد لك أنى لن أرفضه .. إنى أحبك ياأنجى .. لقد حلمت بك طول حياتى .. وسأحلم بك الآن عندما أغمض عينىّ .. لم تستطع سدود الفوارق أن تنزعك من نفسى فيما مضىء ، ولن تستطيع سدود الموت أن تنزعك منى الآن .. لقد كنت ملكى .. وستظلين ملكى دائماً .

ـــ إنى ملكك يا حبيبى .. لن تقوم بيننا سدود الآن .. ولا حتى سدود الموت .. أجبنى يا « على » .. لا تغمض عينيك ، ولا تطبق شفتيك .. إلا أستطيع أن أحدثك ولو بضع لحظات !! أبعد طول حرمان منك وبعد عنك .. تغمض عنى عينيك ولا تجيبنى بغير الصمت ؟ أجبنى يا « على » .. قل إنك « تحبنى » .

وخيم السكون وساد الصمت .. إلا من أنات موجعة وصرخات حبيسة ، وبدا المكان موحشاً خرباً .. زادته الأنات وحشة فوق وحشة ، وخراباً على خراب

(٦٤)

الخاتمة

أقبل رجال البوليس على صوت الطلقات ، مندفعين فى ذهول من مكاتب الدائرة إلى مدخل القصر ، فوجدوا « علياً » فاقد الوعى ، راقداً فى الأوحال بجوار العربة ، وقد انحنت عليه « أنجى » تئنّ أنيناً موجعاً .. وقد روّعها الفزع ، وأخذ الدم ينزف من قدمها .

وأنبأتهم « أنجى » فى نبرات متقطعة ، وصوت مرتجف بما حدث .. فطلب الضابط عربة الإسعاف .. وصعد إلى الشرفة العليا ليجد « علاء » قد فارق الحياة .

وحضرت عربة الإسعاف فحملت « على » و « أنجى » إلى المستشفى .

ورقد « على » فاقد الوعى وقد ألحّ عليه الداء وصرعته الحمى .. وأحس بنفسه يخوض وسط أكداس ثقيلة من الضباب المعتم .. محاولا أن يتخطى أسواراً عالية .. لا حدود لها ولا نهاية .. وقد تلاحقت أنفاسه وتداعت قواه .

و لم يكد يصل إلى نهاية السور حتى تدفقت عليه موجة طاغية هوت به إلى أسفل القاع .

واستمر يتأرجح فى هذيان الحمى بين القمة والقاع ، كلما وصل إلى القمة لطمته الموجة فردّته إلى القاع ، ولا يكاد يصيبه اليأس فى نضاله المرير حتى يحس بيد قد امتدت إليه وسط الظلمات المعتمة لتدفعه إلى أعلى ، ولتعيد إليه قواه وتشدّ أزره .

ووسط الضباب والأمواج .. يتطلع إليه بين آونة وأخرى وجه « كريمة » وقد أحاطت به الأربطة البيض .. فلم يبد منه سوى عين تستعطف وشفة ترجو .

ويختفى وجه « كريمة » ليحل محله وجه « أنجى » يرمقه فى حنين ويهتف به «ماذا بك يا « على » ؟! ماذا بك يا حبيبى ؟».

وأبلت « أنجى » من جرح قدمها ، وتولت تمريضه والسهر عليه .. ومرّت بها الليالى الطويلة ، وهى ترنو إليه فى صراعه بين الحياة والموت .. وقد أحست بروحها تخوض معه المعركة .. وتناضل الموت من أجله .

وكلما هتفت باسمه أحس باليد التى تعينه فى الظلمات قد اشتدت ، وبقدرته على المقاومة قد زادت .

وفى ذات ليلة أحسّ بالضباب قد أخذ ينقشع رويداً رويداً .. وبالأمواج الهادرة تنحسر .. وبدا له كأن حبلا دقيقاً قد امتد ليرفعه إلى أعلى السفح .. ولم يصعب عليه التسلق .. فقد وجد الحبل يجذبه بخفة حتى وصل إلى أعلى السفح .. وأشرف فيه على ربوة خضراء أحس منها سكينة جميلة .. وأمسك بالحبل الدقيق ، فإذا بنهايته قلب ومفتاح .

وفتح عينيه ليجد وجه « أنجى » يطل عليه فى ولهٍ ولهفة ، وقد بدا له من عينيها شعاع غمره بفيض من الحب والحنان .

وتطلع إلى وجهها فى سكينة واستسلام ، كما كان يتطلع إلى الربوة الخضراء الساكنة الآمنة .. وأبصر فى عنقها السلسلة الدقيقة ، وقد تدلى منها القلب والمفتاح .

وعلت شفتيه ابتسامة رقيقة وهتف بها :

— « أنجى .

— نعم يا « على » .

— أكنتِ بجوارى دائماً ؟

— أجل .

— وستظلين بجوارى ؟

— دائماً .. دائماً .

وغاضت الابتسامة من شفتيه .. وبدا شارد الفكر ، تائه النظرات .

وتحسست « أنجى » رأسه وتساءلت باسمة :

ــ فيم تفكر ؟

ــ فى صحور آمالنا التى تتحطم عليها مراكب أعمارنا .. فى الحياة التى لا تحقق أحلامنا إلا بعد أن تعتصر دماءنا .. عندما أفكر فى رقدتى وراء النافذة فى صباى .. ورقدتى الآن .. أحس براحة ممتعة ، وسكينة لذيذة ، وأنا أجدك بجوارى أستطيع أن أمسّ يدك ، وأسمع حديثك .. لقد فعلت من أجل هذا الكثير .. ولكنى أجد أنه يستحق كل مافعلت من أجله .

وانحنت « أنجى » فمست شفتيه فى رفق .. وعندما رفعت شفتيها ظلّ القلب المدلى من السلسلة مستقراً على صدره .. ومدّ « على » يده فأمسك بالقلب فى رفق ووضعه على شفتيه وهمس قائلا :

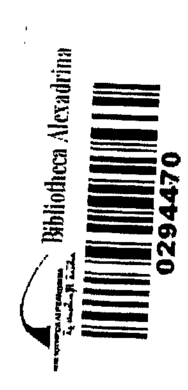
ــ هذا القلب له علىّ فضل الحياة .. وفضل البعث .. لقد رددته إليك . فردّك إلىّ !

فهرس الجزء الثانى

تمت

رقم الإيداع ٥٦٣١ / ٨٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن ٨٥٠ قرشا